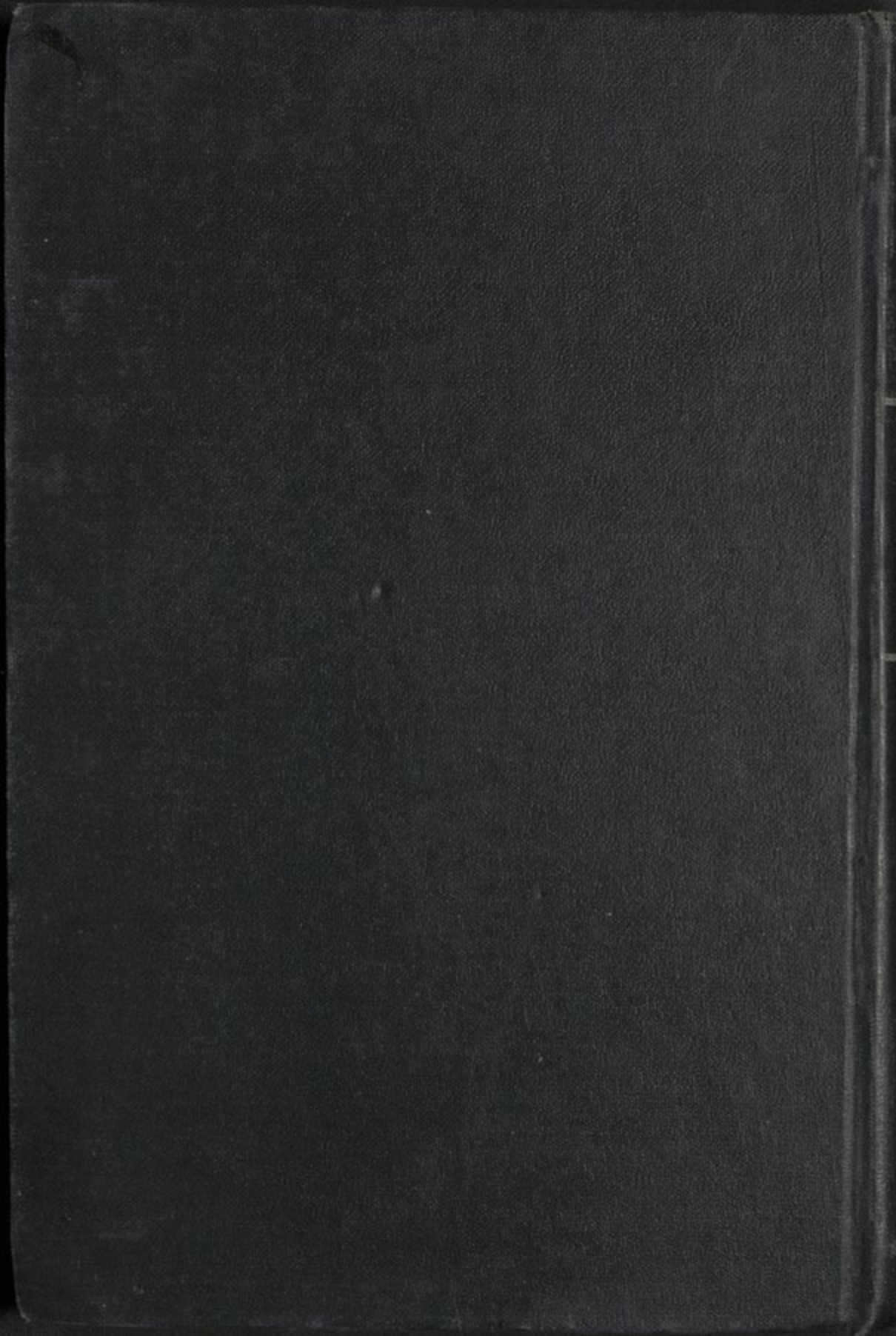
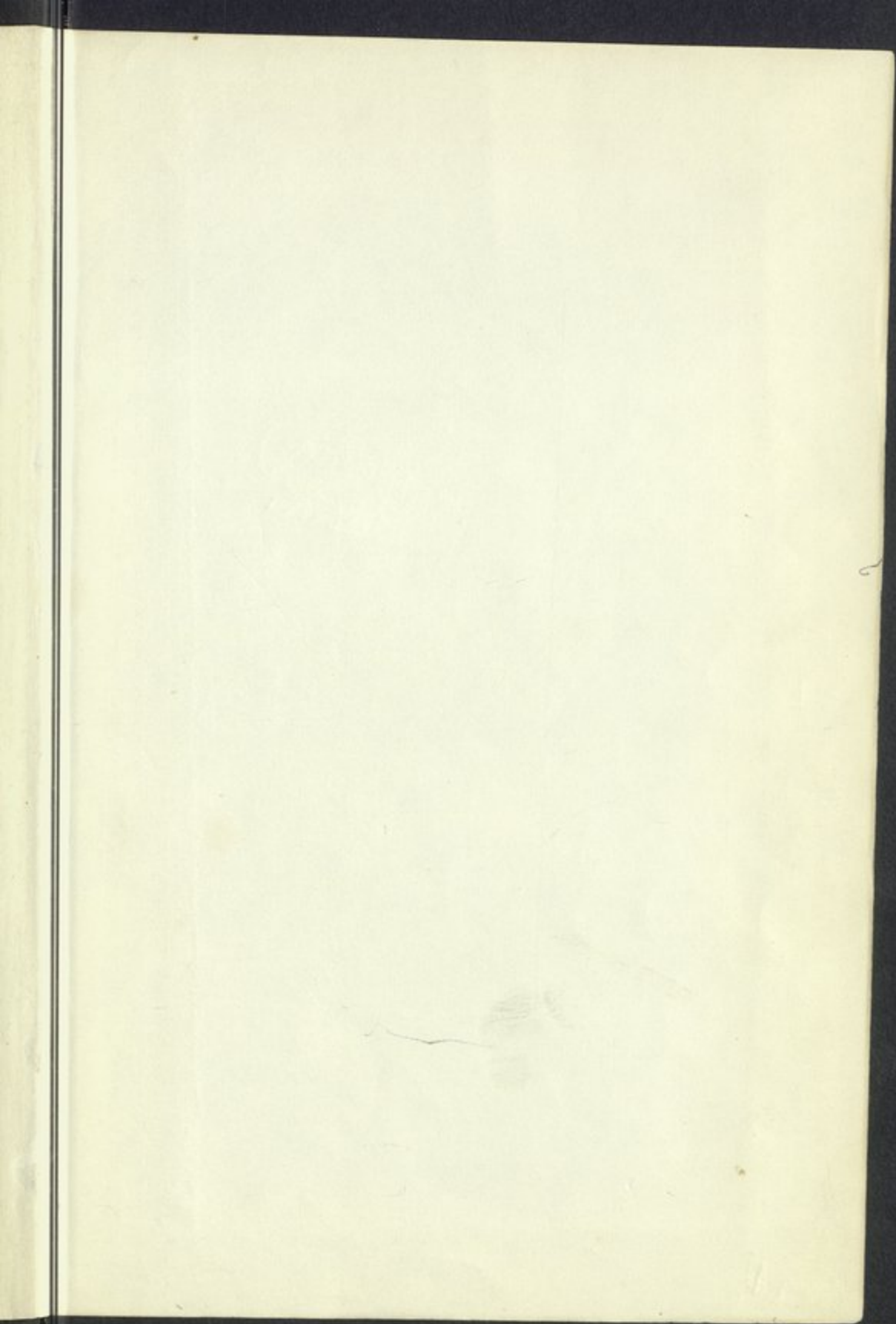
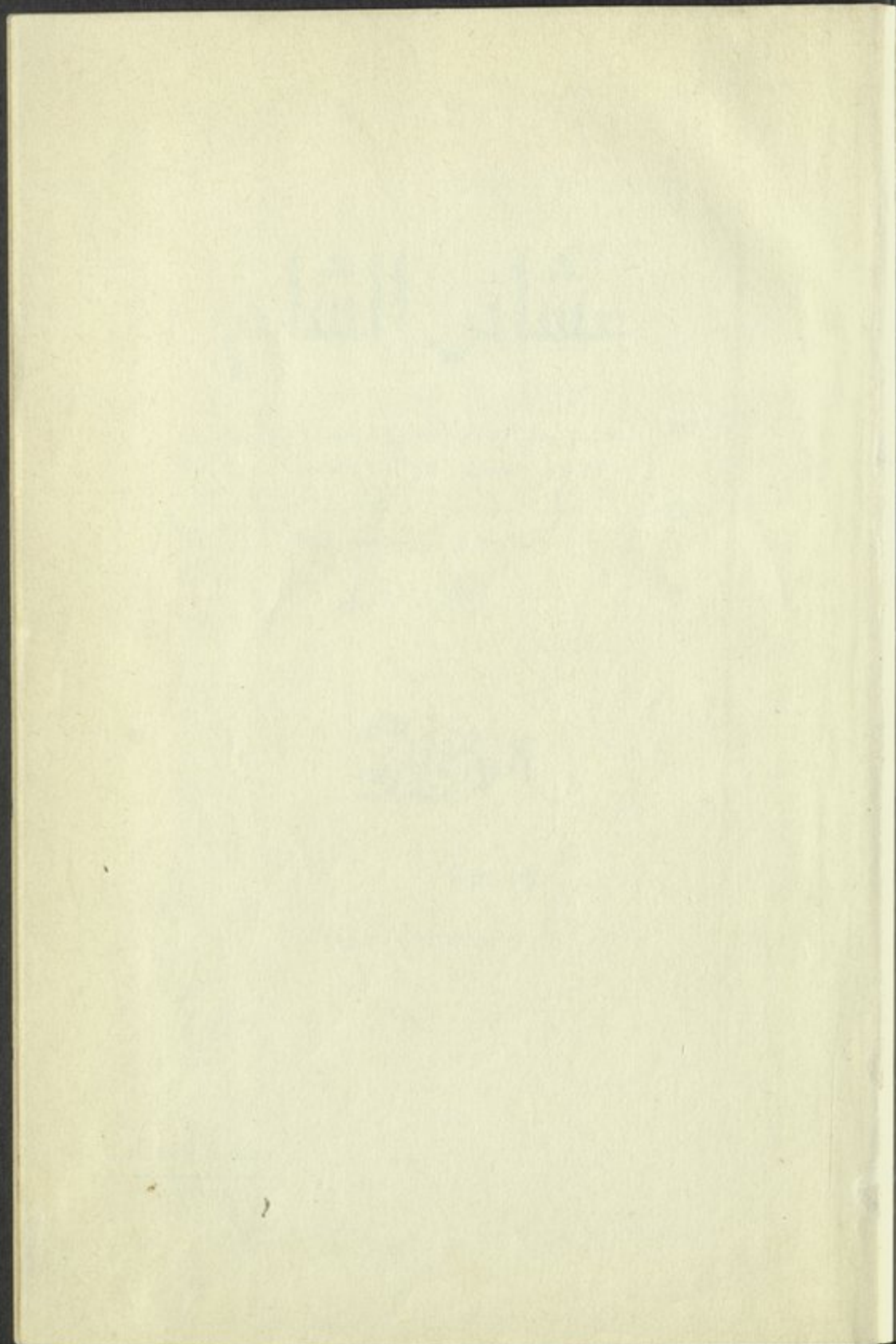




A.U.B. LIBRARY





956.9
Z21aA
٧.١

عشائر الشام

الجزء الأول } يبحث في جغرافية بادية الشام وتاريخها وعمرانها
والاخلاق والعادات والشرائع في المجتمع البدوي
الجزء الثاني } وانساب العشائر المتبدية والمتحضرة واصنافها
واخبارها في كل محافظة وقضاء

الجزء الأول

بقلم

أحمد مصطفى زكريا

69317

دمشق ١٣٦٣ هـ - ١٩٤٥

مطبعة دار الهلال بدمشق

١٩٤٥/٩/١٠٩

East. July 1950



Wm. H. Miller

5. A. A.
1974

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

موضوع « البادية » وما فيها من الاوضاع والاحوال وما للاعراب او « البدو » من الاخبار والاقوال ... كل ذلك من الموضوعات التي اهتم بها ادباء العربية فيما مضى كثيراً وشدوا الرحال إلى مواطنها ومصادرها واطالوا البحث والكتابة عنها . وقد جرى رواد الأفرنج ومستشرقوهم في عهدنا على مثالهم . لكن هؤلاء بدؤوا أولئك الادباء في النواحي الطبغرافية والاثريّة والاجتماعية والاثنوغرافية وغيرها مما اوجده مكتشفات العلوم الحديثة في العصور الأخيرة واقتضته غاياتها الاقتصادية والاستعمارية . اما ادباء العربية المعاصرون فقد قصروا في ذلك واهملوا كما اهتموا كثيراً بما يتعلق بجغرافية بلادهم وتاريخها ووصف خططها وآثارها وعمرانها في عهدنا ومزايها سكانها وعاداتهم وأخبارهم في زماننا ، ومنها موضوع « البادية » و « العشائر » . أجل ؛ قام بعض الفضلاء في العراق ومصر وجنوبي الشام فلسطين وشرقي الأردن من سنذكر اسماءهم بقرصن محمود في هذا الموضوع ، إلا ان بحث كل منهم ظل منحصرأ في بلاده . اما شمالي الشام وأخص بالذكر المدن المجاورة للبادية والمعاملة مع البدو كدمشق وحمص وحماه وحلب ودير الزور ، فقد اعرض ادباؤها وكتابتها عن هذه الابحاث إعراضاً طويلاً فظلت محبولة كأن البدو من غير ملة ولغة وسابقة عنهم ، وقد كان حرياً هؤلاء الادباء والكتاب ان يعنوا بهذا الموضوع الهام ولا يهملونه ، وان يأتوا بدراسات مستكرة عما غمض من شؤون بلادنا وامتنا الحاضرة التي عددهاها ، لا ان يقصروا عنايتهم على تكرار ما طفحت به الاسفار القديمة .

يؤلف البدوين ظهر انينانحو (. نسمة) وهم جديرون بكل دراسة وعناية لان لهم حظراً وشأناً كبيرين في مجتمعنا ومعاشنا من قبل ومن بعد . فكل

السمون واكثر اللحوم التي تأكلها والأصواف التي تنسجها والمطايا التي تركبها منهم ، وقسم كبير من سكان المدن الشامية التي عددناها يعتمد في تجارتها ومرتزقتها من الماشية ومنتوجها على شركائه وعشرائه من هؤلاء البدو ، كما ان مقداراً غير يسير من وارد بيت مال الدولة يتألف مما يدفعه البدو من ضرائب الاغنام والابل . هذا الى ان لهم ممثلين معتبرين في مجلسنا النيابي الشامي ورؤساء اجلاء يتقاضون منجاً سنوية من خزانة الدولة نراهم في سياراتهم ذاهبين آيين لا ينقطعون عن غشيان العواصم والحواضر ومراجعة المقامات والدوائر لحل مسائلهم ومشاكلهم العشائرية التي لا يعرف أكثرنا شيئاً عنها . ثم بيننا وإياهم مالا يخفى من صلات العرق والدم وروابط اللغة والدين وتاريخ الماضي وألم الحاضر وأمل المستقبل . وقد أوصى سيدنا عمر بن الخطاب (رضه) بهم فقال للخليفة من بعده : أوصيك بأهل البادية خيراً ، فانهم أصل العرب ومادة الاسلام أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم (١) وقد آن الأوان لأن نرفع ما وضعته عوادي الأزمان أمام هذه الصلات من الحواجز والفواصل ولأن نزيدها تقريباً وتنظيماً ليجتمع الشمل بين حضرننا وبدونا وتقوى الألفة ويشتد الاخاء فننتفع بسواعدهم ونوإنجهم ونفهم بعارفنا ومواهبنا ، ونزداد بهم اقتداراً واعتزازاً في سبيل الاهداف الوطنية والاماني القومية .

* * *

✗ لم تعد العربية ترى — الأسف — بين أبنائها الحاضرين امثال ابي عبيدة والاصمعي وخلف الاحمر وأبي عمرو بن العلاء وحامد الراوية والمفضل الضبي وأبي زيد الأنصاري وغيرهم ممن كانوا في صدر الاسلام يتجشمون مشاق السفر إلى البادية ويختلفون إلى المضارب ويحادثون البدو ويتبعون منظوم كلامهم ومثوره ويلتقطون أخبارهم ووقائعهم ونواديرهم ويدونونها ويؤلفون فيها كتباً ورسائل حفظ الدهر بعضها إلى عهدنا لولاها لصاع كثير من لغات العرب الاقدمين وتاريخهم . اجل ؛ عندنا كثير ممن يعرفون البدو ويعاشرونهم ويستضيفون مرعيتهم وحلوه وكثير ممن يشاركونهم في تربية الخيل والشاء ونواتج الزرع والضرع وجل هؤلاء

من اهل الاحياء المتطرفة في مدتنا الشامية كالمدان في دمشق والحاضر في حماة وباب
النيرب في حلب وباب الدريب في حمص واكثر احياء دير الزور وغيرهم . وبعض هؤلاء
المشاركين والمعاشرين للبدو ومثلهم بعض المتأدين والمتأدين في احياء اخرى من تلك
المدن قديماً بقليل أو كثيراً من قصائد البدو وقصصهم ونواديرهم . لكن هذا البعض
يغلب عليه التهاون في تعميق البحث والزهد في النشر والبث ، لا يأبه لتدوين ما يعرفه
واذاعة ما يسمعه . ناهيك ان احداً من هؤلاء لم يفكر بتوسيع ما التقطه بالنقل او
الشرح ولا بمقايسته بما روي عن الاعراب السابقين في الجاهلية وصدر الاسلام وبما
درج من اشباهه في كتب الادب العربي ونخص بالذكر كتاب (الاغاني) لابي الفرج
الاصمهاني . فقد جمع هذا السفر ما يعجب ويغرب من الاخبار والسير والاشعار
والنوادير المتصلة بآيام الاعراب المذكورين واخبارهم الماثورة . وهو قد انتقاها من
عيونها واخذها من مظانها بجد واتقان عجيبين . فهل لنا بآبي فرج لزمنا الحاضر
يا تيننا بمثال مصغر لكتاب الاغاني المذكور بدون فيه اخبار الاعراب المعاصرين
وسيرهم واشعارهم وملحهم واخبارهم قبل ان يعلوها النسيان ويضيع ما لدى بدوزمنتنا
من خبر او اثر وما في ادبهم وشعرهم من معنى مبتكر . وهل لنا على الاقل بمن
يخذو خذو المستشرق الافرنسي المسيو موتاني الذي سوف يرد ذكره وذكر عمله .
قد صرنا الان حتى في هذه الموضوعات المتعلقة بنا عالة على رواد الافرنج
ومستشرقهم . لأن هؤلاء ما برحوا يتجشمون ويختلفون ويحادثون ويتبعون هذه الاخبار
والوقائع والنوادير ناهيك الابحاث الطبغرافية والاثريه والاجتماعية والاتنوغرافية
وغيرها التي رعوها أي براعة . فهم لم يغادروا بادية من نوادينا إلا اخترقوها ولا
عشيرة من عشائرنا إلا وزروها ولا خربة من خربنا إلا ورادوها ولا علومها وأخباراً
ولا قصائد وأشعاراً عن البداوة والبداءة إلا التقطوها وفسروها وشرحوها ، كل
ذلك بنشاط واهتمام بشيران الاعجاب والاكبار . وهم كما لا يخفى ولوعون بالبحث
والتدقيق ، حريصون على التأليف والتدوين ، اسخياء بالبث والنشر وافادة
الغير . فقد دون اولئك الرواد والمستشرقون كتباً عديدة في مختلف اللغات
الأوربية سنذكر أسماءها في حينه نقرأها بكثير من التفكير والتقدير .
ولو جئت أعدد أسماء هؤلاء الافاضل وأذكر الأماكن التي ولجوها

وجاسوها في فيافي الجزيرة العربية وقد أتوها من أقصاها إلى أقصاها حتى الربع الخالي ، وأتقل المشاق والأخطار التي قاسوها في الأوعار والرمال والحر والقر والجوع والعطش والمؤلفات التي وضعوها مزينة بالرسوم والخرائط والارقام ناهيك جودة الوصف ودقة الشرح اللذين يجعلانك تلمس الموصوف والمشروح لمساً ؛ قلت لو جئت أعدد ذلك لضاق بي مجال هذا الكتاب .

وحسبي أن أذكر من هؤلاء السيدة الفاضلة الالادي آن بلونت الانكليزية ؛ فقد جاءت هذه في سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٧ م) حينما لم يكن سيارات ولا سهولة في المواصلات وركبت هي وزوجها الهمام ويلفرد بلونت الخيل والابل من دمشق وتحملت المشاق في أوعار حرة الراحل وأحجار وادي السرحان ورمال النفود وتعرضت لغارة غزاة من الأرولة كادوا يفتكون بها وبزوجها إلى أن بلغت حائل عاصمة نجد بسلام وضافت الأمير محمد بن الرشيد المتوفي سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م) وقد كان حينما ضافته في أوج سطوته وعزبه وزارت ديوانه وايوانه ونسائه وخيله وأحاطت علماً بحالته وحالة البلاد النجدية في ذلك الحين . ثم غادت مع ركب الحج العراقي عن طريق النجف وبغداد . وهذا غير رحلاتها إلى بادية الشام وضفاف الفرات وبحنها عن عشار هذه الأنحاء واصدارها بعد رجوعها إلى بلادها كتباً قيمة عما رآته وسمعتة سنذكر اسماءها . ومثلها في الحرب الماضية وقبلها وبعدها الأنسة الانكليزية (ميس كروتوديل) سنة ١٢٨٥ — ١٣٤٤ هـ (١٨٦٨ — ١٩٢٦ م) الخارقة في ذكائها ونشاطها وادارتها وقوة ارادتها ، فقد رحلت هذه وبجئت كثيراً وقطعت القياقي والقفار على ظهور الابل والخيول وأبليت أحسن بلاء في خدمة بلادها وامتها في العراق وفي معاونته العراق على عهد المرحوم الملك فيصل وألفت عدة كتب (١) . هذان مثالان من نسائهم . أما رجالهم فحدث عن كثيرهم ولا حرج . حسبك منهم موزيل الشيكوسلواكي الملقب بالشيخ موسى الرويلي ، فقد ظل هذا بين بدو الارولة عدة سنوات ينزل ويرحل معهم ويتحمل خشونة عيشهم ، بينما هو يحوس ويبحث ويؤلف كتباً ويرسم خرائط ويصور مناظر في جغرافية البوادي العربية

(١) من كتبها (العاصم والناسر) و (من مراد إلى مراد) و (الف ليلة ويلة) وغيرها .

وارضها وسمائها وسكانها واحوالها وفي عوائد اصدقائه الارولة وتقاليدهم واخبارهم . وحسبك منهم المسيو مونتاني احد اساتذة المعهد الاثري الافرنسي في دمشق فقد ذهب هذا الى مضارب شمر الجزيرة وتحول اسابيع واشهر وتسقط منهم طائفة من القصص والقصائد الحربية والحماسية والغرامية وغيرها مما يتداولونه ويترنم به شعراؤهم ، وقد كتبها بنصها وفصها وترجم كلماتها وجملها الى الافرنسية ترجمة دقيقة وشرحها . وبعد هذا التعب خرج بمقالة ضافية غاية في الجودة والمثمة درجها في (مجلة الدراسات الشرقية) للمعهد المذكور (ج ٥ سنة ١٩٣٥) ، وحسبك منهم البارون فون اوبنهايم الالماني الذي جاء في سني ١٩٣٦ و ١٩٣٧ وتحول في بلاد الشام وبحث عن عشايرها بحثاً غاية في التدقيق والتفصيل . وقد طبع ونشر في سنة ١٩٣٩ مؤلفاً قيماً بالالمانية صدره برسم المرحوم عجيل الياور شيخ مشايخ شمر العراق . وهذا غير مؤلفاته القديم الذي ضمنه رحلته قبل نصف قرن في العراق والشام وابحاثه عن عشاير تلك الحقبة ، وغير مؤلفاته الباحثة عما حفره ونقبه في (تل حلف) في قضاء رأس العين (محافظة الجزيرة) وعما كشفه هناك من آثار الحثيين ، وقد اودع نماذج من هذه الآثار الضخمة في متحف حلب . وحسبك منهم بعض الضباط الافرنسيين الذين كانوا مكلفين بمراقبة البدو ومداورتهم امثال المقدم مولر والرئيس رينو والملازم بوشمان وغيرهم . ولم يقصر الرهبان في الايغال في البيداء والبحث عن آثار البادية ومعالها وعن احوال البدو في نواحي الاجتماع والانساب . وقد برز في ذلك الراهبان جوسن وسافينياف الدومينيكيان والراهبان بواديوار وهنري شارل اليسوعيان ممن سنذكر في الفصل التالي مساعيهم واسماء كثيرهم . فاعظم بهمة هؤلاء العلماء العاملين الذين يكشفون مجاهيلنا ويحيون آثارنا وينشرون منظوم باديتنا ومثورها ويسجلون للاجيال القادمة توالدها وطرائفها ، ونحن عن ذلك غافلون .

* * *

كتب لي ان امكث في سلمية سبع سنوات لما استت قبل ربع قرن مدرستها الزراعية وادرتها وانشئت خريجيها المنتشرين الآن في وظائف واعمال زراعية وغير زراعية في مختلف الاقطار العربية . وقضاء سلمية مركز هام

للعشائر امثال الاسبعة والموالي والحديديين والعقيدات وبني خالد والخراسيم
والبشاكم والجلان وبني عز والمشارفة وغيرهم . فكان يكثر ترددهم عليها وتحوالهم
في قراها وتقيظهم في مروجها واقتالهم من حين الى آخر في براريها الشرقية
اخص بالذكر الموالي والحديديين اللذين نشبت معاركها منذ سنة ١٣٣٧ هـ
(١٩١٨م) واستفحلت شرورها فخربت قرى ونهبت عروض وسفكت دماء وعقدت
مؤتمرات لاجلهم ولاجل غيرهم في سامية وفي عقيريات شرقي سامية مراراً .
فكنت وقتئذ ارى واسمع ويدفني ابتلائي بالبحث والاستطلاع الى السواك عن
البواعث والباعثين لما يجري . ثم كتب لي ايضاً بعد سامية ان انحول تسع سنوات
في (املاك دولة الشام) وقراها العديدة لما كنت مفتشها . وهذه الاملاك
السابعة هي على سيف البادية وكثير من فلاحيهما وكل الضارين في براريها هم من البدو
وانصاف البدو . فقيسرتي خلالها ان ازور بعض هؤلاء فانظر واستقصي عوائدهم
وتقاليدهم واسماء عشائرهم وفرقهم واحاديث معاشهم ومعاركهم وما الى ذلك .
واذا فاني شيء استعلم عنه من ذوى المرفقة بالبدو والبادية بالحادثة او المراسلة حتي
اجتمع لي قدر غير يسير من هذا البحث العسير . وكنت ازيد ما علمته بما احده
بعد التنقيب والجهد في المؤلفات العربية والافرنجية الباحثة عن الغابرين من البدو
والحاضرين وفي بعض التقارير الرسمية والخصوصية حتي حبت ان تدوين هذه
المعلومات ونشرها في كتاب كهذا صار ممكناً ونافعاً . لان لهذه البحوث في ظني
مكانة غير يسيرة في تاريخ الشام الحديث وتسجيلها واجب قبل ان يطويها
الاهمال والنسيان ، ويظل هذا التاريخ ناقصاً تلقاء ما عمله الاسلاف في هذا المضمار
وما يعمله الآن الغريون الولوعون بالاطلاع على امورنا الاجتماعية في حاضرتنا
وباديتنا بينما نحن لانعرف عن اوطاننا ومواطنينا معشار ما يعرفونه .

* * *

وقد خطر لي قبل الاقدام على طبع هذا الكتاب ان اجرب حظ موضوعاته
فنشرت بعض فصول منه في مجلة المجمع العلمي عام ١٣٦٢ هـ (١٩٤٢) فاذا بها
تلاقي استحسان من قرأوها من ذوي الفضل العارفين بما للعشائر من المكانة في
مجتمعتنا ، فكان ذلك مدعاة للاقدام . خاصة وقد جاء دور الاستقلال الزاهر

واحتضنت الحكومة السورية (ادارة العشائر) واصابت في اسناد هذه الادارة الى (السيد نوري ايش) الرجل الممتاز باخلاقه وكفاءته . فانهقد الرجاء بمحصول الاهتمام بامر هذه العشائر وابحاثها وبنوالها في عهد هذا المدير الهام كل خير وصالح مرتقب .

* * *

وقد قصرت هذا الكتاب في قسمه الاول على ذكر مقدمات وجيزة عن البادية وجغرافيتها وجوها ومائها وسهولها وجبالها ونباتها وحيوانها ونعيمها وشقائها وآثارها وعمرانها القابر والحاضر ، ثم عن تاريخ البدو القديم والحديث وهجراتهم وافاعيلهم في بلاد الشام ، ثم عن اوصاف البدو واحوالهم الاجتماعية واخلاقهم ومزايام في الماضي والحاضر وما قاله ماد حوهم وقاد حوهم ، ثم عن عادات البدو في المعيشة والغزو والملبس والمسكن واللبن والزواج والاعراس والضيافة ، ثم عن التشريع البدوي وكيفية التقاضي والمرافعة واصول الصلح بين الافراد والعشائر . ثم قفيت على آثار ذلك في القسم الثاني بتعداد العشائر وتعريف انسابها واحسابها ومنازلها وفرقها واخبارها الماضية واحوالها الحاضرة . كل ذلك حسب المناطق الجغرافية التي لكل منها من جنوبي حوران الى اقصى شمالي الجزيرة الفراتية . وجرتني سياق البحث الى ذكر التركمان والكرد والتركس ايضاً المتوطنين في بعض المحافظات والاقضية لما لهم من الصفة والمعيشة المشائية . وقد سميت كتابي هذا (عشائر الشام) وخصصته لبلاد الشام الشمالية . لوجود

كتب باحثة عن عشائر بلاد الشام الجنوبية « فلسطين وشرقي الاردن » ، وعينت بالشام البلاد التي تعرف الآن بسورية . بينا كلمة الشام هي الافصح والارجح ، وهي الكلمة العربية الاصلية الواجب علينا حفظها وتداولها كما حفظها وتداولها اسلافنا فقالوا : بادية الشام ودمشق الشام وطرابلس الشام وغيره ، وكما يحفظها ويتداولها حتى الآن اخواننا المصريون والحجازيون وهم على صواب فيما يقولونه ، ويدخل في هذا الواجب ايضاً ترويح كلمة (دمشق) لما صمتنا كما روج اخواننا المصريون كلمة (القاهرة) لما صمتهم .

على انني لادعي الاستيعاب وبلوغ الغاية في هذه البحوث والدراسات
الكثيرة التضارب والشرود ، لان التجوال في البادية والاتصال بالبدو
او التنبه من البدو في كل زمان ومكان امر غير يسير ، والتقاط الاخبار واستقراء
الحقائق منهم دونها مشقة وكلفة . لأن الامية منتشرة لديهم واهتمامهم بهذه الابحاث
وحفظهم وذكورهم لها نادر جداً . والذين يحفظون ويذكرون قلما تتفق رواياتهم
واسناداتهم وتصفو وقلما تخلو من الغلو ودعوى السبق والارجحية على الغير .
هذا الى ان هذه المساعي متوقفة على الصدق واتهاز الفرص لمن كان بعيداً
مثلي عن التأثير الرسمي في هذا الشأن ، مما يسهل ويتيسر اكثر لرواد
الافرنج ومستشرقهم وموظفيهم المدنيين وضباطهم العسكريين المجهزين بكل
وسائل التجوال والاستطلاع . لذلك قد يكون ثمت بعض عوائد وتقاليد
بدوية مختلفة بين عشيرة واخرى عما ذكرته او تكون اسماء اشخاص وشيوخ
ورؤساء وفرق وعشائر واعداد رجال وماشية لم ادونها ودوتها على غير الضبط وحسبها
نقل لي او يكون في الاخبار والوقائع التاريخية التي سردها زيادة او نقص ... كل
ذلك جدير باسدال المعذرة عليه اذا عرف القاري المنصف وعورة هذه الموضوعات
وعسرة نوال الكمال فيها ، وان مراد القول فيها رحب وبحال البحث مستفيض .
وحسبي ان اكون بكتابي الاوحد هذا قد اثرتها ونشرتها وسددت فراغاً في المكتبة
العربية ومهدت السبيل لمن اراد التوسع فيها والزيادة ، ومن الله التوفيق .

دمشق

احمد وصفي زكريا

مكتبة البدو

ما ألف عن البدو

من الباحثين عن انساب البدو ووصافهم واخبارهم بين ادباء العرب القدماء وجدت ابن عبد ربه الاندلسي المتوفي في سنة ٣٢٨ هـ في كتابه «العقد الفريد»، وأبي الفرج الاصبهاني المتوفي في سنة ٣٥٦ هـ في كتابه «الاغاني»، وأبي عبيد البكري المتوفي في سنة ٤٨٧ هـ في مقدمة كتابه «معجم ما استعجم»، وابن خلدون المتوفي في سنة ٨٥٨ هـ في الجلد السادس من تاريخه الكبير المسمى «العبر»، والقلقشندي احمد بن علي المتوفي في سنة ٨٢١ هـ في الجلد الرابع من كتابه الاول المسمى «صبح الاعشى» وفي كتابه الثاني المسمى «نهاية الارب في معرفة قبائل العرب» المطبوع في بغداد وفي كتابه الثالث المسمى «قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان» وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية يبحث في قبائل مصر في زمنه. وقيل ان في أحد الاجزاء التي لم تطبع بعد من «مسالك الابصار» لابن فضل الله العمري المتوفي في سنة ٧٤٨ هـ ذكراً لمنازل العرب كما كانت في مصر على عهده. وقيل أيضاً ان لابن حزم الظاهري المتوفي في سنة ٥٠٦ هـ كتاباً اسمه «جمهرة النسب في معرفة قبائل العرب» وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية. ولم يتسن لي بعد الاطلاع على المخطوطات المذكورة، وان كانت تشمل المصور والاماكن البعيدة عن موضوعي وبخفي.

ومن الباحثين المتأخرين الشيخ محمد البسام التميمي المتوفي في سنة ١٣٤٦ هـ في رسالته «الدرر والمفاخر في أخبار العرب الاواخر» وهي مخطوطة في المتحف البريطاني رأيت نسخة مصورة منها في بغداد في مكتبة المؤرخ السيد يعقوب سر كيس يتكلم فيها عن عشائر الجزيرة العربية بابهجاء زائد لا يفيد سوى التيقن من وجود بعض العشائر ووصفها، ثم ابر القوز السويدي البغدادي في رسالته «سبائك

على انني لادعي الاستيعاب وبلوغ الغاية في هذه البحوث والدراسات
الكثيرة التضارب والشروء ، لان التجوال في البادية والاتصال بالبدو
او النباء من البدو في كل زمان ومكان امر غير يسير ، والتقاط الاخبار واستقراء
الحقائق منهم دونها مشقة وكلفة . لأن الامية منتشرة لديهم واهتمامهم بهذه الابحاث
وحفظهم وذكورهم لها نادر جداً . والذين يحفظون ويذكرون قلما تتفق رواياتهم
واسناداتهم وتصفو وقلما تخلو من القلو ودعوى السبق والارجحية على الغير .
هذا الى ان هذه المساعي متوقفة على الصدق واتهاز الفرص لمن كان بعيداً
مثلي عن التأثير الرسمي في هذا الشأن ، مما يسهل ويتيسر اكثر لرواد
الافرنج ومستشرقهم وموظفيهم المدنيين وضباطهم العسكريين المجهزين بكل
وسائل التجوال والاستطلاع . لذلك قد يكون ثمة بعض عوائد وتقاليد
بدوية مختلفة بين عشيرة واخرى عما ذكرته او تكون اسماء اشخاص وشيوخ
ورؤساء وفرق وعشائر واعداد رجال وماشية لم ادونها وادوتها على غير الضبط وحسبما
نقل لي او يكون في الاخبار والوقائع التاريخية التي سردها زيادة او نقص ... كل
ذلك جدير باسبدال المعذرة عليه اذا عرف القاري المنصف وعورة هذه الموضوعات
وعسرة نوال الكمال فيها ، وان مراد القول فيها رحب وبحال البحث مستفيض .
وحسبي ان اكون بكتابي الاوحد هذا قد اثرتها ونشرتها وسددت فراغاً في المكتبة
العربية ومهدت السبيل لمن اراد التوسع فيها والزيادة ، ومن الله التوفيق .

دمشق

احمد وصفي زكريا

مكتبة البدو

ما ألف عن البدو

من الباحثين عن انساب البدو ووصافهم واخبارهم بين ادباء العرب القدماء وجدت ابن عبد ربه الاندلسي المتوفي في سنة ٣٢٨ هـ في كتابه «العقد الفريد» ، وأبي الفرج الاصبهاني المتوفي في سنة ٣٥٦ هـ في كتابه «الاغاني» ، وأبي عبيد البكري المتوفي في سنة ٤٨٧ هـ في مقدمة كتابه «معجم ما استعجم» ، وابن خلدون المتوفي في سنة ٨٥٨ هـ في الجلد السادس من تاريخه الكبير المسمى «العبر» ، والقلقشندي احمد بن علي المتوفي في سنة ٨٢١ هـ في الجلد الرابع من كتابه الاول المسمى «صبح الاعشى» وفي كتابه الثاني المسمى «نهاية الارب في معرفة قبائل العرب» المطبوع في بغداد وفي كتابه الثالث المسمى «قلائد الجمال في التعريف بقبائل عرب الزمان» وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية يبحث في قبائل مصر في زمنه . وقيل ان في أحد الاجزاء التي لم تطبع بعد من «مسالك الابصار» لابن فضل الله العمري المتوفي في سنة ٧٤٨ هـ ذكراً لمنازل العرب كما كانت في مصر على عهده . وقيل أيضاً ان لابن حزم الظاهري المتوفي في سنة ٥٠٦ هـ كتاباً اسمه «جمهرة النسب في معرفة قبائل العرب» وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية . ولم يتسن لي بعد الاطلاع على المخطوطات المذكورة ، وان كانت تشمل المصور والاماكن البعيدة عن موضوعي وبخحي .

ومن الباحثين المتأخرين الشيخ محمد السام التميمي المتوفي في سنة ١٣٤٦ هـ في رسالته «الدرر والمفاخر في أخبار العرب الاواخر» وهي مخطوطة في المتحف البريطاني رأيت نسخة مصورة منها في بغداد في مكتبة المؤرخ السيد يعقوب سر كيس يتكلم فيها عن عشائر الجزيرة العربية بالبحر زائد لا يفيد سوى التيقن من وجود بعض العشائر ووصفها ، ثم ابو القوز السويدي البغدادي في رسالته «سبائك

الذهب في معرفة قبائل العرب» المطبوعة على الحجر في الهند سنة ١٢٩٦ ، لكن
 أبحاثها قديمة ومقتبسة عن نهاية العرب للقلقشندي وترتيبها غير موف بالغرض ،
 والسيد شكري الألوسي في كتابه « بلوغ العرب في احوال العرب » المطبوع في
 بغداد سنة ١٣١٤ في ثلاثة مجلدات خصها بشرح اخبار عرب الجاهلية وعاداتهم
 وآدابهم مما هو بعيد عن مطلوبنا وسليمان البستاني معرب الالباب في
 مقالاته عن البدو المدرجة في المجلد ١٢ من مجلة المقتطف سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٨ م) ،
 وجرجي زيدان في كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام » المطبوع في سنة ١٣٢٦ هـ
 (١٩٠٨ م) ونعوم شقير في قسم من كتابه « تاريخ سيناء القديم والحديث
 وجغرافيتها » المطبوع في مصر سنة ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م) والمطران بولص سليمان
 في كتابه « خمسة أعوام في شرقي الاردن » المطبوع في حريصا (لبنان)
 سنة ١٣٤٥ (١٩٢٦) وقد بسط فيه آداب بدو شرقي الاردن في عهدنا وقضائهم
 ودياتهم وعشارهم ، وعارف العارف قائم مقام بئر السبع في فلسطين في كتابه
 « القضاء بين البدو » المطبوع في القدس سنة ١٣٥٢ (١٩٣٣) وقد بسط فيه اخبار
 بدو بئر السبع في عهدنا وطبائعهم وعاداتهم ، والعقيدج . بيك الانكليزي في كتابه
 « تاريخ شرقي الاردن وقبائلها » وقد عربه بهاء الدين طوقان من ادباء عمان وطبعه
 في القدس في سنة ١٣٥٤ (١٩٣٥) وعودة القسوس من رجال القانون في شرقي
 الاردن المتوفي في سنة ١٣٦٢ (١٩٤٣) في مقالاته « القضاء البدوي » المنشورة
 في (المجلة القضائية) للحكومة الاردنية في سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦) وفؤاد حمزة في
 كتابه « قلب جزيرة العرب » المطبوع في مصر في سنة ١٣٥٤ (١٩٣٥) والمهامي
 عباس المزوي في كتابه « عشار العراق » المطبوع في بغداد في سنة ١٣٥٦ (١٩٣٧) ،
 وعز الدين علم الدين في مقاله الابتنى عن « بادية الشام » المدرج في المجلد ٥١ من
 مجلة المقتطف في سنة ١٣٣٤ (١٩١٦) ، وخير الدين الزركلي في قسم من كتابه
 « ما رأيت وما سمعت » المطبوع في مصر سنة ١٣٤٢ (١٩٢٣) وحافظ وهبه في
 قسم من كتابه « جزيرة العرب في القرن العشرين » المطبوع في مصر
 سنة ١٣٤٤ (١٩٢٥) ، والاب انستاس الكرملي في قسم من كتابه « خلاصة
 تاريخ العراق » المطبوع في البصرة في سنة ١٣٣٥ (١٩١٧) ، ومحمد الكرد علي

في قسم من كتابه خطط الشام (ج ٦) المطبوع في دمشق في سنة ١٣٤٥ (١٩٢٦)، هذه هي الكتب والرسائل والمقالات العربية التي عثرت عليها وراجعتها وكلها قيم وجميل وهي حلا الكتب الكثيرة غير المختصة بموضوعنا وحده التي يأتي بحث البدو فيها عرضاً وقد درجت اسماءها في قائمة خاصة في ذيل الكتاب .

اما الافرنج فقد وجدت بينهم من الباحثين عن البدو الرحالة بر كهاردت السويسري (١) صاحب كتاب « رحلة في بلاد العرب » وقد وافى هذه البلاد في سنة ١٢٢٤ (١٨٠٩) ووصف في كتابه المحرر بالانكليزية ما صادفه في تلك الحقبه من عتائر البدو في الشام والحجاز واحصى نفوسها وذكر اطوارها واساليب معيشتها وكل ما يتعلق بها بتدقيق واف . والمستشرق موزيل التشيكوسلوفاكي (٢) الذي بحثنا عنه في المقدمة كتب بالالمانية ترجمت إلى الانكليزية في عدة مجلدات منها « بلاد العرب الصحراوية » طبعت في سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧) وكتاب خاص عن عشيرة الارولة طبع في سنة ١٣٤٦ (١٩٢٨) ، وكان قد لبث بين الارولة بضعة سنوات وسلك سبيلهم في خشونة العيش وقام بعدة رحلات للدرس والبحث والتدوين . والسائحة الانكليزية الليدي آن بلونت (٣) التي بحثنا عنها في المقدمة ايضاً كتاب في مجلدين عن « عتائر الفرات » طبع في لندن سنة ١٢٩٧ (١٨٧٩) كما أن لها كتاباً آخر عن رحلتها في سنة ١٢٩٧ (١٨٧٩) هي وزوجها المستر وافريد بلونت الى حائل عن طريق دمشق ووادي السرحان والجوف اسمه « رحلة إلى نجد » ترجم إلى الافرنسية وكان دليلها في هذه الرحلة محمد العبد الله العروك من اهل تدمر . وللرئيس رينو والطبيب مارتينه الافرنسيين (٤) - رسالة صغيرة عن « البدو في مقاطعة دمشق »

«1» Jean - Louis Burckhardt , voyages en Arabie .

«2» Aloes Musil , Arabia deserta , 1927 - The manners estoms of the Rawala . 1928

«3» Lady Anne Blunt , The Bédouin tribe of the Euphrates, Murray, 1879 London, Pèligrinage to Nejd .

«4» Capitaine Raynaud et Médecin - Major Martinet, les Bédouins de la Mouvence de Damas , 1922 .

طُبعت في سنة ١٣٤١ (١٩٢٢) وللمقدم مولر الافرنسي (٥) كتاب كبير اسمه « في بلاد الشام مع البدو » طبع في سنة ١٣٥٠ (١٩٣١). وهؤلاء الضباط الثلاثة كانوا من عمال الادارة الافرنسية بمراقبة البدو . ولمصلحة الاستعلامات في الشرق التابعة للمفوضية العليا الافرنسية كتاب خاص دعتة « العشائر الرحالة والتصفيرحالة في دول الشرق التي تحت الانتداب الافرنسي » (٦) طبع في بيروت في سنة ١٣٤٨ (١٩٣٠)، والممستشرق مونتاني الافرنسي (٧) مقال قيم في مجلة الدراسات الشرقية التي يصدرها المعهد الاثري الافرنسي في دمشق (ج ٥ سنة ١٣٥٦) (١٩٣٥) عنوانه « قصص شعرية بدوية ملتقطه من شمر الجزيرة » . وللراهبين جوسن وسافينياف الدومينيكيين (٨) كتابان بالافرنسية طبعوا في سنة ١٩٣٩ (١٩٢٠) احدهما عن عادات البدو في بلاد موآب « جنوبي بلاد الاردن » وثانيهما عن عشيرة الفقراء احدي العشائر الكبيرة في شمالي الحجاز . والملازم آلبر بوشمان (٩) من ضباط مراقبة العشائر الفرنسيين وقد قتل في حروب مرجعيون التي دارت بين الفيشيين والانكليز في صيف سنة ١٣٦٠ (١٩٤١) كتاب اسمه « امعة المعيشة البدوية » وصف فيه البسة البدو وفرشهم واوانهم ومضاربهم ، وقد جمع ذلك من عشيرة الاسبعة العنزية بعد ان اقام بينها مدة . وللراهب اليسوعي الاب هنري شارل كتاب كبير اسمه « العشائر الفنامة في الفرات الأوسط » (١٠) طبع في بيروت سنة ١٣٥٤ (١٩٣٦) خصه بوصف عشيرة العقيدات وتاريخها وفرقها وقراها وعاداتها ، وذلك بعد ان ظل بضعة اشهر يحبس مضارب هذه العشيرة ويعاشر كبارها وصغارها ويستقصي ويدون ، وله

«٥» Commandant Victor Muller, en syrie avec les Bédouins 1931, Paris

«٦» Les tribues nomades et semi-nomades des états du Levant placés sous mandat Français 1930 : Beyrouth

(٧) M. Montagne, contes Poétiques bedouins recueillies chez les Schammar de Gezire 1935

(٨) P. Jaussen et Savignac, Coutumes des Arabes en pays de Moabe 1908, coutumes de Fuquaras : 1920

(٩) Alber Bouchement , les materiels de la vie bedouine

(١٠) Le père H. Charles S. J., Tribus moutonnieres du moyen Euphrate . Beyrouth 1936

رسالة أخرى صغيرة عن (التحضير بين الفرات والبليخ) طبع في بيروت سنة ١٣٦١ (١٩٤٢) وفيها بحث اجتماعي انساني عن عشائر قضاء الرقة (١١) ، وزاهب آخر اسمه الاب بواديوار كتاب اسمه « اثر روما في بادية الشام » (١٢) وصف فيه هذه البادية وذكر الارصفة والمعازل والمحاجر الرومانية التي اكتشفها من الطائرات في سفي ١٣٤٣ - ١٣٥١ (١٩٢٥ - ١٩٣٢) . وخص المجلد الاول من كتابه هذا للوصف المذكور وخص المجلد الثاني للصور الشمسية والخرائط والمخططات البديعة الترتيب والتصوير . واحداث الكتب الافرنجية عن عشائر الشام هو ما نشره اخيراً المستشرق البارون فون اوبنهايم (١٣) المطبوع في ليزنغ سنة ١٣٥٨ (١٩٣٩) وهو غير كتابه القديم المطبوع في برلين سنة ١٣١٧ (١٨٩٩) (١٣) . وللعلازم الافرنسي آلير بوشمان الذي تقدم ذكره مقال طويل في مجلة الدراسات الاسلامية التي تصدر في باريس بمجلد ١ ص ٢٢ عن الخلاف بين عشيرتين غنميتين في الشام « يعني الموالي والحديديين » (١٤) كما له ايضاً رسالة عن قرية السخنة (١٥) . ولعل هنالك كتباً ورسائل أخرى لم اطلع عليها فاكثفت بذكر ما علمت وما رجعت اليه .

11 - La sédentarisation entre Euphrate et baliK . note d'Ethno - sociologie, 1942 .

12 - Le père poidebard . S . J . La trace de rome dans le desert de syrie . paris 1934 .

13 - Max von oppenheim . von mittelmeer Fun persichen Berlin 1899 - Die Beduinen , Leipzig 1939 .

14 - Alber Bouchement , Note Sur La rivalité de deux tribus moutonnieres de syrie , les Mavalis et les Hadediyins , revue des Etudes islamiques 1934 , t.I p . 22 .

15 - Une petite cité caravanière , Suhné .

في سنة ١٣٦١ (١٩٤٢) وفيها بحث اجتماعي انساني عن عشائر قضاء الرقة (١١) ، وزاهب آخر اسمه الاب بواديوار كتاب اسمه « اثر روما في بادية الشام » (١٢) وصف فيه هذه البادية وذكر الارصفة والمعازل والمحاجر الرومانية التي اكتشفها من الطائرات في سفي ١٣٤٣ - ١٣٥١ (١٩٢٥ - ١٩٣٢) . وخص المجلد الاول من كتابه هذا للوصف المذكور وخص المجلد الثاني للصور الشمسية والخرائط والمخططات البديعة الترتيب والتصوير . واحداث الكتب الافرنجية عن عشائر الشام هو ما نشره اخيراً المستشرق البارون فون اوبنهايم (١٣) المطبوع في ليزنغ سنة ١٣٥٨ (١٩٣٩) وهو غير كتابه القديم المطبوع في برلين سنة ١٣١٧ (١٨٩٩) (١٣) . وللعلازم الافرنسي آلير بوشمان الذي تقدم ذكره مقال طويل في مجلة الدراسات الاسلامية التي تصدر في باريس بمجلد ١ ص ٢٢ عن الخلاف بين عشيرتين غنميتين في الشام « يعني الموالي والحديديين » (١٤) كما له ايضاً رسالة عن قرية السخنة (١٥) . ولعل هنالك كتباً ورسائل أخرى لم اطلع عليها فاكثفت بذكر ما علمت وما رجعت اليه .

في سنة ١٣٦١ (١٩٤٢) وفيها بحث اجتماعي انساني عن عشائر قضاء الرقة (١١) ، وزاهب آخر اسمه الاب بواديوار كتاب اسمه « اثر روما في بادية الشام » (١٢) وصف فيه هذه البادية وذكر الارصفة والمعازل والمحاجر الرومانية التي اكتشفها من الطائرات في سفي ١٣٤٣ - ١٣٥١ (١٩٢٥ - ١٩٣٢) . وخص المجلد الاول من كتابه هذا للوصف المذكور وخص المجلد الثاني للصور الشمسية والخرائط والمخططات البديعة الترتيب والتصوير . واحداث الكتب الافرنجية عن عشائر الشام هو ما نشره اخيراً المستشرق البارون فون اوبنهايم (١٣) المطبوع في ليزنغ سنة ١٣٥٨ (١٩٣٩) وهو غير كتابه القديم المطبوع في برلين سنة ١٣١٧ (١٨٩٩) (١٣) . وللعلازم الافرنسي آلير بوشمان الذي تقدم ذكره مقال طويل في مجلة الدراسات الاسلامية التي تصدر في باريس بمجلد ١ ص ٢٢ عن الخلاف بين عشيرتين غنميتين في الشام « يعني الموالي والحديديين » (١٤) كما له ايضاً رسالة عن قرية السخنة (١٥) . ولعل هنالك كتباً ورسائل أخرى لم اطلع عليها فاكثفت بذكر ما علمت وما رجعت اليه .

جغرافية ديار البعد

ان البراري البعيدة المترامية الاطراف والاكتاف الممتدة في شرقي بلاد الشام تنقسم الى قسمين ، المعمورة والبادية :

(فالمعمورة) هو القسم العامر بالقرى الآهل بالسكان الحضر المزروع عذياً او سقياً ، ويقابله في مصر والعراق الريف الممتد على شواطئ النيل والرافدين . والريف في اللغة ما قارب الماء والخضرة من الارض ، ومن هنا كان استعمال هذه الكلمة منحصراً بمصر والعراق دون الشام لتفوقها عليه بالماء والخضرة . و(البادية) او (الصحراء) هو القسم العامر البائر الواقع في شرقي المعمورة المذكورة الخلاء القواء القليل المكلا والماء غير الصالح الارعي الماشية المعمن في الامتداد والبعد حتى العراق الاسفل . وحد هذه البادية في بلاد الشام يبدأ في الجنوب في امانة شرقي الاردن من انحاء معان ومن شرقي جبال الشراة وجبال موآب وجبال عجلون ويسير مع السكة الحديدية الحجازية الممتدة على سيف البادية حتى يبلغ محطة المفرق . ومن ثم ينعطف نحو شرقي جبل حوران ووعدة اللجا ثم شرقي قرى الضمير والقرتين والفركلس وجبل الشومرية وعقيربات والاندرين وبالس « مسكنة » وشمس الدين على الفرات . وبعد عمران الجزيرة الحديث وامتداد الحرت والزراع صار الحد فيها ينعطف من شمس الدين نحو تل السمن على البلخ ومنه الى جبل عبد العزيز فبحيرة الخاتونية فوادي الثرثار فوادي الدجلة . (١)

واذا استمر عمران الجزيرة الحديث في سيره الحالي الذي بدء منذ ان استقرت الحدود الدولية الاخيرة بين الشام والعراق وتركية ومنذ ان استتب الامن فان جل الجزيرة ان لم نقل كلها سوف يصبح من (المعمورة) وتبقى الشامية وحدها هي المقصود بكلمة (بادية الشام) وبوصفها كما انها هي المقصودة غالباً في كلامنا ووصفنا الآتين .

(١) درجنا في آخر الكتاب الملحق رقم ٢ للقرار رقم ١٣٢ . فيه نشرح الخط الفاصل رسمياً بين منطقة المعمورة ومنطقة البادية . وهو يختلف عما ذكرناه لانه تحديد اداري وتحديدنا جغرافي .

وفي هذه البادية سهوب شاسعة وصحراوات واسعة، مستوية ككل الاستواء سهلة اي سهولة في الغالب متشابهة المناظر مطردة المشاهد تطلها في بعض الاماكن تلعات وهضبات ترابية منفردة او متموجة وأكثات حجرية متقطعة او متسلسلة بركانية بازلتية اورسوية طباشيرية (كريتاسه) . وبين هذه التلعات والاكثات بعض اودية ومسائل جافة في معظم ايام السنة وبعض اوطار وحرثات بركانية صغيرة او كبيرة . وفي كل ذلك افق رحيب وفراغ رهيب وسكون مرعب وتداب غير حبيب تنويع وقدات الشمس في الصيف وتهب نوافح القر في فصل الشتاء وتبرز ارض الجوع والعطش وتظهر قيعان القحل والجذب الا من بعض نباتات ودويبات واغنام واباعر ويوت من الشعر تخفق الارباح فيها مبعثرة هنا وهناك .

وهذه البادية لاتصلح للحرث والزرع عذياً ؛ بذلك لقلة امطارها وجفاف جوها وملوحة تربتها في بعض الاماكن او لصفرة هذه التربة او بياضها ولفقدان الينابيع السارية او ندرتها . اذ ان الماء اما في آبار بعيدة الغور ويكاد لا يكتفي الشفة ، او هو ردي* مالخ لا يستساغ . ولا تحرث وتزرع هذه البادية إلا سقياً في بعض الاماكن السعيدة بوجود الينابيع والانهار السارية كما هو الحال في تدمر وأرك والسحنة والطيبة وفي ضفاف الفرات والبلخ والمسابور ، والسعيدة بوجود القنوات المندثرة كالتي في ناحية القريتين وفي جهة كديم .

ولا ريب في ان هذه البادية على علاتها كانت اسعد حالاً فيما مضى تشهد على ذلك اطلال المعازل والمخافر والتلال الصناعية والآبار والقنوات والسدود والارصفة والآثار الارامية والنبطية والتدمرية والرومانية والقصور العربية الاموية .. المشيدة حول بنايع ومسائل وخزانات مياه قد غاضت ورقدت حولها اطلال وخرائب ورسوم تندب مجدها الدائر مما سيأتي وصفه .

وهذه البادية كانت منذ اقدم المصور وما برحت ديار البدو ومنجمهم ومسارح غدواتهم وروحاتهم ومطارح حروبهم وغزواتهم يتجولون في ارجائها الشاسعة وينجمون سعياً وراء الكلاء والماء والدفء لما شيتهم حسب تقاليد معروفة واتفاقات محدودة بينهم كل منهم في بقعة منها قد تألفوا عليها وتقاسموا ، وهم قد اكتسبوا حق التجوال والنجمة في البقعة التي اختصوا بها اما عقيب حروب طويلة مع الذين

كانوا يحتلونها من قبلهم فتوصلوا في النهاية الى ابتلاعهم او افنائهم ، واما نتيجة الحلول والدخول بين عشيرتين كانتا موجودتين سابقاً فدفعوها وافسحوا لانفسهم منزلاً بينهما . ومن ثم حدث من جراء هذا الدفع والتوسيع عداوات وحزازات توارثها جيل عن جيل فأدت الى انقسام هذه العشائر وتعددتها والى معاناتها حياة مضطربة بالشقاق والعراك الدائمين ، ناهيك الجهد وشظف العيش ومشاق الارعاء والاسقاء والقدو والرواح وراء الماشية الجراة .

والبادية تنقسم بادئ ذي بدء الى قسمين ؛ وذلك بحسب قربها الى المعمورة او بعدها و كثرة امطارها وبقاء اعشابها او قلة ذلك . فالقسم الاول القريب وهو قسم السهوب ؛ ذو امطار سنوية يتراوح ارتفاعها بين ١٠٠ و ٣٠٠ ميليمتر ، ومن ثم كان هذا القسم اغزر امطاراً واوفر اعشاباً ومراعيه اطول بقاءً ، وهو ذو آبار وينابيع في كثير من الاماكن ، جعلته اصلح للارتباد وجولان العشائر من القسم الثاني ، وفيه منطقتان يفصلها سقي القرآت ؛ الشامية التي على عین هذا السقي والجزيرة التي على يساره . وهذا القسم يشبه السهوب المعشوشبة في جنوبي روسية مما يدعوه الافرنج steppe . وتقدر مساحة هذا القسم في بلاد الشام بنحو ٦٧٣٩٠٠٠ هكتار (١) . والقسم الثاني البعيد ؛ وهو البادية الحقة ويدعى (الحداد) ، ذو امطار سنوية لا تزيد عن مئة ميليمتر ، ومن ثم كان فقيراً بالامطار واعشابها ومياهه قصيرة العمر سريعة الزوال عقب انتهاء فصل الشتاء ، وتقدر مساحة هذا القسم الداخل في خريطة الجمهورية السورية بـ ٣٨٦٣١٠٠ هكتار اي ان مجموع القسمين يبلغ ٢٠٦٠٣٢٠٠ هكتار . والى اقارئ اوصاف كل من هذين القسمين ومناطقهما الجغرافية التي اصطلح عليها سكان البادية :

الجزيرة . — هي البراري الممتدة على ضفة الفرات اليسرى بينه وبين الدجلة . وقد كانت في العصور الجيولوجية فيما يظهر من شكلها وتركيب تربتها بحيرة واسعة مضمورة بمياه هذين النهرين . والجزيرة تقسم الى ثلاثة اقسام :

الجزيرة العليا وتشمل كل القسم الجبلي الشمالي منها ، والجزيرة الوسطى والجزيرة السفلى ، فالجزيرة الوسطى في عهدنا هي داخل الحدود الشامية كما ان الجزيرة السفلى داخل الحدود العراقية ومنتها في تكريت على الدجلة ، اما الجزيرة العليا فهي داخل الحدود التركية . قال ياقوت في معجمه « الجزيرة هي التي بين دجلة والفرات مجاورة الشام تشتمل على ديار مضر وديار بكر . سميت الجزيرة لانها بين دجلة والفرات ، وقال « وهي صحيحة الهواء جيدة الريع والنماء واسعة الخيرات بها مدن جائلة وحصون وقلاع كثيرة . ومن امهات مدنها حران والرها والركة ورأس العين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميافارقين والموصل وغير ذلك . . . وقد صنف لاهلها تواريخ وخرج منها اثمة في كل فن غزاها عياض بن غنم في سنة ١٧ وفتحها .

قلت ، والجزيرة على خلاف الشامية ذات سهول شاسعة مستوية احسن استواء وتربة ذكية اي ذكاء واعشاب ومراع نامية كل النماء مع امطار غزيرة (١) وانعام وزروع وفيرة وانهار وجداول كثيرة ناهيك منها الخابور والبايخ والجفيع (هرماس قديماً) والرد والجراح وخنيس وغيرها .

وقد كانت ضفاف الخابور تتفجر منها الترع والقنوات العديدة عليها السدود المحكمة الجميلة . وناهيك بسد السبع سكور والسد الواقع ما بين عجاجة ومشفقة وسد تل الزمان التحتاني وترعة دورين التي تنشأ من الخابور عند الصور وتنتهي في الفرات ازاء ابي كمال ونهر الحام ونهر الشمساني ونهر التف وغيرها . وكل من هذه السدود والترع يتفرع في قنوات كانت تمتد عشرات الكيلو مترات وتروي الوف البكتارات المزروعة . وفي شجر الخابور تقول الفارعة اخت الوليد بن طريف الشيباني احد الخوارج في مرثيتها لاختها المذكور :

ايا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

(١) مدد كمياتها السنوية في قضاء الحسبة ٢٧٢ وفي قضاء الفامشلية ٣٥٨ وفي قضاء ديوك الخابور للجزيرة العليا ٥٠٠ ميليمتر وهذا المعدل الاخير يشبه ما يكون في السواحل .

وفي رثاء الخابور يقول الربيع بن ابي الحقيق اليهودي من ابيات :

دور عفت بقرى الخابور غيرها بعد الانيس سوا في الربيع والمطر
ان تمس دارك ممن كان يسكنها وحشاً فذاك صروف الدهر والغير

اجل، كانت الجزيرة في العصور القديمة والمتوسطة وحتى اواخر العصر العباسي وخلال غارات الصليبيين والمغول عامرة بالمدن والقرى زاخرة بالحقول والسكرور والسيود، والترع التي تدل عليها الانهار المندفرة والتلال الصناعية والاطلال الاثرية المنتشرة بكثرة كمنجالت وهي من بقايا عهود الحثيين والآشوريين والبابليين والسليقيين والرومانيين والعرب خربت غارات المغول والصليبيين وفوضى عهد العثمانيين . ومن دولعي السروران العمران القديم بدأ يعود من عهد قريب رويداً رويداً . فقد كثر نهافت النازحين اليها بعد الحرب العامة الماضية وتقسيم الحدود الحالية واستقرار الامن منذ سنة ١٣٤٧ هـ . وهؤلاء النازحين هم من مختلف الطوائف والاديان واللغات كالكرد والسرمان واليزيدية والارمن والنسطوريين اللاجئين من بلاد الترك والعراق ويسمونهم الآن الآشوريين ، كما اقبل على الجزيرة الطاعون باستغلالها من ابناء المدن الشامية . هذا عدا ما كان فيها من مهاجري الشاشان القوقازي الاصل وعدا عشائرها العربية الرحل امثال شمر وطي وحبور وبقارة وشرايين وفدعان ولد وفدعان خرصة ومشهور وعفادلة وولدة وابي جرادة ، ثم الكرد والتركمان اشباه البدو ممن سيأتي ذكرهم في القسم الثاني من كتابنا هذا .

وقد انطلقت المحارث الحديدية الحديثة والسواحب والحصادات والدراسات الآلية تشق براورها الشاسعة الخصبة وتبعث الحركة والنضرة وتنعحي السكون والبوار المستعمرين منذ قرون . وبدي بفتح قناة عظيمة على الخابور من تل مفاس جنوبي رأس العين الى شرقي بلدة الحسكة ، وسيكون طولها نحو ثمانين كيلومتراً ، وستروى ما يقدر بعشرة آلاف هكتار . فاذا تمت هذه القناة ووجد لها ايد عاملة عارفة وعملت فيها الزراعات المسقوية الصالحة كان منها ريع ورزق عظيمان ... وانتشرت الآن زراعة الرز في ضفاف نهري الجفجع والبليخ ، وقد انشأ في الجزيرة

داخل الحدود الشامية وجنوبي سكة حديد حلب — الموصل عدة بايدات منها القامشلية ازاء نصيبين عاصمة الجزيرة قديماً ، وقد ظلت نصيبين داخل الحدود التركية رغم وقوعها جنوبي الخط الحديدي ، وبلدة عمودة ازاء دارا القديمة والدرباسية ازاء مثيلتها وسميتها وتل ايض ازاء آقجة قلعة وغيرها مما اقتضته دواعي التحديد بين دولتي الشام وتركيا . وانشأت وسط الجزيرة بلدية الحسكة التي اتخذت قاعدة للمحافظة ، هذا إلى مئات من الضياع والضيعات المستحدثة المنتشرة اخصها قبور البيض وتل براق وتل الثمر ودير بك وغيرها . ومن هنا كانت أوداف الخلاء والقواء والتحل والجذب تنطبق على (الشامية) الفامرة القفرء اكثر من الجزيرة التي ستصبح عما قريب عامرة خضراء جلها ان لم يكن كلها .

وفي براري الجزيرة ولا سيما في ضفات الفرات والخابور والبلخ مئات من التلال الترابية الصناعية الاثرية التي لانظير لها في البراري الشامية . وقد كانت هذه التلال قرى عامرة في العصور القديمة ايام عمران الجزيرة وازدهارها في عهود الدول التي ذكرناها فخرت بالفن والحروب ولا سيما بغارات المغول والعليبيين وتراكم عمران فوق عمران وقديم فوق اقدم منه ، بدليل وجود الاطلال والعايات من جدران وآبار واواني خزفية ونقود أموية وعباسية يعثرون عليها . واشهر هذه التلال غرامة وشرموخ وخزف وابو خضر وراق واحمدي وابطخان والنواعة وهذلول ورميلان وبدر وطرطب والعيد وسلندر وجاغر بازار . وفي براري الجزيرة ايضاً تلال اخرى طبيعية حدثت من قضم السيول الارض التي حولها في عهود ما قبل التاريخ وبعده . وكانت نصيبين عاصمة سيف الدولة بن حمدان قبل ان يتولى حلب . وكان في الجزيرة في عهد ياقوت (القرن السابع) من المدن التي صارت الآن اثراً بعد عين (برقيد) التي قال انها في شرقي نصيبين بينهما عشرة فراسخ أي نحو ٥٠ كيلومتراً ولعلها كانت مكان تل رميلان الحالي الذي يخيم فيه الشيخ باشا العاصي من رؤساء شمر ، و (باشزي) مقابل برقيد و (عربان) ولعلها كانت مكان تل عجاج على الخابور و (دارا) في لطف جبل ماردين ، وهي الآن معروفة داخل الحدود التركية

تجاه عامودة و(سكير العباس) في الخابور كانت مكان تل شداي . وفي غربي الجزيرة حيث كانت ديار مضر كان من المدن الرقة قسبة ديار مضر والرافقة وحصن مسلة وترعوز وحران وسروج وكفر سيرين والدوسرية (قلعة جبر) وحصن هرقل وبرطوبة مقابل رحبة مالك بن طوق من اعمال الخابور قرب قرقيسيا (البصيرة الحالية) . . . الخ مما يحتاج تعداد ووصفه لمؤلف خاص بالجزيرة وحدها

قال الآلوسي في كتابه «بلوغ الارب في احوال العرب» عن الجزيرة مايلي : وصحاري هذه الديار مملوءة كلاً وازهاراً ، ولذا اتخذها آل بكر بن وائل من بين الديار دياراً . . . ثم قال : ولم يبق فيها اليوم ممن كان في الاعصر الخالية من اولئك القوم بل سكنها اناس مختلفو الملل والاجناس ، ليس فيهم مزايا من سلف ولا وضاعة من مضى وانصرف ، وسبحان من اخلى ديار بكر ممن يرعى زهر الآداب وريبعة وجعلها بلاقع لا تجد فيها من يتخذ لفهم كلام العرب ذريعه ، وكم كان فيها من اديب حلا نظمه وثره وارب رمى عن قسي الاصابة لا مثل عشره ، فنثرهم ريب المنون من كنانته ثر السهام ونظمهم على الرغم منهم في ديوان القبور تحت اطباق الرغام سقى الله ثراهم ما يوجب في دار الاقامة ثراهم . . .

الشامية . — هي السهوب الممتدة على ضفة الفرات اليمنى بين هذا النهر وبين خط وهمي يمتد من دمشق الى بلدة عانة على الفرات داخل الحدود العراقية . وكلمة الشامية في اصطلاح الحضرة والبدو من عرب انحاء الفرات هي الضفة اليمنى للفرات كما ان الجزيرة هي الضفة اليسرى . فهم لا يقولون ضفة اليمنى وضفة اليسرى بل جزيرة وشامية حتى انهم في شأن نهر الخابور احد روافد الفرات في الجزيرة يطلقون كلمة شامية ايضاً على البقاع التي في غربيه بينه وبين الفرات . ومن الغريب ان لا تعرف بادية الشامية قديماً بهذا الاسم . بل باسم (بادية السماوة) هكذا ذكرها المؤرخون والجغرافيون العرب ومنهم ياقوت . قال انما سميت السماوة لانها ارض مستوية لا حجر فيها . وقال ايضاً : بادية السماوة التي هي بين الكوفة والشام قفري اظنها

مسماة بهذا الاسم . قلت ان السامرة في عهدنا اسم بلدة في شرقي بغداد على الفرات وهي من مراكز اقصية لواء الديوانية وتشرف على البادية الممثلة في البعد غرباً نحو الشام وجنوباً نحو نجد . فكيف نسبوا البادية كلها اليها دون غيرها من البلدان الواقعة في غربها والتي هي اقرب الى الشام منها ؟ أم قصدوا قسم الحماة منها فقط ، ها هنا الغرابة .

والشامية تنقسم ايضاً إلى عدة مناطق جغرافية لها اسماء واوصاف خاصة منها الزور والمناظر والوديان والقفرة والشبل والدو .

فالزور او سقي الفرات هو الوادي الطويل المقفل الممتد على ضفتي الفرات من بالس « مسكنة » حتي الحدود العراقية . وفيه من المدن المعروفة (دير الزور) عروسة الصحراء في عهدنا واكبر مدنها وقاعدة محافظة الفرات . وفيه من البلدات بالس الحديثة « مسكنة » و السبخة والميادين والمشاراة وابي كمال ، ومن الحرب والقلاع القديمة الاثرية بالس القديمة « بارباليسو » ومدينة الفار وقلعة جمبر وقلعتا حلبية وزلبية المتناوحتان وارض صفين التي جرت فيها المعركة المشتومة بين علي ومعاوية و برج الديسي و ابراج ابي هريرة وخربة سورية (تفاسح القديمة) وقلعة الرجة « رجة طوق بن مالك » والمسجد المنسوب للامام علي قرب العشاراة ودورا اوروبس « الصالحية » ، هذا عدا الضييعات العديدة المؤلفة من بيوت الشعر في الشتاء او من الصبايط المصنوعة من اغصان الطرفاء والغرب في الصيف يقطنها اعراب من انصاف الحضرة اهل الزرع والضرع اخصهم العقيدات ذوو الفرق والاعداد الكثيرة والولدة والسبخة وغيرهم ممن سيأتي ذكرهم في القسم الثاني من كتابنا هذا .

ووادي الفرات ذو تربة مترسبة خصبة واقليم حار واستعداد تام للعبثروعات الزراعية الكبيرة لا يحتاج ارجاع عمرانه القديم الا لتبديل وسائط الري الحالية السقيمة المسماة بالكرود (جمع كرد) بالمحركات والمضخات الميكانيكية ، ثم تبديل آلات الحرث والزرع والحصد بما هو حديث منها . فلو كثرت على الاقل وسائط

الري الميكانيكية فوق ما هو موجود منها الآن على قلة في بعض الاماكن لاتسع نطاق الري وتضاعفت الفائدة من هذا الوادي الخصب الاغنّ الذي كانت فيه حضارة قديمة مشهورة بآثارها الوفيرة . والزور في الاصطلاح هو الاشجار والاعشاب والاشواك النامية من نفسها التي تغطي الضفاف الواطئة من الاودية والانهار في البادية ، ثم توسموا في ذلك واطلقوه على اودية الفرات وروافده وعلى بعض غياض الحور الملتفة في غوطة دمشق . ولم يرد الزور في كتب اللغة بهذا المعنى ولا بهذا اللفظ فمن أين ومتى نشأ ومتى سميت دير الزور بهذا الاسم ؟ وقد كان اسمها قديماً (اوزارا) أو (آزورا) وسمّاها ياقوت (دير الرمان) قال عنها مدينة كبيرة ذات اسواق للبادية بين الرقة والخابور تنزلها القوافل القاصدة من العراق الى الشام . قلت وليس غيرها ينطبق عليه هذا الوصف .

واما المناظر وهي الواحات او القرى المسكونة وسط البادية الشامية كتدمر وأرك والسخنة والقريتين ولو احق السخنة كالطيبة (٢٥ كيلو متراً عن السخنة الى الشمال) والكوم (١٥ كيلو متراً الى شمال الطيبة) . وهذه القرى كأنها جزائر مشورة وسط بحر ضخّم او كأنها غيطان خضراء وسط بوادي قفراء . وقد ذكرها ياقوت في معجمه باسم المناظر ايضاً ، مما يدل على ان هذه التسمية قديمة ، مردها فيما زعموا الى ان هذه القرى ينظر بعضها الى بعض او يكاد ، وفي كتب اللغة المناظر اشرف الارض اي ما اشرف منها وارتفع . وقد اعتاد اهل الحواضر الشامية ان يسموا سكان قرى المناظر بالسخانة نسبة الى السخنة احدي القرى المذكورة . ففي كل من دمشق وحماة وحاب وسفيرة ودير الزور احياء خاصة يقطنها جوالي من هؤلاء ويسمون بالسخانة ولو كانوا من اهل تدمر والقريتين ، كما اعتاد البدو ان يسموا كل الجمالة الذين ينقلون السلع التجارية في البوادي بالسخانة ، ذلك لما لاهل السخنة من المقدرة والمعرفة باختراق البوادي واجادة النقل والمهارة وحسن الوساطة في البيع والشراء بين البدو والحضر ، كما اعتادوا ان يسموا عقلياً (عكيليّاً) كل جندي هجان نشأ من قرى مقاطعة القصيم في

نجد ولو كان من غيرها ، لما للعقيل من التفوق والمقدرة على الجندية ، كما اعتادوا ان يسموا (كبيسياً) كل بائع يلحقهم في حلهم وترحالهم ولو لم يكن من اهل الكبيسة المشهورين بمذقهم في التجارة ، والكبيسة قرية في العراق على سيف البادية وغربي الهيت .

وبعد ان قضت السكة الحجازية على نقل الحجاج على الابل ومنذ ان ظهرت السيارات واخترقت مسالك الصحراء وحملت المسافرين والسلع التجارية وأغنت عن الابل والمرزقين بالابل انصرف (السخنة) الى العمل والتكسب بنواتج الصحراء ، كالقلي الذي يستخرجونه من حرق نبات الشنان وكالزيت الذي يستخرجونه والزيتون الذي يقطفونه من اشجار الزيتون حول قريتهم ، ومثلهم في قطف الزيتون اهل تدمر ايضاً ، والكأمة التي تنمو في البادية في سني الخصب ، وعرق السوس الذي يقلعونه في انحاء دير الزور وعين الكوم ، والسرأس الذي يجدونه في الجزيرة في انحاء ثرية الجفرة وثرية الملح ، والماديات (الاتيكة) التي ينشونها ويستخرجونها من الاطلال والمدافن حول تدمر والسخنة والطيبة والكوم والندويات والكديم والراففة وقصر الخير ، ومن جلود الحيوانات البرية وعظام الجمال ، هذا الى قليل من الزراعة المسقية حول قراهم ، ومن تربية الغنم والمز وما تصنعه نساؤهم من البسط الملونة المشهورة بجودتها وما يقوم به رجالهم من قص صوف الغنم ووبر الابل ومداداة الابل المصابة بالجرب لدى العشائر ، ومن تربية الصقور واستخراج صغارها من أعشاشها في جبل الضاحك وقد كانوا يبيعون الصقر بنحو عشرين ليرة ذهبية .

واما الشبل فهو البراري الممتدة شرقي حمص وحماة وجنوبي حلب وغربي طريق تدمر والرقه ، وقد اخذوا هذه الكلمة من مكيال الخبوب المسمى شنبلاً المستعمل في انحاء حلب وحماة وحمص وهو بحجم حمل او نصف حمل بدير وهو وزن ٢٢٠ كيلو غراماً في حمص ونحو نصف ذلك في حلب ، ولم نغثر على هذه التسمية في الكتب العربية القديمة ، فمن اين جاءت ومتى استعملت ؟ هذا وبراري الشبل

منزل عشائر حمص وحماه وحلب الذين سنتحدث عنهم في حينه . وفيها من المدن والاماكن الاثرية مدينة الفارقرب (بالس) ومدينة الرصافة (سرجيو بولس) وتدمر وخصاصرة والاندرين واسرية وقصر ابن وردان وقصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي وسد الخربقة وغيرها .

واما **الرو** بفتح الدال فهو سهل واسع مستطيل الشكل كأنه وادعظيم محصور بين سلسلة جبال (الشومرية والشفاء وشاعر والايض) في غربه وشماله وسلسلة الجبل الشرقي وجبل الرواق في جنوبه ، وذراعها نحو ٩٠ في ٣٠ كيلومتراً ، ويقع بين القريتين وتدمر ، ويخترقه طريقان للسيارات الاول من تدمر الى دمشق والثاني من تدمر الى حمص ، كما يخترقه انابيب النفط العراقية المذهبة الى طرابلس . وفي وسطه احدى محطات هذه الانابيب واسمها تيفور (ت ٤ — طرابلس ٤) . والدو والدوية في اللغة المفازة ، وسهلنا هذا هو مفازة بحق لوحشته واققراره ، وفي غربه الاقصى من الميون والآبار التي تردها الاعراب عين القمقوم وعين الجبابة وبئر روضة وفي وسطه بئر قصر الحير وفي شرقه الاقصى عين البيضاء وبئر طواله وفي شماله بئر مهران وبئر مسرب .

واما **الروبانة** فهي البراري الممتدة على عيين ويسار الحدود التي بين العراق والشام في شرقي تدمر والرطبة وجنوبي ابي كمال ، تسيل فيها بعض الاودية المنحدرة من هضبة الحماد ولا سيما من حول جبل عنزة للانصباب في الفرات كوادي عامج ووادي حوران ووادي الرتقة ووادي عكاش ووادي الصواب ووادي المياه ووادي علي وغيرها ، تنجع اليها عشائر عنزة لوفرة كلاءها ومائها .

واما **القعرة** او الجمارة فهي وهدة عظيمة مرتفعة الحروف والاكتاف ذراعها نحو ٦٠ في ٣٠ كيلومتراً ، تقع داخل الحدود العراقية بين الرطبة وابي كمال تنجع اليها عشائر عنزة وخاصة الاسبعة والعمارات لوفرة كلاءها وتعدد مسايلها وآبارها كبئر الراح وبئر ملوصة وبئر الاغرى . وللقعرة اودية تصب فيها تأتي من جبل عنزة يسمونها (المفايف) يخشى البدو دخولها ليلاً خوفاً من الجن

الساكين فيها فيما زعموا ، حتى في النهار لا يدخلها احدهم منفرداً بل مع جمع . . . وللقعة مدخل في الشمال يدعى الحلقوم وهو واد متصل بوادي علي الذي يصب في الفرات شرقي بلدة ابي كمال . وفي الاكبات المشرفة على الحلقوم حصن اثري يدعى قصر حلقوم كان يحرس الدخول والخروج .

واما **الحمار** وزان سحاب فهو القفار الموحشة والقدافد المعطشة التي تمتد في جنوبي تدمر حتى النفود وتشترك فيه دول الشام والعراق والاردن والمملكة السمودية . وهو (الصحراء) الاصلية في عرف من لا يعرفون جغرافية البادية ولا يميزون بين اقسامها . وتخرقه طريق السيارات الذاهبة من دمشق الى بغداد والاخرى القادمة من حيفا الى بغداد . والحمار صميم البادية ولها اقسامها مدخلاً وابعداً منتجماً واروعها منظرأ . ومن الغريب ان لا يرد اسم الحمار في معجم البلدان لياقوت ولا في غيره من الكتب الجغرافية والمعاجم اللغوية العربية ، فهل هذا الاسم حديث في لسان البدو ؟ .. وماذا كانوا يسمون الحمار قديماً ؟ .. وهل هو لمحمدة ارضه بالنظر الى ان ادنى مطر يسقط عليه ينبت كلاً وافراً ترطاه ماشية الاعراب ؟

واما **الحرة** او حرة الراحل نسبة الى واد فيها اسمه وادي الراحل المنحدر من صلب جبل الدروز الشرقي الجنوبي في قضاء صالحند ؛ فهي وعرة عظيمة تمتد داخل الحدود الاردنية في الجنوب الشرقي من الجبل المذكور ، بين محطتي احفاب (حيفا ه) واجفور (حيفا ع) لانايب النفط العراقية . وهي مؤلفة من صخور بركانية صغيرة ملاعة سوداء كالفحم الحجري مصفوفة كصف اربعة الطرق قد قمتها قمم جبل الدروز كما قد قذفت حرتي اللجا والصفاء . وتشق في هذه الحرة بعض عشائر جبل الدروز كالمساعيد والشرقات والمظلمات وتسرح قطعانهم ، فاذا جاء الصيف وحفت غدران وادي الراحل صعدوا الى جبلهم . وكانت هذه الحرة في عصور التاريخ الاولى شبه مأهولة تدل على ذلك اطلال المباني الحجرية والادوات الظرائية التي وجدت فيها ، ثم آثار الخفاف والرصيف الروماني المتجه من صالحند شرقاً ، ثم الكتابات

الصفوية الكثيرة . وفي وسط هذه الحرة انشأت في عهدنا احدى محطات اتايب النفط المراقبة ورقمها (حيفا ٥) = اجفايف ، كما انشي طريق معبد بالزفت احسن تبديد وامتنه ممتدين حيفا والرطبة . قال ياقوت في معجم البلدان : الحرة ذات حجارة سود نخرة كأنها احترقت بالنار والجمع الحرات . والحرار بين دمشق والمدينة كثيرة عد منها ياقوت ثمانين وعشرين ، منها حرة الراجل هذه . قال النابغة :

يَوْمَ بَرِمَى كَأَنَّ زَهَاهُ إِذَا هَبَطَ الصَّحْرَاءُ حَرَّةَ رَاجِلٍ

واما وادي السرحان فهو واد طويل عظيم يعد جغرافياً من بلاد الشام وان كان الآن في اقصى الشمال الغربي من الحدود السعودية وفي جنوبي حرة الراجل ، وهو كثير الآبار لا يظلماً مرثاده وكثير الملح في ممالحه المعروفة بالقريات . وهو ينسب الى عشيرة السرحان التي كانت اقوى عشائر حوران في القرن العاشر الهجري ثم اضمحلت الا بقية باقية منها في شرقي اربد من اعمال شرقي الاردن . ويقال ان اسمه كان قبلاً وادي الازرق وانما اكتسب هذا الاسم بعد ان احتلته السرحان ، واكثر اراضيها سوداء مثل حلك الغراب ، بركانية الاصل والتركيب وكلها اوعار وحرار ، وقد نسب الى السرحان وهو الذئب ، لان الاعراب يتوهمون ان الذئب تكثر فيه . وفي وادي السرحان ناحيتان يتبعهما عدد من القرى ، الاولى ناحية القريات (قريات الملح) في شمالي وادي السرحان ، وهي تصغير قرية وضيقت الى الملح ، لان فيها في قرية كاف ملاحات طبيعية ، وهي عدة واحات من النخيل في كل منها عدة بيوت قروية من اللبن . واجل هذه الواحات كاف فائرة فمنة . وفي كاف ما يزيد على عشرين الف نخلة يرتزق اهل القريات منها ومن الملح الذي يستخرجونه من ملاحاتها وينقلونه الى حوران وشرقي الاردن على متون الزوامل ويادلوته بالقمح وغيره .

والثانية ناحية الجوف ؛ وهي : ناحية في اقصى جنوبي وادي السرحان ، كان اسمها في صدر الاسلام دومة الجندل وهي تقع في غور من الارض تحديق بها الهضاب والآكام ، ومن هنا كان تسمية البدو لها بالجوف ، وام قراها

سكاكة وهي المدينة الرئيسية وسط منطقة زراعية كبيرة واقعة الى شمالي النفوذ على رأس وادي السرحان . وموقعها الجغرافي مهم لوقوعها على الطريق المباشر ما بين بلاد الشام ومنتصف الجزيرة العربية وهي يمر القوافل والقبائل الى الشام منذ اقدم العصور .

والانكليز والافرنسيون حينما تقاسموا النفوذ في هذه البادية جعلوها قسمين ومدوا بينهما خطاً وهمياً يبدأ من قرب دير الكهف في جنوبي جبل الدرور ويسير نحو الشمال الشرقي في خط سوي حتى بلدة ابي كمال على الفرات ، فما كان في شمالي هذا الخط وغريبه فهو للشام وما كان في شرقيه فهو للعراق ، ويتفرع من هذا الخط خط سوي آخر نحو الجنوب الشرقي من نقطة قرب جبل التنف (على طريق سيارات دمشق - بغداد) الى ان يباغ جبل عنازة ، فما كان شرقي هذا الخط فهو للعراق وما كان في غريبه فهو لشرقي الاردن . اما ما امتد في جنوبي جبل عنازة حتى النفوذ وما بعدها فهو للمملكة السعودية . هذا في الشامية ، اما في الجزيرة فالحد بين الشام والعراق يسير من ابي كمال شمالاً على خط سوي فيحترق ممالح الروضة فوادي العجيج فتل صفوق فتل خليل فتل رحولي ، وهذه التلال غربي جبل سنجار ، ثم ينمطف نحو الشرق الشمالي الى محطة تل كوشك ومنها الى فسخابور فجزيرة ابن عمر على الدجلة حيث يلتقي بالحدود التركية الداهية غرباً نحو نصيبين ورأس العين وجرابلس . الا ان هذا التحديد والتقسيم لم يكن متعادلاً ، ولم تسمع فيه كلمة العشائر وتراخ حقوقهم وما تعارفوا عليه .

وليس في هذه البادية اثر للرمل ؛ اللهم الا شي قليل في غربي تدمر قرب عين البيضاء في وادي الرمل ، وفي شرقي تدمر حول بعض الاودية والسياب كملحة تدمر التي ذرعها ١٢ كيلو متراً في مثله وكسبخة التليلي وسبخة المنبطح . واما تربتها فرملية كلسية بيضاء او صفراء دمة مختلطة بقسم غير يسير من التراب النباتي فاذا نالها نصيب من المطر اهتزت وربت وانبثت كثيراً من الاعشاب والجنبات التي تستضيفها الغنم والابل وترعاها . لاجل هذا يخطي من بطن ان بادية الشام

مُدَدَات رمل كعمرار بخلافها من رايته الى هي كلاله من

اسمه ما لسهوب الحما سيب Steppes

فلوات رملية كدهناء نجد او نهامة الحجاز واليمن ، بل هي كما قدمنا اشبه بالسهب المعاشيب التي في انحاء روسية الجنوبية مما يدعوه الاوريون «استبب steppe» .

الاقليم

يسود هذه البادية اقليم صحراوي عبوس قاس . ففيه موسمان ؛ الصيف ذو الحر الشديد والشتاء ذو البرد الشديد ، يفصل بينهما موسمان قصيرا الاجل هما الخريف والربيع . فالشتاء يبدأ من كانون الاول وينتهي في آذار بجملة درجاتها العظمى بين ١٦ و ٢٠ والصيف بين ٧ و ٢٠ ، وفي بعض السنين يقرس البرد جداً وتزداد قسوة الشتاء على البدو فينالهم منه العناء العظيم ، وقد يهطل الثلج قليلاً في بعض السنين ، وفي ما ندر منها يهطل بشدة . ففي سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) وكانت سنة عصبية في البادية والحاضرة بقي الثلج الغزير غامراً البادية كلها نحو اسبوعين واهلك وقتل كثيراً من الابل والغنم رغم اسنمتها وألاياها . وفي سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) ظلت محطة الرطبة التي هي في وسط الحداد مغمورة بالثلج بضعة ايام . اما الامطار فهطلت من تشرين الاول وتشرين الثاني الى نيسان بكميات قليلة لا تزيد عن المئتي ميليمتر في القسم الاول الغربي من البادية (الشامية) ولا عن المئة ميليمتر في القسم الثاني الشرقي (الحداد) . وربما تجاوزت هذه الارقام في ما ندر من السنين . (١)

وعند هطول المطر سرعان ما تبتلعه تربة البادية الرخاء العطشى وتجذبه الشقوق البعيدة التي في اجوافها . وتهطل المطر غير مطرد . فهو اما ان يقع فجأة وبغزارة وروعة تدومان بضعة ايام ، واما ان ينقطع عدة اسابيع . وقد يكون له دورتان ؛ الاولى في اواخر تشرين الثاني واول كانون الاول ، والثانية في

(١) معادل كميات الامطار في دمشق ٢١٧ وفي حلب ٣٨٠ وفي حلب ٤٢٣ وفي السويداء ٣٢٥ وفي دير الزور ١٤٤ وفي تدمر ١١٦ وفي عطف ١٥٧ وفي محطة تي فور ١٢٣ وفي حرايس ٢٤٤ وفي الرقة ١٦٧ وفي الحسكة ٢٨٢ وفي القامشلية ٣٢٤ ميليمتر .

كانون الثاني حتى اوائل آذار ، وبينهما فاصلة ، واذا ولي نيسان لا يبعد لسلانواء أثر .

والظاهرة الجوية الوحيدة في اطرافها هي (الرياح) . والغالبية منها في الشتاء هي الشرقية وفي الربيع الغربية . والرياح الشرقية الجنوبية هي التي تجلب الغيث في فصل الشتاء ، واذا مالت نحو الشمال الغربي تنبدد الغيوم ويعود الصحو بسرعة . والرياح الشرقية الجنوبية حارة ، والغربية والشالية باردة وقارسة . والضباب يقل حدوثه في دير الزور ويكثر في الحسكة ، وكذلك الصقيع الذي يفرش الارض صباحاً . والخريف معتدل الا انه قصير الامل فيحل الشتاء فجأة دون حالة انتقالية . ومثله الربيع الذي يفاجئ بالصيف .

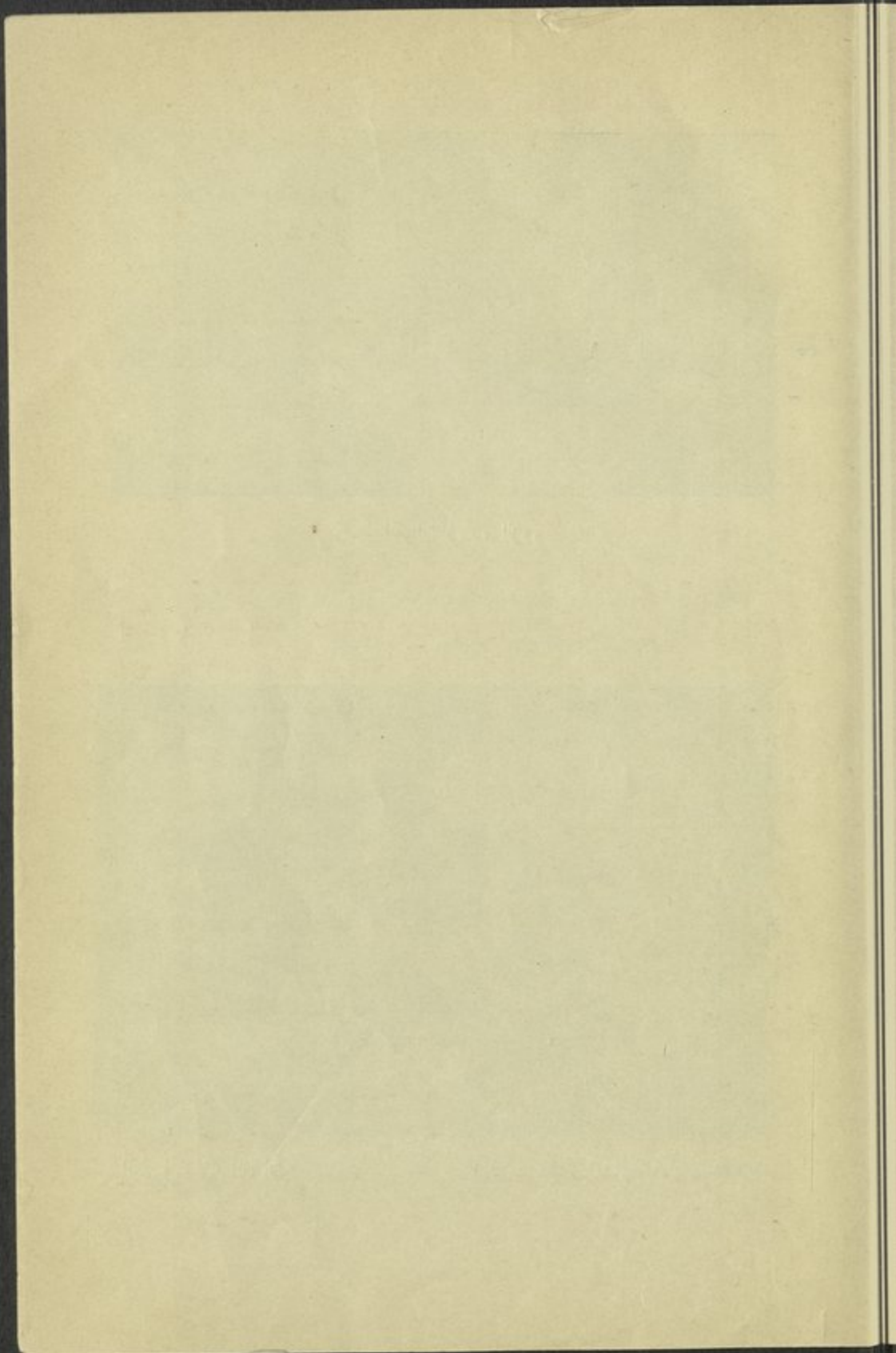
واقليم البادية شديد الحر في الصيف . وهذا الفصل يبدأ من ايار وينتهي في ايلول بحرارة درجتها العظمى في شهر تموز وآب في دير الزور $46^{\circ} - 48^{\circ}$ ، على ان معدلها خلال عشر سنوات 43° ، اما عند البدو وتحت بيوت الشعر فتصل الى 55° ، واذا سكن الريح يصبح المكوث في هذه البيوت مزهاقاً للانس . واذا الريح اشتد يثير الغبار ويرعج المقام ، فهو قلسا يكون رهواً عالياً . فالطبيعة في البادية دائماً اما في افراط واما في تفريط شأن اهلها .

والفرق بين حر النهار وبرد الليل في الصيف والشتاء لا يكون ذا بال ، بينما هذا الفرق في فصلي الربيع والخريف يكون كبيراً وخفيفاً يبلغ احياناً 30° درجة ، ومن هنا كان هذان الفصلان اسوأ الفصول في البادية من الناحية الصحية وتؤدي الامراض الحادثة من جرائه الى وفيات عظيمة في اطفال البدو .

اما الاعصار والزوابع الرملية التي تثور في البادية بين السماء والارض وتستدير كأنها عمود شاهق الارتفاع وتهيج الغبار والتراب فهي حقاً ظاهرة جوية مزعجة ومن اروع مشاهد الطبيعة التي تقض المضاجع . تراها مقبلة من جوف الصحراء او قلب الوادي وتكاد تشبه بادى* ذي بدء الخط المرسوم في الافق ثم ترتفع في الجو وتتضخم ويشد دفعها فتعصف ما مرت به من تراب وغبار وتديره في الارض

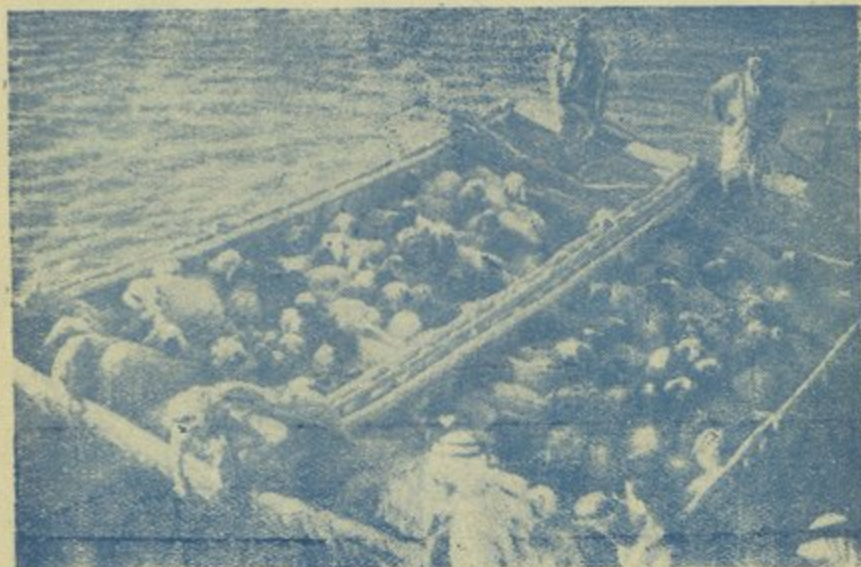
وتصمده في الهواء وتلتوي في هبوبها فتحمل حلزونات عظيمة تختلف ألوانها حسب لون التراب والبقاع التي صدرت عنها . وهي تحصبها وترفعها من عشرات الكيلومترات وتظهر كأنها الجدار السامي الى عنان السماء تملو وتتحرك وتتقدم وبعد برهة وفجأة تكتنفك وتغرقك في سحابة سوداء حمراء قهواء مكفهرة مضبثة لاحيلة لك وانت في ذلك العراء ان تجتنب هولها وويلها ، وتسمع وقتئذ خشخشة حبات الرمل وصدى احتكاكها باستمرار وهياج ، تبصر ذرات التراب الناعمة ينطاطح بعضها بعضاً ويموج ، وتلطم هذه الحبات والذرات الوجوه لطم السياط وتجفف الخلق وترهق النفوس ويعمي الغبار المتصاعد العيون وتميم الحيوانات على وجوها فما عليك وقتئذ سوى الانبطاح وراء مطيتك والتدثر بالعباءة وان الرأس بالكوفية والدعاء بان يتداركك ربك بلطف من رحمته ، فاذا انقضت هذه الداهية الدهماء وانقشع قمامها وغبارها وعاد الى العقول صوابها تخال نفسك قد خرجت من الظلمات الى النور بينما انت لاتزال وسط السهل الذي يعود الى اشراقه وعمقه ، وتلمح في الافق القصي المصفر المغبر كيف تدبر تلك العاصفة الهوجاء وتبعد وتضمحل .

ومن اقام في دير الزور وامثالها من بلدان الفرات يعرف قدر هذه الزوايع والمواصف بعلامها واقاعيلها ؛ فهناك ينما ترى السوق مفتوحاً والناس في بيعهم وشراهم اذ يخفون سراعاً لاغلاق الخوانيت فيقبعون فيها او في دورهم ويغلقون الابواب والنوافذ وتقفر الشوارع من المارة . فاذا هبت الزويعه تنحجب الشمس ويتلون الجو بلون اسود قاتم واحمر متأجج ثم بلون اصفر ولا يبرح في هذه الالوان والظلام حتى تحف الوطأة بعد ساعة او ساعتين او اكثر او اقل ويعود الى لونه الطبيعي فيخرج الناس من ملاجئهم كأنهم انقلبوا من الظلمات الى النور او كأنهم اصبوا بغارة جوية شعاء فيرون ارض الدور والغرف قد ملئت بالغبار والرمل الناعم مما احكموا اغلاقها ، لان الغبار يدخل من كوى المدافئ وثقوب المفاتيح ، وهم يسمون هذه الزويعه (عجة) تصغير كلمة عجاجة الفصحى . اما





جسر الفرات في دير الزور



نقل الغنم في سفن الفرات

كتاب عشائر الشام تجاه الصحيفة ٣٣

عواصف الثبار العادية فهي كثيرة في البادية، وهي ترفع كل شيء وتغمره، حتى
انها تدخل في الطعام والاثاث والخياشيم وتحرم لذة الطعام والنظافة وحتى النوم في
بعض الليالي. فالبادية على الجملة لا تصلح للاقامة الا في شهري الحريف (تشرين
الثاني وكانون الاول) والربيع (آذار ونيسان)، لان الاقليم شديد وقاس والماء
قابل وردي، ومرارة الحياة غير يسيرة لمن لم يعتادها من ابناء الحواضر، لا يعيش
فيها الاكل احيى غمزات صابر على النكبات، ومن كان حايض الجوع والعطش ذا
صحة لا تختل وعزيمة لا تفتّر، واذا توغلت فيها فهناك المشاق والمصاعب بعضها
ينسبك بعضاً (١) ويلزمك بعضها لزام الظل فيوماً ترتشف الماء العكر من
الموحدات في قعور الآبار والخباري ويوماً تكاد تهلك من الظلما تحرقك في النهار
شمس الهاجرة وتتألم في الليل من شدة البرد، واذا كان الامن مختلاً لا تأذن ربك
بشب النار خوف ان يهتدي اليكم اللصوص... وهكذا.

النبذة

اذا حل فصل الحريف يغادر البدو منازلهم في المعجورة ويشرعون بنجعهم
نحو البادية طلباً لاكلها فيظعنون رويداً رويداً وزرافات زرافات ويتنقلون من بئر
الى بئر ومن مرعى الى مرعى وعمنون كلما توالى المطر الوسمي واهتزت الارض
وأعشبت. واذا جاء فصل الشتاء وهطلت الامطار في ابائها وتتابع على الحمود من
انوائها ولم تشد عما يطاق من قراها وبردها تخضر البادية اخضراراً جميلاً وتعدو
بقعة اريضة بهجة وتكتسي بانواع النباتات والاعشاب فترتع فيها الابل والغنم وتلد
بكثرة وتمتلئ الغدران (جمع غدير) والخباري (جمع خبرة) والخرايج (جمع

(١) قيل لاعرابي كيف تصنع بالبادية اذا انتصف النهار وانتعل كل شيء
ظله... فقال وهل العيش الا ذاك. يمشي احدنا ميلاً فيرفض عرقاً كأنه الجمان
ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه في ايوان
كسرى (عن الحسن والاضداد)

خرمجة) وهي شبه المستنقع والعقالات (جمع عقلة) وهي بئر قليلة العمق يمكن حفرها
بأبسط الادوات حتى بالصباح المعد خبز الخبز . واذا جاء فصل الربيع وحسن
وروده وازدهت رياحيته ووروده يملو ثناء الحلال ويدوي صوت مخض الالبان
وينساب البدو ويوغلون في تجمعتهم الى (قلب الحماة) يتبعون مساقط الغيث
وغاوض الخباري ومنابت الكلا وملاجي الدف* ويطلقون أمدا النجمة كلما اخصبوا
وامرعوا وارثوا من الماء وطاب المقام والعيش الرخي وكثرت الكفاءة وقلعتها
نساؤهم وطبختها .

وكما تتابعت امطار الشتاء والربيع وزخر الماء في الخباري و (الوديان) عم
الفرح مضارب البدو وطفح البشر والاعتباط على وجوههم فيشبعون ويسمنون م
وماشيئهم وتكثر الاعراس والولائم عندهم ويمكف بعضهم على الصيد والقنص
بقصد الابهو والانس . وهم كما امعنوا في التشريق او النجمة متموا نواظرم بهيج
المناظر المتعددة المتجددة واستنشقوا الهواء النقي الفياح باريج العرار والخزامى
والشيخ والقيصوم وغيرها من زهور البادية وعطورها مما جعلهم يؤثرون ربيع
البادية على ملاهي الحاضرة . وهم لهذا كله ولتبدل المناظر امامهم كل حين عديمو
الحاجة لمسارح الحواضر ومباهجها . ذكر المقدم مولر في كتابه (في الشام مع
البدو) ان مزيد بن قعشيش شيخ ضناً ماجد (الخروسة) من الفدعان وعقيدها
المفوار في الحرب المتوفي في سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٩ م) كان قد اتى مرة الى
حلب في سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) فدعاه احد ضباط مراقبة البدو الفرنسيين
ذات ليلة الى سيرة حافلة في احد بساتين حلب وزين البستان بالانوار والازهار
والاطعمة والاثمار وكل وسائل اللهو والطرب . وبعد ان مكثوا مدة واخذوا من
الحظ عدة سئل الضابط الشيخ مزيد ، وقد وجده ساهماً في الجلسة كلها غير آبه
لشيء كأنهم في واد وهو في واد كيف وجدت ليالي حلب يا شيخ مزيد ، فاجابه
« كلها زين وما علمتموه الليلة زين ولكن بريقنا في الربيع اكثر زينة وفتنة » .
ورحم الله الامير عبد القادر الجزائري المتوفي في سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣) فهو

لما كان في فرنسا جرى بين طائفة من ادبائها مناظرة في اي المعيشتين افضل معيشة البدو ام معيشة الحضرة، ثم طلبوا رأي الامير في ذلك، فنظم لهم قصيدة غراء جدية بالاعتباس هنا، اذ لم اجد في شعرنا القديم والحديث ابداع منها عتيلاً لحياة البداوة ومحاسنها ووصفاً لشغف البدو وتفضيلهم اياها على حياة الحضرة وما اوهمها، قال:

يا عاذراً لا مرمى قد هام في الحضرة	وعاذلاً لمحب البدو والقفر
لا تدمعن بيوتاً خف محملها	وتمدحن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تهمدني	لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر
او كنت اصبحت في الصحراء مرتقياً	بساط ومل به الحصباء كالدرر
او جلت في روضة قد راق منظرها	بسكل لوت جميل شيق عطر
تستشقن نسيماً طاب منتشقا	يزيد في الروح لم يمرر على قدر
او كنت في صبح ليل هاج هاتنه	علوت في مرقب او جلت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها	سرباً من الوحش رعى اطيب الشجر
فيها وقف لم تبق من حزن	في قلب مغنى ولا كد لدى ضجر
بناكر الصيد احياناً فنفته	فالصيد منا مدى الاوقات في ذعر
فكم ظلمنا ظليماً مع نعمته	وان يكن طائراً في الجو كالصقر
يوم الرحيل اذا شدت هوادجنا	شقائنا عنما مزنت من المطر
فيها العذارى وفيها قد جعلن كوى	مرقعات باحداق من الحور
تشي الخداة لها من خلفها زجل	اشهى من الناي والسنطير والوز
ونحن فوق جبال الخيل تركضها	شليلها زينة الاكفال والخصر
تطارد الوحش والغزلان نلحقها	على البعاد وما تنجو من الضمر
نروح للحي ليلاً بمسد مائزلا	منازلاً ملهمها لقطع من الوضر
تراها المسك بل اقفي وجاد بها	صوب الغمام بالآصال والبكر
نلقى الخيام وقد صفت بها نفدت	مثل السماء زهت بالانجم الزهر

قال الاولى قد مضوا قولاً يصدقه
الحسن يظهر في بيتين روثقه
انعامنا ان ات عند العشي تخل
سفائن البر بل انجي لراكبها
لنا المباري وما للريم سرعتها
فخيلنا دائماً للحرب مسرحة
لأنحمل الضيم ممن جارت تركه
وان اساء علينا الجار عشرته
تببت نار القرى تبدو لطارقنا
عدونا ماله ملجأ ولا وزر
شراها من حليب لا يخالطه
اموال اعدائنا في كل آونة
ما في البدواة من عيب تدم به
وصحة الجسم فيها غير خافية
من لم يمت عقدنا بالظعن عاش مدأ
ورحم الله امير الشعراء شوقي حيث يقول :

أكنت من الدور او القصور ترى هذه القبة الصافية ؟
كأن النجوم على صدرها قلائد ماس على غانية
فما (البيت) الا ديار الكرام ومنزلة الدم الوافية
لها قبلة الشمس عند البروغ وللحضر القبلة الثانية

ولكن ما ان ينتهي فصل الربيع وتنقطع الامطار ولا سيما اذا لم تبلغ السكيات
السوية التي ذكرناها (٣٠٠ مم في الشامية و ١٠٠ مم في الحماة) ، حتى يزوي

العشب ويقل المرعى وتجف مياه الخبارى والاولدية ، وما ان يشتد الحر في شهر ايار حتى يكلح بسيط البادية وينقلب كثيراً يبعث الانتفاض وتبرز ارض الجوع والعطش التي لا يمد فيها اخضرار ولا يبيض ماء ولا يحلو العيش . لهذا يشرع البدومند او اخر نيسان واوائل ايار بالرحيل والرجوع نحو المعمورة رويداً رويداً يسرون زرافات زرافات الى حيث يجدون مجالاً للعل والنهل من الآبار فيقيمون حول كل بئر مدة ثم ينتقلون الى غيره . فاذا اقتربوا من المعمورة وقفوا عند حدودها وخيموا في الاماكن الكافية لرعي مواشيهم وشربها وترقبوا انتهاء موسم الحصاد في القرى . ومن ثم يقصدون منازلهم التي اعتادوا ان يقيموا فيها ويستقروا فيبقون خمسة او ستة اشهر ثم يعودوا للنجعة وهكذا دواليك في كل عام . اما اذا جاءتهم اعوام ماحلة فاجذبت الارض وشحت السماء ونضب معين الماء او كلب البرد ومات الحلال من الجوع والعطش حينئذ يركبهم الجهد اي ركوب ويخيم عليهم البؤس وضنك العيش اي اخناء كما ادر كنا بعضه في سني (١٩٣٢ - ١٩٣٥ م) . وفي كتاب المحاسن والمساوي* (ج ٢ ص ٩٩ طبعة لينزيغ) وصف لهذه الحالة ما برج ينطبق على أعراب البادية في سني القحط والشدة رأينا من المناسب درجه هنا .

قال زياد لغيلان بن خرشة : احب ان تحدثني عن العرب وجهدها وضنك عيشها ، ، لنحمد الله على النعمة التي اصبحتنا بها . فقال غيلان : حدثني عمي قال : توالى على العرب سنون تسع في الجاهلية حطمت كل شيء* ، فخرجت على بكر لي في العرب ، فمكنت سبعة لا اطعم الا ما ينال منه بعيري او من حشرات الارض فشددت على بطني حجراً من الجوع ، حتى دفعت في اليوم السابع الى حواء (١) عظيم ، فاذايت جحش (٢) عن الحي فملت اليه ، فخرجت الي امرأة طوالة حسانة (٣) فقالت من ، قلت طارق ليل يلتمس القرى قالت لو كان عندنا شيء* لآثرناك والدال على الخير كفاعله ، حسن* (٤) هذه البيوت ثم انظر الى اعظمها

(١) الحواء : جماعة البيوت المتدانية وجمعها حوية (٢) جحش : تنحى وابعد عن البيوت (٣) حسانة : حسناء (٤) حسن : تعرف احوالها

فان يك في شي منها خير فقيه . ففعلت حتى دفعت اليه فرحب بي صاحبه وقال من قلت طارق ليل يلمس القرى . فقال يا فلان فاجابه فقال هل عندك طعام ؟ فقال لا فوالله ما قر في اذني (١) شي كان اشد على منه . قال هل عندك شراب ؟ قال لا ثم تأوه فقال ، قد بقينا في ضرع الفلانة (٢) شيئاً لطارق ان طرق قال فأت به فاتي العطن (٣) فابتعثها فاسمعت شيئاً قط كان اشد من شخب تيك الناقة في تلك العلبة ، حتى اذا ملاءها وفاضت من جوانبها وارتفعت عليها رغوة كجمة الشيخ ، اقبل بها يهوي نحوه ، فمثر يعود او حجر فسقطت العلبة من يده فما اصبحت بمصية افزع لقلبي ولا اعظم موقعاً عندي من افسكفاء تلك العلبة على مثل تلك الحال التي كنت فيها . فلما رأى ذلك رب البيت خرج شاهراً سيفه فبعث الابل ثم نظر الى اعظمها سناماً ودفع اليه مدية وقال يا عبد الله اصطل واحتمل . فجمعت اهوى بالبضمة (٤) الى النار فاذا بافت لإنها (٥) اكلتها ثم مسحت ما في يدي من اهانتها (٦) على جلدي ، وقد كان قحج (٧) على عظمي حتى كأنه شن (٨) ثم شربت شربة ماء وخررت مغشياً علي ، فما افقت الى السحر . وقطع زياد الحديث وقال لا عليك الا تخبرنا باكثر من هذا فمن المتزول به قلت : عامر بن الطفيل .

الحجران والنبات

اما الحيوان في البادية فقايل . منسه بعض انواع الحجل الارقش والاحمر ، والكدرى (٩) والدراج (١٠) وهي تكون في ضفاف الاودية . وثمة في بعض الهضبات العالية القطا شديد الطيران (١١) والحبارى الكبيرة

(١) وقر : ثقل (٢) الفلانة والفلان بالتعريف كناية عن غير الآدميين (٣) العطن : مناخ الابل حول وردها (٤) البضمة القطعة من اللحم (٥) بلغ لإنه : فضجه وادركه (٦) الاهالة : الشحم وما اذيب منه (٧) قحج : ييس (٨) الشن : القرية الخلق الصغيرة . (٩) - الكدرى : ضرب من القطا غير الالوان رقص الظهور صفر الخلق والضربان الآخران من القطا هما الجوني والقطاط . (١٠) - الدراج طائر يطلق على الذكر والاتي جميل المنظر ملون الريش . (١١) - القطا طائر في حجم الحمام سوته قطا قطا شديد الطيران ، ومن امثال العرب : هو اهدى من القطا .

(٤) المتوجة الطويلة العنق والذنب والتي تنشد في الصيد كثيراً. وثمة الطيور الجوارح كالنسور والعقبان والصقور والبزاة والرخمة والحدأة، وهذه الطيور الجوارح تتشارك مع بنات آوى والذئاب وتنازعها الجيف وأشلاء الحيوانات المائتة. وفي البادية حول سقي الفرات والخابور والبليخ كثير من طيور الماء وكثير من الدراج والحجل والسماطي والاوز والبط والطيور المسمى صياد السمك. وفي البادية اسراب الغزلان السارحة التي تختلف قليلاً بين الجزيرة والشامية، وفيها الوعول (٥) في جبل الرواق غربي تدمر، وبنات آوى والثعالب قرب الاودية، والارانب في موقع الخور جنوبي الدير، والخنازير البرية في الجزيرة في بحيرة الخاتونية وفي وادي الفرات وجبل البلماس وجبل عبد العزيز. وفي هذا الجبل ايضاً الاروية (٦) وفي البادية انواع عديدة من الضيباب ذات الاذنان المعقدة واليرابيع القصيرة اليدين والطويلة الرجلين، والسوام ابرص ذات الاطوال المختلفة التي تتراوح من خاتم سليمان الى الاوزاع التي طولها ٦٠ — ٧٠ سنتيمتراً والمقارب ذات السم القليل والعطاء والحرباء وام حبين وغيرها. وفي البادية من الحيوانات الضاربة بعض الفهود والسنائير البرية والوشق وعدد ضئيل من عناق الارض الذي يقول البدوانه يأكل الموتى. وكل هذه

(٤) — الجبارى يضرب به المثل في البلاهة والحمق يقال هو ابله من الجبارى وكل شيء يحب ولده حتى الجبارى قيل لها ذلك لانها اذا غيرت عشها ذهلتها وحضنت بيض غيرها. وهو طائر كبير اغبر اللون بقدر الاوز او اكبر لذيق اللحم. (٥) — الوعل هو تيس الجبل والجمع وعولله قرنان قويان منعنيان الى الوراء. (٦) — الاروية بضم الاول وكسره تقع على الذكر والانثى جمعه اراوي واروي على غير قياس. وفي مجمع الحيوان لامين المعلوف ان الاروية هي من الضأن الجبلية. لان لها صوف متدلى من اعناقها بينما الوعول ليس لها مثل هذا الصوف.

الحيوانات مع بعض الذئاب الشهب تقترب من الاودية وتهجر الهضاب . وتكثر الذئاب في الجزيرة وقد تسير كالمقطعان وتهاجم اذا جاعت . وليس في الهضاب سوى عدد ضئيل ومبعثر من الجباري والثعالب والقطا والغزلان . وفي اقصى جنوبي الحماة قرب النفود يعثر على قليل من طير النعام وهو يكاد ينقرض كانهقرض الغزلان من كثرة مطاردتها بالسيارات دون شفقة ولا رحمة . وقد انقرض قلبها الاسد من سقي الفرات ، قيل منذ سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٨ م) بعد ان كان يأوي في الاكثر الى غابات الطرفاء بين الدير والسبخة .

وجو البادية جاف وامطارها قليلة كما قدمنا ، وهذا ما جعل لها اعشاب خاصة بها ، جلها غث وقصير القامة . اما الشجر العظيم فلا ترى لها اثر الا في غيطان قرى المناظر كتدمر والسخنة والقريتين ، ففيها تنمو كل الاشجار المثمرة التي تعيش في بقية المدن الشامية حتى الزيتون . والشجر غير المثمر ينمو ايضاً في جبال البادية التي غربي تدمر وشماليها ويؤلف غابات لو تركت وحفظت لاصارت كثيفة كما هو الحال في جبل الباماس وجبل شاعر وجبل ابي الظهور وغيرها . وهذا الشجر هو البطم الذي يستخرج اهل السخنة من ثمره زيتاً شهيماً ويقطعون حطبهم ويحرقون فضجه ، وهم بذلك يكادون يبيدونه . اما النباتات الغثة القصيرة القامة فمنها بعض النباتات المعمرة يصادفها السائر في التلال وفي قعور الاودية والبدو يدعونها شجراً فكل نبت معمر عندهم شجر تذكر منها الروثة والحض التي تحبسها الابل حياً جماً في الخريف ، اما في الربيع فتفضل عليها الفايطة (وهي غير الفايطة المعروفة في المدن) مازالت هذه خضراء . ثم يأتي بعدها القيصقام والشعراة والشيخ والقيصوم والرمث والعجرم والنسلة والميرة والتل وغيرها . فالروثة حامضة تقوم للابل مقام التوابل وهي والرمث (١) وكذلك الشيخ والقيصوم اللذان لها عرف

(١) وفي المخصص لابن سيده ، الحمض من النباتات ما كانت فيه ملوحة والخلة ما سوى ذلك . وقيل الخلة ما كانت فيه حلاوة ، والعرب تقول الخلة خبز الابل

شدي تعبق منه البادية احب المرعى للابل لانها تسمن وتغني من جوع . اما النباتات السنوية التي تسمى (العشب) فهي القبا الذي يحبه الغنم كثيراً والصمة والخافور والمادان والبخاري والعظم والكريطة والشكارة والخصان والديدخان والمحروت والشلوة والخميمة والحريق والقورب والريسان والنصي والجرجير وغيرها مما يطول شرحه . وهذه النباتات العشبية تنشأ في كانون او شباط وتجنف في نيسان وهي تنمو في منحدرات الآكام وسفوح الجبال وتعد من اجود مراعي الغنم . والبدوي اذا ارتاد او وصف ارضاً مخصبة لا يبدأ إلا بذكر الاعشاب الطيبة كما كان يفعل البدوي الجاهلي . فقد روي ان اعرابياً وصف ارضاً احمدها فقال خلع شيخها وابقل رمتها وخضب عرفجها واتسق نبتها ومعنى قوله خلع شيخها اي أورق وخضب عرفجها اي اسود لخضرته واتسق نبتها اي تمام . ومن الاعشاب

تابع شرح الصفحة السابقة

والحمض لحمها او فاكهتها وانما تحول الى الحمض اذا ملت الخلطة وليس شيء من الشجر العظام بحمض ولا خلة ، وعن ابي حنيفة كل ما ملح من الشجر كله وكانت ورقته حية اذا غمزتها انفقت ماء وكان زفر الريح ينقي الثوب اذا غسل به واليد فهي حمض والمرعى كله عشباً كان او شجر خلة وحمض . وقال كل بلد لا يكون فيه حمض فهو عذى والابل العواذي التي لاترعى الحمض . قلت ومن الغريب ان يعدد المخصص كثيراً من نباتات الحمض ولا يذكر الروثة الشهيرة بحب الابل لها ولم يتعين لنا الاسم الذي قد يكون اطلقه عليها . ولم نعر بين ما ذكرناه آنفاً وذكره هو الاعلى القصصا والشعران والرمث والنقي . وفي اقرب الموارد القصصا ضرب من الحمض ضعيف دقيق اصفر اللون ، والشعران رمث اخضر يضرب الى الغبرة ، والرمث مرعى للابل من الحمض وهو شجر يشبه الغضا . قال المتنبّي يصف ناقته ؛ تركت دخان الرمث في اوطانه . والنصي نبت بسيط من افضل المراعي مادام رطباً فاذا ابيض فهو الطريقة فاذا اضيخم ويس فهو الحلى الواحدة نصية ،

التي تهم بها الابل النصي ، فما جاء في البيان والتبيين للجاحظ ان الاخوص بن جعفر
بعد ما كبر وعمي وبنوه يسوقون به الابعر قال لهم « اي شي ترتني الابل » قالوا
الهام والضفة . قال « سوقوا » ثم عادت فارتمت بمكان آخر فقال « اي شي ترتني
الابل » قالوا نصياً وصلياناً . قال مكفية لرعاها ، مطولة لذراها ارعوا واشبعوا .
ثم سألهم « أي شي ترتني الابل » قالوا الرمث قال خلقت منه وخلق منها . وفي
البادية من الازهار الخزامى والعرار والاقحوان والحوذان والخربق وشقائق
النعمان . ومن نباتها الاشنان الذي يجمع البدوي منه مايقوم مقام الصابون . وفي
المخصص لابن سيده (ج ١٠ ص ١٧٧) عن لسان بدوي يصف بهجة الارض
اذا اخذت زخرفها وازينت : رأيت يطن فلج منظرأ من الكلا لا انساء وجدت
الصفراء والخزامى تضربان محور الابل وتحتها قعاء وحريث قد اطاع واشك
بافواه الابل وترك الحوران ناقمة في الارجاع . (الصفراء والخزامى والقعفاء
والحريث اسماء نباتات) (واما) اطاع فعناه بلغ غاية ما يراد منه ، واما امسك
بافواه الابل فعناه اغناها عن كل شي ، واذا اتقعت الحورات جمع حوار (ولد
الناقة) في الاجارع فذلك غاية ري الارض لان الاجارع (الابطاح) اشرب للماء .
قال وبث قوم رائداً فقالوا ما وراءك قال عشب ناد مأد مولي عهد متدارك جمد
كافخاذ نساء بني سعد تشبع منه الناب وهي تعدو المتدارك قد لحق آخره باولة .
(التأد : الرطب ، والمأد : الذي يثني من نعمته .)

وفي سقي الفرات وفي كل مكان قريب من الماء تكثر الاعشاب والاشجار .
ومنها غابات كثيفة من شجر الدفلي والطرفاء ، وقد كانت الطرفاء فيما مضى اكثر
عدداً والتفافاً من الان ، وقد ادركت ذلك خلال الحرب العامة الماضية ما بين
قريتي السبحة ومعدان . وفي الحوائج وهي الجزر الناشئة وسط الفرات اشجار
الغرب بفتح الفين والزاء ، وفي ضفاف الفرات وحول عين الكوم نبات المرقسوس
الذي يستخرج ويرسل لخارج بلاد الشام ، ونبات الينبوت الشائك ذو الجذور
الممودية الطويلة وهو كثير وينفع للوقد .

النصاريس والجبال

بادية الشام هضبة مرتفعة عن سطح البحر من ٥٠٠ — ١٠٠٠ متر، وذلك في البراري الممتدة في شرقي دمشق وفي الحماة حتى الحدود العراقية وما يليها ومرتفعة اقل من ذلك اي من ١٠٠ — ٥٠٠ متر في البراري الشامية اذا جرت تدمر تريد ضفتي الفرات ، وفي براري الجزيرة اذا اردت ضفاف الحابور والبليخ والجنجغ. وبراري الشامية في انحاء دير الزور تؤلف نشزاً مرتفعاً ينحدر من الجنوب الى الشمال نحو سقي الفرات المعروف (بالحاوي) ويقف هناك يروز فجائي علوه عن مستوى الفرات ٨٠ — ١٠٠ متر ، ويكون هذا البروز احياناً صخرياً واحياناً منطقة مسايل متموجة تمعجاً بليفاً .

وفي هذه البادية سلسلة من الاكبات والمرتفعات الجبلية ذات الصخور الكلسية الطباشيرية (الكريتاسه) تنشأ من قرب دمشق وتمتد من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي . لكن ليس لها اسم عام جامع بل اسماء لجبال فرعية منها كالجبل الشرقي الذي يبدأ من شرقي النيك والناصرية وكجبل النصراني الذي في جنوبي القريتين ومثله جبل حفير وجبل قطوس وجبل الباردة وجبل بصيري وجبل خنيزر وجبل الرواق وجبل ام جرن ، وربما شمل الجميع اسم (جبل الرواق) وهو اشهر الاسماء . كما ان في وسط هذه السلسلة عيوناً كعين الباردة وعين الوعول وعين الخنازير وفيها بئر بصيري وسد اثري عظيم اسمه سد الخربة وسيأتي ذكره . وفيها وادي الباردة الذي تنفذ منه عشار حمص وحماة في طريقها الى الحماة وهو بين جبل الباردة وجبل بصيري .

وفي شمالي هذه السلسلة الاولى (سهل الدو) العظيم الذي قدمنا ذكره ، وفي شمالي سهل الدو سلسلة ثانية تمتد من شرقي قرية عقيربات في قضاء سلمية وتنتهي في تدمر والسخنة . وليس لهذه السلسلة ايضاً اسم عام جامع بل اسماء لجبال فرعية منها . وهذه الجبال الفرعية كانت في المصور الماضية ملائكة باشجار البطم وحراجه . والبطم

ينفع بحطبه وعصير ثمره المشابه لزيت الزيتون وباستعداده للتطعيم بالفستق . ولا يزال في بعضها آثار من بقايا هذه الحراج كما هو الحال في جبل البلماس (١٠٩٨ م) وهو اشهر تلك الجبال واقربها لقرية عقيربات من قضاء سامية ، وفي جبل ابو الصهور وجبل شاعر (١٢٧٩ م) وجبل معدبة وجبل المرا وجبل خشبية فردة وجبل خشبية تنيان وهما شمالي جبل شاعر الى الشرق وفي جبل ابي رحمين وجبل الضلعان وجبل لابدة وجبل معيرة وجبل منشب وجبل الضاحك (٧٨٠ م) والضويحك القريبان من السخنة . اما الجبال التي تجردت بالاسف من حراج البطم بحكم القطع والتخريب المتواليين منذ نصف قرن او اقل ولا سيما خلال الحرب العامة الاولى فهي جبل الشومرية وجبل ابوشنداخ وجبل التياس وجبل الابيض (١٣٢٧ م) وجبل الطارو وجبل صفرا (٩٥١ م) وجبل شعرة (١٣٣٦ م) وغيرها ، وهذه الجبال في شمالي تدمر وغربها وشرقها ، ومثلها جبل ابوالنتل وجبل اسرية ، وهما في شمالي البلماس على طريق تدمر - حلب .

وما برح اهل سامية وعقيربات والسخنة وتدمر يقطعون احطاب هذه الجبال وينقلونها على عجالاتهم وجمالهم وييمونها في حمص وحماة وسامية وتدمر ، ناهيك ما يحرقه الاعراب الذين ينزلون فيها في فصل الشتاء او يعمرون اثناء التشريق والتغريب ، وما فعله عمال شركة النفط العراقية حينما كانت تمد انايبها في سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٠ م) وبعدها وترسل سياراتها ومناشيرها الميكانيكية تفتك بتلك الاشجار العظيمة التاريخية فتكاً زريعاً . وقد حلت اكثر تلك الجبال وما بينها من الاودية من اشجارها بسبب هذا القطع المستمر ولا رادع ولا وازع كما ينبغي . وسوف لا يضي على ما رأيت عشرون سنة أخرى حتى تجرد هذه الجبال الجميلة من اشجارها بالكيفية كما تجرد جبل حرمون وجبل قلمون وغيرها من جبال الشام .

وفي شمالي هذه السلسلة الثانية الى الشرق جبل يدعى البشري (٨٦٥ م) مؤلف من سلسلة من الآكام المتعاقبة وهو على مقربة من دير الزور الى غربها

الجنوبي . وطرفه الشمالي المحصور بين بئر سنجري وبئر غانة ذو تأليف بركاني بازلتي ، وفيه واد اسمه وادي القير يضارع اودية جهنم بحره وقت الهاجرة ، وواد آخر يدعى وادي الحرامية يمتد من الجنوب الى الشمال ويصل حتى التبتى غربى دير الزور . وكان الامل عظيماً بوجود النفط في جبل البشري ، لكن عمليات السبر التي اجريت لم تثمر بعد . وقد ذكر ياقوت جبل البشري في معجمه وقال ان فيه (اربعة معادن القار والمغرة والطين الذي يعمل منه البواتق التي يسبك فيها الحديد والرمل الذي في حلب يعمل منه الزجاج وهو رمل ابيض كالاسفيداج وهو من منازل بني تغلب بن وائل) . وذكر ابو الفرج الاصبهاني في كتابه الاغانى هذا الجبل باسم (البشر) في صدد غارة الجحاف بن حكيم السلمي علي بني تغلب المذكورين ثاراً من هجو الشاعر الاخطل له في سنة ٧٣٣ هـ ، وسميت هذه القارة الشكراء بيوم بشر .

وفي الاغانى ايضا اسماء اماكن في شمالي البشر كالرصافة وصهين وهي في قبلي الرصافة وعاجنة الرحوب وهي في قبلي صهين ومحاشن وهو جنب الى جبل البشر . ولم احقق ما اذا كانت هذه الاسماء لاتزال معروفة لدى اعراب تلك الديار سوى الراهون الذي يشبه (الراحوب) . وفي جبل البشري مغرة تستعمل لوسم الغنم بالعلامة الحمراء . وفيه ولا سيما في جهته الغربية كثير من الكلس المزوج بالخمير على سطح الارض تتخذة العشائر للتدفئة . وبين جبل البشري وجبل الضاحك منفذ الطيبة وواد اسمه وادي الكبير يصلان بين السخنة والرصافة ثم الرقة .

اما الجزيرة ففي وسطها جبل كبير اسمه جبل عبيد العزيز مستطيل من الشرق الى الغرب ، ذرعه على التقريب ٧٠ في ٣٠ كيلومتراً ، وعبد العزيز الذي نسب اليه هذا الجبل هو فيما زعموا ابن الشيخ عبد القادر الكيلاني المتوفى سنة ٥٦٩ هـ . هذا وفي موقع الغرة وسط هذا الجبل من الشمال ضريح ينسب لعبد العزيز المذكور ، وقد جعل الضريح ضمن مسجد بناه مهاجرو الشاشان في سنة ١٣١٣ هـ على مارأيت مزبوراً في عتبة بابه لما زرته في خريف سنة ١٣٦٣ هـ (١٩٤٣ م) وقد

روى لي يومئذ البدو القاطنون حول هذا الجبل وهم من عشيرة البقارة (بقارة الجبل) ان اسم هذا الجبل قبلاً كان جبل المبارك . ومن الغريب ان ياقوت لم يذكر هذا الجبل في معجمه بهذا الاسم بل ذكر اسم جبل دعاه طورزيتا وقال انه قرب رأس عين عند قنطرة الخابور على رأسه شجر زيتون عذى يسقيه المطر ولذلك سمي طورزيتا . قلت وأنا لم أر زيتوناً بل بطماً في الاكثر ولوزاً وزعرواً في الاقل ، فهل هذا الجبل الذي وصفه هو جبل عبد العزيز والمحققون من الفرنج واخصهم دوسو في كتابه « الطبغرافية التاريخية لبلاد الشام » لم يذكروا لنا اسمه القديم في عهد الرومان ولو عرفوه لذكروه . ولما سألت الشيخ سعيد العرفي مفتي دير الزور وعلامتها نفى نسبة عبد العزيز الى الشيخ عبد القادر الكيلاني . لكنه لم يبين سبب التسمية ومن هو عبد العزيز هذا بل دلتني على ما ذكره ياقوت عن طورزيتا . وجبل عبد العزيز يشبه جبل البلعاس بصخوره البيضاء الكلسية وباشجار البطم النامية فيه . وقد كانت هذه الاشجار كثيرة شبه الغابات لمضي ربع قرن او ثلثه ، وهي تكاد تنقرض هنا ايضاً من فقدان الحماية وتوالى القطع والفتك ومنذ ان صار موطناً لعشيرة البقارة المذكورة ومشق لعشائر الجبور والشرابين والعدوان . وفي جبل عبد العزيز على ما قيل لي معدن للنحاس ، وفيه من حيوان الصيد الأروى ومن القصور الاثرية قصر عربي اسمه قصر سكرة . وفي براري الجزيرة عدة براكين منطفئة منتشرة كأنها فقايع لماعة وسط بحر لحي منها الجوف (وفيه ثلاثة براكين) والمناخير التي شرقي الرقة (وهي بركانان الشرقي والغربي وعلوها ٤٠٢ م) وجبل المعزى (٣٧٥ م) ذو المنحدرات الصخرية المشرفة على الخابور غربي القدغمي ، ومنها تل مرقدة وتل كوكب (٥٣٤ م) الذي يدعى سلطان التل ويظهر عن بعد ٥٠ — ٦٠ كيلو متراً عن الحسجة اذ هو على مقربة منها في شمالها الشرقي .

وفي منطقة الحماة من بادية الشام جبلان يستحقان الذكر ، الاول يدعى (جبل الهراب) يمدح عن تدمر الى الجنوب نحو ثمانين كيلو متراً ، وله احتمالان

توأمتان من الصخر البازلي الاسود ، والثاني يدعى (جبل التنف) قرب ملتقى الحدود الشامية والعراقية والاردنية على طريق سيارات دمشق - بئداد في الكيلو متر ٢٥٠ عن دمشق ، وليس لجبل التنف سوى حلقة واحدة ذات قاعدة منبسطة . ولا يزيد علو هذين الجبلين او الاكنتين عما حولهما من الارض اكثر من ١٠٠ - ١٥٠ متراً . ومزيتها الوحيدة هي امكان رؤيتها من مسافة ١٠٠ كيلو متر من اطرافها الاربعة بحكم وقوعها وبروزها وسط برية شاسعة منبسطة مطردة المناظر ، ومن هنا صارا علمين للاستدلال جليلي القدر والنفع بميز البدوي الثائه في مهامه الحماة خيالهما عن بعد تمييزاً حسناً . والبدو يحسبون مسافة كل محل في الحماة بالنسبة لبعده عن الغراب او عن التنف . وجبل التنف ذو تأليف بركاني ولون اسود ، ويقع في منتصف وعرة مفروشة باحجار الصوان الصغيرة المتلعة المتوجة ، وقد يزداد هذا التموج وتحدث فيما بينه قعرات وبطائح تؤلف الجبرات والمرامي التي يتهافت عليها البدو اي تهافت لأمثها وعشها .

ومنطقة جبل الغراب تشبه منطقة جبل التنف ، وهي تبعد عنها الى الشمال الشرقي نحو ١٥ ساعة على الماشي (نحو ٧٥ كيلو متراً) وهي سهل اجرد اقفر ذو تلعات متموجة تسد الافق عن بعد وتحده ، وهي تحمل احياناً ركاماً من الاحجار تدعى (رجوماً) يتخذها البدو اعلاماً للاستدلال على المنازل والمنتجعات .

وفي غربي جبل الغراب وجنوبه الغربي وفي منتصف الطريق الزاهية من نقطة السبع آبار (شرقي دمشق بنحو ١٥٦ كيلو متراً) سلسلة من الآكام تتجه من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي تسمى (آكام العليانية) و (طرق العلب) وهي مؤلفة من قباب مدورة متتالية ومن تلال وتليلات مخروطية الشكل او بشكل المائدة بينها مسايل صغيرة ذات اميال لطيفة تارة وعمودية تارة اخرى . وقبور هذه المسايل حجرية ، لكن ينمو فيها العشب . وبعض هذه المسايل يؤلف اودية تجارها صبة التحديد واتجاهاتها عيرة التعقيب وما منها فيه ماء في اي موسم كان . اما في شرقي جبل الغراب فالامر يختلف . لان الاودية

العديدة هناك لها مجار واضحة تماماً وهي تارة تتسع وتنبسط لرافد جديد يصب فيها وتارة تضيق بين سلسلتين متعديتين من الآكام ، أشكلها كالقصاب المتطاولة مغطاة بالحصى والحلأمة وعلى ذرواتها رجوم بارزة . وإلى هذه الاودية تهفو افئدة البدو ويشدوا الركاب ؛ أشهرها وادي عامج ووادي حوران ووادي الصواب ووادي المياه ووادي عكاش وفي الجزيرة شعيب عجيج ، وسنأتي على وصف هذه الاودية في بحث (منطقة الوديان) . ونذكر أيضاً في صدد التضاريس (السباخ) او (المالح) التي يستخرج الملح منها بعد جفافها ، واجلها قدراً مملحة تدمر التي ذرعها ١٢ كيلومتراً في مثله ، وهي تبعد عن تدمر نحو ساعة الى الجنوب ويستخرج منها كميات عظيمة ترسل الى دمشق وحمص .

المياه في البادية: — ان حياة البدو وحياة ماشيتهم مرتبطة بالمياه والامطار ارتباطاً قوياً . فالمياه والامطار هي التي تحدد امر التبدي والنجعة . وكل اسم مكان في البادية وربما كل ملقى للسبل وكل علم للاستدلال يدل على نبع او منهل ، والمياه في البادية لا تكون الا في الآبار او في الخباري ، ولكل من هذه الآبار والخباري مناطق نذكرها ونصفها كما يلي :

منطقة الآبار

ان براري الشامية وهي منطقة السهوب التي في شمالي الخط الوهمي الممتد من دمشق الى ابي كمال ذات طبيعة صحراوية من حيث التربة . والاقليم كما وصفناه . لكن آبارها كثيرة ، وبعض هذه الآبار قريب من بعض بنحو بضعة كيلومترات تارة و ٣٠ — ٥٠ كيلومتراً تارة اخرى . ومن هنا دعيت الشامية « منطقة الآبار » كما دعي الحاد « منطقة الخباري » ، والخباري جمع خبرة ، هي وهداث منخفضة مملوءة بماء المطر ينهل منها البدو وماشيتهم . والآبار صناعية ولكن الخباري طبيعية ، والآبار تحتوي على الماء في اغلب الايام بينما الخباري لا تحتوي الا في بعض الايام . وقرب الآبار يسهل للبدو امر الانتقال من بشر الى آخر ، وهم يوردون الغنم ليلاً

او قبيل المسير، ثم في اليوم التالي وخلال مرحلة واحدة يبلغون البئر القريب .
فلئان الآبار صناعية ، وهي من حفر الانسان فيما مضى من العصور ، عدد القليل منها
الذي ليس له من العمق سوى بضعة أمتار . وحيث يكتفي ان تحفر التراب قليلاً
وتبعد الاحجار حتى ينبض الماء . وعمق الآبار الصناعية يتراوح بين ١٥ و ٢٠ متراً
وقد يبلغ بعضها ضعف ذلك او ثلاثة أضعافه ، وقسمها الاعلى مبني بالحجارة والطين .
وخززة البئر مكشوفة ابداً وهي لاتعلو عن مستوى الارض كثيراً ، وترى
احجارها منقورة ومحرزة بخطوط عميقة من ذلك الجبال الساحبة للماء وحفها منذ
قرون لاتحصى . وقد يكون عدد الآبار في نقطة واحدة كثيراً يظهر من حولها
التراب المستخرج منها حينما حفرت . ويكون حول كل منها حفرة صغيرة العمق
والعرض تملأ بالماء المهبأ لشرب الماشية . ولما يحذر ذكره انه مامن شيء يدل السائح
المطشان على وجود الآبار الا الملو الخفيف الذي لخرزاتها او فتحاتها او شبكة
الدعوس التي تتجه نحوها او الارض المجاورة لها . . . تلك علائم تجعل السائح
الثاني يشبه بها حينما يقترب بضعة مئات من الامتار . ولا يدل ماء هذه الآبار على انه
من مجرى او ينبوع ارضي ذو منسوب دائم ، بل يدل على أنه نتيجة ترشح . لان
منسوبه يهبط اذا نضح نضجاً زائداً وقوامه يصبح عكراً . وبعض هذه الآبار
عذب وبعضها اجاج وقد يكون شديد الملوحة والمرارة من وفرة المغنيزيا ، او يكون
كبريتياً . وقد يعثر على آبار جافة بالمرة .

اسماء الآبار

(حول تدمر) — القطار ، الوشل ، جزل ، حفار ، الهبية ، ملوحي ،
خويلقة ، النجرة ، بازورية ، الهبا ، المليانية ، ابو فوارس ، بيرمران ، (حول
السحنة) . — أرك ، الكوم ، الطيبة ، الكديم ، المنبطح ، بيوض ، نقيب ، بير
الجديد ، ندويات ، خدير ، سبيخة ، أم قبيدة ، عوفية ، مريسم ، رحوم ، ابو فياض ،
ابو النيتل ، اسرية ، مراغة ، زرقا ، الرصافة ، الطرفاوي ، عظيمان ، خديخان ،

(حول القريتين) جباة ، قمقوم ، غنثر ، رأس العين ، حفير ، محسة ، عين الباردة ، عين الوعول ، عين الخنازير ، بصيري (منطقة الحماة) قريطة ، قرض ، الماء ، جب دخينة ، تختة ، الهيل ، المربع ، الورد ، سجرى ، ام ميليت ، طيارية ، ورقة ، وريق ، حجيل ، المات .

وكية الماء في هذه الآبار قليلة لا تكفي حاجات البدو ولا تروي غليلهم كما ينبغي . ومن ثم كان من أجل السبل لاصلاح البادية وافادة البدو ايجاد الآبار العذبة وتكثير عددها وتركيب الآلات الرافعة الميكانيكية عليها ليسهل الانتفاع منها ويتمكن البدو من المراعي الواسعة التي لا يثقلونها كما ينبغي لحرماتها من الآبار او لقله مائها . لهذا فقد قامت (مصلحة الري) في حكومة الشام الحاضرة منذ عشرة أعوام بحفر كثير من الآبار الحديثة على طريق نجمة العشائر في براري الشامية والجزيرة وبت جدرانها بالحجر والاسمنت بناءً بظن انه متقن وفي جدرانها سلام حديدية للتزول وفي جوانبها مناهل لشرب الغنم ، كما انها اعترمت ان تبني في بعض المواقع مستودعات لخزن العشب المجفف او التبن لاطعام مواشي البدو منه حين الحاجة ولقاء اثمان ، وان تشيد ملاحي او مزارب للغنم حفظاً لها في ايام كلب البرد وتراكم الثلج وهبوب الرياح الشمالية القارسة . وقد عملت حتى الآن ملجأين احدهما في تل حداد شرقي الحسجة والثاني في الراهون غربي جبل البشري ، اما المستودعات فلم تبني بعد . ويحسن ان نذكر هنا اسماء الآبار التي حفرتها مصلحة الري المذكورة تسجيلاً لهذه الحسنة وخدمة لمن يردّها في اختراقه البادية :

الآبار التي في طريق دمشق - تدمر = الناصرية - القريتين - الروضة -

قصر الخير - عين البيضاء - الطريفواي .

تدمر - الرقة = منسف - حليحلة - الطيبة - الراهون - الرصافة (عمقه ٤٩ متر)

تدمر - دير الزور = قباقيب - وفي شمالي هذا البر بينه وبين جبل البشري

آبار البقلية وديدي وخديان وعظيان وقصبة . وفي وسط البشري الغياث والسجري .

حلب - تدمر = سفيرة - خناصر - الحمام - اسرية - ثريا - ذليلب -
الحسلة - سليم - ابو فياض - نيتل - كديم - قطنه - عين شراد - (عمقه ٢٥ متراً).
تدمر - ابو كمال = الحميمة - وتنوي المصلحة حفر بئري مجتل ومربع .
مسكنة - الرصافة = تل مهدوم - تل فضة - مدينة الفار - (عمقه ٧٨
متراً) - متياهات - (عمقه ٩٣ متراً) انباج - (عمقه ٦٣ متراً) .
الركة - الحجة = الطر فاوي - ماينه - بطيان - ثم حول جبل عبد العزيز
آبار البيضا - الشلال - والغرة - المغلوجة - ام مرفع - وفي غربي بشر الطر فاوي
على بعد ٢٥ كيلو متراً بشر خربة هولة .

الآبار التي في طريق تل ايض - جبل عبد العزيز = انقنطاري - الشمندور .
وتنوي (مصلحة الري) حفر آبار اخرى في براري الجزيرة والشامية ، من هذه
في جنوبي تدمر وحدها في موقع بيوض وعلانية وخان المشقوق وسجري والطيارية
وورقة وويرب وفي شرقي دمشق في جبل سيس وبئر الأفاعي، وفي شرقي حمص الرهاوية
والمعلق وحنورة، وفي شرقي حماة وادي العذيب .، هذا عدا عما تمته في جنوبي طريق
سيارات بغداد كآبار الصيقل وبئر سري وتل مخلوف والجوف، وتنوي هذه المصلحة
أيضاً ان تتخذ محركات ومضخات محمولة على سيارات تنضج بها المياه من الآبار
المذكورة وتجمعها في خزانات كبيرة ثم تنتقل إلى غيرها . فلو تمت هذه التدابير باحضار
الماء والكلا الخزونين لاوقات الشدة لاقتدت ماشية العشاير من التلف وسلم اصحابها
من البؤس والشقاء الذين يتقاهما من حين إلى آخر كما جرى في سني ١٩٣٢ - ١٩٣٥

منطقة الحماة والخبرات

من الناس من يسمي البراري الممتدة شرقي حمص وحماه (حماداً) وهو خطأ .
فالحماد في الحقيقة هو ابد من ذلك الى الجنوب وأشد وحشة واقفراً . وحده
الشمالي منطقة الآبار التي في جنوبي تدمر وامتداده من الغرب الى الشرق من
وراء ديرة التلول وجبل حوران وحررة الراجل الى اطراف العراق الاسفل وحده الجنوبي

واحة الجوف والنفود . وتحترق في طرفه الشمالي طريق السيارات بين دمشق وبغداد . وقد استحدثت لهذه السيارات في وسط الحماة وضمن الحدود العراقية محطة كبيرة تدعى (الرطبة) تبعد عن دمشق نحو ٤٠٩ كيلومترات وعن بغداد ٤٧١ ، وهي تكاد تصبح عاصمة الحماة بدورها وحوافيتها وآبارها ومقاهيها وحصنها وفندقها ومركزها اللاسلكي ومستودعات النفط وغيرها . والحماة من الناحية الجيولوجية من الاراضي النومولوتية الا ما كان في الشمال حول محطة (ايج تو) فانه من الاراضي الحوراسية وما كان في جنوب الرطبة حول جبل الطيارات فانه من الطباشيرية (الكريتاسه) . والحماة نجد منبسطة يرتفع عن سطح البحر ٥٠٠ - ١٠٠٠ متر . ومن ثم كان المنحدرون من مرتفعاته يهبطون الى كل الانحاء . فمن النفود التي في اقصى جنوبه ينحدرون الى نجد ومن وادي السرحان الذي في غربيته الى شرقي الاردن ومن منطقة الخبرات التي في شماله الغربي نحو تدمر والضمير ودمشق ومن منطقة الوديان التي في شماله الشرقي نحو دير الزور وسقي الفرات ومن آبار الرطبة وبرية الطليحة التي في شرقه نحو الرمادي وبغداد . والقسم الداخل في الحدود الشامية دغير جداً بالقياس لما هو داخل في الحدود الاردنية والعراقية والسعودية ، وقد قدمنا انه يقدر بـ ٣٨٦٣٢ كيلو متراً مربعاً .

والحماة كما قلنا سابقاً هو النجد العظيم والقلب الصميم للبادية . وهو (الصحراء العارية) أو (بادية البادية) لانه فلوأت ومهامه لاءاء بها في فصل الصيف ولا أنيس ، تصل سالكها وتميت من الظأ عابرها . اذ ليس في الحماة آبار كما في براري الشامية الا القليل ، ولا تنشاء العشاأ الا في فصل الشتاء غشياناً يقل أو يكثر حسب وجود الماء والكلاء . وهي تنفذ اليه من الوديان الكبيرة الهابطة منه ، ولا يمكن ان تتوغل فيه إلا الكتاب الكبيرة من الغزاة . لكن هذه الكتاب كم تركت في الحماة من رجالها ومطايهاها بحكم الجهد والظأ ... ومن الغريب أن لا يعيش فيه في الصيف الا بدو (الصليب) الذين ذكرنا في بحثهم حالتهم

وقشافتهم (١).

ومن خصائص الحفاد انه « منطقة الخبرات » كما ان براري الشامية « منطقة الآبار ». والخبرات أحواض أو وهداث منخفضة مسدودة يتفصل بعضها عن بعض بمرتفعات بركانية . وهذه الاحواض المسدودة تجمع مياه الاودية والبطائح السائلة نحوها ، لأن مجاري هذه الاودية والبطائح لا ميل لها الا بالقدر اليسير جداً . وهي عقيب الامطار التي معدلها السنوي كما قدمنا اقل من مائة ميليمتر - تكون بحيرات ضحلة موقته تبلغ مساحتها عشرات الدونات واحياناً أكثر . وماء الخبرات يرقد على الطين وتخصضه ارجل الغنم والابل فيظل على الدوام عكراً بلون (القهوة بالحليب) وطعمه مقززاً . ومع ذلك يتهاقت عليه البدو اي تهاقت فينبولون منه وبعلون هم وماشينهم . والماشية منها بلغ عددها وجاوز الالوف تنهل منه في برهة وجيزة وتروي غليلها ، بينما نهباها من الآبار يقتضي جهوداً وإيماً وتعباً عظيماً في الرفع والنزح . ومن هنا كان البدو لا يتحولون في نجاتهم من المعمورة الى الحفاد ابان فصل الخريف الا حينما تمتلي هذه الخبرات بالماء وتفيض وهم لا يفارقونها ابان فصل الربيع ما زالت المراعي تدمج بالكلا وما زالت الخبرات ذات مياه لم تنضب او تجف بعد . والخبرات كثيرة عند الرئيس رينو في كتابه « بدو مقاطعة دمشق » ثلاثاً وخمسين ، منها تسع حول جبل الغراب على بعد ٣-٣٠ - ٥٠ - ساعات عنه الى الجنوب الشرقي والغربي اسمائها الحمدة والمشاقيق وام سكاكة والصابد وام مويل ولقطة وكبد وحويمات ، ومنها خمس وعشرون حول جبل التنف على ابعاد تتراوح بين ٥ - ٨ - ١٢ - ١٥ - ١٨ - ساعة وهي كبر الخلو

(١) بتوا في نقطة الحدود الفاصلة بين بلاد الشام والعراق عشرين حجراً يعضوها بالكلس ليظهرا عن بعد سامع . وهذه النقطة تقع قرب جبل اتنف ، وهي تبعد عن دمشق شرقاً نحو ٢٤٩ كيلو متراً وعن السبع آبار ١٠٠ وعن الرطبة غرباً ١٦٠ وعن الرمادي ٤٩٠ وعن الزلف شمالاً ١٨٥

والرمانين وملحم والزرقاء والزويري وخبرة التنف وابو بخت ومعابد وصلاية
 وختيوى ومرفية ابن سمير والصيب والخرجة والبستانة وام طرفات والمداري وقطية
 والطابات وزينات الماء والشهيات والحب وقره الملاصي ومرفية الجويف وخبرة مها
 الياس وام رجيم . ومنها ثلاث حول الرويشد (جنوبي جبل التنف) وهي الضبابض
 والصوفا والدوارا ، ومنها سبع عشرة في اكناف الحارة وهي ابو الحصين والبرغو
 في وادي المقاط وخبرات الدريمات وبحر الصيقل والطرفاوي والبظلي والقراونشات
 والمريقات وعضبان وام طرفة والزبيدات والدغارا والصاحلية والمغنة وغدر الماء
 والزلاقة والصفية قرب البردويل والبردويل قرب ام اوعال على بعد يومين عن البرغو
 فمنطقة الخبرات تنتهي في الشمال حيث تبدأ منطقة الآبار . فهي تصل هناك الى
 طرق العلب وفي الشرق الى منتصف وادي الصواب والى غربي القعرة وفي الغرب
 الى ديرة التلول واكناف الحارة (حرة الراجل) . والحماة في الصيف والحريف
 يظهر كغيفاء ملتبة كالحة صفراء او سمراء اللون مترامية الاطراف مطردة المناظر
 زهية كثيفة صلعاء جرداء الوجه بتاتاً الا من لطخات ارض الخبرات الذهبية او
 من السراب الذي يحسبه الظمآن ماءً حتى اذا ورده لم يجده شيئاً . والحماة خواء
 ياب قد يسير المرء فيه على المطايا او في السيارات نحو ٣٠٠ - ٤٠٠ كيلو متر دون
 ان يصادف نافع ضرمة ولا معلق وزمة كما يعرف ذلك المسافرون بين دمشق
 وبنغازي . ففقدان الماء يقفر الحماة من زلثاته البدو بالمرّة . وقد يلاقى المرء نقرّاً من
 الصليب راكبي الحمير او عصبة من البدو راكبي النوق . فالصليب صيادو غزلان
 من التي تستنز اسرارها ظلام الليل فتفر الى بعض الوهجات لتروي غليلها بما يبت
 فيها من الاعشاب المبتلة بالندى ، والبدو غزاة ورواد غنائم . وبادية (الحماة)
 تختلف عن بادية (الشامية) وبقية بوادي جزيرة العرب . ففي (الشامية) وفي تلك
 البقية مناظر متباينة وارض مختلفة فيها الجبل وفيها السهل وفيها الوعر وفيها الرمل

وما في الحماة هذا الا شيء واحد لا يسكاد يختلف او يتغير ، ارض منبسطة ترابية قاحلة تمتد الى الافق البعيد الممغن في البعد كأنها بحر ليس فيه ماء . وراكب السيارة بين دمشق وبغداد يقرأ ويتحدث ليقطع (الحماة) بحديثه فيقطع (الحماة) حديث الراكب بصمته وجلاله ، وينام الراكب ويفيق ، و (الحماة) هو هو لا يتبدل ولا يتغير ولا تقصر سفرته ولا تقل رهبته .

اما في فصل الشتاء اذا أروت امطار كانون الاول وكانون الثاني الارض وزخر الماء في الخبرات يتبدل بسيط الحماة ويراها ركب السيارة وخاصة ركب الطائرة حينئذ قد انبت واخضر وصار بقعة اريضة بعثرت فيها الخبرات ذات السطوح اللامعة بأشعة الشمس ، وامتدت بين هذه الخبرات اودية وبطائح معشوشبة انتشر فيها البدو بابلهم وغنمهم يرعون ويشبعون ، وما اقبال هؤلاء البدو على الحماة وتوغلهم فيه الا بقصد هذه الخبرات وما حولها من المراعي . ويقول بعض العارفين ان ماء الخبرات يدوم من نصف تشرين الثاني الى اواخر شباط على الاقل وذلك في السنين المتوسطة الامطار . ولكن ما ان يقبل شهر نيسان ويدفأ الجو حتى تبخر الشمس ماء الخبرات الضحل الذي لا يزيد عمقه عن متر او نصف متر ، ولا يمضي اسبوعان او ثلاثة وقبل ان يحجب الكلاء تنقلب الخبرات حمأة واسعة متلاثلة لما في قعرها من (الغرين) او الرمل الطيني الجاف ، وتعود ارض العطش للبروز وتلحقها بعد حين قليل ارض الجوع والحرمان والكآبة . والودية المنحدرة من الحماة تأتي من حول جبل غزالة جامع الرياح والامطار ومنبع الودية الشبيهة بالانهار . لكنها لا تحتوي على الماء الا في فصل الشتاء . واذا كانت مسابيل هذه الودية قليلة الانحدار فانها تؤلف في قعورها من حين الى آخر حفراً طبيعية يدعونها غدراناً (جمع غدير) تخزن مياه الامطار في اجوافها بنسبة ما لها من العمق والضيق وصغر سطح التبخر . وقد اختصت الغدران بالمناطق والاعوار

البركانية الموجودة في جوف الحماة او في اكفافه ، وخاصة في كنفه المجاور لحرارة الراجل .

وقد كان الجيش الروماني يتفجع بهذه الخبثات والغدران ويجعل المسالك الكبيرة والطرق المعبدة التي تخترق الحماة قائمة عليها . وبعض هذه الغدران صناعي صنع بأشادة السدود حوله كما هو الحال في حصن جاوا على وادي الراجل وفي قلعة البرقع على وادي المقاط وغيرهما . وبعض هذه الغدران الصناعية كان يبلغ ضخامة خزان كبير لرعي الزرع واسقاء الضرع كما هو الحال في سد أربنية العظيم المائل حتى الآن في جنوبي قرية الضمير ، وقد كان يروي السهول الواسعة المنحدرة في غربيه نحو بحيرة العتيبة . وكانوا يحفظون ماء الخبثات من التبخر والضياع في برك او في محافير (جمع حفرة) وهي أحواض مربعة الشكل حفرت في وسط الخبثة ورفع التراب منها وكوم في جانبها . وقد ثبت الالب بوادي يار اليسوعي الذي سيأتي ذكره ان هذه المحافير كثيرة في الحماة بين جبل سيس وبئر سجري وانها من عهد الرومان وصنعهم ، وانها كانت في بادئ امرها اعظم من الآن وكان الماء يتبع منها بالجبال ويبقى فيها حتى اوائل حزيران . وبفضل هذه الغدران والمحافير المتلاحقة في طول طرق المواصلات الكبيرة كان المقام في الحماة ممكناً للدوريات الراكبة من الحفائر الرومانية . وكان هنالك من المناهل التي تطيل أمد البقاء في الحماة اكثر من المحافير تلك الآبار العديدة التي كانت تجمع فيها مياه الخبثات كما هو الحال في الخبثات التي بين جبل سيس وجبل التنف وآبار الجوف وبير سري وآبار وادي الهيل وخبزة رمانة .

منطقة الوردبان

وفي شمالي البادية الشامية اودية عديدة ، ولكن لا يرى المرء فيها اثرًا للماء إلا في بعض ايام السنة وعقيب المطر فقط . فيختار ويتسائل كيف ومق

حضرت مسایل هذه الاودية وحدثت وكيف حدثت في بعض اماكنها مضائق وفجاج ذات جوانب صخرية واسعة . ولا يبرح في هذه الحيرة حتى يأتي يوم يفاجئ فيه على حين غرة سيل عظيم متدفق يدفع بعضه بعضاً حاملاً مياه الامطار الهاطلة من غيوم متلبدة او أعصار متكاثفة همت وانهلث دفعة واحدة عن بعد بضعة كيلو مترات من المكان الذي هو فيه .

وحينئذ يرى كيف ان هذه المياه الجارفة العكرة تقبل وترمي الزبد والقذر والغثاء ببقية وقرقرة وعلى جوانب الوادي يرى كيف تفعل فيها قصاً وحتاً وجرفاً وكيف تضغط على جلاميده وحصاه المدلصة وتدحرجها .

ان هذه الاودية تنحدر من شمالي هضبة الحامد من حول جبل عنيزة الذي قدمنا انه جامع الرياح والامطار ومنبع الاودية الشبيهة بالانهار وهي تتجه شمالاً الى الشرق لتصب في الفرات . وهي متقطعة الجريان لانسيل كما قلنا الا حين هطول الامطار الغزيرة فتتنظم حركة مياه البادية وسيولها وتصرفها نحو الفرات . واذا انقطعت تحدث غدراناً واذا فاضت تحدث بعد انصرافها غيطاناً خضراء تسر العيون في تلك الفيافي القفراء . وأشهر هذه الاودية على الترتيب من الشرق الى الغرب (وادي عامج) داخل الحدود العراقية وشرقي الرطبة وغربي هيت وهو يضمحل في البراري ولا يصل الى الفرات . ووادي (حوران) داخل الحدود العراقية ايضاً وهو يوازي خط انابيب النفط الذاهب الى حيفا على انه يعاكسه في الجريان وهو يمر من شرقي الرطبة ومن قربها وتخرقه طريق السيارات الى بغداد ويصب قرب قرية آلوس . وبعض الاودية هي داخل الحدود الشامية منها (وادي الصواب) الذي يصب في الفرات شمالي الصالحية بين الميادين وأبي كمال ويجري ملتوياً متشابهاً وهو واد عريض أريض منقطع الجريان في الغالب وافر العشب والمرعى ، ولكن يكفي ان يحفر المرء قليلاً في الحصى والرمل فينبض الماء فوراً ويحدث حوضاً يكفي الانسان والحيوان . وعلى ضفة هذا الوادي اطلال

قصر الصواب الذي كان من جملة مخافر البادية وحدودها بين الفرس والرومان . ولوادي الصواب كثير من الروافد منها وادي الرسيمات ووادي الوغر ووادي حوريان ، ومنها (وادي المياء) الذي ينشأ من زقف ويحجري باديء بديء نحو الشمال حتى يبلغ الطيارة ثم ينحرف نحو الشمال الشرقي حتى يبلغ الورقة ثم يعود للاتجاه نحو الشمال حتى يضمحل في الفلوات بين بئر الحيمة وبئر غدر الماء في بقعة مشوشة تحيرك في ادراك اين ذهبت مياهه . وقد بعثت في هذه البقعة أحواض كبيرة كهذه المسماة (فيضة قباغب) أو (الفيضات) ، وفي مجرى وادي المياء كله عدة آبار عذبة كسجري والطيارة وورقة والحيمة ، وفي قرب بئر الحيمة يمر خط النفط . المذهب الى طرابلس ، ان وادي المياء هذا غني بمياهه واعشابه التي تهوي إليها أفئدة الابل والغنم على السواء ، ثم هو جذاب بغرائبه خلّاب في قسمه الواقع جنوبي سجري يستحق الذهاب اليه على متون الزوامل شريطة ان يتزود السائح بزمزميات الماء العذب ، وفي تلاله البارزة كثير من المقابر المغطاة بالاحجار والرجوم ، وهي مدافن البدو الذين يلاقون حتفهم في الربيع في قربه . ومنها (وادي عكاش) ذى المسيل الضيق العميق بين جدارين صخريين عمقهما ثمانون متراً ، وفيه اسراب من طير ابي منجل الاسود ، ومجرى هذا الوادي واضح ومراعيه وفيرة وهو يصب في الفرات قرب ابي كمال ، حيث يسمى وادي علي . ومنها (وادي الرتقة) الذي يصب ايضاً في الفرات جنوبي ابي كمال . وفي بادية الجزيرة واد يقال له (شعيب عجيج) يسيل من جبل سنجار نحو الجنوب ، وقد جعلوه حداً فاصلاً بين شمر العراق وشمر الشام . وهذا الوادي موطن الغزاة ومكمن الاصوص . وفي مجراه بعد بئر أم غريبة سباح ومالح كبيرة كسبخة الروضة وسبخة البرهوت وسبخة الشمالان وسبخة البعارة يفدون اليها من انحاء سنجار والموصل ويمتارون الملح منها .

الارصفة والقصور والحصون والسرود

بعد ان اكتسح الرومان بلاد الشام في سنة ٦٤ م رأوا أن لابد لهم من تحصين حدود البادية في وجه اعدائهم الفرس الذين ما كانوا يتوانون عن مراوحتهم القتال وفي وجه البدو الذين كانوا ايضاً يسطون على المعمور او على القوافل التجارية القادمة من جنوبي الجزيرة العربية او شرقها . فمدواهم والتدمريون في البادية (الشامية منها والجزيرة) شبكة ارسفة حجرية وطرق معبدة وجعلوا في كل مرتفع ومكمن وعلى كل ينبوع ومنهل مخافر عسكرية وابراج مراقبة وفنادق وخانات للمسافرين محصنة بالاسوار والآطام وانبطوا الآبار وحفروا الصهاريج وشادوا السدود لحصر ماء المطر وخرنه وحددوا قنوات وجداول لري الزرع وسقيها الضرع . وكانت تقيم في تلك المخافر والابراج حاميات من الخيالة والهجانة رماة النبال تتصل دورياتهم وتتلاقى وترصد مجيء جيوش الفرس وعصابات البدو وتحمي قوافل التجار حاملي الاقمشة والافاويه والطيوب والمعادن والاحجار الكريمة من اليمن والهند والصين . وقد كانت هذه القوافل تلتقي في تدمير عاصمة الصحراء عروستها وتتوزع من ثم الى القسطنطينية ورومية او الى بلاد الشام ومصر وغيرها . وقد ظل هذا الترتيب والاتقان زاهرين في كثرة او قلة نارة وتارة الى ان زالت الدولة التدمرية في القرن الثالث وضعت الدولة البيزنطية في القرن السادس واختل عمران البلاد الشامية بذلك الضعف وتوالي غارات الفرس وحروبهم مع الروم البيزنطيين .

ولما بزغ فجر الاسلام وجاء الخلفاء الامويون صاروا اسيااد امبراطورية عظيمة كانت من اوسع الامبراطوريات المعروفة في التاريخ ، وكانوا مغرمين بالعمران والبنيان فاعادوا زهو البادية وانساها ببناء المساكن والقصور الفخمة في وسطها وفي اكنافها وتبعمهم في ذلك اقاربهم واتباعهم ، كانوا ينفرون اليها في بعض الفصول ولا سيما في الربيع لقرب عهدهم بحياة البداوة وبعيش الحجاز وترويحاً عن النفس بالصيد والقنص وهرباً من وباء او طاعون ، وتقرباً للبادية والبداة لادامة

العلة بلغاتهم ولهجاتهم ولتصفية النفس بعاداتهم المستحسنة الخالية من شوائب الحضارة ، وكانوا يدعون هذا تبدياً ، وفي كتب التاريخ والادب ذكر مكرر لخروج الخلفاء إلى التبدي ورجوعهم منه . فكانوا ينصبون المضارب الواسعة ويستقبلون الوفود والضيوف والشعراء (١) فيزيد بن معاوية كان يقيم في حوارين ويصطاد في جبال قلمون وسهوله الشرقية وعمر بن عبد العزيز والوليد بن عبد الملك في خناصرة (جنوبي جبل الاحص) وهشام بن عبد الملك في الرصافة (سرجيوبولس) ثم بنى قصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي ، يزيد بن عبد الملك رمم وزين قصر الموقر في براري شرقي الاردن ، وورد ذكر منازل الامويين في الزبء والفدين والايض والقسطل والزيتونة والصنبر وسيس . وقد ثبت ان قصري الحير المذكورين من بناء هشام بن عبد الملك وان قصر جبل سيس وقصر الخرانة وقصر طوبى وقصر المشق وقصر الازرق وغيرها من قصور براري شرقي الاردن عليها مظاهر القصور الاموية .

وقد ظلت آثار الرومانين والتدمريين وقصور الامويين سالمة في الجملة او ماثلة للعيان على الاقل تشهد ببراعة من شادوها ورفعوها وبعقريتهم الى ان دالت دولة الامويين وجاء العباسيون يعملون يد التهديم والتخريب في قصورهم ومنازلهم وقبورهم فلاحق ما كان منها في البادية النصب الكافي من ذلك ، تدل عليه الالوف المؤلفة من قطع الخزاف الجصية المكسرة التي وجدت مطمورة ومبعثرة في داخل

(١) لا يزال ملوك العرب وامراءهم في الجزيرة دائبين على هذا المنحى في كل عام ، فقد كان الامراء آل الرشيد حكام نجد قبلاً يتبدون في ربيع كل سنة شهراً او شهرين . ومثلهم في عهدنا جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، اما سمو الامير عبد الله بن الحسين في شرقي الاردن فهو يتبدى في شتاء كل سنة في النور شرقي اريحا ، ينصب فيه مضاربه هو وحاشيته على النحو الذي كان يعمل به معاوية بن ابي سفيان في قضاء فصل الشتاء في موقع الصنبرة على شاطئ بحيرة طبرية .

قصر الخير الغربي ، وقد نقلت هذه القطع من عهد قريب الى متحف دمشق الاثري ويعمل على جبرها ولحمها وتركيبها في مثال القصر المذكور الذي يبنى في جوار المتحف . واذا سلم وقتئذ من يد العباسيين بعض تلك الآثار والقصور لبعده عن متناول الايدي فقد اجيزت عليه من بعد في عهد العباسيين ايضاً حيوش القرامطة والمنول الذين كانوا يأتون من الحاء العراق وفارس عبر البادية وينفرون على بلاد الشام ويفحشون ، ناهيك الزلازل وقمل السيول والامطار على كرا الدهور واختلال الامن في عصور العثمانيين الاخيرة وضعف الوازع .

وقد ظل معظم الارصفة والطرق والمباني العسكرية في زماننا الحاضر مجهولاً او غير مرئي ، واذا كان بعضه مرئياً ظل غير معروف الغاية والاصواف الى ان كشفها الاب بواديار اليسوعي من الطائرات بمعمونة سلاح الطيران الفرنسي وقوة هجاة البادية . وقد ظل هذا الراهب البحاثة مدة سبع سنوات من ١٣٤٣ (١٩٢٥) الى ١٣٥٠ (١٩٣٢) يطير ويكشف ويرى في الصحراء من عل ما لا يراه الماشي ولا يشعر به الى ان خرج من اتعابة الجزيلة بمؤلف قيم جداً ذي مجلدين دعا (اثر روما في بادية الشام) صور فيه ما اكتشفه ورسم خرائطه وحدد مواقعه وابعاده وشرح اوصافه . ويستفاد مما جاء في هذا المؤلف ان الرومان في عهد تراجان (٩٨ - ١١٧ م) وديوكليتيانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) عمدوا الى البادية من اقصى جنوبها الى اقصى شمالها حتى الحدود التي كانت لهم في ضفاف الدجلة فمدوا شبكة من الارصفة الحجرية والطرق المعبدة متوازية ومتقاطعة على طول الوف الكيلومترات مثلما عملوا في كل ما افتتحوه من بلاد العالم وربطوه ببعضه . فقد مدوا من دمشق الى بصرى رصيفاً يجتاز وعرة اللجا ويسير نحو جرش وعمان والبراء والعقبة على ساحل البحر الاحمر . ومدوا من دمشق الى تدمر ثلاثة ارسفة الاول المار بالقريتين وقصر الخير الغربي والثاني المار بخان ابي الشامات والخانات التي بعده والثالث المار بتلة الساعي وطرق الغلب . ثم انهم مدوا من تدمر عدة ارسفة احدها الذهاب الى صورية على الفرات (غربي الرقة) والى الشدادى (على الحابور) ومنها الى

بلد سنجار وما بعدها في الجزيرة . وكان يتفرع من هذا الرصيف اثنان الاول من قصر الحير الشرقي إلى البصرة على الخابور ، والثاني من السخنة الى قلعة الرجة على الفرات . ومدوا من تدمر ايضاً نحو الشرق رصيفين الاول المتجه نحو الصالحية (دورا اوروبس) على الفرات والثاني المتجه شرقاً إلى الجنوب نحو هيت ماراً بقصر الصواب . وكان من تدمر ايضاً نحو الغرب رصيفان الاول الذاهب الى عقيربات واقامية وانطاكية والثاني الذاهب الى الفركلس وحمص ماراً بسهل الدو . وكان يتفرع من نقطة تل الساعى « شرقي خان ابي الشامات » رصيف يتجه جنوباً نحو وادي السرحان والجوف ماراً بقلعة البرقع وآخر مواز له كان يتفرع من البصري في جبل الرواق ماراً بالسبع آبار وخبرة مرفية السمر وخربة الرياشي . ومدوا في شرقي دمشق عدة أرصفة الاول من الدير الجنوبي « شرقي بحيرة العتبية » الى جبل سيس ليلتقي برصيف خبرة مرفية السمر ، والثاني من قرية الهيجانة الى بير قصاب وخربة ام السعدالى الزلف ليلتقي برصيف قلعة البرقع والثالث من براق في لحف اللجا الثمالي الى شقا والسمنة ودير الكهف وقصر الازرق حتى وادي السرحان . ومدوا في الجزيرة شبكة أرصفة ، نذكر منها الرصيف المتجه من الرقة شرقاً على استواء نحو المالحه فالشدادي فالقدغمي فبلد سنجار . والرصيف المتجه من الشدادى الى الجنوب نحو البصرة والآخر المتجه منها الى الشمال نحو الحسكة فماردين . وكان هنالك رصيف من الحسكة يمتد إلى تل براق وتل حميدي فنصيبين ، وآخر من تل حميدي شرقاً نحو تل غرامة وما بعده في الشرق ، وآخر من نصيبين شرقاً نحو جزيرة ابن عمر ومن تل حميدي غرباً نحو رأس العين ، وآخر من خربة الموزر في جنوبي جبل عبد العزيز الى قصر سكرة في الجبل المذكور ومنه شمالاً نحو خربة ثعلبة على الخابور ، وآخر من خربة الموزر غرباً لشمال نحو حران فاورفة فسميساط وآخر من حران جنوباً نحو الرقة وآخر من حران ايضاً غرباً نحو سروج ومن سروج رصيفان الاول المتجه جنوباً نحو باليس والثاني المتجه جنوباً بالغرب نحو منبج فحلب فانطاكية . وهكذا كانت البادية في شاميتها وجزيرتها

وكذا قسم المعمور من بلاد الشام ملائى بشبكة من الارصفة والطرق المعبدة المتوازية والمتقاطعة ، وعلى الجميع اميال واعلام لهداية القوافل والمسافرين ، وقد حصنوها بالخفاف والابراج وسهلوا السير والمبيت فيها بالفنادق والخانات ووفروا العل والنهل بالآبار والاحواض .

وكان من مشروعات الرومان العظيمة في البادية في استنباط المياه وتوفيره للمخافر والحصون والخانات المذكورة انهم حفروا آباراً عديدة في مختلف انحاء البادية ويدو انهم كانوا بارعين في هندسة الري يعرفون عدم كفاثة الماء في أعماق ارض البادية فعمدوا الى جعل الآبار في وسط الوهداث والبطيحات لترشح اليها مياه السيول والامطار . وجل هذه الآبار مدور الشكل وبعضها مربع وقد بنوا جدرانها باحجار منحوتة ومصفوفة بانتظام تام وحفظوا اقامها بمخزرات . وكانت هذه الآبار محروسة بارج مراقبة أو بمخافر أو مبنية وسط باحات الحصون نفسها . مثالها آبار وادي المياه ، وآبار الجويض الذي في شرقي جبل سيس ، وآبار خربة البطمية التي في شرقي شمالي خان ابي الشامات ، وبئر الضبعة الذي اكتشفه ونظفه سلطان الطيار من مشايخ عشيرة الولد علي ، وآبار جبل سيس التي حفرت وسط خربة هذا الجبل الواقع على نحو ١٥٠ كيلو متراً شرقي دمشق . وهي متقطعة غير دائمة النبع ، ويظهر في جوار هذه الآبار اقناض ابنية واسعة مؤلفة من قصر كبير وجامع وحمام ودار ضيافة وعدد من بيوت السكن وغير ذلك ، اثبت المستشرق المسيو سوفاجه انها من جملة الآثار العربية الاموية التي كانت في البادية ، وآبار السبع ييار التي على طريق دمشق - بغداد على بعد ١٤٣ كيلو متراً عن دمشق ، وفي قربها اكمة عالية (٨٣٠ م) بنى الفرنسيون فوقها مخفر الجنود المهجانة ، وآبار الملكة في جنوبي تدمر على بعد ٤٥ كيلو متراً .

وفي الاماكن التي لاتسمح بحفر الآبار حفر الرومان حياضاً أو صهاريج يجتمع

فيها الماء مبنية باتقان زائد وبعضها مغطى بسقف او قبة . كالتي في خان المنقورة وخان العنية على طريق ابو الشامات - تدمر . ومن مشروعاتهم في توفير الماء للمخافر والحصون انهم كانوا يفجرون الماء بواسطة قنوات مخددة في الارض كما هو في عين الكوم بين الطيبة والراففة وفي عين الباردة وغيرها . ومن مشروعاتهم المختصة بالزراعة وابتعاد المراعى مشروع خزن مياه الامطار والسيول وحصرها وراء الاسداد التي كانوا يبنونها باحكام وتمكين غريين . فمن هذه الاسداد (سد المنقورة) ذو الاحجار المنحوتة الضخمة ، بنوه في جبل البطم لايصال الماء الى مخفر خان المنقورة في الطريق الآخذة من ابي الشامات الى تدمر بواسطة قناة خددوها في الجبل تنتهي في برك واحواض كبيرة مبنية . ومنها (سد أربنية) الذي في جنوبي قرية الضمير ذو الهندسة البديعة أيضاً ، وطول هذا السد ٣٠٠ متراً وعرضه في اعلاه ٥٥ متر وارتفاعه عن الأرض المجاورة له اربعة امتار . وله ثلاث فتحات في جهته الغربية لتدفق المياه . ثم ان احجار هذه الفتحات والمجاري بيضاء منحوتة يتراوح عرض بعضها بين ٥٠ - ٧٥ سنتيمتراً وطوله ١٥٠ - ٢٥٠ المتر . اما بقية احجار هذا السد فسوداء عادية ، وقد كان هذا السد يجمع السيول المنحدرة من انحاء خان ابو الشامات وبحيرة الصيقل وسفوح جبل الزبيدية ويحصرها ثم يوزعها بسواق منتظمة لري المزارع التي كانت تمتد في غريبه حتى سهل رمدان شرقي بحيرة العتبية ، ومنها (سد الهربقة) الهائل البنيان في جنوبي قصر الحير الغربي على نحو ٦٠ كيلو متراً غربي تدمر . وقد بنى هذا القصر الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك في سنة ١٠٩ هـ وجعله مقراً له قبل ان ينتقل الى الراففة ويقطنها نهائياً . وكان اسم هذا القصر في المؤلفات العربية (الزيتونة) وسد الهربقة المذكور يقع على بعد ١٥ كيلو متراً عن قصر الحير الغربي بين جبلي الباردة والنقبة بنوه وحصروا به مياه السيول التي كانت تدفق من الجبلين المذكورين ومن عين الباردة نحو سهل الدو الفسيح . وعلو هذا السد ١٨ متراً وعرضه في اسفله ١٨٥٥ وفي أعلاه .

٦٥٣٠ وطوله ٣٦٥ متراً . وقد حسبوا انه كان يخزن فيه من الماء نحو ١٤٠٠٠٠ متر مكعب . وقد طمرته الآن الرواسب الجافة المتشققة شقوقاً عميقة متموجة وكانت مياه هذا الخزان تساق بقنوات وجداول عديدة الى الارضين التي حول قصر الحير المذكور لرى الحدائق والمزارع ولسقى القصر وحماماته والمساكن التي كانت حوله . وقد ذكر العالم الاثرى الميسوشلو مبرجه (١) انه يستدل من هذه الآثار ان الامويين في عهد هشام بن عبد الملك قد رمموا سد الهريقة وان اطراف قصر الحير القاحلة اليوم القائم في وسطها هذا القصر العظيم البديع كانت في العصر الاموي غوطة وارفة الظلال زاهرة بالزراعة آهلة بالسكان . وجميع زخارف هذا القصر التي كانت مكسرة ومطمورة وكذلك واجهته النخمة وفيها باب به الذي يحتوي على كتابة كوفية فيها اسم هشام بن عبد الملك وتاريخ سنة ١٠٩ هجرية نقلت الى متحف دمشق الوطني حيث يعمل الآن لاعادتها الى حالتها السابقة . وقال العالم المذكور ايضاً في (مجلة المشرق ج ٤ سنة ١٩٣٦) ان الواحة التي يقع بها البناء مدينة لوجودها لعل السوريين في العهد الروماني وقد يكون منشؤها من التدمريين خاصة . والى هذا العهد يرقى سد الهريقة العظيم في اعالي الجبل . ولولا هذا العهد لما كان من وجود لجميع المنشآت المذكورة لان منه تستمد مياهها وحياتها . الا ان هذا السد كان قد خرب في أواخر العهد الروماني أو حين سقوط دولة تدمر (سنة ٢٧٣ م) والبيزنطيون لم يبنوا سوى البرج المنسوب اليهم القائم حتى الآن حول قصر الحير وحفروا بئراً لشرب حاميته . وقد كان هذا البرج مكلفاً بحراسة طريق حمص الى واحة الجوف الذي يمر بمضيق البصري وحراسة طريق تدمر الى غوطة دمشق . وقال ايضاً ان الحفريات التي قام بها هو دلته على ان الامويين هم الذين رمموا سد الهريقة وعملوا له ابنية ملحقة لحماية مخرج الماء من تراكم الرسوب والوحول ، وهم الذين

شادوا المنشئات الموجودة حول قصر الحير كالحان والبستان والقنوات المتشابكة وقصر الحير الذي كان على غاية من الزينة والزخرف وقطعا فسيحة من الفسيفساء الجدارية وروافد منقوشة وبلاطا منقوشا وزخارف ملونة ومشاهد مصورة لرجال ونساء وحيوانات ، وأشكال الزخارف هندسية ونباتية . الخ

الطرق المعبرة وناييب النفط

في عهدنا الذي قضي على قوافل الابل وقل فيه من بطوي البيد طياً على متن الرواحل صارت السيارات تجري وتغذ السير في كل بقاع البادية وحتى في صميم حماتها ونفودها وتنقل المسافرين وأمتعة التجار الى تدمر ودير الزور والرقعة والحسجة وغيرها من مدن البادية في طرق لا تزال دعوساً غير معبدة . وقد مدوا للسيارات من دمشق الى بغداد طريقاً لا يزال القسم الشامي منه معبداً نصف تعبيد ، بينما القسم العراقي معبد تعبيداً جيداً وهو يخترق منطقة الخبرات في الحساد الشمالي ويعبر بقرية الضمير و خان أبو الشامات والسبع يار وجبل التنف ومن ثم يدخل الحدود العراقية ماراً بمحطة الرطبة التي صارت بايطة ذات دور ومنازل وحوانيت للباعة ومقاهي وماء نير وكهرباء منير وحصن او نخفر كبير فيه فندق ومطعم وموظفون وجنود عراقيون ومركز للبرق اللاسلكي . ومن الرطبة بعد اجتياز وادي حوران ووادي عاصم وبرية طليحة الموحشة ووادي المحمديات يصل المسافر الى الرمادي على الفرات ومنها الى بغداد . واحسن من هذا الطريق ذلك القادم من حيفا الى الرطبة والمار بربد ومحطة المفرق وارض الجبانة وحره الراجل ومحطتي اجفايف (حيفا ٥) واجفور (حيفا ٤) فهذا القسم الداخل ضمن حدود فلسطين وامارة شرقي الاردن من اقوى الطرق المعبدة المزفتة واكملها ، وهو رائع عند اختراقه صخور حرة الراجل واوعارها الشاقة الطويلة المدى .

وفي عهدنا ايضاً قد اخترق البادية منذ سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٣ م) خطان لانايب النفط قادمان من البلاد العراقية اصلهما خط واحد ينبوعه من كركوك

انشأتها الشركة الأنكليزية المعروفة بحروف i.p.c (شركة النفط العراقية). في كركوك المحطة ذات الرقم واحد (كي ون)، ثم يجتاز هذا الخط نهر الدجلة عند قرية تدعى الفتحة بين جبلي حميرين ومكحول. وفي قربها الى الغرب ذات الرقم ٢ (كي تو) في جانب بلدة ييجي. ثم يتجه نحو الجنوب الغربي مخترقاً سهول الجزيرة الى ان يجتاز الفرات جنوبي قرية الحديثة عند المحطة ذات الرقم ٣ (كي تري)، وبعد محطة كي تري يدخل الخط بادية الشام ويقسم الى قسمين = خط الى طرابلس وخط الى حيفا. فالأول يتجه نحو الغرب بانحراف قليل الى الشمال ماراً بمحطة (تي ون = طرابلس رقم ١) في شرقي جنوبي قرية القائم القريبة من الحدود الشامية، وماء هذه المحطة يمتح من الفرات عن بعد ١٤ كيلو متراً، ثم يدخل الخط الحدود الشامية جنوبي بلدة ابي كمال ويعبر بوادي الصواب، ثم بمحطة (تي تو = طرابلس رقم ٢) وماؤها من بئر حميمة في وادي المياه يمتح بالانابيب والدافعات، ثم يعبر بوادي المياه ثم بوادي معربة ثم بمحطة (تي تري = طرابلس ٣) وماؤها من أرك بالانابيب والدافعات، ثم بجنوبي بلدة تدمر، ثم بمحطة (تي فور = طرابلس ٤) وماؤها من الفركلس بالانابيب والمضخات عن بعد سبعين كيلو متراً، ثم بجنوبي الفركلس وجنوبي حمص، وبعد ان يجتاز نهر العاصي يتجه نحو تل كلخ ومنها الى مصبه في البحر عند موقع التمتور قرب طرابلس الشام.

اما الخط الثاني فيتجه نحو الغرب بانحراف كبير الى الجنوب ويسير بموازاة وادي حوران، وبعد ٩٩ كيلو متراً عن الفرات يعبر بمحطة (ايچ ون = حيفا ١) وهي غربي وادي حوران، ثم بعد المسافة نفسها يعبر بمحطة (ايچ تو = حيفا ٢) وهي شرقي القعرة، ثم من قرب محطة الرطبة، ثم بمحطة (ايچ تري = حيفا ٣)، ثم بعد هذه المحطة ب ٩٠ كيلو متراً يدخل حدود امانة شرقي الأردن فيمر فيها بمحطة (ايچ فور = حيفا ٤)، ثم يخترق صخور حرة الراجل واوعارها الى ان يبلغ محطة (ايچ فايف = حيفا ٥) ومن بعدها بقليل ينحرف نحو الغرب الشمالي ويعبر من جنوبي خربة ام الجمال ومن محطة المفرق التي على السكة الحجازية

ثم من جنوبي قرية الحصن الى ان يهبط الغور ليجتاز نهر الشريعة جنوبي جسر
المجامع ثم يصعد الى قرية كوكب الهوا في فلسطين ثم يهبط مرج ابن عامر الى
ان يبلغ مصبه في البحر شمالي مدينة حيفا . وطول خط طرابلس من كركوك
٩٥٥ كيلو متراً وطول خط حيفا ١١١٢ كيلو متراً .

وكل من هذه المحطات التسع التي عددناها يضارع بليدة ، ففي كل منها ١٠٠ -
١٥٠ نفساً من الموظفين والمهندسين الانكليز والعمال والجنود العرب وعائلاتهم .
وهي محصنة بالاسلاك الشائكة والخناجر والمعدات الدفاعية ووسائل الخسارة
اللاسلكية الكافية لصد غارات البدو المحتملة ، وفي داخلها دور ومكاتب جميلة حاوية
كل اسباب الراحة والرفه من ماء وكهرباء وبرق وهاتف وبريد ووسائل تدفئة
وتبريد وحوانيت فيها ماتشيتي وتريد من الماء كولد والمشروب ، وثمة حدائق
واشجار تجلو العين بنضرتها في تلك الفيافي الجرداء مما جعل هذه المحطات شامات
في وجنة البادية القفراء . وحينما انسحب الفيشيون وحاربوا الانكليز في تموز
سنة ١٩٤١ خربوا آبار المياه وخزانات المحطات في خط طرابلس ونهب البدو
المحطات بعد ان خلت من ساكنيها فتمطل هذا الخط مدة ثم اعيد لما عادت المياه
الى مجاريها . وفي حادثة رشيد عالي الكيلاني في العراق في شهر ايار من تلك السنة
ايضاً نهب البدو محطة الرطبة وحوانيتها ودورها ومثلها محطتي ايج تري وايچ تو في
خط حيفا ، لكن هذا الخط ظل سالماً وجريانه دائماً .

تاريخ البدو

تاريخ البدو هو تاريخ العرب الحضري نفسه في الجاهلية والاسلام . اذ انهم
أرومة العنصر العربي ومادته شملهم ما شمل الحضري من بؤسى ونعمى من قبل ومن
بعد . والعرب كما هو معلوم من اعرق الامم السامية في القدم ، عاصروا جميع الامم
التي اشتهرت في التاريخ كالسومريين والاكاديين والآشوريين والبابليين والمصريين
والرومان . وكل هذه الامم بادت وانقرضت ، اما هم فقد ظلوا احياء اعزاء .
والساميون في رأي اكثر المحققين نشأوا من جنوبي الجزيرة العربية وشرعوا منذ
ثلاثة الاف سنة قبل الميلاد يهجرون البادية تباعاً ويبلغون الهلال الخصيب اي اطراف
العراق والشام ومصر . كانوا مثل بدو هذه الايام يعيشون من تربية الماشية وبتة لون
طلباً للكلأ والماء ويفزو بعضهم بعضاً . وقد تحضر بعد قسم من هؤلاء الساميين
فأنشأوا عدة دول في جنوبي الجزيرة العربية وفي شمالها . فما أنشأوه في جنوبها ؛
دول المعينيين والسبأيين والحميريين التي قامت وازدهرت في حضرموت واليمن
وتركت آثاراً بارزة حتى الان من مدن وقصور ومصانع وحصون وكتابات .
وما أنشأوه في شمالها ؛ دول الكلدانيين والبابليين الحمواريين في العراق ودول
الكنعانيين في فلسطين والآراميين في دمشق وحمص وما حولها والفينيقيين في
سواحل لبنان والتموديين والاحبابيين في شمالي الحجاز وطسم وجديس في نجد
والادوميين والنبطيين في شرقي الاردن وحواران وبني السميذع في ثدمر . كل
هؤلاء كانوا ساميين وعرباً متحضرين بلغوا درجة غير يسيرة من التمدن والرفه

استمدوها من مصر وبابل السابقتين في هذا المضمار .

وهجرة العرب البدو من جنوبي الجزيرة العربية واواسطها الى بوادي العراق والشام ومصر وانسيأحهم فيها كان يحصل على هيئة موجات تتابع ورودها منذ آلاف السنين ولا يزال حتى يومنا هذا . وتعزى هذه الهجرات الى انه في كل قرن او قرنين يزداد عدد سكان تلك الديار العربية وتضيق بوفرة موالدها فتصير مواردها ومعاطنها غير كافية لسد الحاجة . او تتبدل الظواهر الجوية فيها وتتحول الشروط الاقليمية فلا تعد المعيشة سائغة كما جرى في مشارق اليمن وأدى الى انحطاطه وزوال دول المينين والسبأيين والحيريين منه، او تأتي أعوام قحط جائحة او تحدث فتن شعواء بين القبائل بسبب الاختلاف على المراعي والمناهل او الخيل او النساء فتضطرب موجة منها الى ان تترج نحو الشمال وترحف وتفتش عن بقاع أضرع وبراري اوسع ، فلا تجد ذلك الا في اطراف العراق والشام ومصر المسماة بالهلال المخصب . فالموجة القادمة منها اذا وجدت امامها عشيرة سبقتها في الهجرة تسعى لدفعها واحتلال مكانها بالقوة والغلبة او بالاتفاق والانضمام، فاذا ظفرت تضطر السابقة المغلوبة الى مزاحمة الاسبق والاضعف منها . وهكذا يزحم المتأخر المتقدم ويدفع القوي الضعيف كل في دوره وينازعه مترله ومرته . وحينما يحرم المغلوب مجال النجاة يترك رعي الابل ان كان من القسم الاول (اهل الابل) وينصرف الى رعي الغنم فيصير من القسم الثاني (اهل الغنم) ، ومن هذه يتدرج الى التحضر والاستقرار في القرى والمدن . وهكذا كلما فرغت البادية من موجة من سكانها البدو واحتوتهم المعمورة تأتي موجة جديدة من صميم الجزيرة العربية فتتلا الفراع وتحل مكان من هجروا البداوة وتحضروا وهكذا دواليك ، والامثلة على ذلك كثيرة ، تراها في عشار شمر وعزرة التي جاءت على هيئة موجات وزاحمت (عربان الديرة) في بادية الشام بعد ان كانت عربان الديرة هي السائدة المنفردة في هذه البادية ، وقد استولت عليها من عشار اقدم منها تحولت عن البداوة وذابت في بوتقة الحضارة ، وستنصرف شمر وعزرة يوماً ما عن التبدد وسوف تتجهان نحو التحضر وتخلو البادية فتأتي موجة تستولي على اماكنها

وهكذا الى ان يرث الله الارض ومن عليها .

يقسم المؤرخون العرب باعتبار الزمان الى ثلاثة اقسام : (بائدة) وهم الذين درست اخبارهم وطمست آثارهم فلم يسجل لهم التاريخ الا صفحات مشوهة لاتتفي ظناً ولا تثبت حقيقة . واشهر قبائلهم عاد وثمود وطسم وجديس ، « فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية ، الآية . واما طسم وجديس فتفانوا كما يزعمون في حادثة نسائية خرافية . و (عاربة) وهم اليمانيون المسمون الى عرب بن قحطان المذكور في التوراة باسم بارح بن قحطان وزعم العرب انه أصل لسانهم ومصدر بيانهم ، وبذلك يفخر حسان بن ثابت في قوله :

تعلمت من منطق الشيخ يعرب أينما فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً ما لكم غير عجمة كلام وكنتم كالبهائم في القفر

و (مستعربة) وهم الحجازيون المسمون الى اسماعيل بن ابراهيم عليها السلام ولهذا يسميهم الافرنج (اسمعيليين) . واسمعييل نزل الحجاز حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد ثم صاهر قبيلة جرهم فكان له بنون واعقاب ضلوا في مجاهل الزمن فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق الا (عدنان) ، واليه ينتهي عمود النسب العربي الصحيح . ومن هذا التقسيم قال مؤرخو العرب ان العرب قبائل شتى ترجع في نسبها الى شعبين عظيمين شعب قحطان وشعب عدنان . وذكر مؤرخو الافرنج هذين الشعبين باسم عرب الشمال وعرب الجنوب ويرجعون في ذلك الى ما كان معروفاً عنهم في قديم الزمان . فان المصريين في عهد الفرعنة كانوا يسمون عرب الجنوب « فنطو » اي سكان الفنت والفتط عندهم البلاد الواقعة في جنوبي جزيرة العرب . ويسمون عرب الشمال « شاسو » تصحيف الكلمة العربية « شص » اي الاص الحاذق لكثرة سلبهم وغزوهم الناس . وقد قال العلماء المتأخرون ان لاهالي قسمي ديار العرب مميزات لاتنكر . ففي الشمال مصنفحو الروؤس وفي الجنوب الفطح . وفي الشمال اللغة العدنانية التي

بزل فيها القرآن وفي الجنوب اللغة القحطانية . والتباين بين اللغتين كان كبيراً وكان النزاع بين القبائل القحطانية والقبائل العدنانية (المعدية والنزارية أو القيسية كما صارت تدعى بعد) على قدم وساق منذ أقدم العصور . وقد زاد هذا النزاع شدة مع الزمان حتى صار من الامور المميزة لقوم من قوم . وتعد في يومنا عشرينا طى* وشمير الضاربين في الجزيرة الفراتية من القحطانية ومثلهم الموالي والعقيدات والابي شعبان ، وتعد عزة وبنو خالد والسردية من العدنانية .

قسمت المعاملة الاسلامية في مادة (بلاد العرب) هذين الشعبين على النحو الآتي الذي نعر به . قالت ؛ تنفرع من قبيلة كهلان اليمنية القحطانية الاحياء الآتي ذكرها :

(١) بنو طى* ؛ وقد أقاموا منذ نحو ألفي سنة في جوار جبلهم الشهيرين وهما اجأ وسلمى وقد سمي السريان العرب كلهم طائيين من باب تسمية الكل باسم الجزء . ولأنهم كانوا متصلين بقبائل هذا الحي اكثر مما كانوا متصايين بسائر القبائل . وبنو طى* يعرفون اليوم باسم (شمير) وهو اسم احد بطونهم الذي تسلط على من بقي منهم . وكان مقام الشميريين في قرية اسمها (توران) على ما قاله ياقوت في معجمه اذ يذكر انها قرية في ارجاء احد جبلي طى* لبني شمير من بني زهير ، ولا يسمى اليوم باسم طى* الا عشرينان في الجزيرة وقد بقيتا تابعتين لشمير لكنها لا تدفعان لهم خوة (١) ويمتبرونهما متساويتين

١٠ — قلت ليس هنالك سوى عشيرة واحدة تدعى باسم طى* الا انها ذات فرق اخصيا في كرم المحدث فرقتا العساف والحريث فهل هما المقصودتان بكلمة عشرينان؟ اما عدم دفع الخوة الى شمير فصحيح ، وقد استبعدت الخوة حين دخول فارس الجوباء الجزيرة بالمصاهرة ، فقد زوج هذا ابنه صفوق عمشة ابنة شيخ طى* . وكان ذلك في حدود سنة ١٢٢٥ هـ على ماسوف تذكره (راجع احاث شمير وطي* في الجزء الثاني من كتابنا هذا) .

لهم . وقد هبط الشمريون ارض الجزيرة في القرن السابع عشر للميلاد ولهم فيها السيادة الى اليوم . وكان قد دفعهم اليها غزوة وقد ساقوهم من بادية الشام (٢) قبائل همدان ومذحج ، وقد بقي معظمهم في اليمن ويتصل بمذحج بلحارث وهم يسكنون الى هذا العهد جنوبي شرقي الطائف وكان لهم يد قوية في فتح العراق في خلافة عمر (٣) بنوعاملة وجذام ، وقد أقاموا في فلسطين منذ زمن قديم ، والاختميون الذين شادوا على الفرات مملكة الحيرة ، وبنو كندة الذين لم يسودوا في بلادهم في حضر موت فحسب بل سادوا بني أسدي في اليمامة ، وكان اميرهم يسمى نفسه ملكاً . وكان امرؤ القيس الشاعر المشهور من اهل هذا البيت الشريف (٤) بنو أزد ، وكانوا من احلاف القبائل وهم لم يفتحوا عمان وبقيموا في جبال السراة فقط بل كان احلافهم وهم الغساسنة قد أنشأوا مملكة في ديار الشام ، وكان الخزاعيون قد استاثروا بمكة مدة من الزمن ، وكان الاوس والخزرج (الانصار) قد اختصوا لانفسهم يثرب (اي المدينة المنورة) .

والحي الاخر النازل من صلب قحطان هو الذي يضع النساب في مقدمته بني حمير او الحميريين . ومن هذا الحي بنو قضاة وهم مؤلفون من قبائل شتى بينها بهراء وتنوخ ، وقد نزلوا ديار الشام الشمالية منذ عهد قديم ومنهم جبينة وكان لهم الكور المجاورة لوادي أضمر ، ومنهم أيضاً بنو عذرة وهم من اقارب جبينة وجيرانهم وقد اشتبهوا بحمير العذري ، ومنهم بنو كلب وكانوا نازلين في بادية الشام ومنهم بنو بلي وكانوا احتلوا شمالي الحجاز ، وفي خلافة عمر ذهبت طوائف من بلي وجبينة واقاموا في الديار المصرية .

اما قبائل شمالي بلاد العرب فهي المعروفة أيضاً بالغازية او المعدية المسمين باسم جدم الاعلى في راعهم . على حين ان المعدية وردت في كتاب المؤرخ بروكوبس بتقيلة قبائل متحالفة لا اسم رجل . وكذلك كلمة نزار ، فانها وردت في كتابة مؤرخة في سنة ٣٢٨ ميلادية اكتشفها المسيو دوسسو في التارة في جوار الصفا (شرقي حوران) يقول فيها (امرؤ القيس بن عمرو ملك جميع العرب) انه كان

يحكم على بني أسد وزار . ثم ان قبائل الشمال انقسمت قسمين عظيمين وهما ربيعة ومضر . وقد تمزقا كل ممزق قبل الاسلام . هذا اذا تركنا على حدة حي اياذ (بالذال المعجمة وهو غير اياذ بالذال المهملة) وهو حي كان عظيم الحول والطول سابقاً ، لكنه انقرض قبل ظهور الاسلام ، فقبيلتا ربيعة ومضر اللتان كانتا قد سادت في عزهما هاجرتا شطر الجزيرة الفراتية وبقي اسمها محلاً في كورتي ديار ربيعة على الدجلة وديار مضر على الفرات ثم نزل تلك الديار بنو تغلب ونمر .

ويتصل بحي ربيعة قبيلتا عنزة وأسد ، وكانتا متحدتين ومتجاورتين كل التجاور في شمالي وادي الرمة ، وكان طريق الحاج من البصرة الى المدينة يمر بارضهما . وكانت عنزة قد احتفظت بالسيادة بعد ان طردت قضاة من ديار العرب في عهد سابق . وفي منتصف القرن السابع عشر (١١ هـ) احتلت عنزة بادية الشام كلها او كادت واخضعتها لامرها . وبنو سباعة في الشمال الشرقي والارولة في الغرب يرجعون اليهم . ويرى اليوم في العراق من بني أسد ، وبنو وائل متصلون بهم كل الاتصال من جهة النسب . وقد انقسموا قسمين مهمين وهما بكر وتغلب . وقد جرت الحرب بينهما بعد قتل كليب الى نتائج مشؤومة . وكان كليب يسود وائلاً فانقلبت الحرب وبلاد القبيلتين المختين ، فذهبت كلتاها مع بني نمر من اقاربهما الى انحاء الجزيرة الفراتية فاحتل بنو بكر شمالها ومن ذلك اسم ديار بكر للبلاد التي نزلوها . وكانت آمد حاضرتها فسميت باسمهم . اما بنو تغلب ونمر فانهم هبطوا جنوبها وكانوا على النصرانية فلما جاء الاسلام اكرهوا على اداء الجزية . ويرجع الى بني بكر بن وائل بنو حنيفة اصحاب اليمامة وكذلك جيرانهم بنو شيبان . ومن يرجع ايضاً الى ربيعة عبد القيس الذين كانوا يسكنون البحرين . واما مضر فكان في مقدمتها بنو قيس ، وقد بلغوا من القوة والمنعة منزلة حتى انه سمي قيسياً كل عربي لم يكن يمانياً . واليوم ليس من يتسمى بهذا الاسم الا قبيلة صغيرة من اهل المدر نازلة على الفرات وهي

تدفع الخوة لبني شمر (١) وفي شرقي هذه القبيلة يقطن بنو عدوان وهم يدينون لشمر أيضاً . وكانوا يتزلون سابقاً جنوبي الحجاز بجانب بني فهم وهذيل (٢) ويرجع الى حي قيس أيضاً هوازن وبني سليم . وكانوا يقيمون في غربي ديار نجد في شرقي المدينة ومكة . وفي اوائل القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) اشتد امر بني سايح ومجاورهم بني هلال الراجعين الى هوازن وضائق البلاد بعددهم العديد حتى خيف على المدينتين المندستين من جهة الامن فيهما ، فاكروها على المهاجرة فهاجروا الى ديار مضر فهبطوا اولاً دلتا النيل ، ثم اضطروا الى مغادرته قسراً فذهبوا الى الصعيد . وفي سنة ٤٤٤ هـ رضوا بالذهاب الى شمالي افريقية على شرط ان يعطى كل منهم بعيراً وديناراً . فاعلّب بدوا فربقيا الشمالية يعودون في اصلهم الى بني سليم وبني هلال . وشهرة بني هلال معروفة الى هذا العهد في شعر العامة في قلب بلاد العرب نفسها (٣) وكانوا يعيدون في السابق الى احلاف قبائل عامر بن صعصعة . ومنهم كانوا ايضاً بنو كلاب وبنو قشير وبنو عقيل . وما زالت بنو عقيل الى زمننا هذا ذات شأن وخطر في بلاد نجد . وهم باعة الابعار الى القوافل التي تطلعن من ديار الشام الى بغداد وهم خفراؤها ايضاً . ومن عقيل خرج المتفق ، وكانوا اصحاب عز ومنعة منذ القرن الرابع الهجري وهم لا يزالون كذلك الى عهدنا هذا ، وديارهم جنوبي العراق .

(١) هذا ما كان قبل عشرين سنة ، ثم صارت قيس (وتلفظ الآن جيس) من اشر العشائر وافسدها . وبعد تحديد الحدود بين دولتي الشام وتركية ظلوا في شمالي الحد واستتركوا واطاع اذام عن سكان البقاع الشامية .

(٢) هؤلاء ليسوا العدوان المعروفين في بلاد شرقي الاردن ، بل هم العدوان المنضمون الى عشيرة المي الكردية في ناحية رأس العين من محافظة الجزيرة الفراتية .

(٣) وعلى وقائعهم نظمت القصة المعروفة باسمهم والمنشرة في ايدي العامة كثيراً .

ويشمل حمي قيس بني غطفان وفيهم قبيلتان شهيرتان وهما عبس وذبيان وقد عرفتا بقتل الاخ لآخيه بسبب فرسين عرفت الحرب باسمهما اى حرب (داحس والغبراء) . واقوى بطن ذبيان كانت فزارة . ويرجع الى مضر ايضاً بنو ضبة وبنو تميم الذين احتلوا الديار التي كان فيها سابقاً بنو بكر وتغلب في نجد، وتمام قبيلة ضخمة انتشرت في كل جهة . وليس في جزيرة العرب بدو خلس بهذا الاسم اللهم الا في اسفل دجلة في جهة العمارة وما دناها (١) بيد ان معظم الحضر من سكان نجد يدعون انهم من تميم . وجميع قبائل نجد البدوية هي مضرية . وهي في عهدنا هذا في شرقي الحجاز وهم بنو حرب (مزينة) ويدهم الطريق التي تجمع المدينتين المقدستين . وفي شرقي هؤلاء قبيلة عتيبة العظيمة البطش وبين القبيلتين وادي الرمة . وفي شرقي ارض هاتين القبيلتين بنو مطير . ومن يرجع الى مضر بنو خالد ومسكنهم في شرقي اليمامة وقد كسرت شوكة الوهابيين من غلواتهم .

ومن بعد في مضر بنو هذيل الذين اقاموا وما برحوا يقيمون في الجبال المجاورة لمكة ومنهم ايضاً بنو كنانة وكانوا في سابق العهد حياً ذا بطش وحول في جنوبي الحجاز . ومن كنانة (قريش) تلك القبيلة العريقة في القدم والكرم والتجار ومن اعظم القبائل سؤدداً (٢) واليوم تدعى قريشاً قبيلة

(١) قلت ومن بني تميم جمع في غربي بغداد وعلى مقربة منها حول نهر ابي غريب وتل عقرقوف ايضاً .

(٢) قلت ثم انقسمت قريش الى بطون منها جمع وسهم ومخزوم وتمام وعبد الدار وعبد المناف ثم كان من عبد مناف عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم ومن هاشم عبد المطلب وبنو عشرة منهم عبد الله ابو الرسول صلى الله عليه وسلم وابو طالب ابو علي رضي الله عنهما ثم العباس ، والعليون ينتسبون الى علي والعباسيون الى عباس عم النبي . اما الامويون فهم من بني عبد شمس اخي هاشم .

صغيرة شاوية نازلة في أرض مكة وهي القبيلة الوحيدة البدوية من قبائل ديار العرب تحسن صنع الجبن .

هذه أشهر قبائل العرب في التاريخ ومنها تتفرع فروع عديدة لا تحصى وكلها ترجع الى امهاتها هذه . فلما جاء الاسلام وامتدت فتوحاته احدث تغيراً عظيماً في عالم البداوة . فلقد امد البدو الجيوش العربية بمقاتلين كثيرين فانشئت مسالخ في العراق وديار الشام شديدة البأس والبطش ، ثم انشئت مراكز جديدة في غربي تلك الديار وشرقها وأقاموا فيها جنداً من أهل البادية فتضعفت بذلك بعض القبائل واضطرت الى التناحر والتعاهد والتعاقد فاضاعت ما كان لها من الاستقلال في ديارها . وقد وقع من التحاسد بين قبائل ربيعة وقبائل مضر ما اكرهه بني ربيعة على محالفة قبائل اليمن منذ عهد بعيد في القدم لاجل مقاومة قبائل مضر .

× بقي علينا ذكر من لا يعتبر من صميم العرب وان كانوا يعيشون مثلهم وبين ظهرانهم من ذلك « بنو هتم » وهم مبشوثون في الحجاز ونجد . ويقال عنهم انهم الأُم قبيلة من العرب ، وهم ينزلون أطراف مصر (ماعدًا منازلهم المذكورة) وهم مشهورون واهل غنم وماشية وفيهم جدادون كثيرون . ومن خلساس البدو « الشرارات » وهم في جنوبي غربي بادية الشام وهم متصلون نسباً ببني هتم وهم اصحاب ابل . ومن لا يعد من الاعراب بتاتاً « الصلبة » فهم بمنزلة (النور) في البوادي وهم يحسنون الرماية والصيد وفيهم مبيضو قدورة ومركوبهم الحجير لاغير . ويدعو انهم لم يذكروا بهذا الاسم في كتب الادب القديمة . انتهى .

قلت = اما اخبار هذه القبائل منذ العصور الاولى الى ان ظهر الاسلام فهي غير متناسقة ولا موزونة بحكم الامية وبعد العهد وغير ذات مكانة تاريخية ولا فائدة قومية للاسف . لان كلها تنازع وتناحر على ما تقتضيه طبيعة البداوة بسبب امور قد تكون نافعة في الاصل كالاختصام على فتاة او على فرس او على منسوب

او بسبب امور قد تكون ذات بال كالاختلاف على المراعي والمناهل ومناطق النفوذ ونحو ذلك مما هو لا يزال ديدنهم حتى يومنا هذا . وقد دون مؤرخو العرب وادباؤهم بعض هذه الوقائع وسموها (ايام العرب) كايام العدنانية على القحطانية وبالعكس ، وايام العدنانية فيما بينهم كالتي وقعت بين ربيعة ومضر ثم التي جرت بين قبائل ربيعة نفسها واهمها ما جرى بين عيس وذبيان وهي حرب داحس والغبراء وامثال ذلك مما لا طائل في ذكره ولا يسهه نطاق كتابنا هذا .

بيد ان مؤرخي العرب لم يذكروا لنا القبائل التي كانت قبل الميلاد بقرون عديدة تقدي على هيئة موجات الى الهلال المخصب الدواعي التي ذكرناها ، ولا اولئك الذين كانوا في بادية الشام في جند زنوبيا ملكة تدمر في حربها الرومان في القرن الثالث الميلادي ، ولا اولئك الذين كانوا يهاجمون قوافل التجار ويزعجون مشارف الشام وحواضره ، فعمد الرومان الى رد جماعهم باشادة الحصون والخافر العديدة التي تقدم وصفها . وهؤلاء المؤرخون حصروا اسباب هجرة العرب في انهيار سد مأرب وحصره بعض المؤرخين المتأخرين في تحول المسالك التجارية من البر الى البحر . والواقع هو ان هجرة العرب البدو - كما بينا - اقدم بكثير من هذين الحادثين على ما كان لهما من جليل الخطر في حياة بلاد العرب ومن الأثر البارز في تنقل العرب من جنوبي شبه الجزيرة الى شمالها . فهذا التنقل بين القبائل كان كثير فتوقع من قبل الميلاد والاسلام ومنذ اقدم المصور . فقد كان العرب يتعاملون مع البلاد التي تجاورهم اذ كانوا ينقلون تجارة الشرق الاقصى (الهند والصين) من موالي اليمن وحضرموت الى بلاد الشام ومصر والرومان فيأتون بالمعادن والاحجار الكريمة والطيوب والافاويه والبخور ، وكانوا ينقلون تجارة الشام ومصر والرومان الى الشرق الاقصى . وكانت هذه التجارة تسير على ابلهم (سفن البر) مخترقة شبه الجزيرة . وكان اهل الجنوب من اليمنيين والحضرميين (الممينيين والسبأيين والحيريين) السابقين الاولين للقيام بهذه التجارة ، ذلك بانهم كانوا اكثر من اهل الشمال حضارة لخصب ارضهم ولا تصالحهم بالفرس والهند

اتصال جوار قريب . لذلك فان القبائل التي هاجرت الى العراق والشام واستقرت
فيهما كانت من قبائل الجنوب . وكان يلي هؤلاء في اتقان النقل والتجارة النبطيون
اصحاب مدينة البتراء والتدمريون اتباع زنوبيا (ملكة تدمر) .

هاجرت بطون من القبائل العربية البدوية منذ العصور الاولى الى اطراف
الشام الشرقية التماساً لبقاع أمرع ورزق اوسع من المعيشة الضنكة في شبه الجزيرة
فكانت تتحضر اما كلياً او جزئياً وتبقى كذلك ما دام الامن مستتباً وهيبة الحكم
سائدة . وكان السلطان في العراق وفي الشام متداولاً بين الامبراطوريتين الفارسية
والرومانية . فكانت فارس تنتزع الشام من الرومان احياناً وتضمه الى العراق التابع
لها . وكان الرومان ينتزعون العراق من الفرس احياناً ويضمونه الى الشام التابع
لهم . وكان العرب البدو الذين نزحوا الى الشمال ينضمون في كثير من الاحيان
الى جيش الرومان او الى جيش الفرس متأثرين بما في طبيعتهم البدوية من حب
الغارات واستباحة حمى المعمور .

ويظهر من الكتابة التي عثر عليها المستشرق الافرنسي دوسوفي سنة (١٩٠١)
(١٣١٩ هـ) في التارة شرقي جبل الدروز وجنوبي وعرة الصفا ، وهي شاهدة
قبر امرئ القيس بن عمرو احد ملوك الحيرة الاخمينين انصار الفرس (٢٨٨ -
٣٢٨ م) ان القبائل العربية التي كانت في القرن الرابع الميلادي في بوادي الشام
والعراق هي معد واسد ونزار ومذحج . وتدل هذه الكتابة المحررة باللغة العربية
العدنانية ان امرئ القيس المذكور قد اخضع هذه القبائل وجاء الى مشارف
الشام لحربها او لهمة اخرى فلقى حتفه في غارة المذكورة ودفن فيها فكتبوا له هذه
الشاهدة التي تعد اقدم اثر عربي .

وقد كان الرومان في بدء احتلالهم الشام بعد غزوات اسكندر المقدوني رأوا
البدو خطراً على الحواضر بسبب طبيعتهم البدوية التي ذكرناها، فحاولوا غير مرة
كسر شوكتهم ، غير انهم عرفوا بالاختبار انهم لا يظفرون بهم ظفراً تاماً ما لم
يستجدوهم ويستعينوا ببعض عشائهم لقطع دابر الشذاذ العاقين منهم . (والمديد لا يقله

الاحديد) فحالف الرومان شيوخ هذه العشائر ولقبوهم بلقب رؤساء وملوك ومنعوا بعضهم قسماً من السلطة على بادية الشام (١)، فكان هؤلاء الرؤساء والملوك يحكمون أبناء جلدتهم العرب ويسودونهم وربما زاحموا الدولة الرومانية كلما شعروا بانقراض حبلها او ضعف ولائها . فترى الانباط منهم في اواسط القرن الاول للميلاد متقلدين الحكم في شرقي الاردن وفي حوران وحتى في دمشق نفسها ، وترى آل السميدع اصحاب مدينة تدمر يسيطرون نفوذهم على حواضر الشام وتمتد مطامعهم حتى العراق ومصر . وقد افاد بعض مؤرخي الرومان ان الرومان كانوا اتخذوا في مقدمة جندهم كتية من العرب كانوا يتقدمون الجيش في محاربة اورشليم على عهد وسبسيانوس وابنه طيطس ، وكان الرومان يدفعون الى الفرق العربية رواتب معينة ليقوموا بحراسة التخوم الرومانية من جهة البادية وليكونوا عدة لهم على اخصاصهم الفرس . ويذكرون ايضاً ان بعض شيوخ العرب المتحالفة قدموا ذات يوم على القيصر يوليانوس وشكوا اليه تأخر ولائه في دفع رواتبهم فغضب يوليانوس وزجرهم بقوله انه اعد لهم حديداً (لقتالهم) لاذهباً (لاجرتهم) فخرجوا ناكين على الرومان ولحقوا بجيش الفرس وحاربوا يوليانوس معهم فكانت الدائرة عليه .

وجل ما ذكره مؤرخو العرب ان العرب كانوا يفدون الى الشام (بلاد الخمر والخمير والامر والتأثير والديباج والحرير) منذ القرن الاول للميلاد بسبب البداوة والتكاثر مع الزمن وتناصر مواطنهم عن كفايتهم وبسبب ما فطروا عليه من حب الفارات واستباحة حمى المعمور . وذكروا ان قضاة اول من قدم الشام من قبائل العرب فصارت الى ملوك الروم فملكهم على من في بلاد الشام من العرب . فكان اول الملك لتنوخ بن مالك بن فهم . ثم وردت الضجاعم وهم فخذ من سليج . وسليج بطن من قضاة فتغلبت على تنوخ وقامت مقامها في السيادة على بلاد الشام واعرابها حتى جاء الغساسنة من اليمن في اواخر القرن الرابع الميلادي . وقد يكون انهيار سد مارب من جملة اسباب مجيئهم ، واستظهروا على الضجاعم وعظم

(١) كما حالف الانكليز في عهدنا شيوخ العشائر العربية في المحميات التسع التابعة لمستعمرة عدن ولقبوهم بالسلطين .

400 A.D.

شأنهم وحالفوا الرومان وصاروا عمالهم على اخوانهم عرب الشام وخفراءهم على الحدود الغربية تجاه الفرس كما كان الاخديون المناذرة حلفاء الفرس وعمالهم على عرب العراق وخفراءهم تجاه الرومان ولقبوهم بلقب فيلارك او امير اومالك، وكان بعض العرب قبل مجيئ الفساسنة يتقدم في خدمة الرومان ومناصبهم حتى ان احدهم وهو فيلبوس العربي من ابناء بصرى في حوران صار قيصرًا ومالك على رومية من سنة ٢٤٤ الى سنة ٢٤٩ م، وكانت ايامه محمودة في عمران المملكة الرومانية ورغدها، وسارت هذه القبائل العربية على دين ملوكها فتنصرت وشيدت في انحاء حوران والصفاء واللجا والبلقاء كثيرًا من الاديرة والكنايس لاتزال آثارها ماثلة. وكانت لغة النبطيين والتدمريين الآرامية، وما بقي من القبائل كانوا يتكلمون لغة عربية، ولكنها بعيدة نوعاً ما عن لغة القرآن القرشية المدنانية لكثرة ما كان فيها من المفردات والتعابير الآرامية.

« وضاعت فيما يبدو وقتئذ بادية الشام بهذه القبائل العربية فانساح قسم منها قبل الاسلام بقرن او قرنين الى براري الجزيرة الفراتية ذات الخصب الكثير والخير الوافر وانتصروا فيها واستقروا على نحو ما عملته قبائل بكر وربيعة ومضر وانمار وايد وشيبان وتغلب وكلهم من أعقاب نزار بن معد بن عدنان. فاحتل بنو بكر شمالها ومن ذلك اسم (ديار بكر) لبلاد التي نزلوها وكانت (آمد) حاضرتها فسميت باسمهم الى ان قلب الترك اخيراً اسمها الى ديار باقراي (ديار النجاس) محوًا لصفتها العربية. فكان في الجزيرة ديار بكر التي قال عنها ياقوت في معجمه «هي بلاد واسعة تنسب الى بكر بن وائل... بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وحدها ما غرب من دجلة من بلاد الجبل المطال على نصيبين الى دجلة ومنه حصن كيفا وآمد وميفارقين». وقال عن ديار ربيعة «ديار ربيعة بين الموصل الى رأس عين ودينيسر والخابور جميعه وما بين ذلك من المدن والقرى وربما جمع بين ديار بكر وديار ربيعة وسميت كلها ربيعة، فانهم كلهم ربيعة». وهذا اسم لهذه البلاد قديم كانت العرب تحمله قبل الاسلام في

بواديه واسم الجزيرة يشمل الكل . وقال عن ديار مضر « ديار مضر هي ما كان في السهل يقرب من شرقي الفرات نحو حران والرقّة وشمشاط وسروج وتل موزن » . قلت يظهر من هذا التعريف ان القسم الغربي من الجزيرة الواقع ما بين الخابور والفرات وفيه في يومنا قضاء الرقة وعين العرب كان من ديار مضر وحاضرتها الرقة ، والقسم الاوسط الواقع ما بين الدجلة والخابور وفيه قضاء القامشلية والحسكة وجبل سنجار كان من ديار ربيعة وحاضرتها الموصل ، والقسم الشمالي الذي فيه جزيرة ابن عمر وميا فارقين مما ظل داخل حدود الترك كان من ديار بكر وحاضرتها آمد . وفي هذه الجزيرة حدثت الوقائع بين قبائل ربيعة واهمها بين بكر وتغلب وهي حرب البسوس بين كليب وجساس وهي مشهورة ومذكورة في كتب التاريخ والادب دامت وقتئذ بينهما اربعين سنة ، مات في اثناهما الشيوخ وشاخ الشبان وشب الولدان وولدت طبقة من الناس لم تكن بالحسبان ، وكان الحرب سجالات الى ان تصالحا آخر مرة على يد عمرو بن هند احد ملوك الحيرة من آل المنذر الاخمين . وجرت واقعة بين شيان وتغلب بقرب الفرات فاز فيها بنو شيان ، ومن قبيلة تغلب هذه نشأ الشاعر المشهور عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي عقيد قبيلته وزعيمها وقاتل عمرو بن هند المذكور في داره . وكان ذلك في اواخر القرن السادس الميلادي ، وهو صاحب المعلقة التي مطلعها :

الا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبق خمر الاندرينا

مما يدل على ان الاندرين الشاخصة باطلاها وآثارها (١) حتى الان في براري حلب الجنوبية كانت هامة في عهده وتنتج خموراً جيدة وان تغلب كانت توافيها وتمتار الحجرة منها . وكانت النصرانية شائعة فيهم قبل الاسلام لمجاورتهم الروم . وقد ابلاوا بلاءً حسناً مع المساميين في فتح العراق قبل ان يفتح الساميون الجزيرة .

(١) راجع وصفها في كتابنا (جولة أثرية في بعض البلاد الشامية) ص

ذكر الطبري ان مدداً من تغلب وهم نصاري حاربوا الفرس مع المسلمين تحت راية
المتقي بن حارثة الشيباني سنة ثلاثة عشرة ، وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم
و قتال مع قومنا . ولما فتح المسلمون الجزيرة سنة ١٨ ايام عمر (رضه) بقيادة
عياض بن غنم لم يحملوا التغلبيين على الدخول في الاسلام بل دان به من دان منهم
طوعاً ومن بقي منهم على النصرانية ابى ان يعطي الجزيرة حمية وانفة ورضي ان
يعطي الصدنة مضاعفة حتى دخلوا كلهم الاسلام مع الزمن . وكانت قبيلة تغلب
مشايعة ل خلفاء بني امية نشأ منها الشعراء المشهورون كعب بن جعيل والاخلط
والقطامي كما نشأ في القرن الرابع الهجري الملوك بنو حمدان الذين منهم سيف الدولة
ممدوح الشاعر الشهير المتنبي . وفي شعر الاخلط اشارات عدة الى الايام والوقائع
التي توالى في الجزيرة بين قيس وتغلب . اشهرها يوم ماكسين على انخابور
ويوم الثرثار الثاني ويوم البليخ ويوم البشر الذي تقدم ذكره في الكلام عن
جبل البشري .

✱ هذا ما كان في الجزيرة ، اما في براري الشامية فقد كان فيها قبيل الفتح
الاسلامي عشائر عربية جليمة اخصها بنو كلب . قال الهمداني في صفة جزيرة
الدرب (ص ١٢٩) : اما كلب فمساكنها السماوة ولا يخالط بطونها في السماوة
احد . وقد قدمنا ان بادية السماوة هي بادية الشام الحالية المشتركة بين العراق والشام . وقال
الهمداني في موضع آخر : وان جزت جبل عاملة تريد قصد دمشق حمص وما يليها فهي
ديار غسان من آل جفنة وغيرهم . فان تياسرت من حمص عن البحر الكبير
وهو بحر الروم وقعت في أرض بهراء ، ثم من ايسرهم ما يصل البحر تنوخ
وقال : وما وقع في ديار كلب من القرى تدمر وسلمية وحمص وهي حميرية
وخلفها حماة وشيزر وكفرطاب لكنانة من كلب الخ .

فيظهر من كلام الهمداني ان عدة قبائل عربية كانت منتشرة في براري
شمال الشام وحواضرها ، وان هذه القبائل هي ثم وابي القين وجذام وغسان
وتغلب وتنوخ وعاملة وبهراء وايد وبلى وكلب كما كان من امثالهم وبني عمومهم

في ارياف العراق . ان هذه القبائل العربية في العراق والشام كانت الطلائع الاولى في التمهيد لفتح العربي وللامبراطورية الاسلامية لان مقامهم بين رافدي العراق ومشارف الشام واحتفاظهم بخصائص حياتهم البدوية العربية واتصالهم باهلهم وبني قومهم المحيطين بهم في شبه الجزيرة ، كل ذلك كان مقدمة لما تلاه بعد أن زحف عرب الجزيرة اليهم محاربين لتحل الامبراطورية الاسلامية محل الامبراطورية الفارسية والرومانية .

ولما جاء المسلمون من الحجاز لفتح الشام والعراق وجدوا فيها هذه القبائل . وقد دعاها مؤرخو العرب بالقبائل العربية المنتصرة وذكروا كيف اعانت بادى بدء الفرس والروم على المسلمين في معارك القادسية واليرموك وغيرها . الا انه بعد ان ظهر المسلمون على الامبراطوريتين المذكورتين وعلت كلمتهم دخل معظم هذه القبائل في الاسلام مع الزمن واشترك في الفتوح وابلى احسن بلاء في نشر راية الاسلام .

لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم واستتب الامر لخليفته ابي بكر رضي الله عنه في الجزيرة العربية بعد حروب الردة شرع يستنفر قبائل العرب للجهاد في سبيل دعوة الاسلام . فزحفت منها جحافل جرارة عمات في الفتوحات الاسلامية امجد عمل ورفعت اعظم ذكر وأثر . وقد دامت هذه الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين والامويين وضربت من الجزيرة العربية الى حدود الصين والهند شرقاً والاطلتيك واواسط فرنسا غرباً وظل الخلفاء المذكورون يندبون قبائل العرب للغزوات ويستجيشونهم للفتوحات بدون انقطاع ، لانهم مادة الاسلام وعصبه ، فكانت القواصي تأكلهم والحروب تفني منهم الالوف المؤلفة فلم يبق لهم ذكر الا في اعقاب متفرقين في الامصار التي اتجمعوها بمجملتهم .

ونحن اذ كان بحثنا منحصراً في هذا الكتاب في أعراب بلاد الشام نقول ،

ان قسماً من تلك القبائل قد تدير وقتئذ بعض بقاع الشام واختلط بعد بالشعوب الشامية القديمة كالسريان الارامي الاصل والروم البيزنطي الاصل والعرب المنتصرة فادجها في قوميته وانطقها بلغته واشركها في مذهبه وقصيته ، ومن لم يتحضر من هذه القبائل وفضل عيش البداوة ظل يضرب في بوادي الشام واطرافه ويشترك في احداثه وكوارثه مسيناً تارة ومحسناً اخرى . وقد ذكر المؤرخون اسماء بعض من كان من هؤلاء خلال القرون الثلاثة الاولى في عهد الامويين والعباسيين كبني كلاب وبني القين وبني نمير وبني عقيل وبني مخزوم كما ظلو يذكرون من حين الى آخر في سياق الاخبار اسماء بعض الرجال من القبائل التي كانت منتصرة فاسلمت بعد واشتركت في الفتوح .

الا ان العرب لما انبسطوا في الاقطار المفتوحة واستروحووا سيادتها وحضارتها صاروا فيما قاله واباي اسفه ابن خلدون يضيعون خشونة البداوة تدريجياً فينغمسون في الترف والنعم ويهملون الامر والنهي فاستلمها غيرهم من الموالي والاعاجم وخسر العرب الرئاسة فامتهنوا وأستهين بهم . وتناوشتهم السنة السفهاء والخلعاء من شعراء الشمومية موالي واعاجم امثال أبي نواس وبشار بن برد وغيرهما . وانت واجد ماقلوه في الكتب الباحثة عن أدب هؤلاء او بالاخري قلة أدبهم .

وقد كان الاسلام عفى على أثر العصبية الجاهلية وشدد النقي عليها ، لانه رأي ان حياة الامة العربية لاستقيم مع هذه المصيبات التي أضعفت قوامها في جاهليتهم . لكن هذه العصبية ذر قرنهما بعد في أوائل العهد الاموي بين اليانين ومنافسيهم من القيسيين وانتشرت معهم في الاقطار المفتوحة ولا سيما في الشام وخراسان والاندلس وكان للشعراء يد طولى في ادكاء هذه العصبية ، ومن قرأ أشعار الاخطل وجريز والفرزدق وغيرهم يتجلى له ذلك . ودامت هذه النعرات الخبيثة قروناً عديدة وحتى في بلادنا الشامية الى عهد قريب تشب ناورها تارة وتخمد اخرى سالت بسببها دماء غزيرة وخربت اوطان كثيرة كانت من أكبر العوامل

في ضعف الأئمة العريضة وتغلب الاعاجم على أمرها وزوال مجدها من تلك الاقطار .

١ قال الامير شكيب ارسلان في تعليقه على تاريخ ابن خلدون (ملحق الجزء الاول طبع مصر سنة ١٣٥٥) (ص ٤١٠) : ولمضفروع جمع عدة قبائل وهو قيس ويقال له قيس عيلان ، ولكثرة بطون قيس غلب على سائر العدنانية حتى صار في مقابل اليمن كلها ، فصاروا يقولون قيس وعين . وفي جميع الديار الشامية انقسم العرب الى قيس وعين . وكانت حروب القيسية واليمينية في لبنان متصلة وانتهت بوقعة عين دارة (سنة ١١٢٢ هـ) ، واما في فلسطين فلا تزال هذه القسمة موجودة ، واما في الاندلس فكانوا يقولون المضرية واليمينية . وقال في ص ١٦ « والحقيقة ان هذه المادة نفسها هي التي كانت الاصل الاصيل في قدوم الاندلس ، بل في نكوسهم عن قاب اوربة بعد ان وطئوه باقدامهم وكادوا يستولون على تلك القارة وقد كانوا كلما تم لهم الظفر في واقعة على الجانب عادوا فاقتتلوا فيما بينهم بين قحطاني ومضري ، ففشلوا وذهبت ريمهم واضطروا ان يعودوا من حيث اتوا . ولم ينحصر ضرر هذه العصبية في الاندلس والمغرب بل افنت القبائل العربية بعضها بعضاً في الشرق ايضاً وصرفتهم عن التوسط في الفتوحات ... ثم قال : ولم يكن ليفت في هذه العصبية الغالبة سوى العقيدة الاسلامية التي جمعت الاسلام هو العروة الوثقى وجعلت اخوته فوق كل رابطة ولذلك قيل ، ان العرب لم يكونوا ليتحدوا في يوم من الايام إلا بالاسلام ، ولولا الاسلام لبقوا شعوباً وقبائل يقتتلون في جزيرة العرب الى يوم القيامة وبأسهم ابداً بينهم ، فلما جاء الاسلام ووحيد بينهم في الدين وقال الله تعالى (كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخواناً) لم يلبثوا ان خرجوا من جزيرة العرب بقوة هذا الاتحاد ففتحوا نصف العالم في ثمانين سنة ولم يقف في وجههم شيء . لكن بعد أن بعد عهدهم بعهد النبوة وخلافة الراشدين ضعفت فيهم العقيدة التي كانت هي مدار العمل عند سلفهم وعادت فتجددت بينهم العصبية الموروثة عن الجاهلية فرجموا يقتتلون على المضرية واليمينية في الاسلام كما كانوا يقتتلون

قبل الاسلام ورجع بذلك زرعهم هشيماً وبدرهم عرجوناً قديماً آه . وفي تاريخ ابن خلدون ان اكثر القبائل الذي كان له الملك انقرض فلم يبق لهم ذكر ، وانتبذ بقيتهم بالقفار واقاموا احياء بادين لم يفارقوا الحلل ولا تركوا البداوة والخشونة فلم يتورطوا في مهلكة الترف ولا غرقوا في النعيم ، ولهذا انشد شاعرهم :

فمن تكن الحضارة اعجبه باي رجال بادية ترانا

وقال : — واقامت هذه الاحياء ناجمة في صحاري الجنوب من المغرب والمشرق بافريقية ومصر والشام والحجاز والعراق وكرمان كما كان سلفهم من ربيعة ومضر وكهلان في الجاهلية . وانقرض الملك العربي الاسلامي وطرق الدول الحرم الذي هو شأنها واعتز بعض اهل هذا الجبل غرباً وشرقاً فاستعملتهم الدول وولوم الامارة على احيائهم واقطعوا في الضاحية والامصار ... الخ قلت ، واكبر سبب فيما ذكره ابن خلدون هو ان الدولة في عهد الامويين كانت عربية خالصة وكان خلفاء بني امية ينظرون الى جزيرة العرب نظراً خاصاً ويميلون لها امتيازاً على غيرها من بلاد الاسلام ، فكانت هي فيه الحاكمة وكان غيرها من البلاد محكوماً . وكان هؤلاء الخلفاء يحنون الى حياة البادية ويهرعون في كل ربيع الى عيشها الحر وهوائها الطلق وعبر ازاهيرها الفياح من عرار وشيح وقيصوم وكانوا يربون اولادهم في البادية بين القبائل ليعتادوا على الفروسية والخشونة ويحتفظوا بالاخلاق القومية والاهجة البدوية المهددة بالتغير بحكم الاتصال بالامم المغلوبة ، فكانت البادية « مدرسة الامراء » ، وكان لكل خليفة اموي ولاكثر الامراء الامويين نخيماً أو منزلاً أو قصرآ في اطراف بادية الشام على ما قدمناه في بحث هذه البادية . وكانت القبائل العربية البدوية مادة الخلافة الاسلامية وجندها الاحتياطي ، فلما قامت الدولة العباسية تغير كل شيء ، لان هذه الدولة شيدت كيانهما على اكتاف الفرس وتديروهم ، وكانت دولتهم كما قال الجاحظ « اعجمية خراسانية » . فقامت خراسان مقام جزيرة العرب واصبحت هي التي تعد الدولة

بالموظفين والجند . وقد اقصى العباسيون العرب شيئاً فشيئاً عن الجيش والدواوين
واهملوا شأنهم منذ عهد ابراهيم الامام الذي اوصى ابي مسلم الخراساني بان لا يدع
في خراسان من يتكلم العربية ، ومنذ عهد المنصور الذي استعمل مواليه وغلجائه
في اعماله وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب كما قال السيوطي (١) ، فامتثلت
لذلك الخلفاء من بعده ومنهم المتوكل الذي قدم الترك فسقطت قيادات العرب وزالت
رياستها وذهبت مراتبها حتى ان الجيش العباسي في عهد المأمون لم يكن فيه جندي
عربي واحد . ولما قدم المأمون دمشق كانوا يستعطفونه بان ينظر الى عرب الشام
كما نظر الى عجم خراسان فيرفض بحق ويحتج بسخط العرب ومناوئتهم له
واستعدادهم للوثوب عليه . ولما بويغ المعتصم سنة ٢١٨ هـ بعث الى عماله في
الامصار ان يسقطوا من في دواوينهم من العرب ويقطعوا العطاء عنهم ، فشق ذلك
علي العرب وثاروا ، لكنهم لم يبالوا وطراً ، فانقرضت دولة العرب من ذلك الحين
وصار جند الدولة العجم والموالي . وفعل الفاطميون في مصر فعل العباسيين فاستخدموا
الترك والسودان ومن اليها واقصوا العرب .

صار العرب (البدو) من ذلك الحين يمتبرون بمجرد عنصر مقلق للراحة
مفسد الامن يستفاد منه ولا يعطى وجه ولا سلطان . وكان قصارى ما يسند اليهم
خفارة الدروب وحراسة طرق القوافل في الصحراء ونقل المتاجر والسلع بين

(١) والسبب في ذلك فيما قالوه لان العرب « اهل عصبية اذا اجتمعوا
تغلبوا على الدولة وفعلوا ما ارادوه لما يملهم من جرأتهم في طلب الحق وتبجح الظلم
جهاراً ولا يحملون ضيماً . وهو — اي المنصور — قد ارتكب في تأسيس دولته من
القدر والفتك مما لا تصبر عليه النفوس الالهية . وقد زاده حذراً منهم ما كان
يسمعه من اقوالهم الدالة على اباة الضيم ولو كان فيه ما يسوءه . » ومن ثم « صار
يفكر في اذلالهم ويستبطل له الخيل » فعمد الى القاء الشقاق بين القيسية واليمينية
وجعلهم احزاباً متحفرين للاقتتال .

الاقطار ، وربما استخدم بعضهم كفرق مساعدة في الحملات الحربية في مصر والشام والمغرب والسودان . اما بعض القبائل التي كان يتحينها الظلم او تقاضي مرارة الجوع والفاقة فكانت تهاجر اما الى الجزيرة العربية او الى مصر والسودان والمغرب . كما كانت الهجرة من الجزيرة مستمرة الى مصر والشام والمغرب او من بعض هذه الاقطار الى آخر .

وما يذكر من احداث البدو في العهد العباسي انه في خلافة الواثق (٢٧٧ - ٢٣٢) شق بنو غير عسا الطاعة في اليمامة وعاثوا وفسدوا في الارض . فارسل عليهم الخليفة القائد بغا الكبير التركي في جيش من الاتراك والمغاربة ، فجعل هذا يناشدهم ويدعوهم الى طاعة امير المؤمنين وهم يمتنعون عليه ويشتمون رسلا ويقتلون الى حربه ، وحملوا على بغا وجنده وكانوا قد جعلوا رجالهم امامهم وفرسانهم وراءهم ونصعهم ومواشيهم من ورائهم وحملوا فزموا بغا وجنده . وكاد يهلك لولا حصول امر لم يكن مقصوداً . وذلك انه كان قد وجه من اصحابه نحو سرية لتغير على خيل لهم علم بوجودها في مكان من بلادهم . فبينما جيش بغا على شرف الانكسار اذ خرجت هذه السرية منعرفة من الموضع الذي وجهت اليه في ظهور بنى نمير تنفخ في صفاراتها . ولما سمع العرب نفخ الصفارات ظنوا ان قد جاءهم كمين من خلفهم فولوا هاربين واسلم فرسانهم رجالهم بعد ان كانوا على غاية الحماية عنهم فلم يفلت من رجالهم كثير احد قتلوا عن آخرهم . اما الفرسان فطاروا هرباً على ظهور الخيل (الى آخر ما جاء في تاريخ لأم الاسلامية للخصري بحث الدولة العباسية ص ٢٥١) .

ان اعراض الخلفاء العباسيين والفاطميين الغريب هذا عن بني قويم واتكالمهم على الاعاجم والاجانب في جيوشهم ومناصب دولتهم قدفت في عضد العرب عامة والبدو منهم خاصة ، وانتطعت الصلة بين شبه الجزيرة ومركز الخلافة وعادت البادية الى عزلتها وجاهليتها رويداً رويداً . وكان كلما ذهب جلال الخلافة من النفوس وزالت هيبتها من القلوب يستشرف ولادة الاطراف الى الاستقلال ويبلغ الى تأسيس

امارات بعضها عجيبة كبنى بويه وبعضها عربية كدولة بني حمدان التغلبيين في حلب والموصل وغيرها (من سنة ٣١٧ - ٣٩٤ هـ) وكانت دولتهم عربية احيوا بها معالم العرب وآدابهم وعرفت بالدولة الحمدانية ، واشهر امرائها سيف الدولة وقد اشتهر بما نظمه فيه الشاعر الشهير ابو الطيب المتيني . وقد عد ابن خلدون من القبائل التي كانت منتشرة في القرن الرابع الهجري في براري الشام والجزيرة بني طي* وبني كلاب وبني كعب وبني العجلان وبني عقيل وبني قشير . قال « كانوا كالوعايا لبني حمدان اصحاب حلب يؤدون اليهم الاتاوات وينفرون معهم في الغزوات » وقد شق بعض هؤلاء عصا الطاعة على سيف الدولة بن حمدان وعاثوا في اعماله فكان يذاريهم لاشتغاله بحروب الروم وهم يتنمرون شأن ابندو كلما رأوا انشغال ارباب الحكم عنهم او ضعفهم . ولما عيل صبره منهم هاجمهم ووقع بهم في مروج سلمية ثم لحقهم الى الفركلس والفنر والجباة وهن ثلاث قرى في سيف بادية حمص والى تدمر وأرك والسحنة وعرض (التي اسمها الآن الطيبة) والرافضة والرقعة فبدد شملهم وهتك سترهم وردم آبارهم حتى زلوا واستأمنوا وبذلوا له طاعتهم . وللمتيني الشاعر قصيدتان رائعتان يصف هذه المواقع ويشفع بهؤلاء الثائرين المنكوبين ، مطلع الاولى طوال قنأ تطل عنها قصار وقطرك في ندى ووغى بحار (١) ومطلع الثانية :

تذكرت ما بين العذيب وبارق بحر عوالينا وبحرى السوابق (٢)
وله قصيدة ثالثة يشفع بيني كلاب في موقعة اخرى في نواحي بالاس «مسكنة»
مطلعها :

(١) يقول ان الرماح الطويلة التي تطلعها انت قصيرة لانها لا تفيد ، والقليل من عطائك وقتالك كثير فالقطرة منه تكون بمنزلة البحر . (٢) العذيب وبارق موضعان بظاهر الكوفة في العراق والموالي الرماح السوابق وبحروبحرى مصدران ميميان الاول من البحر والثاني من الجري .

بغيرك راعياً عبث الذئاب وغيرك صارماً ثلم الفئران (١)
ومنها :

ترفق ايها المولى عليهم فان الرفق بالجاني عتاب (٢)
وما جهلت ايديك البوادي ولكن ربما خفي الصواب (٣)

ولما زالت دولة بني حمدان وزالت روعة الخلفاء في العراق ومصر خلا الجو
للقبائل العربية فاستفحل امرهم وصاروا يحتجنون الحكم في بعض الاماكن
والازمان ويتقاسمون مناطق النفوذ والسيطرة في بلاد الشام . فكان شمالها من
خصة بني مرداس السكلايين نسبةً إلى اسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بني
كلاب من المضرية ، فحكمت هذه الدولة من سنة ٤١٤ - ٤٧٣ هـ ، وكان وسطها
لبنى عايان الكلبيين وجنوبها لبني الجراح الطائيين ، ثم جاء بنو عقيل من كعب
من المضرية فورثوا ملك الشمال من بني مرداس وداموا ايضاً من سنة ٣٨٦ - ٤٨٩ هـ
الى ان قضى عليهم الترك السلجوقيون فاتته بهم سيادة العرب في مدن الشام
وحواضرها .

اما بقية القبائل التي ظلت متبدية فقد ضاع شأنها وخمل ذكرها كما قول ابن
خلدون ، فمنها من ظل يضرب في فيافي الجزيرة العربية او البراري الشامية ، ومنها
من اندمج في بني طي* لما عظم شأنهم في شمالي الشام وصاروا رؤساء البادية وامراها .
وكان في عهد الدول الايوبية ودول المماليك رئاسة عاليا على بادية الشام باسم (امير
عرب الشام) ونالها بعضهم باسم (ملك العرب) ، وكانت هذه الوظيفة وكذلك
امارات بقية العشائر توجه بمراسيم شريفة ، ذكر القلقشندي في صبح الاعشى

(١) يقول غيرك من الرعاة تسعلو عالمه الذئاب فتفسد في رعيته وغيرك من
السيوف ينثلم على المضاربة واراد بالذئاب الثأرين . (٢) يقول لا تقسو عليهم
وارحمهم لان الرحمة للمذنب كعتاب له (٣) وان مكارمك ونعمك لا تنجمل اهل
البوادي وطيشهم وجهلهم وذهولهم عن الصواب احياناً .

عدة نماذج منها . وكان يطلب من اصحابها ان يقوموا بحفظ السابلة ايام السلم ويمنعوا اعرابهم من العيث والنهب وان يتأهبوا للجهاد ويعاونوا العساكر السلطانية ايام الحرب وان لا يفارقوا البلاد ولا ينجعوا (حتى يعبس في وجهها السحاب ، ولا يعودوا حتى تؤذن زروعها الخيمة بالذهاب) إلى آخر ما هنالك من الاوامر والقيود . وهذا يدل على ان العشائر البدوية في تلك العهود كانت مقيدة بتقاليد ومكلفة بواجبات ادارية وحرية تكافأ اذا برت بها وتعاقب اذا خترت .

ومما يذكر عن احداث البدو في عهد المماليك ان بدو الجهات القبلية في القطر المصري نوا وطغوا في سنة ٧٠١ هـ (١٣١٢ م) في زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون واقلعوا البلاد وآذوا العباد فجهزت الحكومة عليهم حملة اخذتهم من كل جانب واعملت فيهم السيف بدون رحمة فهلك كل مقاتلة البدو وسبيت نساؤهم ونهبت مواشيهم وعروضهم . قالوا « وكانوا اذا امسكوا شخصاً منهم وادعى انه حضري يقولون له قل « دقيق » ليحربوا صدقه بنطقه فان تبين انه حضري تركوه والا قتلوه . (عن كتاب السلوك في اخبار دول الملوك المعقريزي) قلت ، ومثل ذلك ما كان يجري في زمن السلطان عبد الحميد العثماني مع جند البغالة المخصص لمطاردة البدو الثائرين . كان يقال للشخص المدعي بأنه غير بدوي ، قل « بصلة » فاذا لفظها بالاهجة البدوية فسكن الباء وفتح الصاد حكم بأنه بدوي فالقي القبض عليه وعوقب .

هذا وقد صارت الرئاسة في طيء الى ابناء رجل طائي اسمه ربيعة . قالوا :

وكان ربيعة امير عرب الشام في القرن السادس في عهد الاتابك طغتكين ،

ثم خلفه في الامارة ابنه مرء بن ربيعة الذي ذكر له ابو الفداء (ج ٢ ص ٢٤٣) معركة مع الصليبيين انتصر عليهم فيها . ثم انقسم آل ربيعة الى ثلاثة اقسام او افخاذ ، ولكل من الثلاثة امير يختص به وهم آل فضل بن ربيعة وآل مرء بن ربيعة وهو أخو فضل وآل علي بن حديثة بن عقبة بن فضل . وكانت منازل آل فضل في الشمال من حمص الى وادي الفرات واطراف العراق ، ومنازل آل مرء في حوران والحولان

ومنازل آل علي في مرج دمشق و غوطتها . ولكل من الثلاثة لواحق من أفاريق الأعراب في تلك الأزمان . أما المنزلة الكبرى والرئاسة العليا فقد كانت في يد آل فضل وهم كما قال الفلقشندي (اتصلوا برجال السلطنة فولوهم على أحياء العرب واقطعوا على إصلاح السابلة بين الشام والعراق فاستظهروا برياستهم على آل مرء و غلبوا على المشاتي) .

وما زال هؤلاء آل فضل أمراء بادية الشام من حمص الى وادي الفرات « و اطراف العراق و ولاية الامر على عشائر تلك البراري كلها طيلة القرون الأخيرة الى عهد قريب . الا ان اسماءهم قد تبدلت بعد بانقسامهم وتغير رؤسائهم فصاروا يسمون آل مهنابن عيسى ، ثم برز من بين هؤلاء آل حيار ، وهو حيار بن مهنابن عيسى ، ثم برز من الحياويين آل ابي ريشة رؤساء عشيرة الموالي المعروفون المستقرون في زماننا في شرقي قضاء المعرة ذوو المجد المؤئل والبأس والبطش . ولم يحتفظ باسم الجد الاعلى الا ابناء عمهم آل فضل الذين فارقوهم منذ اربعة قرون واستقروا في الجولان (قضاء القنيطرة) .

هذا وبمناسبة ما كان لآل فضل المذكورين قديماً من المكانة وما للدوار التي لعبها اعقابهم امراء عشيرة الموالي الملقبون بآل ابي ريشة رأيت في هذا البحث التاريخي ان اخصهم بشيء من التفصيل واساسل اسلافهم واخلافهم واثرح الادلة التي عثرت عليها بعد الجهد وواصلتني إلى اماطة اللثام عن ماضيهم فاقول :

لما مكثت في سلمية في سني ١٣٣٨ - ١٣٤٢ هـ كنت ألحظ حالة الأعراب الذين يكثر ترددهم عليها وتجوالهم في قراها وتقيظهم في مروجها . وبما كان يسترعي انتباهي وقشد حالة عشيرة (الموالي) التي كانت تغد أحياناً الى سلمية من مواطنها في العلا شرق المعرة ، رأيت منتسبياً يشبهون القسم الاول من العشائر الكبيرة اهل الابل في بعض الامور بينها هم من العشائر التالية اهل الشياه والضياع ، ويختلفون عن هؤلاء واوانك بان اباهم ليست من الوفرة بدرجة القسم الاول وان تربيتهم للشياه واستثمارهم للضياع اقل اتقاناً من اهل القسم التالي المعروفين

بالرعية . اما مشابهم للاولين في أنهم يردون النقا ويعطون الصحب اي يشهرون
الحرب ويحIRON الملتجئي اليهم بحكم انهم لا يصطلى لهم بنار في الجرأة والشراسة
وشن الغارات وخوض الغمرات ، وان رؤساءهم يلقبون بالامراء مما ليس له وجود
في بقية العشائر ويحاطون بالتجلة والاحترام لما عرفوا به منذ القديم من كرم المتمدن
وعلو القدر . واذا اجتمع مشايخ العشائر في المؤتمرات التي تعقد الحين بعد الحين
في سلمية او تدمر وامثالها من البلاد التي على سيف البادية او وسطها لفض
الفتن التي كانت تنشب في تلك الفترة بين البدو وخاصة بين اولئك الموالي وعشيرة
الحنيديين يحل امراء الموالي صدور المجالس مع مشايخ القسم الاول بينما مشايخ
القسم التالي عليهم الوقوف في ابوابها والاصغاء لما يقرر فيها ، وتقدم اليهم القهوة
قبل الغير من الكبراء حتى قبل ابن الشعلان وابن هذال ، بينما الاول اكبر مشايخ
عزة قوة وثروة والثاني اكبرها حسباً ونسباً والجميع يقرون بانهم اسيد البادية
الشامية كابرأ عن كابر وملاكوها الاصليون ، وثمة بين العشائر كلها قانون مفاده
(ليس لدم الامير ثمن) اي اذا قتل احدا لامراء لا تقبل عنه دية بل لابد من غسل
دمه بدماء عدة افراد يماثلونه في نباهة القدر لدى قومهم . وكما لا يأخذون ثمن دمهم
لا يؤذون ثمن الدماء التي يرهقونها . وبحكم هذا القانون الغريب يجتنب خصومهم
توجيهه الضرب نحوهم . وكنت استغرب كيف ان البدو وخاصة عزة بقدر
ما كانوا يحلون قار الامراء المذكورين يزدرون اتباعهم المعروفين بالموالي ، وحجتهم
ان هؤلاء ليسوا من اصول معروفة ولا تجمعهم قرابة مألوفة بل هم اذاريق من
خشارة الاعراب ومشرديهم ومماليكهم طوح بهم البؤس واليتم في ازمان سابقة
والتفوا حول الامراء وصاروا مواليهم . ولا يخفى ان المولى عند العرب وسط
بين العبد والحر والغالب فيه ان يكون معتقاً ، فكل عبد اعتق صار مولى لسيده
وينسب اليه او الى قبيلته ، ويطلق المولى ايضاً على الصاحب والغريب والحليف وغير
ذلك بطريق المجاز ، والمولى عند العرب اخط منزلة من الحر وارتفع من العبد .

ولما ادركت كل هذا وغيره مما سوف أذكره ايقنت ان لامراء الموالي وعشيرتهم شئوناً واعتبارات خاصة وانه يجب ان يكون لهم تواريخ وما جريات سابقة جدية بالاستقصاء والاطهار ، وكنت في سني اقامتي في سامية وجدت في احدى جولاتي على بعد بضعة كيلو مترات عنها الى الشمال مسجداً قديماً خرباً في قربه ضريح الشيخ فرج الحسيني المكنى بابي حية الذي تنتسب شيوخ عشيرة الجملان اليه وتقدم له النذور ، وحول هذا المسجد جبانة فيها قبور كثيرة منها القديم والحديث عثرت بينها على قبر له شاهدة فيها اسم (محمد بن عيسى بن مهنا) وتاريخ وفاته (رجب عام ٧٢٤) . وما ان لحت هذا الاسم حتى تذكرت انه مر على كثيرٍ خلال قراءتي تاريخ ابي الفداء وتاريخ حيدر الشهابي فاسرعت بعد هذه الزيارة لمراجعتها فاذا بي امام طائفة من الحوادث اجراها ابو هذا الرجل واخوانه مهنا وفضل واعقابها في القرن السابع والثامن والتاسع من الهجرة ، واخرى مثلها اجراها قبلهم اقاربهم بنو الجراح في جنوبي الشام وشماليه في القرنين الرابع والخامس ادهى وامر بما اتاه الموالي والحديدون في عهدنا . وقد تبين لي منها ومن المصادر التي راجعتها بعد حين كصحيح الاعشى للقلقشندي (ج ٤) والعبر لابن خلدون (ج ٦) ان آل عيسى بن مهنا فخذ من آل فضل من ربيعة من طيء من كهلان من القحطانية ، كانوا في زمن السلاطين الايوبيين سيما في دولة المماليك كما قال في صحيح الاعشى « رؤساء اكابر وسادات العرب ووجوهها ولهم عند السلاطين حرمة كثيرة يحلونهم فوق كيوان وينوعون لهم اجناس الاحسان » . وتبين لي انه كان لهم مداخل في ادارة بلاد الشام وسياستها في تلك القرون واثر عظيم في زوال عمرائها والمخطاط شأنها اللذين حصلا حينما اختلت الامور في اواخر دولة المماليك على النحو الذي ادركناه من اعراب زماننا عقيب زوال الدولة العثمانية .

وساقتني هذا الاطلاع لاقتفاء أثر هؤلاء (آل عيسى) وخاتمهم ومعرفة العهد الذي انقضوا فيه وكيف تم ذلك وهل بقي منهم في زماننا اعقاب ، فوجدت

الشهابي في حوادث سنة ١٠٣٥ هـ يلقب بعض أمراء البادية بآل أبي ريشة وينعتهم
 بالخياريين كما نعت عيسى بن مهنا وأعقابهم من قبلهم . وقد استرعى نظري هذا
 اللقب وتذكرت ان أمراء عشيرة الموالي في زمننا مازالوا يعرفون بآل أبي ريشة
 فصرت افكر في هل أن هؤلاء هم من أعقاب عيسى بن مهنا أبو صاحب القبر الذي
 عثرت عليه في شمالي سلمية وهل بالامكان ربط سلسلتهم بتلك الارومة . ولما سألت
 بعض هؤلاء الامراء وبعض شيوخ العشائر المجاورة لهم وجدتهم في غفلة عن ذلك
 يزعمون مزاعم لا تستند على وثيقة خطية أو رواية مدعومة ببرهان . فهم ينسبون
 انفسهم الى رجل من العباسيين دعوه محمد العباس لا يدرون في أي قرن كان ، ويجعلون
 محمداً هذا من أعقاب رجل دعوه (شقيز) ، ويجعلون شقيزاً أحد أبناء الخليفة
 العباسي هرون الرشيد من أم بدوية زوجه بها في أسطورة لا تنطبق على تاريخ
 ذلك الخليفة العظيم الذي لم ينجب ولداً باسم شقيز ولا ذرية تترك الحاضرة وأوغلت
 في البداوة والمخابا ملي بهؤلاء رجعت انقب - خائف التاريخ الباحثة عن كوائن بلادنا
 في العصور المتأخرة وهي قليلة جداً وجدت في بعضها ما ينفع غلتي ، فأولها كتاب الجنرافيا
 الممتع المسمى جهان نما مؤلفه العالم التركي الشهير كاتب جلبي المتوفى سنة ١٠٦٨ صاحب
 كشف الظنون والمطبوع بعد وفاته سنة ١١٤٢ في الاستانة ، فقد عثرت بفتة
 في بحثه عن سلمية على ما تعريبه : وما برح هذا اللواء - يعني سلمية وقد كانت
 في أيامه مركز لواء - في حوزة أمراء الموالي وهؤلاء الامراء ينسبون الى (آل حيار)
 من قبائل العرب وهم ينقسمون الى فريقين آل حمد وآل محمد وتصل مناطق نفوذهم
 الى ضواحي حاب والرقه . وفي رواية ان حمد ابا نعيم ابنى مرة بلاء حسناً في معركة
 على عهد أحد سلاطين مصر وكان يضع على رأسه ريشة فدتني بابي ريشة وأنعم
 عليه ذلك السلطان بمبلغ عظيم من الذهب فاشترى به الف عبد ليقوى بهم على
 قومه فسميت أعقاب هؤلاء العبيد بالموالي وهؤلاء لا يكون منهم أمراء . اهـ

وما ان لمحت هذه الكلمات حتى خيل لي أنني وجدت ضالتي المنشودة ، فقد
 استدللت مما ذكره كاتب جلبي ان اسم الموالي وصيت امراءهم كانا معروفين في

عنده اي في القرن الحادي عشر ، وقد وافق بذلك المؤرخ الشهابي الذي ذكرهم في احداث سنة ١٠٣٥ ، وواقعه ايضاً بنسبتهم لآل الخيام وبثقتهم بآل ابي ريشة وزاد عليه بيان سبب هذا اللقب كما وافق المؤرخ التركي نعيما والمؤرخين الدمشقيين المحبي والمرادي كما سيأتي بيانه . ان هذا الاستدلال وبقاء لقب ابي ريشة لاحقاً بامراء الموالي المعاصرين لنا حملاني على التفكير بان هؤلاء الامراء هم من اعقاب عيسى بن مهنا آل فضل الطائيين الذين كانوا كما قال القلقشندي وغيره ملوك البادية واعظم ساداتها في عهد السلاطين الايوبيين والسلاطين المماليك . وان هذا هو السبب في كون اعراب زماننا يحملون شأن هؤلاء الامراء ويحملونهم الصدر الاول في المجالس والمؤتمرات . وقوى فكري هذا مانعرفه عن عشائر الاعراب من ان اسماءها تبدل مها عظمت في كل قرن او قرنين تبعاً لامتارعلها ، وقد تسمى العشرة باسم اميرها او شيخها ثم باسم ابن هذا او ذلك بعد وفاته اذا انفصلت عن الارومة وتغيرت . فقد تغيرت اسماء القبائل التي كانت معروفة بدخول الاسلام الشام في القرن الثالث والرابع وما عرف من اسمائها في القرن السادس والسابع تبدل في التاسع والعاشر ، والامثلة على ذلك كثيرة كما سوف يأتي . والامارة والمشيخة ترجع على الاغلب لمن كان له اصل قديم من بيته او من كان اذكى قومه حناناً وابسطهم بالكرم يداً واشجعهم يوم النزال قلباً واحلبهم في الحوادث عوداً ثم تنتقل بالوراثة حتى ينقطع القرب او ينضب معين الكفاءة .

ساذكر الآن ادلتي على ان امراء الموالي الحاضرين المعروفين بآل ابي ريشة متحدرين من مهنا الثاني بن عيسى بن مهنا الاول الفضلي الربيعي الطائي مبتدئاً باصول آل عيسى ونازلان نحو فروعهم مع بيان بعض احداثهم في دول الايوبيين والسلاطين المماليك والعثمانيين ، مستنداً الى المصادر التي اتيح لي الوصول اليها خدمة لهذه الناحية الغامضة من تاريخ بلاد الشام :

ذكر القلقشندي في صبح الاعشى (ج ٤) ما خلاصته بان من جملة القبائل

العربية القحطانية بنو طي* بن أد بن زيد بن يشجب بن عريب بن ازد بن كهلان
والنسبة اليهم طائي ، واليهم ينسب حاتم الطائي المشهور بالكرم وابو تمام الطائي
الشاعر المشهور . وقال ابن خلدون في تاريخه : ان بني طي* نزلوا جبلي أجا وسلمى
من بلاد نجد فعرفا بجبلي طي* الى الآن ثم افترقوا في اول الاسلام زمن الفتوحات
في الاقطار ، ومنهم امم كثيرة ملاوا السهل والجبل حجازاً وشاماً وعراقاً . . قل
وكانت الرياسة على طي* في الجاهلية لبني هناء ومن ولده اياس بن قبيصة الذي ادال
به كسرى ابرويز النعمان بن المنذر حين قتله وانزل طياً بالحيرة مكان لحم قوم
النعمان وولى على العرب منهم اياساً هذا فكانت له ولاعقابه الرياسة الى حين انقراض
٨ ملك الفرس . ولم تذكر التواريخ اخبار بني طي* في القرن الاول والثاني والثالث على
عهد الامويين والعباسيين وربما كان ذلك لعدم ظهور ما يستوجب الذكر منهم خلال
غمرة الفتوحات الاسلامية والحضارة العربية التي سطمت في تلك القرون ، الى ان
قالت التواريخ ان رئاسة طي* في القرنين الرابع والخامس في عهد الخلفاء الفاطميين
الذين بسطوا نفوذهم على بلاد الشام ايضاً كانت لبني الجراح منهم — وعد وامن
كبرائهم مفرج بن دغفل وابنه حسان ، وذكروا لهما حوادث وثورات عديدة
قاما بها لما ضعف شأن الخلفاء المذكورين في الرملة وطبريا من فلسطين وفي اقامة
(قلعة المضيق) من شمالي الشام . وفي القرن السادس انتقلت رئاسة طي* الى
بني زبيعة . قال ابن خلدون : ويزعم كثير من جهلة البادية من بني زبيعة انهم من
ولد سميع بن جعفر بن يحيى البرمكي ، وان سميماً هذا هو الذي ولدته العباسية اخت
الرشيد من جعفر المذكور ، وكانت سبب نكبة البرامكة . زعم كاذب لا اصل
له ، وحاشا لله من هذه المقالة في الرشيد واخته وفي بنات كبراء العرب من طي*
الى موالي العجم من بني برمك وامثالهم .

قلت ان امراء الموالي الموجودين في عهدنا في قضاء المعرة ومثلهم امراء آل
فضل في قضاء الجولان وشيوخ طي* في الجزيرة مباحوا يدعون الانتساب الى

العباسيين . فلعل منشأ هذا الادعاء من ظنهم بانهم من اعقاب الولد الذي وضعته العباسية اخت الرشيد المذكور آنفاً . فلو صح هذا الزعم - وهو غير صحيح كما نفاه ابن خلدون وغيره - اذن لوجب ان يكون انتساب هؤلاء الى العباسيين من جهة الام لا من جهة الاب . بينما هم لامن هنا ولا من هناك ولا علاقة لاي منهم بالعباس وولد العباس .

ثم قالوا وكان ربيعة امير عرب الشام في عهد الانابك طغتكين ، ثم خلفه في الامارة ابنه مرء بن ربيعة الذي ذكر له ابو الفداء حادثة خطيرة مع الصليبيين سنة ٥١٠ اتصر فيها عليهم . ثم انقسم آل ربيعة الى ثلاثة افخاذ هم المشهورون ومن عدام اتباع لهم ودانلون في عددهم ، ولكل من الثلاثة امير مختص به ، وهم آل فضل بن ربيعة وآل مرء بن ربيعة وهو أخو فضل وآل علي بن حديشة بن عقبة بن فضل بن ربيعة . قال الفلستيني في نهاية الارب : هؤلاء سادات العرب ووجوهها ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة وصيت عظيم الى رونق في بيوتهم ومنازلهم ، تقاسموا بلاد الشام فكانت منازل آل مرء بن ربيعة من بلاد الجيدور والجولان في جنوب ، ومنازل آل علي بن حديشة من دمشق وغوطها ومنتهاهم الى الجوف . اما آل فضل فكانوا رأس السكل واعلام درجة ومنازلهم من حمص الى ضفتي الفرات واطراف العراق وقد تشعبوا بعد شعباً كبيراً اجلها قدراً آل عيسى . وتشعب آل عيسى بعد الى عدة بيوت اجزاء رآيت مهنابن عيسى وبيت فضل بن عيسى وبيت محمد بن عيسى (الذي عثرت على قبره في سامية) وغيرهم . قال ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار : هؤلاء آل عيسى في وقتنا (اي في القرن السابع والثامن) هم ملوك البر فيما بعد واقرب بمشارف الشام والعراق وبرية نجد وسادات الناس ولا تصلح الاعاليهم العرب . واما الامرة عليهم فقد جرت العادة ان يكون لهم امير كبير منهم يولى عن الابواب السلطانية ويكتب له تقليد شريف بذلك ويلبس تشريفاً اطلس اسوة بالنواب ان كان حاضراً او يجيز اليه ان كان غائباً ويكون لكل طائفة منهم كبير قائم مقام

امير عليهم وتصدر اليه المكاتبات من الابواب الشريفة الا انه لا يكتب له (اي للقائم مقام) تقليد ولا مرسوم .

ولم يصرح لأحد منهم بامرة على العرب بتقليد من السلطان الا من ايام الملك العادل ابي بكر اخي السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب ، امر منهم ماتع بن حديثه بن عقبة بن فضل بن ربيعة . ولما توفي ماتع سنة ٦٣٠ هـ ولي عليهم ابنه مهنا وهو مهنا الاول . وحضر مهنا هذا مع الملك المظفر قطز قتال جيش الترسنة ٦٥٨ في عين جالوت (غوريسان) فجازاه قطز بسامية ، نزعا من الملك المنصور بن الملك المظفر صاحب حماة واقطعها له (ابو الفداء ج ٣ ص ٢١٤) ثم ولي الملك الظاهر بيبرس ابنه عيسى ووفر له الاقطاعات على حفظ السابلة . وعيسى هذا على ما ذكره ابن ابيس في تاريخه (ج ١ ص ١٠٢) هو الذي جاء بالامام احمد العباسي بعد حادثته هولاكو في بغداد التي جرت سنة ٦٥٦ وقضى بها على الخلافة العباسية ، وكان احمد فاراً من القتال مخبئاً عند اناس من قبيلة الامير عيسى ، فاوصله الى مصر الى الملك الظاهر بيبرس وشهد هو وقومه انه من نسل العباسيين فبويع له بالخلافة ، واستمرت هذه الخلافة السورية فيه وفي اعدائه الى ان استخلصها منهم السلطان سليم العثماني سنة ٩٢٣ وقضى عليهم .

وذكر ابن تغري بردي في (المنهل الصافي) ان الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا امير آل فضل كان ملك العرب في وقته ، وكان له منزلة عظيمة عند الملك الظاهر بيبرس ثم تضاعف عند الملك المنصور قلاوون بحيث ضاعف حرمة واقطاعه وملكه مدينة تدمر بعقد البيع والشراء واورد عنه ثمنها لبيت المال ليأمن غائلة ذلك . وكان عيسى كريم الاخلاق حسن الجوار مكفوف الشر لم يكن في العرب وامرائها من يضاهيه وعنده ديانة وصدق لهجة لا يسلك مسالك العرب في النهب وغيره وكان به نفع المسلمين ، منها انه كان يكف العدو عن حلب ومعاملتها ، ومنها في وقعة الملك المنصور قلاوون مع التتار بمحصر سنة ٦٨٠ (وقد حدثت هذه

المعركة الهائلة في السهل الذي بين حمص وتايبة وكادت الدائرة تدور على المسلمين ، لولا ثبات الملك قلاوون بنفسه (ولولا مجيئ الأمير عيسى بعربه من سلمية واعتراضه جيش التتار من خلفهم فتمت هزيمتهم به . هذا واكبر ظني ان عيسى المذكور هو الذي قل عنه كاتب جلبي في جغرافيته (جهان نما) انه كان في هذه المعركة حاملاً ريشة على رأسه فلقب بابي ريشة وبقي هذا اللقب في اعقابها الى يومنا ، وانه هو الذي نال من الملك المنصور قلاوون عطاءً عظيماً فاشترى به عبيداً ومماليك اعتقوا بعد حين ودعوا بالموالي وبقيت اعقابها الى يومنا ملتفة حول هؤلاء الامراء (آل ابي ريشة) وانضم اليهم بعد عدد غير يسير من شذاذ الاعراب اندرجوا في لفيفهم وحلفهم فصارت من مجموعهم عشيرة الموالي التي سوف نبحث عنها بالتفصيل في الجزء الثاني من كتابنا .

ولما توفي عيسى سنة ٦٨٠ دفنوه في جبانة الشيخ فرج شالي سلمية على ما جاء في كتاب (شذرات الذهب في اخبار من ذهب ج ٦ ص ٢٢) . واعقب عيسى عدة اولاد اخصهم مهنا وفضل وسليمان وحارثة وموسى ومحمد ، ولى الملك المنصور قلاوون منهم (مهنا) في الامارة فلقب بحسام الدين ودار كبير آل عيسى النازلين في براري سلمية وحماة وتدمر بل أمير البادية الشامية كلها . وقد رد ابو الفداء ٨ وابن الوردي وابن حجر العسقلاني وحيدر الشهابي في تواريخهم والمقرئزي في خططه وابن بطوطة في رحلته ما كان للامير مهنا الثاني بن عيسى المذكور في اواخر القرن السابع واوائل الثامن من المكانة لدى سلاطين مصر ونوابهم في بلاد الشام — وذلك يؤيد ما قاله مؤلف مسالك الابصار ايضاً — وذكروا تداخله في بعض امور الدولة وكيف ان الملك الاشرف خليل بن قلاوون في سنة ٦٩٢ بعد ان نزل ضيفاً على الامير مهنا قبض عليه وعلى اخويه محمد وفضل وارسلهم معتقلين الى مصر الى ان جلس الملك العادل كتبغا فافرج عنهم وعاد مهنا الى سلمية وكان مقره في قرية تل اعدا ، وانه في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون علمت منزلته

وقويت وجاهته جداً بحيث استطاع ان يشفع في سنة ٧٠٧ بالعالم المصلح الكبير احمد بن تيمية وقد كان مسجوناً في مصر فاخرجه وان يلتبس نصب أبي الفداء ملكاً على حماة فيجانب الى طلبه . ويحدثنا المقرئ في كتابه (المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٢٥) عن اسباب السعادة والوجاهة التي كانتا للامير مهنا عند الملك الناصر قلاوون بما نقله بالحرف لطرافته ودلالته ايضاً على مبلغ عناية سلاطين ذلك العهد بالخيول واربابها . قال، ان الملك الناصر محمد شغف باستدعاء الخيول من عرب آل مهنا وآل فضل وغيرهم وبسببها كان يبالغ في اكرام العرب ويرغبهم في ائتمان خيولهم حتى خرج عن الحد في ذلك فكثرت رغبة آل مهنا وغيرهم في طلب خيول من عداهم من العربان وتبعوا عتاق الخيل من مظانها وسمحوا بدفع الاثمان الزائدة على قيمتها حتى اتهم طوائف العرب بكرائم خيولهم فتمكنت آل مهنا من السلطان وبلغوا في ايامه الرتب العالية وكان لا يحب خيول برقة واذا اخذ منها شيئاً اعده للتفرقة على الامراء البرانيين ولا يسمح بخيول آل مهنا الا لاعز الامراء واقرب الخاصكية منه وكان جيد المعرفة بالخيول وشيائها وانسابها لا يزال يذكر اسماء من احضرها اليه ومبلغ ثمنها فلما اشتهر عنه ذلك جلب اليه اهل البحرين والحساء والقطيف واهل الحجاز والعراق كرائم خيولهم فدفعت لهم في الفرس من عشرة الاف درهم الى عشرين الى ثلاثين الف درهم عنها الف وخمسة مائة مثقال من الذهب سوى ما يتعم به على مالكة من الثياب الفاخرة له ولنسائه ومن السكر ونحوه فلم بقى طائفة من العرب حتى قادت اليه عتاق خيلها . وبلغ من رغبة السلطان فيها انه صرف في ائتمانها دفعة واحدة الف الف درهم في يوم واحد وتكرر هذا منه غير مرة وبلغ ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا الستين الف درهم والسبعين الف درهم واشترى كثيراً من الحجور بالثمانين الفاً والتسعين الفاً واشترى بنت الكرشا بمائة الف درهم عنها خمسة الآف مثقال من الذهب ، وهذا سوى الانعامات بالضياع من بلاد الشام . وكان من عنايته بالخيول لا يزال يتفقدونها بنفسه فاذا اصاب منها فرس

او كبر سنه بعث به الى الجشار ، وتنزي الفحول المعروفة عنده على الحجور بين يديه وكتاب الاصطبل تؤرخ تاريخ نزوها واسم الحصان والحجرة فتوالدت عنده خيول كثيرة اغتنى بها عن الجلب ومع ذلك لم تكن عنده في منزلة مايجلب منها وبهذا ضخمت سعادة آل مهنا وكثرت اموالهم وضياعهم فجز جانبهم وكثر عددهم وهاهم من سواهم من العرب ... (ثم قال) وبعث اليه الامير مهنا فرساً شهباء على انها ان سبقت خيل مصر فهي للسلطان وان سبقتها فرس ردت اليه ولايركبها عند السباق الا بدوي قادها فركب السلطان للسباق في امرائه على عادته ووقف معه سليمان وموسى ابنا مهنا وارسلت الخيول من بركة الحاج على عاداتها وفيها فرس مهنا وقد ركبها البدوي عربياً بغير سرج فاقبلت سائر الخيول تتبعها حتى وصلت المدي وهي عربى بغير سرج والبدوي عليها بقميص وطاقي فلما وقفت بين يدي السلطان صاح البدوي السعادة لك اليوم يامهنا لاشقيت فشق على السلطان ان خيله سبقت وابطل التضمير من خيله وصارت الامراء تضمر على عاداتها ومات الناصر محمد عن اربعة الآف وثمانمائة فرس وترك زيادة على خمسة الآف من الهجن الاصائل والنوق المهربات والقرشيات سوى اتباعها وبطل بعده السباق . فلما كانت ايام الظاهر برقوق عني بالخيول ايضاً ومات عن سبعة الآف فرس وخمسة عشر الف جمل اه .

وقد اخطأ مهنا بعد واضاع السعادة والوجهة اللتين كان يتمتع بهما هو وقومه ، وذلك لما قام في سنة ٧١١ واعان نائب حلب قراسنقر التائر على الملك الناصر وفر من جيش هذا الملك الى انحاء العراق وبقي هو وعشيرته آل عيسى شريداً وبعيداً عن سلسية الى ان عني عنه في سنة ٧٣٢ ورجع ثم مات .

قال المؤرخ اسماعيل بن كثير الدمشقي في كتابه (البداية والنهاية) في حوادث سنة ٧٣٥ : وفيها مات حسام الدين مهنا امير العرب بالشام . وهم يزعمون انهم من مالة جعفر بن يحيى البرمكي من ذرية الولد الذي جاء من العباسية اخت الرشيد .

وقد كان منها يحب الشيخ تقي الدين بن ابي حنيفة حباً زائداً هو وذريته وعمره ، وله عندهم منزلة وكرامة يسمعون قوله ويمثلونه ، وهو الذي نهام ان يغير بعضهم على بعض وعرفهم ان ذلك حرام ، وله في ذلك مصنف جليل . وكانت وفاة هذا ببلاد سامية ودفن هناك . آه ،

واعقب منها عدة اولاد منهم موسى وسليمان واحمد وفياض وخيار كما ان اخيه فضل جد آل فضل الذين في قضاء الجولان على ما نظن أعقب سيف وعيسى ومعقل ومن ثم صارت تنقل اماره البادية تارة الى ابناء منها وتارة الى ابناء عمهم فضل . فكانوا يتقاتلون عليها وتخرّب من جراء معاركهم المتوالية القرى والمزارع حول المعرة وحماة وسامية كما ذكره ابن الوردي في حوادث سنة ٧٤٨ . وما زال الامر على ذلك الى ان تزح آل فضل الى الجولان والى ان تولى

احد ابناء منها الامر في قضاء المعرة وهو خيار بن منها المتوفي في سنة ٧٧٧ .

ومن خيار هذا نشأ فيما يظهر فرع من آل منها بن عيسى سمو من ذلك الحين بالخياريين

لانه بعد وفاة خيار خلفه في الامارة ابنه محمد الملقب بنغير الى ان قتل في سنة ٨٠٨ ثم خلف محمد ابنه معجل وذكر اسمه (المعجل بن نير) الى ان قتل هذا ايضاً في سنة ٨١٦ وبقتله انكسرت شوكة آل منها . وكان لكل من هؤلاء الامراء وقائع

وثورات عديدة ذكرها مؤرخو تلك العصور منهم ابن تفرج بردي في المنهل الصافي

والقلقشندي في صبح الاعشى ، كما ان السخاوي في الضوء اللامع وابن خطيب

الناصرية في الدر المنخب في تاريخ حلب والمقرزي في السلوك في دول الملوك ترجوا

عدة امراء منهم ونوهوا بما كان عندهم من الشجاعة والكرم والعيش وما عملوه من

قتل بعضهم بعضاً مما لا طائل في سرده ثم سكنت التواريخ عن اخبار آل الخيار

ابناء منها بن عيسى الا نبذاً جاءت في تاريخ حيدر الشهابي في — احداث سنة ٨٨٣

و ٩٩٢ و ١٠١٧ ، على ان بعضهم كان يذكرهم تارة باسم آل خيار وحينئذ

خيار كما اثبتته ابن بطوطة في رحلته وقد صادفهم سنة ٧٢٥ حين رجوعه من الحج

الى العراق . ثم ثبت اسم ابي ريشة وقد سماهم بذلك المؤرخ حيدر الشهابي والمؤرخ

التركي كاتب جلبي . ثم صار الشهابي يذكرهم باسم الموالي في خبر مخالفتهم الامير *
 غفر الدين المعني وان احدهم الامير مدليج استنجد به لما نازعه ابن عمه - بن علي
 الامارة فجاء المعني بعسكر وفي سنة ١٠٣٣ لنجدة مدليج فاضافه مدليج ضيافة عظيمة
 في سلمية واهداه الفرس سعدة المشهورة . وبعد سنتين انتقض مدليج وقومه على
 الامير المعني وتمنعوا عن تقديم الذخيرة التي طلبها فلحقهم حتى عبرهم النهرين ثم
 رجعوا الى ديارهم لما قضت الدولة على هذا الامير . فاسم (الموالي) لم يذكره
 الشهابي الا هذه المرة فبل ثبتت هذه العشيرة عامئذ فجأة ، وهل كانت تذكر لو
 لم تكن هي التي كانت وما برحت ملتفة حول الامراء آل ابي ريشة الحياريين منذ
 القرن السابع الذي نشأ فيه جدهم مهنا الثاني بن عيسى بن مهنا الاول وافرادها
 لقبوا بالموالي لانهم اما عبيد معتقون من الذين ذكرهم كاتب جلبي في جغرافيته او
 صنائع او حلفاء منضمون اليهم . ثم ذكر هؤلاء المؤرخون من امراءهم فياضاً
 وابنه حسين وابن عمه سلطان وابن اخيه مدليج ، كانوا امراء البادية سنين عديدة
 واتسعت سلطتهم حتى صارت تشمل اعراب بغداد والموصل . وفي (خلاصة الاثر
 في اعيان القرن الحادي عشر) المحجي ترجمة الامير حسين بن فياض الحيارى
 ونزاعه مع ابن عمه مدليج بن ظاهر على الامارة الى ان غدر به والى حاب مراد
 باشا وسجنه في القلعة وخنقه . و ترجمة اخرى الامير شديد بن احمد الذي قتله ابن
 عمه مدليج المذكور سنة ١٠١٨ ، وقد قال المحجي في هذا الصدد ان آل جبار وهو *
 خطأ من تحريف النساخ (وصحيحه حيار) هم حكام العرب اباً عن جد يقال انهم
 من ذرية جعفر البرمكي ومقام هؤلاء (في بلاد سلمية وعانة والحديثة) قلت وفي هذا
 القول دليل آخر على ما كان لهؤلاء الامراء حتى في القرن الحادي عشر - من
 الشوكة واتساع السلطة ، لولا ان المحجي خبط في نسبهم الى جعفر البرمكي بما يشبه
 انتساب الحاضرين منهم الى هارون الرشيد وانتداب ابناء عمهم الامراء آل الفضل
 بن مهنا المقيمين في الجولان الى الفضل بن العباس ، على حين ان الفضل هذا لم
 يعقب قط . وذكر المؤرخ التركي نعيماً انه لما زاد عيث الامير مدليج طارده الوزير

الاعظم خـروباشا في سنة ١٠٤٠ وكسره ونهب بلاده وقومه الى ان مات وهو فار
 فاقام مكانه الامير سعيد بن فياض، ثم ذكر ايضاً في اخبار سنة ١٠٥٤ حادثة جرت
 بين الامير عساف الذي استفحلت شروره وبين ابراهيم باشا والي حلب وحاول هذا
 الوالي ان يغدر بالامير خلال وليمة ادبها له في براري حلب فاحقق في تلك المحاولة
 وانتلب شرها عليه . وهكذا كان يتوالى طغيان هؤلاء الامراء وعيهم ويؤدي الى
 استمرار الخراب في براري حلب وحماة وسلمية وحمص طوال تلك الحقبة ،
 وظلوا على ذلك في القرن الثاني عشر ايضاً بدليل ما قاله المرادي في كتابه (سلك
 الدر) في ترجمة عبد الرزاق الجندي انه في سنة ١١٨٩ اقتضى لحاكم حمص عبد
 الرحيم بن العظم التوجه على عرب الحيارى المعروفين بالموالي المقيمين في تلك
 الاطراف تبعاً لولاة حاب فحاربهم ودارت الدائرة عليه وعلى المترجم . ومن مراجعة
 x كتابنا (جولة اثرية في بعض البلاد الشامية) في بحث تاريخ سلمية يتضح ان هذه
 البلدة كانت عاصمة امراء الموالي منذ ان داهمها في القرن السابع (سنة ٦٥٨) جدم
 الأمير مهنا آل فضل وورثها ابنه عيسى ثم حفيده مهنا الثاني ثم اعقاب هذا من
 بعده وانهم كانوا من جملة اسباب خرابها حينما استعرت قتلهم في القرن الثامن (سنة
 ٧٤٨) على ما ذكره ابن الوردي في تاريخه وظل هؤلاء ينزلونها ويرعون انعامهم
 بين اطلالها لانها صارت في عهد العثمانيين ايضاً اقطاعاً لهم كما جاء في ما نقلناه آنفاً
 v عن كاتب جلبي في مؤلفه الجغرافي جهان نما . وقد أيد هذا المؤلف وجودهم في
 سلمية خلال القرن الحادي عشر وانهم كانوا وقتئذ ينتمون الى فرقتين آل حمد
 وآل محمدر على نحو ما م عليه في زماننا من الانقسام الى شماليين وقبليين ، وان مناطق
 نفوذهم كانت تمتد الى ضواحي حلب والرقه وهو ما يؤيده ايضاً الشيوخ العارفون
 باماضيهم الذين يوصلون هذا النفوذ الى عانة والحديثة . ويؤيده ايضاً السائح الايطالي
 د لاوالا الذي جاء الى هذه الديار في القرن الحادي عشر الهجري ١٠٧١ هـ
 (١٦٦١ م) فقد قال ان امير بلدة عانة وكل البادية يدعى الامير فياض من آل



ابي ريشة من عشيرة الموالي التي كانت سائدة في الضفة اليمنى من الفرات .
 هذا وبينما كان اعراب الموالي يرتعون لوحدهم في سلمية وبراياها ويصل
 سوءدهم من ابواب حمص وحماة الى ضواحي حلب والرقعة ودير الزور والجزيرة
 واذا في اواسط القرن الحادي عشر تفد نحوهم عشيرة بني خالد النازحة من الاحساء
 طلباً لبقاع امرع من التي كانت فيها وتحاول النفوذ الى ارباب حمص وسلمية
 فصدها الموالي بعد حروب دامت مدة مديدة . وقد ذكرنا في بحث بني خالد رواية
 قالوا فيها ان الموالي قتلوا في احدى المعارك مائة شخص من بني خالد بينهم اربعون
 عرساً وقبورهم في موقع سوحة عقيربات شرقي سلمية ، ولا تزال ذكرى الثارات
 بين بني خالد والموالي في اذهان الفريقين ، وبعد بني خالد جاءت شمر في حدود سنة
 ١١١٢ نازحة من نجد وارادت النفوذ الى برايا حمص وحماة فصدها الموالي .
 وفي رواية ان الموالي غدروا وقتلوا في احدى معارك الصالح وذبخوا عدداً من رؤساء
 شمر لا يزال يذكر شعراء شمر فجيتهم .

وقد ذكر الرئيس رينو في كتابه « بدو مقاطعة دمشق » ص ٢٤ حديث
 اقتتال الموالي وبني خالد على الشكل الآتي ، قال ما تعريه : ان الموالي هم اقدم من
 نزل واستقر من البدو في بلاد الشام . وهم بعد ان منوا بني خالد من النفوذ الى
 معمورة بلاد الشام عاد الخالدون واستظفروا عايبهم ودفعوهم الى انحاء دير الزور ،
 فظل الموالي في هذه الانحاء نحو نصف قرن مسيطرين . ثم تحالفوا مع العقيدات
 وتقدموا واياهم لمهاجمة الخالدين الذين كانوا نازلين في (سوحا) ففتكوا بهم فتكاً
 ذريعاً وغنموا من ماشيتهم عدداً وفيراً ورجعوا بها الى انحاء الفرات ، وما زالوا
 حتى وافقهم عشيرة العبيد وطردتهم منها ، فانكفأوا وراحوا واستقروا في انحاء
 (عينتاب) ... انتهى ما قاله الرئيس رينو ، وهو لم يذكر مصدر روايته هذه ،
 ونحن لم نطعن لصحتها . اذ لم يسمع ان الموالي اضطروا بضغط بني خالد الى اخلاء
 برايا حمص وحماة كلها ، وانهم ظلوا نصف قرن بعيدين ومحرومين منها . كما لم

يسمع بذهابهم الى انحاء عيذاب بضغط عشيرة العبيد التي كانت منازلها في الجزيرة قبل ورود شمر . فمن لنا بمن يجلي هذا الغموض ؟

هذا وما ان استراحت الموالي من بني خالد وشمر حتى فوجئت في حدود سنة ١١٧١ بما هو أدهى وأمر الا وهو طلائع عشائر عنزة (الاحسنة) النازحة من نجد هرباً من ضغط الوهابيين الذين ظهروا قبيل ذلك . فصمدت الموالي لهؤلاء ايضاً ولكنها بعد تلك الصدمات المتوالية وبعد معارك طويلة اضطرت الى مصانعتها واخلاء ديار حمص لعشيرة الاحسنة منها . ثم توالى غارات بقية عنزة كالقديعان والاسبعة فضلاً عن الاحسنة فاضطرت عشيرة الموالي من بعد سنة ١٢٢٠ الى ان تجلي سامية وتنسحب الى بقاع اكثر وعورة ومنعة في كورة العلاء شرقي معرة النعمان . ومن احداث تلك الحقبة ما رواه لنا الامير مجحم آل مهيد والشيخ سعيد العرفي ان الموالي في احدي معاركهم مع الاحسنة قتلوا الملحم احد اسلاف آل ملحم في مكان على ضفاف الفرات سموه من بعد (تلعة الملحم) فهاجمتهم الاحسنة لاختذ النار وفتكت بهم قرب بالس (مسكنة) الى حدان امراء الموالي اضطروا الى الاحتماء بال مهيد رؤساء القديعان فحموهم وردوا الاحسنة عنهم . ومن ثم نشأت العداوة بين الاحسنة والقديعان كما نشأت الصداقة بين الموالي والقديعان الى هذه الغاية . ومن الاحداث التي ذكرتها التواريخ (خطط الشام ج ٤ ص ٦) عن أفاعيل الموالي في أوائل القرن الثالث عشر ان الموالي ثاروا في سنة ١٢٠٧ في ضواحي حمص وحماة ونهبوا القرى وفتكوا ببعض اعيانها وعاثوا في تلك الجهات فامر والي دمشق متسلم حماة ان يقتض منهم فساق عليهم من حلب وحماة جيشاً فقتل منهم نحو ألفا انسان وانهزم الباقون . وكان من جملة أسباب هذه الحملة ان قائد قلعة دمشق الذي عصى على اوالي فروجاً اليهم . ومن امراء الموالي الذين اشتهروا في أواخر القرن الثاني عشر كان الامير محمد الخرفان . وقد أدركه السائح الفرنسي فولاني لما قدم الى ديار حماة في سنة ١٠٩٩ هـ وقال عنه في الجزء الثاني من رحلته الخاصة ببلاد الشام ان سطوة هذا الامير قد استفحلت في السنين الاخيرة بحيث صار يفرغ من اتاوات

على البلاد وانهم يقدرّون بجمع قوته بثلاثين ألف خيال اه . وقد حدثني محمد الجدعان أحد شيوخ الحديدية المعمرين ان جده مزقادة قتل محمد الخرفان هذا بضربة سيف عاجله بها وهو يتوضاً انتقاماً من عسفه وتعديه على الحديدية رغم انهم كانوا حلفاءه وانصاره . قالوا انه لما مات محمد الخرفان كانت امرأته حاملة فوضعت غلاماً سمته باسم ابيه محمد الخرفان ، وان هذا الامير محمد الخرفان الثاني لما ترعرع حاول ان يثار من الحديدية فغزاهم مراراً ثم تشاجر مع ابن عمه الامير احمد بك بن محمد باشا الجبجابه بن محمود بن حمد الازرق بسبب فتاة كان كل منهما يريد لها لنفسه وعظم الشر فاستنجد احمد بك بالحديدية وحارب محمد الخرفان واستنجد هذا بالحرافشة امراء شيعة بعلبك فلبوه ووقعت الواقعة بين الفريقين سنة ١٢٧٥ هـ (تشرين الثاني سنة ١٨٥٨ م) في سفح جبل زين العابدين شمالي حماة فدارت فيها الدائرة اولاً على الحديدية ثم كرهؤلاء وهزموا الموالى والبعلبكيين شرهزيمة وقتلوا محمد الخرفان ، فعلا شأن احمد بك من يومئذ وطني وبغى ، ثم غزي الاحسنه في شرقي حمص قرب حمام ابى رباح واراد ان يقتصب منهم فتاة اسمها حربة بنت الشيخ فارس المزيد فقتلوه - قيل ان الذي قتله احد عبيدهم الذي انتحى لصوت الفتاة واستغاثها - وهزموا جمعه . وهكذا كان هؤلاء الامراء وما برحوا يعيشون في المقارعة والمقاورة وتنتهي حياتهم بالجرح والذبح ولا يموت منهم حتف انفه الا مائدتهم .

رجع الى حديث بقية الاعراب في القرن التاسع وما بعده ؛ عني القلقشندي بامر اعراب زمانه وذكرهم بالتفصيل حسب البقاع التي كانوا ينزلونها ، وهو بعد ان ذكر في (بحث اعراب نيابة دمشق) آل فضل المذكورين وابناء عمومهم آل مرء وآل علي ووصفهم انتقل الى (اعراب نيابة حلب) فقال : والمختص باعمال حلب من العرب المشهورين قبيلتان : - بنو كلاب ، قال في مسالك لابصار وهم عرب

اطراف حلب والروم ولهم غزوات عظيمة معلومة وغارات لاتعد ولا تزال تباع بنات الروم وابناؤهم من سباياهم وهم من أشد العرب بأساً واكثرهم ناساً قال :

ولافراط نكايتهم في الروم صنف السيرة المعروفة « بدلهمة » و« البطال » (١) منسوبة اليهم بما فيها من ملح الحديث وملح الاباطيل ولكنهم لا يدينون لامير منهم يجمع كلمتهم ولو اتقادوا لامير واحد لم يبق لاحد من العرب بهم طاقة ... الخ

٢٠٢ - آل بشار. قال في مسالك الابصار ديارهم الجزيرة والاحص ببلاد حلب . قال والاحلاف منهم حالهم في عدم الانقياد لامير واحد حال بني كلاب ، ولو اجتمعوا لما أمن بأسهم ، وبسبب جماعتهم لا يزال آل فضل منهم على وجل وبينهم دماء ... الخ قلت ؛ ان بني كلاب الذين تردد ذكرهم كانوا عشيرة كبيرة فيما يظهر جاءوا من نجد الى ديار حلب في سنة ٣٥٢ هـ وقطنوا واستقروا نحو أربعة قرون . وقد رددت التواريخ احداثهم ووثباتهم العديدة واستباحتهم حتى العمور مراراً مما هو معروف من طبائع اهل البوادي في كل عصر ومصر . ورددت ما جرى بينهم وبين سيف الدولة بن حمدان وأبنائه ملوك حلب نبغ منهم صالح بن مرداس واسس في حلب وشمالي الشام دولة بني مرداس التي دامت من سنة ٤٠٦ الى سنة ٤٧٢ ثم ظل ذكر هذه العشيرة يتردد الى اواخر القرن الثامن حتى انقطع مما يدل على تشتت شملهم وانطفاء خبرهم واندماج فلولهم في بقية العشائر شأن اعراب البادية التي تتغير اجتماعاتها واسماؤها في كل قرنين او ثلاثة ولا يشذ عن ذلك الا القليل . ونال آل بشار المذكورون أيضاً مانال آل كلاب ولم يعد لهم أثر ولا خبر في جبل الاحص جنوبي حلب كما نال آل مرء وآل علي الذين كانوا في أنحاء دمشق ولم يعد لهم أثر ولا خبر فيها أيضاً .

(١) هي السيرة المشهورة الآن بذات الهمزة تقرأها العامة بلذة ، كسيرة عنتر وسيف بن ذي زن ، وقد طبعت اخيراً في مصر وهي في بابها لا بأس بها . والبطال من أبطال الغزاة المشهورين في العصور الاسلامية المتوسطة وكان فعله في الروم عظيماً وهو معروف ومشهور عند الترك باسم (بطل غازي) وله عندهم حرمة كبيرة وسيرة مطبوعة يقرأها عامتهم في الاناضول بشغف .

ولما جاء الصليبيون في القرن السادس والسابع واجتاحوا بلاد الشام كلها ماعدا
المدن الأربع (دمشق وحمص وحماة وحلب) وبلغت خيابهم شمالي الجزيرة الفراتية
واواسطها ، ثم لما دخل المغول الشام في القرن السابع والثامن وتكررت
غاراتهم بقيادة هولاكو وغازان وتيمور لنك خرب هؤلاء وأولئك البلاد واهلكوا
العباد ثم جاءت بعدهم الاويشة والطوائين الجائحة وازداد البلاء واستمر بفساد
الحكم وسوء الادارة وضعف الوزاع في أكثر عهد المماليك والعهد العثماني ، ومن
هنا تحركت نزوات البدو ومطامعهم فطفقوا فيما قاله مؤرخو تلك العهود وشكوه
غير مرة يقطعون الطرق ويخيفون السبل ويعيثون فساداً فخربت القرى وجلا
من سلم من أهلها وتهدمت القنوات والسدود وبارت المزارع والحقول ودرست
الكروم والبساتين فاتسع المغمور وصغر المعمور ولم تعد ترى في مشارق حلب
وحمص وحماة ودمشق وحوران طوال تلك العهود الا عشارب البدو واباعرهم
ولا تسمع الا زئيرهم وهديرهم .

ونعيد ما قلناه عن ان اشهر من كان في شمالي الشام خلال تلك العهود من
عشائر البدو واقواها وارفعها شأناً وسؤددآ آل فضل ، ثم أعقابهم آل مهنابن
عيسى ثم أعقاب آل مهنابن آل حيار ثم أعقاب آل حيار آل ابو ريشة امرأء عشيرة
الموالي . فقد كان هؤلاء الامراء كما فصلناه في تاريخهم يسيطون نفوذهم من حمص
وسامية - وسامية كانت عاصمتهم - الى حلب فوادي الفرات واطراف العراق . بحيث ان
احدهم واسمه فيارووه (فياضاً) كان نصب عاموداً وسط نيا في الحماة دعاه (عمود
الحمي) حرم به على العشائر النجدية المتحفزة للقدوم نحو بادية الشام ان تتخطاه
وتقترب من مناطق نفوذ الموالي في تلك البادية . وأشهر من كان في جنوبي الشام
(حوران والبلقاء) وأقوى العشائر وأرفعها شأناً عشيرة السرحان ثم عشيرة السردية
التي نازعت السرحان وخلفتها وبزتها وترأست حلفاً رباعياً اسمه (اهل الشمال)
كان مؤلفاً من السردية والفحيمية والعيسى وبني صخر ، وكان هؤلاء كلهم مع افاريق

الاعراب الذين يجاورونهم او يحالفونهم يقومون بضروب العيث كلما اهتملوا الغرر من ضعف الحكام وفقدان الرادع ويحولون دون العمران وامتداد الحرث والزرع خارج المدن الشامية كما سوف نشرحه في حديثهم الخاص . وقد ذكر السائح التركي الشهير اوليا جلبي انه لما مر من حماة الى حمص في القرن الحادي عشر (سنة ١٠٥٨ هـ) وجد الرستن خراباً يباباً من توالي عيث الاعراب . على حين ان الرستن قرية كبيرة ذات موقع حصين ، فاذا كانت هي على ما ذكره وقتئذها بالك ببقية قرى حماة وحمص ؟ ... والسائح الافرنسي فولنسي الذي تقدم ذكره مر بحماة في اواخر القرن الثاني عشر (سنة ١١٩٩ هـ) فمدح خصب سهول حماة واستعدادها ، ثم قال ان المانع لاستثمار هذه السهول هو عتو محمد الخرفان امير الموالي وعيته وكثرة اخذه الاتاوات (الخوّة) من القرى والمزارع .

ومن الاحداث التي اوقعتها البدو وخاصة عشيرة الموالي وامراؤهم في تلك الحقبة مارواه كامل الغزي في كتابه تاريخ حلب (ج ٣ ص ٢٨٢) تحت عنوان (فساد العرب والايقاع بهم) ، وقد نقل هذا الخبر عن تاريخ نعيم التركي قال :
 « وفيها (في سنة ١٠٥٤) كثر فساد العرب في نواحي حلب وانقطعت السابلة . وكان امير هؤلاء العرب المتمردة الامير عساف (قلت ؛ الغالب من تلقيه بالامير انه من اسلاف امراء الموالي) وكان له من قبل الدولة راتب معلوم . ولما زاد طغيانهم اراد ابراهيم باشا والي حلب ان يعمل الحيلة في القبض على عساف المذكور ، وكان يريد ان يعزله عن امرة العرب ، الا انه رأى ذلك لا يجدي نفعاً ، فان عسافاً لا يعترف بالعزل في ذلك الحين . ثم ان ابراهيم باشا خطر له ان يرسل الى عساف رسولاً يدعوه الى ضيافة يصنعها له في حلب ، فقال له الرسول ان عرب البادية لا تأوي المدن بل ولا ما قاربها . فامر ابراهيم باشا ان تصنع وليمة حافلة في قرب حلب على بعد خمس ساعات منها تقريباً . ثم سار الباشا الى محل الضيافة بالمهمات والعساكر ومعه الهدايا ، واشاع ان هذه الوليمة مصنوعة الى سلطان البر يعني به

عسافاً ، وكان الرسول قد سبق الى الامير عساف ودعاه الى هذه الضيافة فأجابه اليها بعد ان استوثق منه على عدم الغدر ، وعاد الرسول الى ابراهيم باشا واخبره وحذره من الغدر بالامير عساف في خصوص هذه الضيافة . وكان الامير عساف قد تجهز للقدوم ومعه جم غفير من العريان خوفاً من ان يغدر به . الباشا ولما وصل الى محل الضيافة غدر به الباشا وحاول ان يقتله فاستدركه ✕ الفرط وانفلت من قبضته ، وعاد الى اشد ما كان عليه من الافساد وقطع الطريق . ولما سمعت الدولة بغدر ابراهيم باشا وعدم وفائه وسوء تديره عزلته عن حلب وولت مكانه درويش باشا المعزول عن ولاية بغداد فقدم حلب وتلافي خطر ✕ العريان الذي كان من اهم الامور في ذلك الزمان وارسل من قبله رسولا يدعو عسافاً بالرفق واللين الى طاعة السلطان وجهز معه هدايا ثمينة لعساف فوصل الرسول المذكور الى عساف وبسط له الكلام وتلطف به ووجهه على عصيانه وعظام من امره وامر هذه العشيرة المعروفة بابي ريش (وصوابه ابي ريشة) وقال له لا ينبغي بادني فرد من هذه العشيرة ان يشهر على السلطان العصيان فاجابه عساف بقوله : والله مالي ذنب في هذا العمل وانما الذنب فيه لابراهيم باشا ، ثم ان عسافاً استدعى بثلاثة دروع كان لبسها في يوم الضيافة وصار يرى الرسول الثقوب التي حصلت من اطلاق الرصاص ، وكانت احدى الرصاصات قد ثقت الدرع ووصلت الى بدنه فحلف الامير عساف ان جرح هذه الرصاصة بقي يبصق منه الدم شهرين فسله الرسول وذكر له ان الدولة لم تعزل ابراهيم باشا الا لما اجراه معك من الغدر ، فرضي حينئذ عساف وتعمد للرسول بالامن والامان واهداه مقدار عشرة خيول وجهز معه للدولة عدة خيول واعطاه حوالة على حلب بالني ذهب للدولة . آه وذكر ايضاً في (ص ٢٨٨) انه في سنة ١٠٩٣ كثر فساد العرب (ولم يذكر ✕ اي عرب هؤلاء وما اسمهم) في برية دمشق وحلب وعظم ضررهم وافحشوا بالسلب والاعارة على القوافل حتى ضجت منهم الولايات ، وصدرت أوامر الدولة

الى والي حلب ودمشق وبغداد وطرابلس ان يبذلوا جهدهم بالقبض على اميرهم ملحم
(اقول ايضاً ان الغالب من تلقيب هذا بالامير انه من اسلاف امراء الموالي) فعتدها
عزم قره محمد باشا والي حلب على ان يأخذ ملحم بالحيلة ، فوسط حاكم المعرة
اخى شريف مكة بينه وبين ملحم . فاجتهد المذكور في احضار ملحم الى حلب .
وحلف له على انه يطلب له العفو من السلطان ويجعله اميراً على العربان . وكان حاكم المعرة
داهية ، وكان متبهاً بانه يقاسم الامير ملحم بالغنائم ويسعى له في بيع ما يلزمه منها
فاراد أن ينفي الظنة عن نفسه بمكيدة ملحم وسعى في احضاره واجتهد غاية الجهد
الى ان رضي معه ملحم بالحضور بعد ان استوثق منه بالايان المغاظة ، فحضر معه
الى قرية جبرين ، وكان قد ارسل الى الوالي يخبره بذلك ، فانفذ له الوالي خلعة
وخيلاً ليغيره بالدخول الى حلب على انه يحلف له فيها على ما تقدم . فركب ملحم الى
حلب ولحقه من عشيرته خمسون فارساً ينهونه عن الدخول الى حلب والحواء عليه
بالرجوع فقبل منهم ورجع الى مخيمه ، وقال لاخى الشريف المتقدم ذكره لاسبيل
الى دخولي المدينة فاني آيت على نفسي ان لا ادخل بين الجدران وتحت السقوف
لأنها تضيق صدري ، فاذهب وقل للوالي ان كان يريد محالتي فليأت الى هنا ، ولما
لم ينجح سعي اخى الشريف في اقناع ملحم رجع الى الوالي واخبره بما جرى ،
وحين رجوعه اصحبه ملحم باثنين من بني عمه وبمستشاره وهو اعرابي طاعن في
السن ، فلما تملاوا بين يدي الوالي قال لهم بالبشاشة وخلع عليهم واحسن موارهم ، ثم
ارسلهم الى بيت اخى الشريف وركب في الليل سراً ومعه خمسمائة عسكري
بالعدة الكاملة وقصد مخيم ملحم في جبرين ، وكانت ملحم قد رحل من مخيمه
وابقى فيه خمسين من قومه فحاربهم الوالي ، وبعد ان دافعوا عن
انفسهم دفاع الابطال قتل بعضهم واسر منهم ثمانية عشر وفر الباقون . ثم
استدل الوالي من الفلاحين على الامير ملحم وتبع أثره الى أن دهمه بقتة عند
الصباح في وادي بين جباين بحيث لم يره الامير الا عند ما وصل اليه ، وكان مع

الامير عدد يسير من جماعته فاركن الى الفرار واراد ان يجتاز من نهر هناك فتوحلت به فرسه فتوكل على ربحه لانتشالها من الوحل فانكسر الرمح وكان الوالي قد أدركه والبندقية في يده وأحاطت به العسكر وقبضوا عليه وساقوه اسيراً الى حلب فكبّلوه بالحديد ومن أسروا معه من قومه ، ثم قتلوا الجميع صبراً سوى الامير ، وكانوا عندما يقتلون احدهم يخرقون أكتافه ويغرسون فيها فتائل مشعلة مصنوعة من المرخ والشمع ويطوفون به البلد ثم يقطعون رأسه ويرمون جثته في مستنقع الخندق يعني خندق (قلعة حلب) ، واتفق ان واحداً من هؤلاء الأسراء كان شاعراً عند الامير ملحم لم يغمس يده في دم ولم يشن غارة قط، فبينما كانوا يطوفون به على تلك الحالة اذ ملح ضابطاً سبقت له يد عنده فذكره بها وقال اني لم أكن لصاً ولا قاطع طريق انما كنت شاعراً عند الامير فتفرع له الضابط عند الوالي وخلصه من القتل ، ثم ان الوالي أرسل ملحم الى ادرنه حيث كان السلطان إذ ذاك ، فبعد ان نظر السلطان الى ملحم ملياً أمر بقتله ، وقد صعب ذلك على رجال الدولة لانهم كانوا يرجون خلاصه والعفو عنه ليكون كافلاً قمع غارات العرب حسب شجاعته المفرطة.

وقال في حوادث سنة (١١٣٣) : زاد طغيان العرب المعروفين بالعباسيين (قلت) ، اي عباسيين هؤلاء ؟ أعله يقصد امراء الموالي ايضاً بحكم ادعائهم الانتساب الى العباسيين ! في صحراء حلب وكثير ضررهم على السابلة وعسر على الولاة ردعهم فعين الباب العالي قواداً وجوشاً من بغداد والموصل وديار بكر وغيرها . وانفذت الى هؤلاء الاوامر المؤكدة بشن الغارات ومتابعتها على العربان المذكورين فتناوشتهم العساكر من كل جانب واذاقوهم انواع المعاطب والمصائب فكف ضررهم ومنع خطرهم .

وقال في حوادث سنة (١٢٣٢) ، في هذه السنة كثر فساد الاعراب في جوار حلب وجهات ربحا وأنطاكية ، وكان الامير مهنا البدوي هو الزعيم الاكبر على الاعراب (قلت) ؛ اي مهنا هذا ؟ هل هو مهنا الفاضل شيخ الاحسنة ، هذا

كان في جهات حمص ولم يبلغ حلب) وقد فرض على كل داخل الى أرضه مبلغاً من النقود وضرب على القرى المجاورة مضاربه جريمة سماها (الخوة) فكانت سبباً لخراب عدة قرى وجلاء اهلها عنها، وتفاقم امر هؤلاء الاعراب وتعطلت السبل وفقد الامن ثم صدر أمر الدولة لوالي حلب أن يقصد الاعراب في الصحراء ويوقع بهم وانفذ اليهم كتخداه عثمان آغا ورفقه بمقدار وافر من العساكر . وكان العربان على ثمان عشرة ساعة عن حلب فوصل اليهم وكسرهم وظفر منهم بأربعة وثلاثين شخصاً قطع رؤوسهم وجعلوها الى استانبول فسرت الدولة من ذلك وشكرت الوالي .. اه

✕ وكان اشد ما يهيم الدولة العثمانية وقتئذ ان تحمي قافلة الحج من تعدي البدو في طريقهم بحكم ان سلاطين آل عثمان كانوا خلفاء وخدام الحرمين الشريفين فكانت تكلف بعض العشائر بهذه الحماية لقاء جعل معلوم وتخصص لكل منها منطقة . فمن العشائر التي كانت تقوم بهذه الوظيفة بين حلب ودمشق (الموالي) وبين دمشق وحوران والبلقاء (السردية) و (بني صخر) و (الولد على) من عنزة . وكانت الدولة تمنح جوائز مالية (الصرة) للعشائر التي في طريق الحج بعد البلقاء حتى المدينة ومكة . ومع هذا كله فقد اساء باشات الحج التدبير في بعض السنين وقطعوا الاعطيات عن هذه العشائر وقتلوا في سنة ١١٧٠ هـ بعض رؤسائها فحقد البدو لذلك وهاجموا في سنة ١١٧٣ قافلة الحج الشامي وفتكوا بها فتكاً ذريعاً واماتوا من الحجاج نحو عشرين الفاً من القتل والجوع والعطش وابعوا منهوباتهم في اسواق عكا . وكانت الدولة تكلف بعض الاسر الاقطاعية بحماية المسالك النائية والقرى المتطرفة . فمن هذه الاسر القديمة (آل سويدان) المستقرون في قرية خسية قرب حمص . واول العهد بهذه الاسرة وبقريتهم هو في سنة ١١٠٠ هـ حينما امتلكها جدم الآغا ابراهيم سويدان . وهؤلاء بعد ان كانوا مسلمين في حمص على طرز العهد الاقطاعي خلال القرن الثاني عشر تولوا محافظة البادية وطريق حمص - تدمر وجبل قلعون حتى أبواب دمشق . ومثلهم الآغوات الجواردة

(آل حويشان الجندل) المستقرون في جيروود الذين كانوا مكلفين بحماية طريق دمشق - تدمر ، ومثلهم الآغوات الدناشة (آل دندش) المستقرون في تلكلخ الذين كانوا مكلفين بحماية طريق حمص - طرابلس منذ القرن الثاني عشر .

وظل امراء الموالي اسياذ البادية الشامية يمنعون اختراق عمود الحمى على العشار ^x القادمة حديثاً من الجنوب أو الشرق الى ان كان اول المتجاسرين على اختراقه (بنو خالد) القادمون من الاجزاء للمرة الثانية في اواسط القرن الحادي عشر ، فصدهم الموالي بادي ذي بدء ، لكن الخالدين بعد معارك عديدة استظهروا على الموالي في معركة جب الصفا ونفذوا الى ديرة الشنبل واستقروا حتى يومنا وقد فصلنا حديثهم هذا في بحثهم الخاص . وجاء بعد بني خالد في اواخر القرن المذكور العقيدات من انحاء نجد الى انحاء دير الزور والابى شعبان من انحاء العراق الى انحاء الرقة كما جاءت الابو خميس والكيار والخزاعلة وغيرها من العراق الى اقضية حلب .

ولما ذر فجر القرن الثاني عشر كانت الدعوة الوهابية في نجد قد استفحلت ^x فحدثت بواعث لهجرة بدوية جديدة حركت وقتئذ قسماً من شمر فزحف ، في اوائل ذلك القرن نحو بادية الشام تخلصاً من ضغط الوهابيين وطلباً لاماكن اخصب من التي كان فيها وبلغ تدمر والسخنة ونهبها ثم تقدم نحو ديرة الشنبل يحاول النفوذ فتصدت الموالي له وحدثت معارك انتهت برد شمر وارجاعها الى نجد . لكن شمر لم يجد مجالاً للاستقرار في نجد من ازدياد نفوذ الوهابيين فرجعت الى بادية الشام بعد حين يصعب تحديد عدد سنه الا أن هذه المرة تحاشت مناطق الموالي فنزلت في انحاء جبل البشري وجبل العمور الى الفرات كما عملت وقتئذ اوقبلها (عشيرة العقيدات) الفراتية النجدية الاصل .

وكانت طلائع عترة (الاحسنة والولد علي) قد خرجت بعد شمر في حدود سنة ١١١٢ هـ من شمالي الحجاز وبلغت وادي السرحان ثم اطراف البلقاء واشتبكت مع عشار هذه الانحاء (السرحان والسردية والفحيلية وبني صخر) الذين تحالفوا وتألبوا

عليها ودحروها . وبعد معارك دامت سنيناً عديدة تقوت عنزة وتوقفت للحلول
فدخلت منها عشيرة (الولد علي) الى حوران والجولان واستقرت . اما الاحسنة فقد
استمرت في سيرها نحو الشمال وبلغت أنحاء حمص وحماة في حدود سنة ١١٧١
على ما يظن ودحرت الموالي نحو منازلها الحالية في العلا (شرقي قضاء المعرة)
ثم صارت تزاخم شمرأ على المراعي والمناهل الشرقية في انحاء جبل البشري وجبل
العمور فاضطرت شمر الى ان تعبر الفرات في عهد رئيسها فارس الجرباء وتستقر في
الجزيرة على ماسوف نذكره في بحثها . ثم توالى قدوم بقية عشائر عنزة طيلة القرن
الثالث عشر الى براري الشام وتوالي انسيابهم .

فهجرة بني خالد وشمر وعنزة والعقيدات في القرن ١١ و ١٢ و ١٣ كانت آخر
الهجرات البدوية الكبرى على ان هجرات صغيرة ما برحت تقوم بها بعض ذبول
قبيلتي شمر وعنزة العظيمتين وتوالي بين ذهاب واياب كما عملته اخيراً فرقة الولد
سليمان من عشيرة الفدعان من عنزة . فقد كان هؤلاء آخر من نزح ووافى بادية
الشام ، ثم على أثر حادث سوف نذكره في بحثهم رجعوا الى نجد . وكذلك عملت
بعض فرق العبدية وسنجارة واسلم من قبيلة شمر . فقد كانت هذه الفرق متخلفة
في نجد فجاءت تلتحق بفرقها الاصلية الضاربة في الجزيرة الفراتية .

ولم يكف براري الشام ما كانت تقاسيه من عيث (اعراب الديرة) حتى
ازداد الطين بلة بالمعارك التي كانت تنشب بين شمر وعنزة وبين عشائر عنزة نفسها
التي انصرفت للاقتال والاغارة بعضهما على بعض او على اعراب الديرة المذكورين
وازداد ايضاً بقدوم الوهابيين بقيادة عبد الله بن سعود وغارتهم على حوران
وافحاشهم في قراه وتهديمهم دمشق في سنة ١٢٢٥ هـ وهكذا ظلت هذه البراري
خالية من العمران وظلت القرى المتطرفة التي على سيف البادية مضطربة خائفة
لا تنجو إلا بدفع (الخوة) لعشيرة او لعدة عشائر معاً . وقد ادر كنا قرى المناظر
كتدمر والسخنة تدفع هذه الخوة الى عهد قريب جداً يتقاضاها الموالي والاحسنة

والاسبعة كل منهم في دوره ووقته ، وقد يأتي غيرهم ويطلب ويقبض بنسبة ما يرى من فوضى الاحكام وضعف الوازع . هذا الى ان قرى المناظر وخاصة الحنة (الى شمالي تدمرب ٧٥ كيلومتراً) قد هوجمت ونهبت وجلا اهلها مراراً إلى دمشق وحماة وسفيرة وحاب اخصها ما حدث في السخنة سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) واستمر الحال على هذا الى ان جاء ابراهيم باشا المصري واحتل بلاد الشام ودام حكمه نحو تسع سنوات (١٢٤٨ - ١٢٥٦) ، وقد وطد هذا القائد الكبير الامن في الحواضر واكره البدو على احترام سلطة الحكومة وحمى السكان من اعتداءاتهم ، فعاد كثير الى سكى المدن والقرى المهجورة والى حرث الاراضي المهيلة في حوران وحمص وحلب . وقد اكد لي بعض المعمرين في حمص انه عمرت في تلك المدة الوجيزة بعض قراهم الشرقية كالشرفة وشنشار والزعرانة . ولكن لم يكد ابراهيم باشا يخرج من بلاد الشام ويتقاص ظل سطوته حتى عادت فوضى الاحكام في الحواضر واستأنف اعراب البادية غاراتهم على المعمور فرجع الخراب الى القرى والمزارع المأهولة حديثاً . وظلت المدن منكشة وراء اسوارها وابوابها مدة ربع قرن آخر (في عهد السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز) فحمص مثلاً كانت تغلق ابوابها بعد الغروب لا يخرج منها احد ولا يدخل . حدثني المعمرون الذين ادركوا حدود سنة ١٢٧٥ هـ ان اهالي القرى القريبة كزيدل وفيروزة كانوا اذا خرجوا لحرث ارضهم وزرعها يعودون مساء الى مساكنهم في مدينة حمص ولا يجسرون على المبيت في البرية من توالي عيث الاعراب ، وان ابواب حمص ظلت تغلق بعد الغروب الى حدود سنة ١٢٨٧ هـ ويقف وراءها الحراس وموظفو المكس . ويذكر معمر دمشقي ان امتداد الشجر في الفوطة كان لا يزيد عن نصف ما هو عليه الآن خوفاً من ابل البدو وعدوانهم . ويذكر معمر حلب ان منتهى العمران خارج باب النبر كان في عسان وسفيرة والباب فقط ، وان اهل هذه القرى كانوا لا يهملون حلب ويعودون الا زرافات زرافات

وهم مد ججون بالسلاح . ويذكر معمر وحماة ان سلمية لم تعمر بعد خرابها الذي دام قروناً إلا في حدود سنة ١٢٦٠ هـ او بعدها لما جاءها نفر من اسماعيلية جبال اللاذقية والتجأوا الى حصنها القديم الذي كان في وسطها وصاروا يردون عيش البدو بتماسكهم وتناصرهم كما عمل الدروز قبلهم لما نزحوا في القرن الحادي عشر بعد موقعة عين دارة في سنة ١١١٢ - الى جبل حوران وتمحصنوا في قراه الخربة المنيعه وامتدوا رويداً رويداً . اي انه مامن قرية كانت تنجو وقتئذ من (الخوة) وامثال الخوة من السلب والنهب ورعي الزروع واتلاف الاشجار والكروم والطفيان والعدوان الا اذا امتنعت وراء قلعة او اكمة او وعرة ، وكان اهلها ذوي عصبية واحدة وشكيمة قوية يردون كرات البدو بسواعدهم لا بسواعد الدولة التي كانت وقتئذ مهملّة ضعيفة لم تستطع مثلاً ان ترد في سنة ١٢٧٥ المعركة التي نشبت في سفح جبل زين العابدين قرب حماة بين الموالي والحديدين كما بيناه في حديثهم . ولم تستطع ايضاً ان ترد نزوات جدعان بن مهيد عقيد القدعان وغاراته في شرقي حلب فاضطرت الى ان تمنحه وتملكه في سنة ١٢٨٦ هـ عشرين قرية دائرة في جبل الشبيث لاتزال في يد حفيده الامير مجحم .

وقد سعى في تلك الحقبة بعض الولاة الصالحين في حلب لانقاذ الموقف لمخص بالذكر محمد باشا القبرصي الذي كان والياً في حلب في عام ١٢٦٧ هـ ، فاجدوا للسلطان عبد المجيد سبل امتلاك الارضين في اطراف المعمورة وتحضير العشائر البدوية واسكانهم فيها ، فانشأوا من ذلك الحين المزارع السلطانية (الجفلكات الحمايونية) في جبل الاحص ومطخ قنسرين وقضائي الباب ومنبج واسكنوا فيها جمعاً من أفاريق الاعراب لا يزالوا حتى يومنا هذا . ومنهم في جبل الاحص عشيرة اسمها (السكن) دلالة على اسكانهم وقتئذ . وذهب احد ولاة حلب واسمه ثريا باشا ملك زاده في سنة ١٢٨١ والحق لواء دير الزور بولاية حلب واخضع عشائر العقيدات وغيرها المتعردة . وفي تاريخ حلب لكامل الغزي انه في سنة ١٢٨٤ هـ كان

اخضاع الاعراب المتمردين على الدولة في صحراء حلب بعد مقاومة شديدة وكثرة القتل والاسر في رؤسائهم وقد أخذت منهم قرعة شرعية واستفحلوا وعانو الزرع والفلاح اه ولم يسد كمر من أي عشيرة كان هؤلاء الاعراب وفي أي القرى استقروا واستفحلوا ولعل علي العقيدات ثم في سنة ١٢٨٥ جاء اعلان باشا المشهور بحسبته وهمته الى لواء دير الزور واخضع عشائر الجبور والعقيدات ورد باثقة شمر وعنزة عن المعمورة الى حد ما . وكان قبل ذلك عمل في انحاء حلب ، فاسكن الموالي في ناحية العلاء واسكن الحديدية في شمالهم واسكن غيرهم من العشائر كالولدة وبني سعيذ والسكن في قرى املاك الدولة في اقضية جبل سمعان والباب ومنبج ، وهم لا يزالوا فيها حتى الآن . ومن هنا ظل اسم اعلان باشا الهمام - وقد توفي في الدير سنة ١٢٨٧ - يتردد على السنة المعمرين من هذه العشائر بالمحمة والرحمة . فأمنت البراري الشرقية وقتئذ بهذه التدابير بعض الامن وعادت روح العمران تدب رويداً رويداً في شرقي ولاية حلب وجنوبها وجهة الجزيرة والفرات . ومما عملته الدولة وقتئذ (عهد السلطان عبد العزيز) انها رأت كثرة العشائر في ولاية حلب وقدرت حالاتها وحاجاتها الخاصة ، فالتفت لها ادارة منفردة دعته (قائمقامية العربان) على نهج الاقضية كان لها قائمقام ومدير مال ، وقد ورد ذكر هذه القائمقامية في (سالتنامة ولاية حلب) لعام ١٢٨٧ واسماء موظفيها والمشايخ الذين كانوا فيما يبدو اعضاء في مجلس ادارتها . ثم جاء السلطان عبد الحميد في سنة ١٢٩٤ هـ وكان ولوعاً بتوسيع الملك وتكثير الثروة ، فهو فوق ماورثه من (الاجتلاكات الهمايونية) في جنوبي حلب اضاف اليها من بعد سنة ١٣٠٠ هـ كثيراً من الحرب الدائرة في شرقي حماة وسلمية وحمص تملكها بالاحياء او بالشراء وراح يسكن فيها فلاحين من طوائف النصيرية والعشائر نصف المتحضرة وغيرهم واعفاهم من الجندية والضرائب الاميرية ورتب سرايا خاصة من جند البغالة لحمايتهم ، وبني ثكنتين الاولى في قرية جب الجراح الواقعة في سفح جبل الشومرية والثانية في قرية الحمراء الكائنة في الشمال الشرقي من حماة

واقام جنوداً في كل من قرى الفركلس وعقيربات السويد وتل الاغر والسمن وسعين . وبهذا رد عيث البادية رداً سارماً فأمنت قراه الواسعة والقرى الواقعة غربيها شر العشاير وعيث ابلهم بالاشجار والزررع وتنفست المدن الصعداء وصار العمران ينتشر في ضواحيها وبراريها واضطرت العشاير من ذلك الحين الى الكف عن العتو والاذى والانصراف نحو الفلاحة والزراعة ولم تعد تشذ الا قليلاً وعند سنوح الغفلة فحسب كما جرى بعد لما خلع السلطان المذكور في سنة ١٣٢٥ هـ ودورت املاكه الى بيت المال ورفعت الحصانة والميزة عن فلاحها ، وكما جرى اكثر واشد لما قامت الثورة العربية في الحجاز في أواخر الحرب العظمى الماضية في سنة ١٣٣٧ هـ وتضضع حال الدولة وقات هيبتها وقد استعمرت قلة البنية وفورة العتو واليئ عند البداة طوال العهد الفيصلي وفي اوائل عهد الانتداب الفرنسي نخص بالذكر ماجرى خلال اقتتال عشيرتي الموالي والحديدين في براري حلب وحماة في سنة ١٣٣٩ هـ وما بعدها فقد خربت وقتلت عشرات القرى والمزارع ونهبت اموال وعروض كثيرة لاهل تلك القرى ولشركائهم من اهل حلب وحماة والمعة وذهبت هدرأ .

ولما كان المرحوم الملك فيصل بن الحسين في دمشق سنة ١٣٣٧ و ١٣٣٨ يشيد اركان السيادة والاستقلال في بلاد الشام والجنرال غورو الفرنسي في بيروت يشاكسه ويبي . وسائل الاستعباد والاستعمار لهذه البلاد رأت المشائر البدوية بثاقب فطنتها ان ربح الغلبة يهب مع الفرنسيين فمالت نحوهم شأنها في الميل نحو من كان اشد قوة واندى يداً . فافتي رؤساء العشاير الكبيرة بانتداب فرنسا امام اللجنة الاميركية التي جاءت في حزيران ١٩١٩ (١٣٣٧ هـ) تستفتي اهل البلاد عن شكل الحكم الذي يريدونه ، وهرع بعض هؤلاء الى بيروت لمقابلة الجنرال غورو وعرضوا له ولأههم فاجزل لهم العطاء وزاد بعضهم اوسمة جوقة الشرف او لقب أمير أو لقب باشا .

واذ كان الناس على دين كبرائهم لحقت العشائر الصغيرة العشائر الكبيرة وحذت حذوها في موالاة الفرنسيين منذ بدء احتلالهم . ولما زار اهل الحواضر في المدن والقرى في وجه الفرنسيين الزاحفين كانت العشائر تكتفي بوقفة الحياء ونظرة المتفرج عن بعد ، بحجة ان الثوار لم يستشيروها فيما كانوا يفعلونه ولم يستنصوها . ولم يشذ عن هذا السلوك ويناجز الفرنسيين الا بعضها امثال العقيدات في وادي الفرات والموالي في جنوبي حلب والفضل في جنوبي دمشق والدنادشة في غربي حمص . لكن هذا الشذوذ انحصر اذ ذاك في اماكن تلك العشائر الضيقة ومساعدتها المنفردة وغير المنتظمة فلم يثمر سوى نكبة القائمين به .

وبعد ان استقر المقام بالفرنسيين في سنة ١٣٣٩ وبمعدا وقضوا على الثورات الوطنية بسطوا شدتهم ورهبتهم في البوادي كما بسطوها في الحواضر وساقطهم قواعد الاستعمار الى ابعاد العشائر عن سلطة الحكومات المحلية التي اقاموها تحت اشرفهم في بلاد الشام والى ربط العشائر مباشرة بدوائر الانتداب وتكوين ادارة خاصة دعوها (ادارة مراقبة البدو) عهدوا بها الى ضباط عسكريين يقودون جنداً خاصاً من متطوعة الاعراب راكبي الهجن من عقيل النجديين وغيرهم . وقد الفوا من هؤلاء في سنة ١٣٤٠ سريتين احدهما في تدمر والثانية في دير الزور يعاضدها عند الحاجة مصفحات وطيارات . وقد اشتبكت هذه السرايا في معارك عديدة مع الغزاة المتجولين للسلب والنهب وقتكت بهم ، جرى ذلك في سني ١٣٤١ و ١٣٤٢ و ١٣٤٣ في بئر بصيرى والسخنة وجنوبي تدمر ، واعظمها ما عملته سرية المهجانة الاولى في آذار سنة ١٩٢٤ (١٣٤٣ هـ) بشيرة الغياث المشهورة بشقاوتها وزوااتها ، فقد فاجأتها قبل الفجر حينما كانت مخيمة قرب جبل سيس ففتكت بها فتكاً ذريعاً وكبدتها عشرين قتيلاً وعدداً كبيراً من الجرحى وغنمت منها ٤٠٠٠ رأس من الماشية . واجرت هذه السرايا معارك أخرى مع غزاة شمر وثوار الاكراد في الجزيرة قرب الحدود التركية وناوشت مراراً

عشائر العقيدات والموالي واولاد سليمان من الفدعان الخرصه وغيرهم . وما زالت تعمل وتقتل وتقتل وقوادها الفرنسيون يفرضون الغرامات والعقوبات حتى تمكنت كما جاء في الكتاب الذهبي لجيش الشرق (١) من (اقرار الامن في بادية الشام رويداً رويداً ، وفي تلك الفيا في الشاسعة التي لم تألف فيما مضى من العصور غير مرور القوافل وغزوات القبائل توفقت الصناعة المصرية دون ما حائل الى تمديد انابيب النفط العظيمة التي تصب زيوت العراق في طرابلس وانشأت في محازاتها نقاطاً لتأمين العمل).

وقد عمل الانكليز في شرقي الاردن في توطيد الامن ومنع الغزو مثلهم واكثر منهم . وتولى كبر هذا الامر الجليل هناك المقدم كلوب المعروف عند البدو بابي حنيك ، وكذلك عمل العراقيون في بوادي العراق وجمالة الملك ابن سعود في بوادي نجد ، واتفقت هذه الدول على منع الغزو منعاً باتاً ، فاستتب الامن في طول البادية وعرضها استتباً لم تر نظيره منذ قرون ، وانقطعت دواعي الشرور وبواعثه واخمدت العشائر الى الهدوء والاستقرار وصارت تفكر بالتحضر وتعي بالرزق الحلال وأصبح حالها في أيامنا هذه على غير ما كان يروي عنها ، مما نرجو دوامه وثبوت قوامه في العهد الوطني الحاضر .

* * *

اوصاف البدو

البدو ويقال لهم الاعراب بالفتح هم اهل البادية من العرب والواحد بدوي او اعرابي بالفتح ايضاً . ولقطة (العرب) قديمة يراد بها في اللغات السامية معنى البدو والبادية وتلك خصيصة العرب في التاريخ القديم . قال الازهري ؛ رجل عربي اذا كان نسبه في العرب ثابتاً وان لم يكن فصيحاً وجمعه العرب ، ورجل اعرابي اذا كان بدوياً صاحب نجمة وانتواء وارتياذ الكلاء وتبع مساقط الغيث وسواء كان من العرب او من مواليهم . فمن نزل البادية او جاور البادين فظعن بظعنهم وانتوى بانتوائهم فهم اعراب اهل وبر ، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي الى العرب فهم عرب اهل مدر او اهل حضر وان لم يكونوا فصحاء . وقد صار لفظ الاعرابي بعد الاسلام مما يراد به الجفاء وغلظ الطبع وكانوا يسمون ذلك في الرجل اعرابية فيقولون للجاني منهم ألم تترك اعرابيتك بعد . وبذلك خرجت الكلمة عن مطلق معنى البادية الى معنى خاص يلازمها . قيل وجمع الاعراب اعراب . قال المتنبي :

من الجأذر في زي الاعراب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

هذا وللبدو اوصاف بدنية واشكال وملامح طبيعية وخصال واخلاق وافكار فطرية خاصة بهم يختلفون بها اي اختلاف عن العرب المتحضرين في القرى ناهيك سكان المدن . فالبدو ذووا جسام هزيلة في الغالب وقامات متوسطة وملامح منتظمة ووجوه اسيلة والوان سمراء اميل للسواد وجباه عريضة بارزة وعيون سوداء وبصاصة واسارير مقطبة واسنان منتظمة الرحي بيضاء كالثلج . هذا الى سعي حثيث وجلد غريب وطبع نزق وطور قلق وبصيرة نافذة ومزاج عصبي وذكاء حاد وصحة بدن

وصراحة جنان وطلاقة لسان ، وقناعة متناهية وسط عيش أكثره شظف ومضض
وحياة جلها محفوف بالعناء والمخاطر وعدم الاطمئنان والهدوء في بوادي جرداء
وبراري قفراء وخر لاهب وبرد قارس ، اعتادوا على ذلك كله والفوا اراحه
وافراحه ، لا يبيغون عنه حولا ولا يقبلون به من ترف الحضارة بدلا . شديدا
الحرص على عرفهم وعاداتهم ، باقون على السذاجة والفطرة اللتين كانوا عليهما منذ
آلاف السنين ، دابون على اخلاقهم وخصالهم الصالحة والطالحة ، صعوبة مراس
وجرأة وحماس وحفظ ذمام وكرم واقراء ضيف مع لوثة وبعث اذا قدروا
يهيجون لشيء التافه ثم لا يقفون في هياجهم عند حد اذا ما جرحت كرامتهم او
اتهكت حرمتهم . وهم لا يتكفون في شيء من احوالهم وأعمالهم ولا يتناقلون من
الامراض والكوارث ولا يبالون بالحياة بقدر الحضر ولا يعملون ويجهدون الا اذا
عظمت الحاجة بانيابها ، وهم يهون الخمول والكسل ويحبون الفوضى والخلل ، اذا
جاعوا افترسوا واذا شعبوا تنافسوا واذا أصابهم ضيم سهروا وتربصوا ، وهم
يتربصون الفرص للاخذ بالتأثر ولو مضت عليه سنون ، وهم يميلون الى حرية قل ان
يحدوها حد ، ولكن حريتهم التي يفهمونها هي الحرية الشخصية لا الحرية الاجتماعية
والوطن الذي يذكرونه وموئل الآباء والجدود الذي يعزونه هو بيت الشعر
ونخيم العشيرة السارح لا الارض الثابتة ولديار المحدودة والحيطان الممدودة ،
والشعور والاعتزاز عندهم اناني فردي قبلي (عشائري) ، فالبدوي لا يمدح الا
نفسه وفرسه ومهنته وصارمه ، واذا اعتر وافخر فباهله وعشيرته ، فهو يتغنى
بانتصارها ويمدد محامدا ويهجو العشيرة الاخرى من اجلها .

ومن اوصاف البدو انهم ينزلون البادية ويسكنون بيوت الشعر ويرحلون
من مكان الى آخر ، وهذا الترحال يدعى « اتواء » او « تبدي » وفي كتب اللغة
نوى القوم بمسكان واتووه بمعنى قصدوه . واما التبدي فهو بمعنى الإقامة في البادية

ومنه تبدى الحضري وتبادى تشبه باهل البادية ومنها بدا القوم الى باديتهم اي خرجوا
وفي الحديث (من بدا جفا) اي من نزل البادية صار فيه جفاء الاعراب .

والتبدي يؤتي على درجات متفاوتة ، فمن الاعراب من يتبدى بلا انقطاع منها
كان الموسم ومنهم من يستقر في مكانه أغلب ايام السنة ولا يتبدى الا ضمن دائرة
قصيرة المدى . وبين هؤلاء واولئك بدو تختلف بدواتهم حسب القسم الذي هم منه
كما سيأتي الكلام عليه . وفي التبدي تشريق وتغريب حسب المواسم ، فالبدو
يقطنون في الصيف (منطقة الاصطيف او التقيظ) . وفي الالة قاط او يقيظ القوم
بمكان كذا تقيظاً وتقيظوا اقاموا به زمن التقيظ . والقيظ (او التقيظ بلغة بدونا)
شدة الحر او هو صميم الصيف من طلوع الثريا الى طلوع سهيل . والمقيظ والمقاط الموضع
الذي يقام فيه وقت القيظ . وفي موسم الشتاء يذهبون الى منطقة اخرى بعيدة جداً
عن الاولى تدعى (منطقة الشتوية) او (المشاتي) جمع مشتي والمشتاة . والانتقال
من منطقة الى اخرى يدعى ايضاً (الظن) او (النجعة) . وظن في اللغة بمعنى سار
تقول ظعنوا عن ديارهم و (الظعينة) الهودج فيه امرأة ام لا وجهه ظعون واطعان
اما (النجعة) فهي طلب الكلاء وارتداد مساقط الغيث في مواضعها وهي اسم من
النجوم يقال خرجوا للنجعة او ينجع القوم الكلاء وانجعوا الكلاء ذهبوا
لطلبه في مواضعه .

والنجعة على نوعين احدها تتجه من الشرق الجنوبي الى الغرب الشمالي في
بادية الشام وفيها انتقال من منطقة الشتوية الى منطقة التقيظ وتدعى (التغريب)
او نجعة الربيع وتقع في نيسان او ايار . والثانية تتجه على عكس الاولى وتنتقل من
منطقة التقيظ الى منطقة الشتوية وتدعى (التشريق) او (نجعة الخريف) وتقع
في تشرين الاول والثاني .

و (مسلك النجعة) هو الطريق الذي تسلكه العشيرة في سيرها . (والمنجع)
هو المكان الذي تقصده العشيرة للنجعة وتحط فيه . ومسلك النجعة والمنجع

لكل عشيرة مستقران ، الا انها قد يتبدلا عند الضرورة وحصول المقدرة على تبديلهما .

ومزايا النجمة هي انها قبل كل شيء (محمّمة) اذ ان ضرورة الحياة والعيش من وراء الماشية حتمت على البدو ان يضربوا في البراري والوادي ويطلبوا الكلاء الذي لا يثبت في كل مكان وزمان بالقدر المطلوب . ومن مزايا النجمة ايضاً انها « ممتنعة التغير والتقلب » اي ان مناطق النجمة لكل عشيرة هي ثابتة غير متغيرة وقد حصلت على هذا الثبات من وضع اليد على مكان النجمة بالسيف او بتوالي استعماله على كر السنين ومرور الزمن او بعد اتفاق وتراض مع غيرها . واذا جادت عشيرة جديدة وهمت ان تبدى في منتجمات غيرها تعرض نفسها فوراً للمهاجمة والمطاردة . ومن هنا كان اكثر العداوات والخزانات بين البدو من جراء التنازع على المنتجمات وطمع القوي وتعديه على الضعيف فيها . على ان الامر قد يمكن تسويته بالتراضي ، والدراهم تلعب دورها هنا ايضاً .

اقسام البرو :

لنا ان نقسم عشائر زماننا في بلاد الشام حسب عراقتهم بالبداءة واطوارها وبعدم عن الحضارة ومنازلها الى ثلاثة اقسام :

١- القسم الاول . — العشائر الجمالة او اهل الابل ويسمون في اصطلاح الفرنج بالبدو الرحل او بالبدو الاقحاح او البدو ذوي النجمة البعيدة ويوصفون باهل الوبر ، لانهم يتخذون بيوت الشعر لسكنائهم كما يتخذون الخيل لركوبهم والابل لمعاشهم . فالابل سفنهم في البر يحملون عليها احمالهم وينقلون أثقالهم ويأكلون لحومها ويقتاتون بألبانها وينسجون أروقة بيوتهم من أوبارها ويقايضون عليها في المبيعات ويمطون منها في الغرامات والديات والمراهات ومهر الزوجات ، فهي في الجملة مصدر غناهم ، كما انهم شهب معاشها ووجودها ، لا يدرون أي خلقت لهم

وقبلهم أم هم خلقوا لها وقبلها، وهم يدفعون للدولة عنها ضريبة تدعى الودي،
 دأبهم الظعن بين قفار البادية وبراري الحاضرة، فراراً من حمارة القبط تارة
 وصبارة البرد أخرى وأرتياداً لمواقع القطر واستجاءاً لمنابت الكلا والمراعي الصالحة
 للابل، فيخيمون هنالك ما ساعدتهم الخصب وامكنهم الرعي، ثم يتوجهون
 لطاب الكلا وابتغاء المياه والدفء في أمانا كن أخرى، فلا يزالون في حل وترحال
 يقطعون ٥٠٠ — ٦٠٠ كيلو متر وأحياناً ٨٠٠ — ١٠٠٠ كيلو متر فيصلون في
 الشرق إلى القفرة ومنطقة الوديان داخل الحدود العراقية وهو ما يفعله ضناً بشر من
 عنزة كالامارات والاسبعة والقدعان، أو يصلون في الجنوب إلى الحماد حول جبل
 التنف وجبل عنازة وجبل الالهة ومنطقة الخبرات داخل الحدود العراقية وقرب
 الحدود السعودية وهو ما يفعله ضناً مسلم من عنزة كالارولة والاحسنة والاشاجنة
 والسوالة والعبد الله، وربما أوغلوا وابتعدوا إلى النفود قرب نجد وهو ما يفعله
 أحياناً بعض فرق الارولة.

وهو أهل هذا القسم في البادية وصحراواتها الشاسعة وآفاقها الواسعة
 ووحشتها الرائعة وحررتها المطلقة ونباتاتها وحيواناتها الغريبة، ولا يزالون يذكرون
 البوادي وشظف عيشها في منشور كلامهم ومنظومه. قال قائلهم:

واسري بيمس كالأهله فوقها نجوم من الاقار ايهي وأنور (١)
 ويمعجني نفح العرار وربما شمجت بعريني وقد فاح عنبر (٢)

شرح هذه الايات للاستاذ عبد القادر المغربي: (١) شبه العيس بالأهله من
 حيث ضجورها وهزها فكانت منعنية كالأهله ويريد بالاقمار اخوانه ورفاقه من
 الفتيان أو الفتيات الاشراف (٢) العرار من أزهار البادية الطيبة الرائحة والعنبر
 من طيب اهل الحضر فهو يقول ان رائحة العرار تعجبه أكثر ما يعجبه فوحان
 ريح العنبر وانه يشمخ من العنبر بعريته أي انه استكباراً واحتقاراً له.

ويخشد غمدي بالحمى صفحة الثرى
 اذا جر من اذياله المتحضر (٣)
 فما العيش الا الضب يحرشه الفقى
 وورد بمستن اليرابيع اكدر (٤)
 بحيث يلف المرء أطناب بيته
 على العز والكوم المراسيل تنحر (٥)
 ويغشى ثراه حين يستعم الثرى
 ويسمو اليه الطارق المتنور (٦)

واهل هذا القسم الاول يحترقون اهل القسم الثاني ويدعونهم (رعية)
 (وشوايا) لاقتنائهم الشياه والمعز، يعدون ذلك من العار، اذ تمنعهم عن الايغال في
 البيداء ومناجزة الاعداء، ويمتنعون اهل الحضر والقرى ويدعونهم (فلاليج) (١) لانهم
 متكون على الفلح والزرع وساكنون بيوت المدر والحجر ومعتادون على الرفه
 وحماية الدولة. ومن اقوالهم القديمة والذل بالحرث والمهانة بالبقر،، ويقابلون هذه
 الاقوال بغيرها العز بالابل والشجاعة بالنمليل،. وهم دائماً كما قال ابن خلدون
 يحملون السلاح ويتلفتون في الطرق ويتجافون عن المجموع الا غراراً في المجالس
 وعلى الرحال وفوق الاقتاب ويتفردون في الصحراء وثقتهم في انفسهم كثيرة حتى

(٣) اي ويعجبه ايضاً ان يمشي بحمى عشيرته وحيه فيخشد رأس غمد سيفه الارض وهو
 يمشي مفضلاً ذلك على مشية المتحضر الذي يجزر اذياله على صعيد حاضرتة (٤) ويعجبه
 ايضاً من عيش البادية ان يحرش اى يصطاد الضب وان رد من المناهل كل اكدر
 عكرو، تستن اي تقفز وتب حواليه اليرابيع (٥) يريدان في سكناه البادية يعيش عزيزاً
 ويكون بيته مرفوع العمد على العز وأطناب بيته ممدودة على العز. والكوم جمع كوماء
 الكثيرة لخم السنام والمراسيل النياق السهلة السير اي وهناك بجانب بيت عزه تنحر
 النياق للضيغان (٦) الشطر الاول محرف ولا معنى له. ولعل صوابه (ويغشى ذراه
 حين يستمر الثرى) اي ان مثله كريماً في البادية يغشى ذراه اي ظله (كنفه في النهار)
 الضيوف في وقت اشتد حره حتى استعر وتلهب ثراه اي ترابه الرطيب فما بالك صخوره
 وجلاميده، اما في الليل فالطارق المفاجئ المتنور الذي يستشرف ليرى نار الضيافة
 فيقبل عليها هذا الضيف يغشى ايضاً ذراه ليلاً كما يغشى ذاك نهاراً.

صار البأس لهم خلقاً . ولذلك كان أكثر البدو توغلاً في الفقر اشدّهم بأساً واجراًهم على تحمل المشاق . وهؤلاء البدو لا يغشون قرى المعمورة ومدنها الا للضرورة في سني المحل والظما او للمسايلة اي للامتياز وشراء حاجتهم وبيع الذكور من ابلهم وخيلهم وبيع أصوافهم .

X وهؤلاء في بلادنا — في عرف الملحق رقم ١ للقرار ١٣٢ ل . ر — الذي كان الفرنسيون اصدروه في ٤ حزيران ١٩٤٠ م ؛ الارولة وتوابعها من اشاجعة وسوالة وعبد الله وولد علي . ثم الاحسنة والاسبعة البطينات والاسبعة الاعبدة والقدعان ولد والقدعان خرصة وشمر الزور وشمر خرصة وبني خالد والفواعة والموالي والحديدون والعمور والبدور والبوخيس والمليب والكيار والوهب (ماعداء فخذ السباد) والغيث والنعر والنجاد والصليب والحسن والمساعد والشرفات والعظامات والشنابلة والسردية . وسيأتي وصف كل من هؤلاء في الجزء الثاني من كتابنا هذا . وقد قضى القرار المذكور في المادة ١١ بوجوب خضوع الجنائيات او الجنح المرتكبة بين هؤلاء الرحل بعضهم مع بعض الى قواعد العرف العشائري وبينهم وبين الحضر ونصف الحضر الى الحق العادي (المحاكم النظامية) على انه اجاز ايضاً — اذا طلب المغدور — البت في الجنح او الجنائيات المرتكبة بين الرحل

شرح بقع "صحيفة ١٣٠"

١ . — منذ ان حظرت الحكومات الغزو ودالت دولة الخيل والابل بانتشار سيارات الركوب والنقل انصرف بعض هؤلاء إلى اقتناء الشياه لحسابهم او بالاشتراك مع اهل الحواضر على نهج اعراب القسم الثاني ، كما ان بعض رؤسائهم تذوق طعم الفلح والزرع وصار من ملاكي الضياع والقرى ومن ساكني الدور والقصور ، فخفت بذلك وطأة المهانة التي ذكرناها ، وهذا من بوادر الميل نحو الحضارة واول درجاتها .

ونصف الحضر وفقاً للعرف العشائري .

القسم الثاني : العشائر الغنماة او اهل الغنم ويسمون في اصطلاح الفرنج نصف رجل او نصف بدو او نصف حضر او البدو ذوي النجمة المحدودة ويسمون في اصطلاح الشاميين «عربان الديرة» تمييزاً لهم عن عربان القسم الاول او يسمون «الرعية» بحكم ارتزاقهم من رعي الماشية . وهذه التسمية اما لانهم ابقاض العشائر القديمة الشامية وبقاياها التي تمزق صدعها وتشتت شملها ، واما لانهم من عشائر متباينة ومتنابت مختلفة تجمعوا حول بعض العائلات القوية او الشخصيات النافذة وتبعوها بحكم النزعات العشائرية او الحاجات الاقتصادية واستعاضوا بهذه الروابط عن رابطة الدم وصاروا (رعايا) لهم . ويسمون في انحاء دير الزور (شوايا) بحكم انهم رعاة شياه . وهؤلاء ايضاً اهل ابل وخيل وحل وارتحال وطعن وضرب .

لكنهم فريقان ؛ فريق لا يرتزق الا بالضرع اي بارعاء الماشية من الغنم والمغر فقط . وهذه الماشية اما ان تكون لهم وحدهم ، واما ان تكون لاهل المدن في حلب وحماه وحمص ودمشق ودير الزور وغيرها يشاركونهم في تربيتها والمتاجرة بصوفها ومنها الذين يدران عليهم وعلى شركائهم في سني الخير ثروة غير يسيرة .

وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر ويقنون الخيل والابل بمقدار اقل من اهل القسم الاول ، وبمقدار يكفي للظعن وراء الماشية فقط . وفريق ثاني يضم الى الضرع امتلاك الضياع والارضين واستثمارها بالحرث والزرع ، فهم يقبلون من جهة على الزرع خوفاً من ان تقضي اعوام الصقيع على الماشية او ينقض عليها غزو بينها او مرض يهلكها ، ويظلون متعلقين باهداب الضرع ؛ اما لصغر مساحة الارض التي يملكونها او لكثرة ما ينتاب الزروع من الآفات كالجراد والحل وغيث اهل القسم الاول وغير ذلك ، او لانهم لم يتجردوا بعد عن اطوار البداوة وهوى الحل والترحال ورؤية ربيع البادية واستنشاق شيحها وقيصومها . وهم بعد ان ينتهوا من بذر

الزروع الشتوية يرحلون في اواخر الخريف الى البادية اقتجاعاً لرعى غنمهم ويمودون في اواخر الربيع الى منازلهم وضياعهم ليلحقوا اعمال الحصاد والرجاء والدراس للزروع الشتوية والبذر والري والتعهد للزروع الصيفية . وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر او قباب اللبن في انحاء حلب او الضبايط المبنية من أعواد الطرفاء والغرب واغصان عرق السوس في اودية الفرات والخابور والبليخ من انهار الجزيرة . وليس للتقسيم المذكور حد محدود ، فالعشيرة الواحدة قد تكون من الفريق الاول او الثاني وحدهما او من الفريقين كليهما . وسبب تسمية اهل هذا القسم بعربان الديرة لانهم مرتبطون بديار خاصة في أطراف الحاضرة ومستقرون ولا سيما اهل الفريق الثاني فيها ولا أنهم ينجمون في الشتاء الى مسافات محدودة في براري الشامية من البادية وهم لا يوغلون فيها أكثر من ٣٠٠ - ٤٠٠ كيلومتر مراعاة لمقدرة الغنم ولقرب المناهل والآبار الصالحة لورودها . فاعراب ديار حمص وحماة يشتون حول جبل البلعاس وجبل العمور كما ان اعراب وادي الفرات يشتون حول جبل البشري واعراب انحاء دمشق يشتون في ديرة التلول واعراب الجزيرة الفراتية في شرقي نهر البليخ وجبل عبد العزيز وجبل سنجار وقرب وادي عجيج ويشذ بعض هؤلاء وخاصة من كان عنده مايكفي من الابل فيبلغ منطقة الخبرات في الحماة او منطقة الوديان في الشامية . وبعض هؤلاء لا ينجمون البادية ابداً ، بل انهم لضعف حولهم او قلة عددهم او ضعة ارومتهم ومسكاتهم يبقون حول القرى والمدن يتنقلون حسب الفصول في الهضاب والادوية الخالية والبراري والحقول البائرة الممتدة قرب منازلهم او ضمن حدودها او حدود مواطن شركائهم . ولا يخلو قضاء من أفضية بلاد الشام من هؤلاء الاعراب الرعاة .

وأهل هذا القسم يشبهون في الجملة أهل القسم الاول في طباع البداوة والخشونة والشعوثة والميل الى اتهاك حمى فلاحي الحاضرة عند سنوح الغفلة وضعف الدولة . ويختلفون بأنهم لا يعاملون في عرف البادية معاملة أهل القسم الاول.

فلا يشهر عليهم الحرب ولا يحفظ لهم صاحب اي لايجار الملتجئ اليهم بل لما كانوا (رعية) و (شوايا) يؤكلون ولا يأكلون . فكان القسم الاول كالدول المستقلة تمام الاستقلال من الاوربيين تعامل بجميع قواعد حقوق الدول والقسم الثاني كالدول المستقلة من الشرقيين يحافظ على عهودها وتحترم ذمتها بحسب قوتها ومنعتها والقسم الثالث الذي سيأتي ذكره كالدول التي لم يصادق على استقلالها او كالامارات الحمية والمنتدب عليها . ويختلفون ايضا بان لهم استعدادا بارزا لتحضر فقد صار بعضهم اهل مدراي اصحاب قرى وضياح يقطنون فيها ويستثمرون ارضها، وآخرون منهم علائق حجة مع تجار الماشية او التجار السوقية في المدن والخواضر يشاركونهم في تربية الغنم او زراعة الحبوب وهم يؤدون للدولة عدا ضريبة الاغنام العشر عن الارضين، وهؤلاء كما حدد الملاحق رقم ٣ للقرار ١٣٢ ل في (منطقة دمشق) عشائر حرب والصياد والجلان والنعيم والفضل والسلوط ، وفي (منطقة سلمية) نعيم حمص وحماة والبشام والخراسين والتركي والعقيدات والطوقان الرعية والمشاركة الرعية وبنوع الرعية وفي (منطقة حلب) النعيم والبوليل والسهاطية والعقيدات والبوشيج والمشاهدة وفرقة السباد من عشيرة الوهب والولدة والبقارة . و (في منطقة دير الزور) العقيدات والابوسرايا وبقارة الزور والابو شعبان اي العقادلة والسبخة والابوعساف وابو سبيع والولدة و (في منطقة الحسجة) بقارة الجبل وبقارة الابو معيش وملبي محمود بك وطلي والجبور والشرابين .

وقد جعل القرار المذكور هؤلاء يتبعون قواعد الحق العادي (المحاكم النظامية) في دعاويهم مازالوا في المعمورة ويتبعون قواعد العرف العشائري مازالوا في البادية .

هذا ومع وجود الفروق المذكورة بين اهل هذا القسم واهل القسم الاول يحاول هؤلاء مساواة اولئك في كل الحقوق والامور ، وينكرون ان يكون بين القسمين اي فرق ورجحان ويرغبون ان يكونوا على قدم التعادل في اتباع (الاصول

العشاري في كل ما ينالونه من امتيازات واعطيات وحيثما كانوا . ومما يقولونه انه اذا كان لاهل القسم الاول ابل وخيل وحل وارتحل فلاهل القسم الثاني من ذلك نصيب وافر ، وان كان لاهل القسم الثاني حرث وزرع وعقار وملك فاهل القسم الاول صاروا بذلك مثلهم ، فلام التمييز في قولهم (رحل) و (نصف رحل) ؟ ولم لا يكون في الدولة قانون واحد يشمل جميع العشائر دون تفريق او تمييز ، ولم يسلح الرحل ويمنع السلاح عن نصف الرحل ويفسح المجال لطغيان جانب على آخر ، ولم يتبع الرحل (اصول العشائر) ويتبع نصف الرحل (الحق العادي) ، ولم تلحق ادارة نصف الرحل بمحافظي المحافظات والرحل لا يلحقون ؟ الى آخر ما هنالك من الاعتراضات والمدعيات التي مبرحوا يقدمونها الى الحكومة ويذكرونها في المجلس النيابي ، ولما تنته بعد .

١٤ القسم الثالث . — العشائر المتحضرة المستقرة اهل المدر وهم الاعراب الفلاحون (الفلاحي) الذين ايقنوا ان العيش الثابت خير من المتقلقل وان من يلجأ لحمل الدولة اهنأ بالأمن يتشكل في حمايته على نفسه وعصبيته ، فتركوا الاباعر والابعار والظمون والاسفار وعمرروا الحرب الدائرة وهجروا بيوت الشعر الا قليلاً ، وتحضروا وصاروا اهل مدر اي انهم قطنوا بيوت الحجر والطين او القباب او الاكواخ وتوفروا على الحرث والزرع اكثر من تربية الماشية . من هؤلاء في شمالي الشام القاطنون في اقصية جرابلس ومنبج والباب واعزاز وادلب والمرة وفي جبل الالحص ومطخ قنسرين وسهل العمق وسهل الروج وسهل الغاب وفي وسط الشام وجنوبه في اقصية حماة وسلمية وحمص والجولان والزوية ممن تعددت اسماؤهم وصغرت انسابهم واحسابهم . واهل هذا القسم ايضاً وان كانوا يغشون دائماً المدن والقرى ويشاركون اهلها ويعاشرونهم ويتصلون بعراقها ومراتبها وقد صاروا فلاحين وقرويين بالمرءة ، لكنهم مبرحوا محتفظين بقسم غير يسير من خصال البداوة فهم يتمسكون بالقشافة والجهالة ويتوانون عن العمل الصالح في الزرع والحرث ولا سيما في القرس .

الحالات الاجتماعية عند البدو

افضل فرهم و مرزباهم الفائرة والحاضرة

كان العرب في الجاهلية في طور البداءة وحالاتهم الاجتماعية واخلاقهم ومرزباهم بدوية محضة . ومن هنا كان ما ذكره كتب التاريخ والادب عن عرب الجاهلية ينطبق جله على البدو في مختلف العصور وحتى على بدو عصرنا الحاضر . ولذا فقد رأينا استكمالاً لأبحاث كتابنا هذا ان نذكر الاخلاق والمزايا لدى عرب الجاهلية او بدوها . اولاً ثم بدو العصور الاسلامية المتوسطة ثانياً ثم بدو عصرنا الحالي ثالثاً ليقارن القاري بينها ويبيدي حكمه على مازال باقياً منها او غائباً عنها .

فما قيل في وصف الحالات الاجتماعية والاخلاق والمزايا عند عرب الجاهلية ما ذكره ابن عبد ربه في كتابه (العقد الفريد) في فصل (وفود العرب على كسرى) عن الخصال التي كانت تفخر بها عرب الجاهلية ، وقد سردها النعمان بن المنذر امام كسرى حينما مدح هذا كل الامم في عصره وضم العرب ، واننا نقتطف منها ما يلي :

قال كسرى : لم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في امر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة ، وما يدل على مهاتها وصغر هماتها محاتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولجوها ولذاتها فافضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الابل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها وإن قرى احدهم ضيفاً عدها مكرمة والى أطعم أكلة عدها غنيمة تنطق بذلك

اشعارهم وتقتخر بذلك رجالهم .

فكان مما قاله النعمان جواباً لكسري : العرب لم يطمع فيهم طامع ولم ينالهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ومهادهم الارض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم العبر .. وايس احد من العرب الا يسمى آباءه أباً فأباً حاطوا بذلك احسابهم وحفظوا به انسابهم فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينتسب إلى غير نسه ولا يدعي إلى غير ابيه . واما سخاؤهم فان اذانهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه في حمولة وشبهه وريه فيطرقة الطارق الذي يكتفي بالقلدة ويحتزي بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن ديناه كلها فيا يكسبه حسن الاحدوثة وطيب الذكر ، ثم خيلهم افضل الخيل ونساؤهم أعف النساء ولباسهم افضل اللباس ومطايهم التي لا يبلغ على مثلها سفر ولا يقطع بمثلها بلد فقر ، واما وفاؤهم فان احدهم يلحظ اللحظة ويوميء الايماء فيبي وكت وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه وان احدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يغلق رهته ولا تخفر ذمته وان احدهم ليلغنه ان رجلاً استجار به وعسى ان يكون نائياً عن داره فيصاب ، فلا يرضى حتى يفي تلك القبيلة التي اصابته اوتفى قبيلته ، لما خفر من جواره ، وانه لياجاً اليهم المحرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون انفسهم دون نفسه واموالهم دون ماله . واما قولك ايها الملك يثدنون اولادهم فانما يفعل من يفعله منهم بالاناث افقة من العار وغيره من الازواج ؛ واما قولك : ان افضل طعامهم لحوم الابل على ماوصفت منها فما تركوا ما دونها الا احتقاراً له فعمدوا الى اجلها وافضلها فكانت مراكبهم وطعامهم مع انها اكثر البهائم شجوماً واطيبها لحوماً وارقيها لباناً واقلها غائلة واحلاها مضغة وانه لاشي من الاحمان يعالج به لحمها الا استبان فضلها عايه ؛ واما تحاربهم واكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله

من الامم اذا انست من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها اليها بالزحف ، وانه انما يكون في المملكة العظيمة اهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون اليهم امورهم وينقادون لهم بازمتهم ، واما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا ان يكونوا ملوكاً اجمعين ... الى آخر ما قال .

وجاء في (تاريخ الامم الاسلامية ج ١) للشيخ محمد الخضري مايلي :

(الرجل في اهله — وزيد بالاehl خصوص الزوج) . —

يظلم العربي من زعم انه كان ينظر الى المرأة نظرة استخفاف او اهانة فانا اذا كنا نستقي تلك المعاملات من شعرهم الذي هو ديوان اخبارهم نرى الامر على العكس من ذلك . فقد كان الرجل اذا أراد ان يمتدح بماله في نظر العرب من المقام السامي في الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر اوقاته الا المرأة التي ان رقي في نظرها فقد رضي الناس كلهم عنه ، وترى ذلك واضحاً جلياً في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام وعنترة العبيسي شيخ الشجعان . ثم انظر الى اى شجاع من العرب هل كان يفتخر الا محدثاً امرأة من قومه بانه المدافع عن الحرم الحامي للحقيقة ، تراه اذا عزلته على السرف وأشارت عليه بالقصد يحميها بأرق ما تحبب به مخالف في الرأي :

ألم تعلمي يا عمر ك الله إني كريم على حين الكرام قليل ؟

أو لا ترى ان جميع الشعراء اذا بدأوا قصائدهم التي بها يفخرون بمحامد قومهم وعظيم مقاصدهم — لا يذهبون الى شيء من ذلك حتى يعطوا المرأة قسطها مما تحب من النسيب يرون ان شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة وتراهم حينئذ يخاطبونها وهي ذات زوج يلقبونها بخير الإلقاب فيقول أحدهم :

إربة البيت قومي غير صاغرة ضمي اليك رجال النوم والقربا

فاعطاؤها هذا اللقب الجميل يشمر بما كان لها في النفوس من سمو الدرجة وما أحلى احتراسه في قوله غير صاغرة ! ويقول الآخر لزوجته :

سلي الطارق المعتز يألم مالك اذا ما اتاني بين قدري وبحزري

يسفر وجهي من أول القرى وابذل مغروفي له دون منكري
فلا يناديها الا بكينيتها وهذا من سمات التشريف في عرفهم . وبالجملة فان المتبع
لاشعار العرب لا يشتم منها رائحة الصغار والاهانة المرأة ، ويفخرون بنسبتهم
الأمهاتهم كما يفخرون بنسبتهم الى آبائهم وكانت المرأة فيهم اذا ارادت فرقت وان
شاءت جمعت فان اتجهت عواطفها للسلام سعت اليه ونجحت وان وجهتها ارادة
الانتقام الى الشر اشعلت النار بين الاحياء .

قال الحارث بن عوف المري لخارجة بن سنان - في ابان الحرب بين عبس وذبيان -
أتراني اخطب الى أحد فيردني قال نعم : أوس بن حارثة بن لام الطائي ، فقال الحارث
لغلامه هي لي مركباً ، ثم ركب هو وغلامه ومعها خارجة حتى اتيا أوساً فوجداه
في داره . فلما رأى الحارث رجب به وسأله عن مجيئه ، فقال حيثك خاطباً فقال
أوس ، لست هناك فانصرف ولم يكلمه . ثم دخل أوس على امرأته مغضباً وكانت
من عبس فقالت من رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه ، قال ذاك سيد العرب
الحارث بن عوف ، قالت فما بالك لم تستنزه ، قال انه استحق جاءني خاطباً قالت
أفتريد أن تزوج بناتك ، قال نعم ، قالت فاذا لم تزوج سيد العرب فمن ، قال قد
كان ذلك ، قالت فتدارك ما كان منك فالحقه وقل له انك لقيتني مغضباً بأمر
لم تقدم مني فيه قولاً فلم يكن عندي من الجواب الا ما سمعت فانصرف ولك عندي
كل ما احببت فانه سيفل . ففعل ذلك أوس ورد حارثة ، فلما وصلوا الى بيت أوس
قال أوس لزوجته ادعي لي فلانة لكبرى بناته فأتته فقال يابنية هذا الحارث بن عوف
سيد من سادات العرب وقد جاءني طالباً خاطباً وقد أردت أن ازوجك منه ،
فقال لا تفعل لاني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض العهدة ولست بابنة عمه
فيرعى رحمي وليس بجارك في البلد فيستحي منك ولا آمن ان يرى مني ما يكره
فيطلقني فيكون على في ذلك ما فيه ، قال قومي بارك الله فيك ، ثم دعا الوسطى فأجابته
بمثل جوابها وقالت اني خرقاء وليست بيدي صناعة ولا آمن ان يرى مني ما يكره

فيطلقني فيكون علي في ذلك ما تعلم ، ثم دعا الثالثة وهي بهيئة صغراهن فلما عرض عليها قالت انت وذلك فاخبرها باباء اختها فقالت لكني والله الجميلة وجهاً الصناع بدأ الرقيقة خلقاً الحسنية ابا فان طلقني فلا اخلف الله عليه بخير ، فزوجها الحارث وهيئت له في بيت أبيها . فلما خلا بها وأراد أن يعد يده اليها قالت مه أعند أبي واخوتي هذا والله مالا يكون ، فارتحل بها حتى اذا كان ببعض الطريق واراد قربانها ، فقالت كما يفعل بالامة الجليلة او السبية الاخيدة لا والله حتى تنجر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي . فرحل حتى اذا وصل ديار قومهم اعد لها ما يعد لمثلها فلما أراد قربانها قالت له أفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها اخرج الى هؤلاء القوم فاصلح بينهم ثم ارجع الى اهلك فلن يفوتك ، فخرج الحارث مع خارجة بن سنان فاصلحوا بين القوم وحملوا الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين .

فهذه الحكاية تدل على مكانة المرأة في نظرهم ومشاركتها لهم في جميع أمورهم وكيف كان الرجل لا يزوج بناته الا بعد ان يستشيرها ويتف عند ارادتها . ولا يمكننا ان ندعي بان هذا كان امراً عاماً عندهم بحيث تكون المرأة محترمة الجانب في جميع الطبقات تعامل هذه المعاملة من جمهور الامة ، ولكن الذي يمكننا ان نقوله هو أن ظهور هذه المعاملة على السنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان الحال من غير ان يقابلوا بالنكير يدل على انه لم يكن عندهم بدعاً من العمل اما معاملتهم لابنائهم فكانت معاملة من يرى الولد ليكون له درعاً حصينة يتقي بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الاسماء من كلب وأسد وثور وفهد ونمر وما شاكل ذلك وكان لهم من الخنوع على الاولاد ما يعبر عنه قول أحدهم :

وإنا أولادنا بيننا أكبادنا تنشي على الارض

... اما معاملة الرجل لاختيه وبني عمه فتستدل بهذه الجملة التي قالوها (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) ، وكانوا يسرون عليها بمعناها الحقيقي من غير التعديل الذي جاء به الاسلام . لان الاسلام فسر نصر الظالم بكفه عن ظلمه

أما هم فكانوا ينصرون اخوانهم وبني عمهم نصراً حقيقياً على كل حال في صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم والذي يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله السنة الشعراء بما يفيض من كرامته وينقصه من قدره وربما أصاب الدم القبيلة جمعاء من حادثة لم يقوموا فيها بنصر احدهم كما قال شاعرهم :

لو كنت من مازن لم يستبح ابلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة ان ذلولة لانا... الخ

وإذا دخلت قبيلتان منهم في حلف كان لكل فرد من احدى القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الاخرى ، وهذا الحلف قد يعقده الافراد وقد يعقده رؤساء القبائل ، والامر واحد في الحلفين . وبينما هذه حلهم في بني ابيهم دنيا وفي حلفائهم اذا بك تراه حين تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضاً في الشرف والثروة ، فتجد القبائل يجمعها أب واحد ، وكل واحدة قد وقفت لاختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد بلغ منها الدرجة التي لا تطاق كما كان بين بطني الاوس والخزرج وبين عبس وذيان وبين بكر وتغلب وبين عبد شمس وهاشم ، وكما تراه في الجملة بين ربيعة ومضر وبين قيس وكنانة وبين القحطانية والزارية . فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية حياة ونمواً ، ولكنها كانت مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة ، فكانت قواهم متفانية في حروبهم . والسبب في ذلك يرجع الى أمرين :

الاول . - التنافس في مادة الحياة بين بني الاب الواحد . فانا نعلم ان حياة العرب كانت على مراعيهم التي يسمعون فيها أنعامهم وعلى مناههم التي منها يشربون . وهي محل نزاع دائم ، لانه لم يكن يوجد عند العرب حقوق ملكية محترمة في الكلاء والماء . وأكثر ما يبتدىء ذلك بين رعاة الابل القاعمين بشأنها فانهم قد يتنازعون فيمن يرد الماء أولاً او في نفس المراعي ، فيتجاوزهم النزاع الى ساداتهم ، فلا يجذون من الافتراق بدءاً . فينزح احد الاخوين عن داره مرغماً

الى مكان آخر هو وأولاده ومن يلوذه به . ولا يكون ذلك الا بعد ان يشعر الراحل بقوة منازعه فينزع ، وفي النفس اثر من الغضب يورثه الآباء للابناء فيتناقلون بينهم احاديث عن اسباب الخلاف والظلم يحسمها النقل ، واذا تقارب مكان البطين كان السعداء أبقى .

السبب الثاني . - تنازع الشرف والرئاسة ، واكثر ما يكون ذلك اذا مات اكبر الاخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فينازع اعمامه رئاسة العشيرة ولا يسلم احد منها الا آخر فيورثها ذلك تباعضاً تزيد الايام شدة ، وقد يفارق رئيس احد البيتين الديار مضمرأ في نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء ، وقد يقيان متجاورين ، وفي هذه الحال يكون التنافر أشد ، كما كان بين الاوس والخزرج سكان المدينة وكما كان بين هاشم وامية بمكة وبين عبس وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة وبين دارم وبربوع من تميم . ولذلك نرى الحروب الهائلة والايام الممدودة انما كانت بين القبائل المتقاربة في الانساب المتقاربة في الامكنة . ولم يكن لهم نظام ياجأون اليه في الحكم بين المتنافرين في الرئاسة والشرف وانما كانوا في بعض الاحيان ياجأون الى حكم منهم قد عرف باصالة الرأي ويقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مريديه ما يشرفه في النفوس ويعظم أمره من نحر الجزر وأطعام الطعام وكانت تكون المصيبة اشد اذا حكم الحكم لأحد الفريقين ، لان ذلك انما كان يزيد نار العداة ضراماً .

واذا كان الحكم عارفاً بدعائل العرب سوى بينها في الفضل والشرف كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابني العم فانه قال لهما انما كركبتي البعير ، وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما ان يجذله شاعراً يلهيه ويزيد في نفسه نغرة الجاهلية كما فعل الاعشى في هذه القضية ، فانه قال القصائد الرثانة بفضل بها عامراً وزعم ان الحكم قضى له . ومما كان يزيد في هذه النيران شدة السنة الشعراء ، فقد كان هم الواحد منهم ان

يرفع عشيرته بكلمة شعرية يعدد بها مفاخر قبيلته ومثالب القبيلة الاخرى ، واذا زل احد افراد القبيلة زلة عدوها على القبيلة باسرها ووسموها بتلك السمة حتى اذا قرأنا مجموعة من اشعار هؤلاء الفاوين وجدنا العرب كاهامثالب ونقائص . لان كل شاعر يعدد مثالب القبيلة التي تعادي قبيلته المعترف لها بالتبريز في السيادة وفيها البيوتات الكريمة قد سمت على لسان بشاعر بما يستحي الانسان من انشاده ولم تسلم من ذلك الشر قبيلة واحدة .

ومتى وجد النفور بين جماعتين او بين شخصين لايحتاج شوب نار بينهما الى اسباب قوية لايتمكن حلها بل ايسر انزاع بين فردين من افراد القبيلتين كاف لشوب نار الحرب وتيتم الاطفال وتأييم النساء . لذلك كانت الجزيرة العربية دائمة الحروب والمنازعات قلما يخلو منها زمان او مكان . واذا رجعت الى اسبابها المباشرة وجدتها في بعض الاحيان نافهة كما كان في حروب الفجار وفي البعض الآخر زارها اموراً يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب ، ولكن الاسباب الحقيقية سابقة على ذلك هي النفور المتأصل في القلوب كما ذكرناه .

.... من الاخلاق التي كانت للعربي (سرعة الانفعال) والاقدام على المسكاره) تراه ساكناً مطمئناً فلا يحتاج في هيجه الا الى كلمة صغيرة او فعله حقيرة يتخيل معها ان قد مس شرفه فتجده زأراً كالاسد خرج من مكانه لا يترث حتى يستطلع جلية الامر بل يقدم منكباً عن ذكر العواقب جانباً . وهذا الخلق اكثر مآراه في قبائل البادية الذين كانوا لا يخشون سجنأولا احكاماً من جراء أفعالهم بل هم بالعكس ينتظرون النصر المؤزر من أقوامهم وحلفائهم ، والنفس اذا أحست بما يضرها انفعلت ونهياً لها طريق الانتقام ، فاذا لم تخش العادية اقدمت ، ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم الى السير في طريق الحروب بقليل من الكلمات . وكانت هناك كلمات تحرك قلب العربي كما في كل أمة وأرقاها درجة في التأثير

يا لفلان ، واذلاه ، وانصبراه ، شرف الآباء ! وما شاكل ذلك ، ولم يكن عندهم شيء من بلاد الطبع التي تجعل صاحبها يألف سماع ما يهين شرفه حساباً يتخيل ، ويتبع هذا الخلق الجرأة على سفك الدم ، لان النفس متى تهياً لها طريق الانتقام وقدمت ولم تخش عقوبة لم تكتف بدون الموت لمن تريد الانتقام منه . ومن هنا كان خلق الحلم فيهم عزيزاً اللهم الا في سادتهم وذوي الاسنان منهم ، ولذلك كان المعروفون بالحلم منهم قليلين .

ومن أخلاقهم (التعصب) ومعناه أن ينصر ذا عشيرته على اية حال يرون ذلك من مقومات حياتهم . وقد سمي القرآن هذا الخلق وما قبله حمية الجاهلية لان فيهما نتيجة من نتائج الجهل وعدم التثبت .

ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم (الكرم) وقد استنفذوا فيه نصف أشعارهم بين تمتدح به ومثن على غيره ، كان الواحد منهم يأثمه الضيف - في شدة البرد والجوع - وليس عنده من المال الا ناقته التي هي حياته وحياة ولده فتأخذ هزة الكرم فيقوم اليها ويدبجها لضيفه يخشون مذمات الاحاديث ويقول قائلهم :

وأعلم بان الضيف يو ما سوف يحمد أو يلوم

ومن أخلاقهم الذي كانوا يمتدحون بها ويعيرون من خالفها (الوفاء بالعهد) فقد كان العهد عندهم ديناً يتسكون به ويستمتنون في سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب ديارهم . انظروا الى ما فعله هاني بن مسعود الشيباني بسبب أدرع النعمان بن المنذر واولاده حيث عرض نفسه وقومه لحرب اصحهم دولة وهي الدولة الفارسية فأغضب ملكها ونائبه على الحيرة غير مبال بما يصيبه ويصيب قومه من جراء ذلك . ثم انظروا الى ما فعله السمؤل بن عاد ياء وهو عربي المقام والمولد حينما خيرته الحارث الغساني بين قتل ولده وتسليم ادرع امرئ القيس بن حجر الكندي التي كان اودعها عنده ففضل قتل ولده . ثم انظر الى ما فعله حاجب بن زرارمة التميمي سيد بني تميم كيف وفي الملك بما تعهد به بعد ان رهن على ذلك قوسه عند كسري

حتى ضرب المثل بقوس حاجب ، والقوس في الحقيقة لا يمنعه رهنها من فعل ما يشاء ان كان من شيمته الغدر ، وانما خاف السبة على بنيه من بعده اذاهو غدر . ومما يبين لنا قيمة هذا الخلق في الامة العربية انهم كانوا اذا زل واحد منهم زلة فغدر بذى عهد اصلاحه الشعراء ناراً حامية وقلماً يفلح بعدها او يرفع له رأساً بين العرب .

— ومن اخلاقهم التي كانت بجانب الكرم والوفاء (الشجاعة) ، وهي قوة في النفس تحمل صاحبها على الاقدام على المكروه ، وباب الحماسة في اشعارهم اكبر من باب الكرم ، لان الشجاعة خلق يظهر في جميع الافراد . أما الكرم فانه لا يظهر اثره بجلاء الا عند ارباب الاموال الذين يمكنهم ان يعطفوا على الفقراء والمعوزين . وقد اشتهر من العرب كثيرون امتازوا على اقرانهم في شدة البأس وقوة القلب . وكان فيهم من نتاج حمية الجاهلية ضعف خالق الرحمة بمن يقع تحت ايديهم من اعدائهم .

وقد بقيت بعد ذلك اخلاق كانوا يتواصون بها في اشعارهم ، ولكننا لا يمكننا ان نقول انها كانت اخلاقاً عامةً لجمهورهم ، ومن يطلع على كلامهم في ابواب الادب يجد من وصاياهم الجميلة وكمهم الجائلة شيئاً كثيراً يذهب بنفس قارئه كل مذهب ويجعله يحكم ان هذه الامة مع ما كانت عليه من البداوة وشظف العيش لم تخل من حكماء او دعوا اشعارهم ما يفيد من بعدهم .

وقال احمد حسن الزيات في (تاريخ الادب العربي) :

ان لمناخ الاقاليم اثرأ طبعياً قوياً في حياة أهله . فهو الذي ينهج لهم سبيل معاشهم ونظام اجتماعهم ، ويكون الكثير الغالب من اخلاقهم وطباعهم . والعربية شبه جزيرة جافة قاحلة قلما يجودها النيث وتوآتيها السيول ، فهي لا تصلح للزروع الدورية ، ولا تلائم الحياة الحضرية . ومن ثم كان أهلها بدواً (١) بالفطرة يعيشون

(١) يدل على ان البداوة خصيصة العرب في التاريخ القديم ان افظ العرب يراود به في اللغات السامية معنى البدو والبادية .

تحت الخيام على رعي الانعام فيطعمون من لحمها ولبنها ويكتسون بصوفها ووبرها
ويبتغون بها مواقع القطر ورياض الارض ويسبحونها فيها ويرددونها بين اوديةها
وفياها الا قريشاً فتحضروا لقيامهم على البيت الحرام ولإيلافهم رحلة اليمن والشام
والا القحطانيين لحظديارهم من الخصب والمطر ووفرة ما تفعله ارضهم من الحب والشمر.
فاذا اخلفت السماء واحملت وجوه الارض اكل بعضهم بعضاً بالاغارة والغزو.
وجريرة ذلك عليهم فساد القلوب ودوام الحروب وذهاب الامن وتشعث الالفة.
ولم ينكب الجاهليون بمثل الحرب والجذب. فهم لذلك يتمدحون بالبأس والساحة
ويشجعون بالأسن والفصاحة ويؤثرون الذكر ويثدون (١) الانثى ويتكاثرون
بالنقر العديد ويعتزون بالقرابة الواشجة.

ثم كان من إلفهم حياة الظمن والتجوال وتوزع همهم بين الجدال والقتال
ان غلبت عليهم الحرية والعصبية والوحشية، فلم تكن لهم مدينة اجتماعية ولا
حكومة سياسية ولا أنظمة عسكرية ولا فلسفة دينية. وانما كان المجتمع مجتمع
القبيلة والخيمة. لا مجتمع الشعب والامة، والحكومة كانت لرؤساء العشائر يملكون
بالإرث ويحكمون بالعرف، فلم تكن الجرشيّة (٢) كحكومة الاغريق، ولا ملكية
كحكومة المصريين والفرس. اللهم الا في الحيرة والشام، فقد كان لهم ملوك
متوجون ولكنهم غير مستقلين، فالخميون في الحيرة يتبعون الاكاسرة والفسانيون
في الشام يتبعون القياصرة. واذن فمعاني الحضارة والرأي العام والارستقراطية
والديمقراطية والاقطاع لا الفاظ لها عند العرب والساميين جميعاً، والنظام العسكري
حتى بعد الإسلام كان غير ثابت ولا منظم، لأن نظام البروقسية والتجرد عن الشخصية

(١) لم يكن الواء عاماً في جميع العرب وانما كان خاصاً ببعض قبائل تميم وأسد
يفعلها من يفعلها منهم خشية الفقر.. والى ذلك أشار الكتاب في قوله: (ولا تقتلوا اولادكم
خشية املاق نحن نرزقهم واياكم) (٢) الأجرشيّة oligarchie حكومة يحصر
السلطان فيها في يد بعض الاسر القوية.

— وهما الركنان الاساسيان في العسكرية — يضادان إعجاب العربي بنفسه واعتدائه بشخصه ، والدين كان دين بساطة وسذاجة وتقصيف ، فلم يكن للعرب ما للإغريق من تعدد الآلهة وفخامة الهياكل وإقامة التماثيل ووفرة الاساطير وفلسفة العقائد ، وإنما كان بقية أثرية من دين ابراهيم جاءتهم من وراء القرون عن طريق الوراثة مشوهة لتطاول العهد وتحكم الجهالة وعدم القرار ، فتحات في نفوسهم الى عبادة الاصنام وتعميم الاوثان (١) ونصبها على الكعبة تقريباً بها الى الله على زعمهم . وهذه الوثنية كانت دين الكثرة من العرب ، اما القلة فكان بعضها على اليهودية في اليمن وفي يثرب وماجاورها من ارض خيبر وتيماء وبعضها على النصرانية بنجران والحيرة وفي قبائل طي والفساسنة في الشام . (٢)

اما الأسرة وهي نواة القبيلة فقد كان حالها اشبه بحال المصرية الريفية اليوم . تتألف من الابوين والاولاد والاحفاد والرقيق . وكان سلطان الاب مطلقاً على اهله ، يملك عليهم الموت والحياة والبيع والاتقاء . فرما وآد ابنته خوف الفقر ، واتفى من ابن أمته خوف العار . وكان للزوجة المسكنة السامية الثانية في الأسرة ، محلها الزوج في نفسه ، ويشركها في أمره ، ويتفنى باسمها في شعره ، ويفخر الولد بنسبته الى أمه كما يفخر بنسبته الى أبيه ، وكان عقد الزواج هو الرباط الغالب بين الرجل والمرأة ، وللرجل وحده حق الطلاق مالم يشترط عند العقد خلاف ذلك . ثم كان لهم انواع اخرى من الزواج هي اشبه شيء بالمسافحة لا يبعدها الا أولو الدعارة من الشباب . ويقرب من هذه الانواع زواج كانت تعقد السيوف والاستة ، وذلك ان احدهم ياتي رجلاً معه ظمينة وليس من قبيلته

(١) الصنم ما كان على صورة انسان من حجر أو فضة أو ذهب ، والوثن ما كان حجراً غفلاً من الصنعة .

(٢) وهوودية العرب ونصرانيتهم أيضاً كانت مشوهة غير تامة ، وكانوا يتبعون في النصرانية مذهب اليعاقبة على قياس ضئيل .

ولا من احلافها ، فيتقاتلان ، فاذا قهره اخذها منه سبية واستحلها بذلك . وكانوا يعددون بين الزوجات الى حد غير معروف ، ويحلون التزوج من امرأة الاب ، ويحرمون البناء بالفت والاخت والعمة والخالة . اما علاقة ابناء الاسرة بابناء القبيلة فجاءها مدلول هذه الكلمة الجاهلية : (انصر أخاك ظالماً او مظلوماً) على ما بين ابناء المم من تنافس وتباغض . ولكن القبيلة للواحد والواحد للقبيلة .

واما حالهم العقلية فقد كان التبابعة باليمن والمناذرة والنساسنة في الشمال على حظ من العلوم يدل عليه ما اقاموه من السدود واحيوا من الارض وعمره من المدن . ولكن درجة رقيهم وحقيقة علومهم لازال سرّاً مطويا في جوف الارض ربما كشف عنه التنقيب عن الآثار بعد قليل .

اما العدنانيون فقد اكتسبتهم قوة الملاحظة وكثرة التجارب واضطرار الحاجة طائفة من العلم المبني على التجربة والاستقراء والوهم . فعرفوا الطب والبيطرة والخيل لاتصالها بالحرب ، ولاحظوا الانواء والنجوم والرياح لملاحتها بالكلام والنيت ، وليتدوا بها في ظلمات البر والبحر . وبرعوا في الانساب والاحبار والاشمار ، محافظة على عصبيتهم وتحداً بمفاخرهم وتخليداً لمآثرهم . ومهروا في الفراسة والقيافة (١) ووصف الارض لكشف الدعي فيهم وطلب الهارب منهم . ثم قادهم الجانب الروحي فيهم الى الاعتقاد بالكهانة (٢) والعرافة

(١) الفراسة هي الاستدلال بالامور الظاهرة على الامور الخفية كالاستدلال بشكل المرء ولونه وقوله على خلقه . والقيافة قسمان قيافة الاثر وهي الاهتمام الى الهارب بآثار قدمه وقيافة البشر وهي الاستدلال بهيئة الانسان وشكل أعضائه على نسبه (٢) الكهانة والعرافة مطالعة الغيب والاحبار بالحوادث الماضية والآتية . وقد يخصص السكاهن بعلم المستقبل والعراف بعلم الماضي ، والزجر هو الاستدلال بصوت الحيوان وحركته وحالته على الحوادث ، فكان الرجل يعمد الى الطائر مثلاً فيرميه بحصاه او يصيح به . فان ولاه في طيرانه ميامنة تفائل به ، وان ولاه مياسرة تشام منه وتطير .

والزجر ففزعوا الى الكهان في امراضهم واستفتوا العرافين في اغراضهم حتى ذهب الاسلام بكل ذلك .

وجملة القول ان المجتمع العربي خارج القبيلة كان مفككاً من الجهة السياسية والاقتصادية والمغربية مرتبطاً من الجهة الخلقية والعقلية والادبية . ولو ساغ لنا ان نحكم على العرب بمقتضى لغتهم وادبهم لوجدنا لهم نفوساً كبيرة وادهاً بصيرة وحكمة خيرة ومعارف واسعة كونوا اكثرها من نتائج قرائعهم وثمار تجاربهم . فان لغتهم وهي صورة اجتماعهم لم تدع معنى من المعاني التي تتصل بالروح والفكر والجسم والجماعة والارض والسماء وما بينها الا استوعبت اسماءه وربت اجزائه (١) ووضع اللفظ للشئ دليل على وجوده وعلمه . ولعمري ما يكون التمدن اللغوي الا بعد تمدن اجتماعي راق في حقيقته وان لم يرق في شكله ، عام في أثره وان لم يعم في اهله .

وفي تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان في فصل (العصبية العربية قبل الاسلام) ج ٤ ص ١٠ مايلي :

العرب جمهورهم من البدو ، والعصبية ضرورية لاهل البادية . لان الناس مغطرون على المطامع ودأبهم التخاصم والتنازع ، فاهل المدن يدفع عدوانهم بالحكام وأهل الدولة من ان يظلم بعضهم بعضاً ، وهي ايضاً تدفع غارات الاعداء بما تقيمه من الاسوار وتعمده من الجند والسلاح . واما البدو فيحكم بينهم مشايخهم وكبرأؤهم بما وقر في نفوس اهل القبيلة او الحي من الوقار لهم - واكرام السن من سنن البدو واذا سطا عليهم عدو في منازلهم قام في الدفاع عنها قياتهم وشجعانهم ، وهؤلاء لا يصدق دفاعهم الا اذا كان لهم عصبية تشد بها شوكتهم ويخشى جانبهم .

واهل البلد الواحد او المصلحة الواحدة لا بد لهم من جامعة تجمع بين افرادهم والجامعة تختلف في الامم باختلاف احوالهم فبعض الامم يجمعهم الوطن وآخرون

(١) تجدد الامثلة على ذلك في كتاب فقه اللغة للثعالبي وكتاب المخصص

يجمعهم الدين وغيرهم يجمعهم النسب أو اللغة . وقد رأيت أن البدو لا وطن لهم وكانوا قبل الإسلام لا دين لهم فلم يكن لهم ما يجمعهم غير النسب واللغة وهما متلازمان خصوصاً في البداوة . فعنى العرب في حفظ انسابهم وضبطها وتفاخروا بها وبالغوا في استقصائها حتى رددوها إلى الآباء الأولين .

فأقرب أسباب العصبية عندهم الأخوة والوالدية والعمومة ، ومنها تتألف العائلة أو الأسرة . ومن العائلات تتألف الفصيلة كآل أبي طالب وآل العباس مثلاً ، فإن كلاً منهما فصيلة مؤلفة من عائلات وكلاهما من بني هاشم . ومن الفصائل تتألف الفخذ مثل بني هاشم وبني أمية وكلاهما من بني عبد مناف . ومن الأفخاذ تتألف البطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم وكلاهما من قريش . ومن البطون تتألف العمارة مثل بني قريش وبني كنانة وكلاهما من مضر . ومن العمائر تتألف القبيلة مثل ربيعة ومضر وكلاهما من عدنان . ومن القبائل يتألف الشعب وهو النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان .

عصبية النسب ؛ وبين القبائل أو أفخاذها أو بطونها أو عمائرها عصبية النسب تجمعها بعضها على بعض — الأقرب فالأقرب على الأبعد فالأبعد فتجتمع الفصيلتان من الفخذ الواحد على فخذ آخر ولو كانوا جميعاً من بطن واحد ، ويجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة أخرى ولو كانوا جميعاً من قبيلة واحدة على حد قول المثل « أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب » فالقحطاني يتعصب على العدناني وهذه أوسع العصبيات . ثم إن القبائل تتعصب بعضها على بعض ، والعمائر من قبيلة واحدة تتعصب بعضها على بعض ، ويقال نحو ذلك في البطون من عمارة واحدة أو الأفخاذ من بطن واحد حتى تصل إلى الفصائل والعائلات فينبو العباس وبني أبي طالب مثلاً تخصماً وكلاهما من بني هاشم . وبني هاشم وبنو أمية تخصماً وكلاهما من بني عبد مناف وقس على ذلك .

وكل من القبائل أو البطون أو الأفخاذ يفخر سواه بحسنات قومه ويذكر

مثالب الآخرين . ولهم في ذلك مفاخرات يطول بنا شرحها . على ان اشهر حوادث المنافسة بين العرب انما هو بين القبائل القحطانية او اليمنية والقبائل العدنانية على ان العرب القحطانية والعدنانية يجتمعون على غير العرب من الفرس او الترك ويسمونهم (المعجم) ويفخروهم بالانساب واللغة ويحتقروهم ، شقوا من اسمهم لفظ الاعجم للدلالة على الخرس او ان المعجم مشتق من العجمة ، فالعجمي عندهم غير العربي والاعجم الاخرس ، والاخرز عندهم الذي في عينه ضيق ، وهذا وصف المعجم وهو عند العرب من النقائص .

... والمنافسة بين العرب والمعجم قديمة ، فان الفرس في ايام دولتهم كثيراً ما كانوا يخرجون العرب من بلادهم بالسيف ، والعرب كانوا يسلطون على مدن الفرس حتى في ايام سابور قبل الاسلام بمضعة قرون . وكان هذا قد تعمد اذى العرب واخراجهم من بلادهم وخصوصاً من قبيلة اياد وفيه يقول الشاعر :

على رغم سابور بن سابور اصبحت قباب اياد حولها الخيل والنعم

... وما زالت الصغائر بين العرب والفرس الى ان جاء الاسلام وتحول السلطان الى العرب فسلطوا على المعجم فكبر ذلك عليهم وخصوصاً في ايام بني امية لتعصبهم على غير العرب . ونشأت فرقة الشعوية للظلم في العرب ، وبلغ من جساسة بعض الشعوية في بعض ردوده على العرب ان قال « فما الذي تفخر به العرب على المعجم فانما هي كالذئاب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض فرجالها موثقون في حلق الاسر ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الابل » ..

الامومة والحوالة . - الاصل في العصبية عند العرب الابوة او الانتساب الى الاب مثل سائر الائم المراقية ، على ان الامومة كان لها شأن كبير عندهم ، وكثيراً ما كانت المزاوجة والمصاهرة سبباً كبيراً للعصبية ليس ذلك لعلومنزلة المرأة على الاجمال ، وانما الفضل فيه للامومة فان المرأة كانت لا تزال محترمة حتى تصير اما فتعلو منزلتها وقتئذ وتشتد عرى الاتحاد بها . فالرجل منهم يفضل أمه على امرأته ، لان الام في اعتقاده

ابقى له من امرأته. وكانت العرب من أجل ذلك لا يعززون بالمرأة الا ان تكون أما. وقد نشأت من ذلك عصبية الخوؤلة عند العرب وهي نصره عيرة الام شلاولادها وبعبارة أخرى لعشيرة زوجها ولو كان الاب من قبيلة يمنية والام من قبيلة عدنانية أو بالعكس.

« وكان للخوؤلة شأن عظيم عند العرب قبل الاسلام ، واقرب الشواهد عليها نصره اهل المدينة للنبي في هجرته اليهم ؛ فان الخوؤلة كانت من اهم اسباب نصرتهم ، لان ام النبي من بني النجار من الخزرج وهي قبيلة قحطانية وابوه من قريش وهي قبيلة مضرية. وظلت الخوؤلة مرعية عند العرب بعد الاسلام وكان لها تأثير كبير في العصبية وسياسة الدولة . فلما طلب معاوية الخلافة بحجة المطالبة بدم عثمان بن عفان نصره بنو كلب وهم يمنية ، لان نائلة امرأة عثمان منهم وقد تلطخت اصابعها بالدم . وكان لنصرتهم دخل كبير في قيامه وتزوج هو واحدة منهم ولدت له ابنة يزيد . ومنها ان المأمون نصره الفرس لان امه منهم وكان اخوه الامين ضده وحزبه عربي لان امه عربية فلجأ المأمون الى خراسان واقام عند اخواله فاخرجوا الخلافة من يد الامين وسلموها اليه . والمعتصم كانت امه تركية وكان ميله الى الاتراك كثيراً وقد جندهم فنصروه على الفرس . وكان رجال السياسة والتدبير من الملوك والقواد يقودون احزابهم بالتزاوج من القبائل المختلفة فيكتسبون عصبية قبائل نساءهم .

« توابع العصبية العربية . — فعمدة العرب في العصبية جامعة النسب من الاب ثم الام على انهم كانوا يجتمعون باسباب اخرى كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات او المعاهدات الدولية في هذه الايام . واشهر احلاف الجاهلية حلف المطيين وحلف الفضول . فالحلف يجمع بين القبائل ولو تباعدت انسابها من القحطانية والعدنانية .

« ... ومن اسباب العصبية عندهم مما يشبه الحلف (المواخاة) وقد تكون بين

القبائل او بين الافراد ، ولا تزال هذه العادة شائعة بين البدو الى الآن ، فاذا آخيت العربي اخذ بناصرلك وحماك ودافع عنك كأنك اخوه .

سياسة الدولة في الجاهلية . - انما نريد بسياسة الدولة عندهم القواعد التي كانت تدور عليها احكامهم ومعاملتهم لحفظ علاقتهم السياسية وآدابهم الاجتماعية مما يقوم مقام القوانين الادارية والسياسية في الامم المتعدنة .

« فالرئاسة عندهم او الامارة انما ينالها اهل العصبة والجاه ، واذا تساوت العصبة في جماعة قدموا اكبرهم سناً ولذلك كان لفظ (الشيخ) عندهم يدل على الشيخوخة والرئاسة معاً ، واذا اشكل عليهم الانتخاب لاي سبب عمدوا الى الاقتراع . وكذلك اذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب واحتاجوا الى من يرأسهم جميعاً فانهم يقرعون بين اهل الرئاسة فمن خرجت عليه القرعة رأسوه . ذلك هو شأن بدو العرب وهم معظمهم . وأما حضرم في مكة فالرئاسة فيهم لاسادن الكعبة . وكان في كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرئاسة والشرف فتمتاز عن سائر القبيلة وتكون الرئاسة فيها كبيت هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش وبيت آل حذيفة بن بدر الفزاربي من قيس وبيت آل ذرارة بن عدي من تميم وبيت آل ذي الجدين بن عبد الله بن هاشم من شيبان وبيت بني الرمان من بني الحارث ابن كعب من اليمن . وقد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف لتوالي ثلاثة آباء منها في الرئاسة على القبيلة . ولا اهل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة . وكان اهل السياسة من رجال المسامين يلاحظون ذلك في تولية الحكام . ومن هذا القبيل وسية ابن عباس لاحسن بن علي « ول اهل البيوتات تستمع لمح بهم عشايرهم » .

« والامير البدوي مع سلطته المطلقة قلما يستبد في احكامه ، ويغلب ان يستشير اهل بطاقته وخاصته على انه لم يكن ليحتجب عن أحد ولا يمتن احداً . يجالس الناس ويخالطهم ربيعهم ووضعهم وهم لا يعرفون ألقاب التفضيم ولا نعوت التعليق فاذا خاطب البدوي اميره ناداه باسمه وطالبه بحقه بعبارات تشف عن عزة النفس

ولإبائه الضيم وهي أنفة البداوة ، على أنهم كانوا يتكلمون على الاسنان والامير مخاطب
رعياه بالقبال الوقار كالأب والعم والخال والابن أو ابن الخال على ما تقتضيه الانساب
والاسنان وظل ذلك شأنهم في صدر الاسلام ينادون الخليفة باسمهم
— أو بأمر المؤمنين — ويحاجونه في شؤونه حتى اذا تخشعوا احتجبوا وتكبروا
فانسع الفاصل بين المحكوم والحاكم.

مناقب العرب في الجاهلية . — على ان العرب قلما كانوا يحتاجون الى حاكم يفصل
الخصومة بينهم لما فطروا عليه من المناقب الجميلة التي تتوهم فيهم مقام الحاكم الصارم
وتترهبهم عن ارتكاب الدنيا مما يغنيهم عن القضاء . وسيد هذه المناقب « الوفاء »
لانه اذا تأصل في أمة اغناها عن القضاء . والحكومة انما تقضي بين الذين
لا يعرفون الوفاء . وكان الوفاء متمكناً في خلق العربي ويزيد تمكناً فيه كلما
بعد عن المدن واوغل في الصحراء . لان الغدر والتكث لا يعيشان الا في القصور
الشاء بين الحدايق الغناء .

ورى (الوفاء) مطبوعاً في اقوال أهل البادية واشعارهم وامثالهم يتجلى في
عاداتهم واخلاقهم وفي سائر اعمالهم وهو فيهم سجية وفي سواهم صناعة وتكلف .
وحكاية حنظلة الطائي والنعمان ابن المذمر تمثل هذه الخلة أحسن تمثيل . فان حنظلة
وعد النعمان بالجوع بعد عام لاستقبال الموت فطلب النعمان من يضمنه فضمنه شريك
بن عدي ، ولم يقدم شريك على ذلك الا هو وبعثه صدق البدو لاشتهارهم به .
وقد وفي حنظلة فجاء في الوقت الميعن لا يجد يقوده ولا ضابطة تخفره مما حمل
النعمان على العفو عنه وقصته مشهورة . واغرب من ذلك وفاء السموأل (صموئيل)
ابن عدياء ، وكان امرؤ القيس الكندي قد استودعه سلاحاً وامتعة تساوي مالا
كثيراً وسافر الى بلاد الروم ومات قبل رجوعه فبعث ملك كندة يطلب الاسلحة
والامتعة المودعة عند السموأل فلم يسلها . ولما ألح عليه اجابه « لا أغدر بذمتي
ولا أخون أمانتي ولا اترك الوفاء الواجب علي » ، فجرد الملك عليه جيشاً وحاصره

في حصنه، فوقع ابن السمؤال أسيراً عند الملك فهدد السمؤال بقتل ابنه ان لم يسلم
الوديعة فاقبى التسليم وقال « ما كنت لأخفر ذمائي وأبطل وفئي فافعل ما شئت »
فدبح ولده والسمؤال ينظر : فلما امتنع الحصن على ملك كندة عاد خائباً . وأما
السمؤال فصبر على ما تحمله من الشغل محافظة على الوفاء ولم يسلم الوديعة الا الى
ورثة امرئ القيس . فمن كانت هذه مناقبهم قلت حاجتهم الى القوانين واستغنوا
عن الجند والضابطه وخصوصاً اذا اضفا اليها علو الهمة وطيب النفس وقلة احتمال
الذل والساحسة والكرم والنزاهة عن الدنيئة فهذه كلها من مناقب العرب
اهل البادية .

الجوار : ومن قبيل الوفاء بالعهود وحفظ الذمام ايضاً (الجوار) فان البدوي
يحافظ على جاره محافظته على نفسه . والمقصود بالجوار في الاصل ان يحافظ الرجل
على جاره القريب ، وهو من قبيل التعاون الطبيعي حتى قيل « جارك القريب ولا
أخوك البعيد » ولكن العرب توسعوا في ذلك حتى شقوا منه الاجارة والاستجارة
والجوار وكلها بمعنى الحماية والحفظ مع ان اصل المسادة « جار » يفيد ضد ذلك .
واستعاروا الجوار للحماية على الاطلاق فاذا خاف احدكم سوءاً جاء الى رجل يحميه
ويكفي ان يقول له « اجرني » فيجيره بقدر طاقته ولا يفرط بحجاره . ومن امثلة ذلك
ان الاعشى امتدح الاسود العنسي فاعطاه جائزة من الحلل والعنبر فرجع وطريقه
على بني عامر فخافهم على مآمعه من المال فاتي علقمة بن علاثة فقال له « اجرني »
فقال « قد اجرتك » قال « من الجن والانس » قال « نعم » قال « ومن الموت » قال
« لا » فتركه واتى عامر بن الطفيل فقال له « اجرني » قال « قد اجرتك »
قال « من الجن والجن » قال « نعم » قال « ومن الموت » قال « نعم » قال « وكيف تميرني من
الموت » قال « اذامت وانت جاري بهت الى اهلك الدية » قال « الآن لمت انك تميرني » . وقد
يجي بعضهم ليستجير برجل فلا يجده في بيته فيكفي ان يعقد طرف ثوبه الى جانب
طتب البيت فاذا فعل ذلك صار جاراً ووجب على المعقود بطب بيته المستجير به

ان بحيرة وان يطلب له بظلامته . ومن قبيل تعظيم والمحافظة عليه ان عامر بن الطفيل لما مات نصبت بنو عامر انصاباً ميلاً في ميل على قبره لا ينشرفه ماشية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش اشارة الى ما كان عليه من المحافظة على الجوار في حياته .

وما زال الجوار مرغباً عند العرب بعد الاسلام الا من خالط الامم الاخرى في البلاد المفتوحة . على ان تأييد الدولة اقتضى ضعف الجوار ، لان اهل الوجاهة اصبحوا من اهل الدولة والرجل يومئذ انما يستجير من حاكم يطلبه فاذا استجار به مظلوم قالوا انما نجير الرجل على عشيرته وأما على سلاطانه فلا ، خوفاً على مناصبهم . كما اصاب ابن مفرغ لما هجا بني زياد واستجار بالاحنف بن قيس على عبيد الله بن زياد وهو يومئذ امير البصرة فأبى الاحنف خوف العزل وقال له « اذا شئت ان اجيرك من بني سعد فعلت » فذهب الى غيره من وجهاء العرب فابوا اجارته لنفس هذا السبب .

ومن المناقب التي تنفي العرب عن الوازع الثوري او الزوة الحاكمة (الاربحية) وهي من مقتضيات العصور الجاهلية البدوية او ما يجري مجراها من أحوال الفروسية التي يعبر عنها الافرنج بقولهم Chevalerie ومرجع ذلك الى التفاخر بالشجاعة والكرم وحسن الاحدثة . وكان للاربحية شأن عظيم عند العرب لدقة شعورهم وسرعة تأثرهم لانهم اهل خيال وذوو نفوس حساسة يقيمهم البيت من الشعر ويقعدهم وقد يسمعون الكلمة فتطير لها نفوسهم وربما بذل العربي حياته في سبيل كلمة يسمعون ولذلك كثرت عندهم ضروب المفاخرة والمباهلة في المواسم والاندية مما يرغب في الفضائل وبغني عن زجر الحكام .

وقال الاب لامنس اليسوعي في مجلة المشرق ج ١ السنة ٢٣ في مقال له عن (التأثير عند العرب وصفته الدينية) :

« لم يقم شعب من الشعوب بما قام به البدو في سبيل تعزيز صلات القرابة

الدموية. وليس هذا لاهتمامهم بما وراء الحياة او لان الموت شغلهم اسراره الغامضة فطمحوا الى معرفة الحياة الاخرى. انما كانوا يعتقدون ان في الدم المبدأ الحيوي او « النفس السائلة » كما قالوا (المسمودي: مروج الذهب ٣ : ٣٠٩) ولهذا فقد رأوا ان سفك الدم يتطلب الانتقام ضرورة . وانه اذا لم يأخذ ولي الثأر بثأره اي اذا لم ينتقم قريب القتل لقتله فان الدم المسفوح يقع لثمه على رأس الولي حتى آخر نقطة . وما زاد هذا الاعتقاد رسوخاً في أذهانهم فرفعهم فوق الانانية والفردية اللتين اتصفوا بهما هو تحققهم ان ظل الدم او عدم الانتقام يفكك او اصر الاسرة وهي آخر الحلقات الاجتماعية بل الحلقة الوحيدة المعروفة في تلك الحياة الفوضوية في بلاد العرب.

ومن ثم فان مصرع النسيب والجار يزيل حالاً ما يكون من الاختلافات بين أفراد الاسرة او القبيلة فيعيد الاتفاق الظرفي ويوحد النزعات في سبيل طلب الثأر بل ان هذا الواجب طلب الثأر يفعل الاقاصيل العجيبة في تلك الطبيعة البدوية الجائحة الى التواكل والكسل انه يحول الفتيان الضعاف بل الجبناء الى رجال اشداء لا يتراجعون امام عقبة ... ولا يخرج النساء عن هذا المظهر الذي يكاد يكون قاعدة عامة . فان أمهات القتلى واخواتهم يعادلن الرجل ... حماسةً واندفاعاً في اظهار تلك العاطفة الانتقامية باشعارهن وأنشيدهن المبهوسة حتى يثرن ما كمن في صدور الرجال ويدفعهم الى الاسراع في طلب الثأر وهو الفرض الديني كما سنرى . أو لم يجعل هذا الفرض من امريء القيس ، ذلك الشاعر العابت ، معاقرة الحجرة ورفيق الملاهي ، بعلاً نائماً لا يرتوي ظمأه من الدماء ولا يهدأ اضطرابه إلا اذا أخذ بثأر أبيه .

ولا يخالف القارىء ان الدافع الى طلب الثأر فطرة ديموية في البدوي او غريزة انتقامية هائجة . لا انما هو عاطفة بر بالاهل تهيب به الى ارواء « صدى » القتل بدم القتلى حتى وان كان ذلك القتل قد نبذ ولي ثأره في حياته ، فطرده من

أسرته كما فعل حجر الكندي بابنه امري القيس ، فلم يمنع هذا ابنه ان يطالب بدمه
 قاتلاً «ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً» . هو دين الاسرة يفهمه البدوي كل الفهم
 ولا يناقش فروضه بل يخضع لها كل الخضوع . بيد انه لا يغفل عما تجرّه عليه هذه
 الفروض من اقتحام عقبات وتعرض للموت... فيقول : لا سلطان ولا سلطان
 أقول لنفس لا يجاد مثلها ، اقلي العتاب ، اني غير مدبر
 ... ولقد أدى الامر بالبدوي في هذا النزاع بين واجب الثأر ونفور النفس
 « من القيام به الى اختراع قيود مختلفة دخلت في «طقسيات» الثأر الغاية منها مساعدة
 البدوي في تذكيره الدائم بواجبه وتقوية ارادته ودفعه الى قتل القاتل ، من ذلك انه
 عمد الى نفسه المفطورة على الحرية بل على الفوضى فقيدها بسلسلة من التقييدات
 والتضييقات تضير انايته وشهو انيته معاً . بل تذهب الى ابعد من ذلك اذ تبدو لديه
 وعليها مسحة دينية من « الاحرام » ... فكان بأن يمتنع ولي الثأر عن الكحل
 والدهن والطيب واللحم والخمر وألفة النساء والاجتماع الى افراد أسرته ... إلا ان
 العادة خففت شيئاً فشيئاً من هذه التحريمات فرفعت منها حجر النساء والاسرة...
 ومن اوضح الحوادث دلالة على شريعة الاحرام هذه ما ذكره صاحب الاغانى عن
 ربحانة بنت معدي كرب من أنها قالت لدريد بن الصمة بعد حول من مقتل اخيه
 « يا بني ، ان كنت عجزت عن طلب ثأر أخيك ، فاستمن بخالك وعشيرته من
 زبيد » . فأنف من ذلك وحلف لا يكحل ولا يدهن ولا يمس طيباً ولا يأكل لحماً
 ولا يشرب خمرأ حتى يارك ثأره . فعزاه هذه الغزاة وجاءها بدوؤاب ابن اسماء فقتله
 بفنائها . وقل : هل بلغت ما في نفسك ؟ قالت نعم متعت بك » (الاعاني ٩ : ٧)
 ... واذا قام الولي بذرداي ادا وفي عهده وأخذ بثأره فانه يعود الى الحياة العادية
 فخوراً بعمله محلاً لنفسه كل ما كان قد حرّمه فيقول كما قال الشلم بن عمرو
 الكندي مشبهاً واجب الثأر بالهم الثقيل كالجبل :

اني ابي الله ان اموت وفي صدري م كأنه جبل

يمنع مني طعم الشراب وان كان رحيقاً مزاجه عسل
حتى نفقت الوتر العظيم ودا نيت بيوتاً وبينها خلل

... البدوي ليس شرساً من فطرته ولا ميالاً الى سفك الدماء على رغم ما ينسب
اليه الحصريون من اعمال القسوة والهمجية . ولد البدوي في بيئة قاسية محرومة
فنشأ فردياً انانياً لا يتكل الا على نفسه فكان انه قدر كافضل ما يكون قيمة الحياة
البشرية ونفر على توتر اعصابه وسرعة تأثره من التسرع في اهراق الدم . هو
يكره القتل ولا يلجأ اليه الا في ماندر وفي حالة الدفاع عن النفس وحدها . وما
كان (الثأر) الا من هذه الحالات نصبغه العادة بالصبغة الدينية فترفع به الى مرتبة
المؤسسات والعقائد . وليس نفوره من اهراق الدم نتيجة التأثم والندم او اثوبة
لا ، فان البدوي اذا مادفع الى قتل مثيله لا يشعر بانه ارتكب عملاً شائئاً من تلك
الاعمال التي يسميها « الفواحش » او « الخزيات » ... والجميع يرون في القاتل
لامذنباً بل شقيماً مسكيناً — (حامل دم) — تهور في اندفاعه ولم يتمالك أعصابه
او خائته الاحوال فدفع الى القتل . فيجتهدون كل على قدر استطاعته في تخليص
ذاك المسكين من مأزقه وفي معاوته على تأليف الدية — اذا مديده مستعظيأجمعها —
وهم معتقدون ان كلامهم قد يصيبه يوماً ما أصاب هذا المسكين فيصبح بحاجة
الى معاونة افراد القبيلة وحلفائها في جمع نياق الدية .

... هذا النفور من اهراق الدم ينتج عند العرب من شريعة الثأر تلك الشريعة
القاسية التي افهمت البدوي ان كل قاتل يقتل . فحمر بغير زنه وعقله بمنفعتهم
الجملة وفهم انه لولاها لكانت معيشتهم عرضة للاخطار الدائمة في ذلك الفقر ، بل
لكانت حياته مستحيلة . وهو ما أقره القرآن بقوله: «واكم في القصاص حياة» (١)

(١) الاستدلال بهذه الآية في موضوع اخذ الثأر فيه نظر . فالقرآن لم يطالب
القصاص من الافراد على الافراد ، بل طلبه من أرباب الحكم والسלטان على ان
يقاصصوا بعد بحث وتروي . المؤلف

في القصاص حياة وفي الثأر حقن للدماء ولا سيما إبان الغزوات المستديمة في الجزيرة . ولا يخفي ما يحققها من مخاطر ومهلك يزيد هو لها ان هذه الغزوات أصبحت على قدر عهدا من العادات المألوفة في كسب المعاش عند العرب . على ان حياة البدوي تضمنها شريعة الثأر حتى في تلك الغزوات . والعرب اذا تكلموا عنها قلما يذكرون القتل . انما يلجأون اليها طريقة للكسب ويتخذونها وسيلة لئلا يسر مخطرة دون شك . ولكن قلما يصل خطرهما الى الموت . وهذا حاتم الطائي اذا ما وجد نفسه عاجزاً عن إداء حقوق ضيقه صرفهم معتذراً طالباً منهم ان يعودوا اليه « بعد الغارة » .

« وليتبه الدارس اذا ما فكر بالثأر الى ما يبذله المتعاركون من جهود في اجتناب الضربات القاتلة . ثم لا يقصدون في غاراتهم الا اموال المغار عليهم . اما حياتهم فليس من يرغب في الاعتداء عليها . ولا يذني المهاجمين ولا المدافعين ان يصلوا الى اهراق الدم . هو عراقك على المراثي يقومون به بغاية ما يمكنهم من رباطة الجأش . ولنا من الامثلة العديدة ما يؤيد هذا القول . فان حوادث الجرح والقتل قليلة جداً في الغزوات حتى في ايامنا هذه ، بعد ان أخذ البدو يستعملون البنادق الحديثة . فهناك كثير من دخان البارود ودوي الرصاص وقليل من الجرحي والقتلى . اما اذا ادتهم الحوادث الى سفك الدم فيكون الحظ قد خانهم ففقدوا السكينة اللازمة في هذه المعارك واندفعوا باندفاع اعصابهم الثائرة فسوا صفاتهم الاسمية وتحولوا الى مقاتلين . على ان العادة الجارية حينئذ تفرس على الضارب الا يجهز على الجريح والا يساب القتيل !

وعاطفة الثأر تسيطر وحدها على « ولي الثأر » او « الموتور » وهو صاحب الحق الشرعي بالاقتصاص من القاتل . وتكون الغاية المثلث ان يتمكن الولي من القيام بواجبه بسرعة . على ان هذه السرعة وهمية . فقد يمر على الموتور الاشهر بل السنون قبل ان يدرك ثأره ... وهو يقبل هذا الواجب كاتقل الواجبات الدينية . لانه حمل باهظ يحول بين الموتور وملذات الحياة العادية ... فيتحول ذلك الاناني الفردي

الى كائن اجتماعي يدفع على الرغم منه الى التضحية بشهوته وبراحته في سبيل الاسرة والجماعة... ولهذا نراه يشجع نفسه ويحميها بكل ما لديه من وسائل شعورية فيقول لها تارة قول عمرو بن الاطنابة :

واقدامي على المكروه نفسي ، وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي او تستريحي !

... تصبح كل الوسائط التي يقوم بها البدوي في سبيل غايته صالحة لا اثم فيها ولا حرج مما كانت ومهما اشتملت عليه من خدر واحتيال ... يجوز الولي بكل طائفة في احياء العرب مقتشاً عن ضحيته حتى اذا ظفر بواتره انقض عليه على حين غفلة فقتله وان نائماً خلافاً لما كان قد تقرر في عاداتهم من التأمم من قتل النائم وان عدو ... بيد ان ولي الثأر قد يتردد في تنفيذ قصده اذا خاف ان يخالف مبدأ دينياً آخر ، كأن يخشى اذا ما قام بثأره ان يخفر ذمة الجار او ينتهك حرمة المعبد او الاشهر الحرم او حرمة قبر مكرم جعل ملجأ وملاذاً .

... هذا ولا يمكن ان يموت الثأر بمرور الزمن . فان هذه القاعدة الشرعية لا يعرفها البدو . انما يعرفون ويرددون :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات الصدور كماها
وتظل حقوق الثأر دائمة يورثها الآباء لابنين ولم يلبث هذا الفخر بادراك الثأر ان حور شيئاً فشيئاً نظر العرب الى الذية فاصبحوا يعتبرونها حاطة بمن يقبأها ولا يرضون الا الدم بالدم ... الخ .

هذا ما كان عليه عرب الجاهلية أو بدوها ، اما في العصور الاسلامية المتوسطة والاخيرة فقد اختلف الباحثون والمتكلمون عنهم وتضاربت أقوالهم في وصف احوالهم الاجتماعية واخلاقهم ومزايهم فكل منهم وصفها بالعين التي نظر اليهم بها . فمن عين سخط ومن عين رضا ومن قادح ومن مادح ومن معتدل . ولكل وصف

قيمته وصحته وبراهينه . وسندرج هنا أقوال كل منهم ليختار القارئ لنفسه خلاصةً عنها .

من جملة من تكلم عن البدو ووصف أحوالهم ومزاياهم في العصور المتوسطة المؤرخ الفيلسوف الشهير ابن خلدون المغربي المتوفي في سنة ٨٠٧ هـ . إلا أن كلامه وإن كان عن العرب عامة ، لكنه قد قصد البدو والعريقين في جلقة البداوة فيما يظهر من وصفه ومن نظره اليهم بعين السخط . لأن كلامه لا يشمل حضر العرب ولا كرام بدوهم ، فهؤلاء ليسوا في الدرك الذي رماهم فيه وحكم عليهم . وهو قد خاطب بين العرب والاعراب وأصدر احكاماً عامة قاسية ولم يميز فيها بين عرب العصور المختلفة والطبقات المتباينة ، خاصة وهو القائل بأن العربي كغيره من الناس يتغير بتغير الزمان والمكان .

في مواضع عدة من تاريخ ابن خلدون أقوال مثورة تنطبق على البدو الاقحاح خلاصتها فيما يلي بالفاظه :

« انهم بطبيعة التوحش الذي هم فيه اهل اقبال وعبث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون الى منتجعهم بالفقر . والقبائل الممتعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عبثهم وفسادهم . وأما البسائط — متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة — فهي نهب لهم ، يرددون عليها الغارة والنهب الى ان يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الايدي وانحراف السياسة الى ان ينقرض عمرانهم . وهم اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب لانهم امة وحشية ، فينقلون الحجر من المباني ويخربونها لينصبوه اثا في اللقدر ، ويخربون السقف ليعمروا به خيامهم ، ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم ، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون اليه ، وليست لهم عناية بالاحكام وجزر الناس عن المفاسد انما هم بما يأخذونه من أموال الناس نهياً أو مغرمات ، فاذا وصلوا الى ذلك اعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم ، وهم متنافسون في الرئاسة وقل

ان يسلم واحد منهم الامر لغيره ولو كان اياه او أخاه او كبير عشيرته الا في الاقل
فيتعدد الحكم منهم والامراء ، وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام ،
يفسد العمران وينتقص ، وانظر الى ماملكوه من الاوطان من لدن الخليفة كيف
تقوض عمرانه وافقر ساكنه . فاليمين - قرارهم - خراب الا قليلاً من الامصار ،
وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع ، والشام لهذا
العهد كذلك .

... وهم أصعب الامم انقياداً بعضهم لبعض للغلبة والافقة وبعد الهمة والمنافسة
في الرياسة فقلما تجتمع اهوائهم ، من أجل ذلك لا يحصل لهم الملك الا بصيغة
دينية من نبوة او ولاية او أثر عظيم من الدين على الجملة .

والمباني التي يختطونها يسرع اليها الخراب ، لقلة مراعاتهم لحسن الاختيار في
اختطاط المدن ، في المسكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي ، فانه
بالتفاوت في هذا تتفاوت جودة المصير وردائه ، والعرب بمعزل عن هذا ، وانما
يراعون مراعي ابلهم خاصة ، لا يبالون بالسوء طاب او خث ، ولا قل او كثر ،
ولا يسألون عن زكاه المزارع والمنابت والاهوية . وانظر لما اختطوا الكوفة
والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها الا مراعي ابلهم وما يقرب من
الفقر ومسالك الطعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ، ولم تكن
لهم مادة تمد عمرانهم من بعدهم ، وكانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن في
وسط الامم فيعمرها الناس ، فلاول وهلة - من انحلال امرهم وذهاب عصبيتهم التي
كانت سياجاً لها - اتى عليها الخراب والانحلال .

... وهم ابعد الناس عن الصنائع ، لانهم اعرق في البدو وابتعد عن العمران
الحضري وما يدعوا اليه من الصنائع وغيرها . وهم ابعد الناس عن العلوم
لان العلوم ذات ملكات ، محتاجة الى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع .

... وهم مع ذلك اسرع الناس قبولاً للحق والهدى ، لسلامة طباعهم من عوج

الملكات وبراءتها من ذميم الاخلاق ، الا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة ،
المتبني لقبول الخير .

× وهم أقرب الى الشجاعة ، لأنهم قائمون بالمدافة عن انفسهم ، لا يكتلونها الى
سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم . فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب
في الطرق ، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية ، ونجد المتوحشين من العرب
اهل البدو اشد بأساً ممن تأخذ الاحكام . اهـ

ووصف الطيب المشهور كلوت بك حياة البدو على عهد محمد علي وسر تعلقهم
بالبدو قال (١) :

ومن أخص صفات البدوي ولعه بالحرية والاستقلال يفاخر باصله على الدوام
ويعالي الشعوب الاخرى بصراحة نسبة العربي الذي لم يعرف فيه الشوب ولم يرأ
قط لمذلة . يقنع البدوي بالقليل من ابن النياق ، ولا يأكل اللحم الا في الاعياد
الكبيرة وغالباً ما يقع النظر على نسائهم وهن مشغلات على متون الهجن يدرن
الرحى لطحن الحبوب واتخاذ الخبز من دقيقها عجنأ ثم انضاجاً على الواح من
حديد يوقدن النار تحتها كلما خطت القبيلة رحالها في مكان .

× تصون معيشة الصحراء اخلاقهم من الدنس ، والبدوي بطبعه يتقت الزنا ،
والفتاة عندهم يستحيل على رب الحيلة إغواؤها ، واحترام الرابطة الزوجية
والاحتفاظ بالشرف والكرامة من غرائزهم وسجاياهم المخالطة لدمائهم والذين
يجرؤن على انتهاك الحرمات ويخالفون ما ألفته القبيلة من العفة والطهر يعرضون
حياتهم لخطر الموت ، وللمرأة عندهم من الحرية مثل مالا رجل ، ولها من هذه
التقاليد الحارس الطبيعي الامين .

فاذا انزلت قبيلة بمكان انتظمت الخيام على خط مستقيم واحد وعادة تكون هذه

(١) من كتاب «لمحة عامة الى مصر - لكوت بك المتوفى سنة ١٢٨٥» تعريب
١٨٦٨
الاستاذ محمد مسعود ، طبع مصر

الخيام من الور الاسود والاسمر عدا خيمة الشيخ فتمتاز بالوبر الابيض (١) ولكل قبيلة راية ترفع امام خيمة شيخها . وفي هذه الخيمة يكرم مثنوى الغرباء وتطرح الآراء وتدور رحي المناقشات في شؤون القبيلة لتقرير ما يثق مع مصلحتها . ولكل قبيلة نصيب من الصحراء وحدود تنتهي اليها مراعيها الخصبه وخفارتها . وكثيراً ما تمتد ي القبيلة على مراعي جارتها او خفارتها فتقع الحروب بعد الانذار دائماً . وهنا تظهر الشجاعة والاقدام على اساليب العصور الاولى ، والمرأة البدوية تشترك في الحرب وتستنهض البنات هم خطبائهن ويعندهم قرب الزواج مكافأة على انتصارهم المأمول وتحرض اجمل بنات القبيلة الشبان المحاربين واعدة ايام جميعاً بان تهب نفسها لمن يحرز منهم في القتال أو في قسط من المجد والفخار .

... يجهل العرب الاستعباد السياسي جهلاً تاماً ، خصوصاً اذا كانت بلادهم بعيدة عن المراكز الحكومية . اما نير الاستعباد الديني فكلأول تقريباً . اذ العرب اسلامهم على فطرته الاولى بعيد عن التعاليم الدقيقة ومذاهب أهل الكلام فهم يتخلصون من قواعد الدين بالسفسطة ، يقولون مثلاً : اذا لم تؤد فريضة الصلاة فلائ الماء ينقصنا للوضوء ! واذا لم تصدق فلائنا فقراء احق بالزكاة من غيرنا ! واذا لم نصم رمضان فلائنا نصوم طول العام من الجوع ! واذا لم نحج بيت الله الحرام فلائ بيت الله الحرام حيث يصلي الانسان .

وليس في اذهان العرب شيء من العلوم ، لان السواد الاعظم منهم اميون لا يقرأون حرفاً ولا يكتبون . لكن مواهبهم العقلية بالغة اقصى مبلغ من الاتساع وكذلك مواهبهم الجسمية التي يقوينها نسيم الصحراء النقي من الشوائب ، وعلى هؤلاء العربان يعتمد السياح والمسافرون في اختراق الصحراء وهم خبراؤها منذ اقدم

(١) كذا ، وربما كان ذلك لدى اعراب مصر ، اما في بية الاقطار العربية فخيمة الشيخ كغيرها تكون من الشعر الاسود ، ولا تمتاز الا بكبرها ووفرة اعمدتها

المصور ، وبالنظر لحذقهم بالصيد ترى العربان انفع الناس في اصطياد حيوان الصحراء .

ولا ريب ان العرب كقطعة النقد ، اذا سرك منها منظر وجه ، ساءك منظر الوجه الآخر ، لان مكارم الاخلاق وحيد الشيم ليست تتوافر في القبائل جميعاً فهي لا تستطيع مقاومة ميلها النظري للثب والسلب . فكان اعتيادها قطع الطريق على السابلة واعتقادها ان الحكومة لن تنزل بها العقاب على سوء فعلها من بوائت خوف المسافرين على حياتهم ومتاعهم .

« وأهل البادية يرون انفسهم في حالة حرب لا يخذ ضرامها مع الحضر ، وهم يبيحون لانفسهم كل مايبيح العدو لنفسه من عدوه من ضروب التعدي والسلب والتهب . وكان هذا على الدوام شأنهم معهم ، اذ يرون ان ما يسابونهم اياه انما هو من الغنائم الشرعية والفيء التي لم يحرمها الله في كتابه .

وطالما ازعجوا جيش الحملة الفرنسية على مصر بما تراءى للجنرال بوناپارت ان يكمل لقتالهم وكبح جماحهم فرقة من المهجانة . كان كل هجين فيهما يحمل رجاين قال ذلك الرجل العظيم في مذكراته : « اذا كان موقع مصر الثريب وهو البلد الذي يستمد ثروته من فيضان النيل يقتضى حسن الادارة لتنظام شؤونه واستقامة احواله ، فان ضرورة كبح جماح ٢٠ — ٣٠ الفاً من اللصوص المتصحين بفسيح الصحراء حيث لاتنالهم يد العدل تدعو الى ان تكون تلك الادارة من مضاء العزقة ومثانة القوة بحيث توقع رهبتها في افئدة اولئك الاشرار فلا يمشون فساداً في تلك الاقطار » . وقد بر الافرنسيون بقول بوناپارته فما كادوا يحتلون مصر حتى كسروا شكيمة البدو وقبضوا على ناصيتهم فلم ينادوا في باطلهم .

... وكذا هذا حذوم محمد علي فالزمهم الوقوف عند حدم . وكانوا قد بلغوا في عهده من الجبروت والبأس حد النهاية ، حتى كانوا يفرضون الاتاوات على سكان مصر ، وكانوا يتهددون بالزحف على القاهرة نفسها ، وكان لا يجرؤ

واحد على زيارة الاهرام بغير رضام وامرهم ، وكانت القوائل التي تجتاز برزخ السويس تدفع لهم الفرض الباهظة من المال ، فسلك معهم مسلك المهادن اولاً وعقد معهم الاتفاقيات فهتكوا شعارها وخاسوا بيهودهم غير مباينين ولا هيايين فعول على قمعهم وتأديبهم ، وسير لقتالهم الفرسان والمشاة فأخذت عليهم الآفاق وسدت عليهم السبل حتى اضطرتهم الى التماس الصلح واستمناع الغزو فاشترط في عقد الصلح معهم ؛ ان يسكن كبار زعمائهم وشيوخهم مدينة القاهرة كرهائن ، وأجرى عليهم الارزاق والمرتبات لمعاشهم فهدأت حالهم .

ولما غامر محمد علي بحروبه في السودان وجزيرة العرب والشام عرض عليهم تشكيل فرق منهم واقترح ان يدفع لهم الاجور مقابل خدمتهم على شرط ان يأتي كل منهم بفرسه وبندقية . وقد افادت هذه الفرق المساعدة للجيش المصري من الوجهة العسكرية فكانت كفرق القوزاق غير المنظمين في جيوش الروسيا ، وكانت عليهم مهمة استطلاع العدو ومطاردته اثناء الهزيمة او معاكسته في اثناء انسحابه ، وهم من أصلح الناس لهذه المهمة . والعربان هم الذين اسروا رشيد باشا قائد الجيش العثماني في معركة قونية خلال الحملة الاولى على الشام (١)

ومما لا ريب فيه ان هذه حكمة تعذرت على علي بك الكبير (٢) الذي عقد

(١) هؤلاء هم اعراب الهنادي الذين قدموا مع ابراهيم باشا بن محمد علي باشا وقد ابلوا وقتئذ بلاءً حسناً في الحروب التي خاض غمارها في فتح الشام والناضول (١٢٤٨ — ١٢٥٦) كما وصف الطيب كلوت بك . وقد ظل بعضهم في بلاد الشام الشمالية واستقر . ومن أعقابهم الآن جمع غير يسير في محافظة حلب في أقضية منبج والباب وناحية صرين من قضاء جرابلس (انظر ابحاث عشائر هذه الاقضية) (٢) علي بك الكبير من عظماء المماليك الذين حكموا مصر في أواخر العهد العثماني . اشتهر بشجاعته ودرايته ؛ واعانته ظروف تلك الحقبة فاستولى على ادارة القطر المصري في حدود سنة ١١٨٠ وامتدت مطامعه الى جزيرة العرب والقطر الشامي ففتحهما ، وظل في الحكم سبع سنوات الى ان قتله مماليكه .

النية على ابادة العربان جميعاً للتخلص من شرهم ، ونكل ببعض القبائل وقضى عليها واضطراً أكثرها الى الفرار الى الصحراء هرباً من المجزرة . فقد كان علي بك غير مصيب لما هو ثابت من فائدة وجودهم وعلى الاخص في زمته . لان الجمل سفينة الصحراء والعرب هم ربانو هذه السفن وقادتها في هذا الاوقيانوس الارضي الذي لاأفق له . والعربان وحدهم هم الذين يسهل عليهم دون غيرهم اجتياز القلوات الرملية المترامية الاطراف الى اقصى مدى والخالية من السكان والكائنات الحية . والعربان هم الذين يقدرون دون غيرهم ان يوثقوا عرى المواصلات السريعة بين البلاد على حفافها . فالاحتفاظ بهم يتم الاستفادة والمزايا المتوفرة فيهم والتي لايجاريهم فيها بحار . (١) اهـ

ومن الباحثين المعاصرين لنا الذين وصفوا أحوال البدو واخلاقهم ومزايهم في عهدنا الاستاذ عباس الغزاوي العراقي في كتابه المستطاب « عشائر العراق » وهو قد نظر اليهم بعين الرضا فقال :

✕ ضيق الميشة وضنك الرزق وقلة الموارد قد تجعل المرء في لبس من تصديق ان البدوي لا يكذب وانه صريح القول ، ينفذ ما عزم على فعله وما قطع في أمره ... وهو في هذه الحالة لا يشهد كذباً ولا يحابي .. وفيه من الشم والابا والعفة بمعناها الصحيح واكرام الضيف وحمي الجار والتزيل مالا يوصف . شاهدنا وقائع اعترف فيها البدوي انه قتل او انه انكر القتل فلم يحلف ولم يخن امانة ووفى بعهده

(١) هذا الكلام كان صحيحاً ونافعاً قبل اختراع السيارات واستعمالها . اما وقد عمت السيارات وصارت تجوب الصحارى والبراري في طولها والعرض لم يعد للعربان نفع زائد في ما ذكره كلوت بك . على انهم وان فقد نفعتهم هذا اوقل هم منتجوسون الحواضر ولحومها واصوافها ومربو الخيل والغنم والابل وبعضهم مربو البغال والحميز والبقر اللازمة لل عمران ، وهم راجدو الزروع ، واذا استقروا وهدأوا منهم اليد العاملة للحرث والزرع وبهم يتلاء فراغ الضياع والقرى ..

وهكذا ... وكما أخذتنا الحيرة في وقت لا نراه يقدم على الكذب وهو في أشد المواطن
خطراً وأعظمها حراجاً . نرى أوصافاً كثيرة عند البدو ولا نجد لها عند غالب أحوالهم
من الحضرة ، فكأن البدوة ملازمة للصدق والانفة من الخديعة والكذب وكأن
الحضرة غير منفكين من الأوصاف الرديئة إلا من عصم الله تعالى . ذلك مادعا إن يأمن
الحضري معاملته مع البدو ، وإن يتخوف من أهل المدن وحياهم والطرق التي
يتخذونها لسلب ما عنده فهو في حذر وخوف حتى إذا اشترى بضاعة يشترط أن تكون
(سالمة مسلمة للمناخ) ، وهكذا ... ونحشى في هذه الحالة أن تتطرق إليهم بعض
صفات أهل المدن الرديئة وتنقل عدواها ، وإن القائمين بأمر إصلاح المجتمع يحتم
عليهم الواجب أن يلاحظوا هذه المهمة وإن يتذرعوا بوسائل مانعة من التسرب
إلى هؤلاء وإن يسيروا بهم إلى التربية الحققة ...

نعم ، قد تكون في البدوي بعض الصفات التي اكتسبها من حاجته ومحيطه
وهي أئمن يذمها أو يلومها من أجلها أمثال الغزو ولكن بالنظر إلى منع حوادث الغزو والاتفاق
والثكاف بين الدول المجاورة على منعه تغيرت هذه الحالة وماتت من نفسها وصار يشربان ماله
ما اقتناه من طريق مشروع .. وستقوى هذه الخصوصية ويتعود مغزاها ومهما كان
الأمر فالبدوي يغزو وينهب ويقتل ولكنه لا يكذب ولا يخدع ولا يخون الأمانة
ولا يقبل بذل ، يعيش بعز ولا يرضى أن يهان ، حر الضمير ، صريح القول وعفيف
الذيل في غالب أحواله . وهو أيضاً كريم بطبيعته شريف في نفسه أئبى لا يتردد
عن معونة ولا يحجم عن مساعدة ... والقلم ليعجز أن يجري في بيان كل خصاله
الحميدة المقبولة .. والمرء ينجذب بل يكون مغرماً بأوصافه هذه وأتمنى أن تكون
هذه بصورة عامة عندنا ، وإن نمضي على كثير منها . سجايا قروية ، عالية لا تفرق
بوجه عن أوصاف العرب القدماء ولا تقل عنها ويعوزها ما عوز تلك من إصلاح
حقيقي وتهذيب اجتماعي لا يشبه ما نحن عليه اليوم ... وهم كانوا أنفسهم :

حناً حراً صافياً في الذهب وانظف من الخام الحديد

ولا يزيدان زيف هذا الذهب او تنال ذاك الخام نكتة تكدر لونه او تؤدي بصفاته وجميل رونقه .. فاذا كان :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
فالاخلاق فاضلة وعزيزة لم تدخلها التطرية ، حسنها طبعي وسالم من العذاريب
الكثيرة كما يصطالحون عليها. اه .

وقال الاب انستاس الكرمل في كتابه (خلاصة تاريخ العراق) وقد اتخذ نحو
البدو عيناً متوسطة معتدلة : اخلاقهم غريبة كل الغرابة ، اذ تجتمع فيها المحاسن
والمساوي معاً او المناقب والمعايب معاً ، وهذا ينشأ من انفرادهم في البراري
وضرورات الازمان ومخاطر الحياة في البوادي التي احتلوها مما يجعل دمهم فواراً
ومزاجهم متقلباً بتقلب اهوية القلوات وتخيلهم ميالاً الى كل قوة طارئة ميل
الكلاء الذي يأنس اليه ويعيش في وسطه ويأخذ عنه تموجه عند ادنى حركة
في النسيم . فمن فضائل البدوي ومحامده انه في غاية الصبر حتى لا يكاد يجاريه
فيه احد فهو يحتمل الحر والقر والجوع والعطش والتعب والراحة والشغل والبطالة
وكثرة الشيء وقلته بنفس واحدة بدون تهرم أو تضجر . ومع هذا الصبر العجيب
قد يشور فيه الغضب العظيم ويطلب الثأر الشديد اذا اهانته احد او احتقره او شتمه .
— البدوي طماع وسلاب ، فاذا رأى عندك شيئاً لماعاً أو رزقاً او حسن اللون مال اليه
وأراد أخذه منك ، لكن عند اكرام الضيف ينسى كل شيء ويجود لك بما لديه .
البدوي شديد الوطأة إذا أراد سلبك ونهبك . ولكنه لا يقتلك واذا احتميت به
او نزلت خيمته أعزك وأبدي لك من الظرف وحن المعاملة مالا تجد مثيلاً له
في اوغل الناس في المدينة . — البدوي ينظر إلى الساب والنهب والغزو بغير العين
التي تنظر بها اليها ، والذي يحيزله ذلك فقر الارض التي وجد فيها فهو ينظر إلى
عابر السبيل بمنزلة رزق ساقه الله اليه ، إذ ان هذا العابر لابد أن يصل محلاً فيجد
فيه ما يستغني عما خسره في رحلته ، ولذلك يحيز لنفسه ان يسلبه ولكن لا يتعرض

لحياته البتة . وهو لا يميز بين الحرب والخدعة فما يأخذه بقوة السلاح في الشبكة التي نصبها للمسافر أو في عشوره عليه هو بمنزلة كسب أو ربح وعندد لا فرق بين سلب ابن السبيل وبين فتح مدينة أو بلاد معادية هجم عليها وأخذها . . والذي يميز البدوي كل التمييز ويفرقه عن سائر الخلق حبه للحرية والاستقلال ؛ فقد بلغت به هذه الشاعرة مبلغاً لا يمكن للحضري أن يتصورها فهو يفضلها على كل موجود على الأرض مهما كان ، عزيزاً أو ثميناً . ومن يحاول أن يقيد البدوي بقيد من القيود كمن يحاول تقيد السمونة في قفص فإنها لاتزال تضرب جدران القفص برأسها حتى تموت مفضلة الموت على الحياة ، ولذا ترى البدوي يحتقر أبناء المدن إذ البقاء فيها هو القضاء على حريته ، تلك الحرية التي احتفظ بها منذ خلق الخلائق إلى يومنا هذا . إذ أهل البادية وحدهم بقيوا محافظين على معيشتهم بينما ترى سائر الاجيال خضعت للقيود والحصر والضيق . . البدوي سريع الخاطر متوقد الذهن ولو لم يدرس العلوم والفنون ؛ فإن ذكائه فطري وسابقته سلبية من معائب التمدن و ليس من بدوي إلا وتراه شاعراً يعف لك الامور على حقائقها ودقائقها ، إلا وتراه بليغاً إذ لا يكلمك إلا ويقتنعك بسحر كلامه ، إلا وتراه خطيباً لما يرد لك من المبادئ الصادقة المغزى والمعنى والمبنى بصوت تسكرك نغمته ونبرته . البدوي يصدق كل ما تقول له من الخرافات والاقاويل الصبائية لسلامة نيته . . البدوي يجيش نفسه لادنى وصف او اغراء لكون خياله يضارع هواء باديته الذي يتقلب بين بردودف وحر وومد في النهار الواحد . البدوي يحب الاحاديث الخيالية والاقاصيص الملققة أو الشبيهة بالملفقه مما يكثر فيها الاوهام والمخالات . . البدوي قابل لكل شيء عظيم إذا ما عرف العاقل ان يسوسه أو أقمعه بفكر ظهر له فيه منفعته . . البدوي يتلون بلون الحرباء ويتقلب تقلب الطفل ، تقول له شيئاً فيصدقك ثم يأتيه آخر فيخرجه من فكره بالسرعة التي دخلها . البدوي لادليل له إلا سابقته الوقتية ويحكم على الامور بموجب ظواهرها

ولا يهجمه بواطنها، وهو ينخدع بالبورق وينقاد لما فيه حيلة وزخرفة - البدوي وحده لم تتغير صفاته وإن تغير الزمان . طالع ماجاء في الكتب المقدسة من وصف اخلاقه وقابلها بما هو عليه الآن لا تجد فرقاً ، والعادات والسنن التي يجري عليها اليوم هي نفس العادات والسنن التي جرى عليها أجداده في سابق الزمن وعلى طبق ما رآها مدونة في أسفار الاقدمين الذين جاؤوه أو طأثروه . ولهذا تجد كثيراً من الامور التي اعضل فيها على العلماء والمؤرخين ، زال عنها الالهام وانتهكت أستارها عندما وقفوا بأنفسهم على أهل البادية المعاصرين لنا - البدوي يحتقر الموت ولا يعمده شيئاً فهو شجاع مستبسل منذ صباه فالموت عنده شرب كأس لاغير ، ولهذا كثيراً ما يموت قتلاً وهو الموت المرغوب لكل واحد من الاعزة . وقد نعتوا الموت بنموت منها الموت الأسود ، وهو الموت خنقاً لان لون الخنوق يكون أزرق وهو عندهم اسود ، والموت الاحمر وهو الموت قتلاً لان دمه يسفك والموت الابيض وهو الموت فجأة لان كثيراً ما يبق لون المفاجأ بلونه الطبيعي ، وإذا مات البدوي حنن افقه يقولون عنه فطس أو هلك . - والبدوي الضعيف الذي "خو" ان أو غدار وهو كثيراً ما ينضم إلى القوي من الناس ويقتل ويتال من خفزه . فاننا نقرأ في التاريخ أن بطليموس السادس انتصر على صهره اسكندر بالاس فذهب هذا والتجأ إلى أهل البادية ظناً منه أنه يجد ملجأ فيهم منيعاً . إلا ان زبدئيل غدر بأداب الضيافة وضرب عنق زائرته تقريباً من بطليموس وديمتريوس ، ثم بعث برأسه إلى ملك مصر . وزى سايمان باشا وزير بغداد القتل احتس في طريقته بقبيلة الدفاعة فنزل عند شيخهم ، فلما درى صاحب البيت ان المحتمي به مهزوم غدر به وقتله . واقرب مثال شاهدناه هو ما رأينا في الحرب العامة الماضية فإن اعراب بادية العراق كانت تقتل دائماً فلول العسكر . فان كان المكسورون اتراكاً قتلوا الاتراك وحاموا الانكليز وإن كان المقبورون انكليزاً قتلوا الانكليز ودافعوا عن الاتراك . هذه كانت أعمالهم في مدة الحرب التي كانت تدور

في هذه الانحاء بين القومين المتقاتلين فتلك هي اخلاق البادية فهي حقيقة تجمع
اضداد وملتقى محاسن ومساوى على ما افتتحنا به كلامنا وهو من اغرب الامور
قلما يخطر على بال انسان . اهـ

وقال الاستاذ اديب وهبة من شرقي الاردن في كلمة له عن البدو مدرجة
في خطط الشام (ج ٦) وهو ممن نظروا اليهم بعين الرضا :

« ان سكنى البدوي في بيت الشعر في البوادي المحفوفة بالاخطار والمشاق
وبعد عن الحامية واتباده الاسوار قد ولد فيه عدة مزايا يمتاز بها على الحضري
منها الشجاعة والعصبية والكرم والوفاء والانفة والنجدة . فتوغل البدو في البادية
وتولعهم بالغزو والغارات قد جعلهم في قتال واستعداد دائم للقتال فاصبحت الشجاعة
فيهم طبيعية، وتعذر قيام الفرد مهما كان شجاعاً بمقابلة العدد العديدين العدو قد اضطرهم
للالتجأ الى العصبية ، وهي التضامن المطلق بين افراد القبيلة حتى تطلب العشيبة
باجمعها بحق افرادها ، وأقرب اسبابها لديهم الاخوة والابوة والعمومة . ومنه
تتألف الاسرة ، ومن الاسرة تتألف الفصيلة وتدرج بهذه الصورة الى القبيلة
والذي عليه عشائر شرقي الأردن انها تطلب وتطالب بحقوق افرادها الى الجسد
الخامس من حدود الطالب والمطلوب ، اي كل فرد يمتل مع ايها بالجسد الاول والثاني
او الثالث الى الخامس له الحق بطلب حق قريبه ، وعليه ان يخضع للحق المطلوب
منه . ولهم بذلك قوانين وقواعد موروثه . ثم ان ابتعاد البدو عن المدن وتفردهم
في الارض المقفرة بضطرهم الى اكرام الضيف والقاسد وحماية الضيف والملتجئ
حتى اذا وقع احد افراد قبيلتهم بمثل هذا الامر الذي يكثر حدوثه لديهم يتقاضى
ماأسلفه . وان مطاوي التاريخ العربي مستفيضة باقاصيص كرماء العرب وكرمهم
العجيب . والبدوي يعتقد انه لا ذكر له ولا أثر افضل من سمعة الكرم والجود،
وان هذه المزية لا تزال عند بدو شرقي الاردن على ما كانت عليه في زمن اجدادهم
الجاهليين فلا يحل ضيف بيت أحدهم غنياً كان او معدماً الا ويسرع لتهيئة كل

ما يرضيه ويسرده ، وان الكثيرين منهم يضطرون الى تحمل اعباء الدين الثقيلة لارضاء قاصدهم . واذا استأمنهم مستأمن على امانة فدوا لحفظها اموالهم وأولادهم وانفسهم وكذلك اذ التجأ اليهم خائف او استجار بهم مظلوم او نزل عايمهم مورتور مطرود اه وقال الاستاذ حافظ وهبة الوزير المفوض للمملكة السعودية بلندن في كتابه

(جزيرة العرب في القرن العشرين) : اما البدو فهم القبائل الرخل المتنقلون من جهة الى اخرى طلباً للرعى او الماء . والطبيعة هي التي تحير البدوي على المحافظة على هذه الحياة . وحياة البدوي حياة شاقة مضنية ، ولكنه وهو متمتع باكبر قسط من الحرية يفضلها على أي حياة مدنية اخرى . هذه الحياة الخشنة هي التي جعلت القبائل يتقاتلون في سبيل المرعى والماء ، وهي التي جعلت سوء الظن يغلب على طباعهم ، فالبدوي ينظر الى غيره نظرة العدو الذي يحاول أخذ ما بيده او حرمانه من المرعى ، ان البدوي في الصحراء لا يهتم الا بالمطر والمرعى فأزمته الحقيقية انحباس المطر وقلة المرعى ، ولا يبالي بما يصيب العالم في الخارج مادامت أرضه مخضرة وبعيده سميئاً وغنمه قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحماً . اما اذا ما انما السكان وضائق بهم الأرض او لم تجد أراضيهم بالمرعى ، فليس هناك سبيل الا الزحف والقتال او الهجرة ان كان هناك سبيل اليها . وكذلك القبيلة التي غلبت على امرها وحرمت من مراعيها وارضياتها ليس امامها سبيل آخر سوى الهجرة ، وهذا يفسر الهجرة من وقت الى آخر الى العراق والشام ومصر واستعمار الجزء الشمالي الغربي من أفريقيا ، وتدفق شمر الى ما بين النهرين و قبائل عنزة الى الحجاز ، فكما نتيجة تغاب غيرهم عايمهم من القبائل واضطارهم الى ترك اراضيهم التي لم يعد لهم سبيل في الاقامة بها لضيق وسائل الحياة .

... وقد جرى العرف ان القبائل تعتبر الارض التي اعتادت رعيها والمياه التي اعتادت ان تردها ملكاً لها لا تسمح لغيرها من القبائل الاخرى بالدنو منها الا باذنها ورضائها . وكثيراً ما تأنس احدى القبائل من نفسها القوة فتتهجم بلا سابق

انذار على قبيلة اخرى وتنزع منها مراعيها ومياها . ان قبائل العرب ليسوا كلهم سواء في الشر والتعدي على السابلة والقوافل . فبعضها قد اشتهر أمره بالكرم والساحة والترفع عن الدنيا كما اشتهر بعضها بالتعدي وسفك الدماء بلا سبب سوى الطمع فيما في ايدي الناس .

ومع ان الدين الاسلامي ابطال كثيراً من العصبية القديمة واحل محلها الاخوة في الدين (لا تجدقوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) فقد عادت العصبية بشرونها في بلاد العرب مرة اخرى ، والفضل الان في استتباب الامن والضرب على ايدي المفسدين يرجع الى جلالة الملك عبد العزيز وسهره واقامة احكام الشريعة وسرعة تنفيذها .

ليس للبدوي قيمة حرية تذكر ؛ ولذا كان اعتماد الامراء على الحضر ، فهم الذين يصمدون للقتال ويصبرون على بلائه وبلوائه . وكثيراً ما كان البدو شراً على الامير المصاحبين له . فان ذلك الامير اذا ما بدت منه الهزيمة كانوا هم البادئين بالنهب والسلب ويحتجون بانهم هم اولى من الاعداء المحاربين . ولقد جرى كثير مثل هذا في الحرب الانجليزية العراقية مما كان يندعش له الضباط الانكليز ، لانهم لم يعرفوا ان صديقاً ينهب صديقاً ، ولكن البادية لاتعرف شيئاً غير النهب والسلب وعندها الغنيمة مقدمة على كل شيء . والبدوي لا يرى حياة اسعد من حياة البادية ويرى الحاضرة حبساً لحريته وتنقله حيث يريد . كما ان أهل الحاضرة يرون البداوة شقاء لا يعادلها شقاء ، ويصفون البدو بانهم جفاة غلاظ القلوب .

والبدوي اذا لم يجد سلطنة تردعه او تضرب على يده يرى من حقه نهب الغادي والرائح ، فالحق عنده هو القوة يخضع لها ويخضع غيره بها . على ان هؤلاء قواعد للبادية معتبرة عندهم كقوانين يجب احترامها ، فالقوافل التي تمر بارض قبيلة

وليس معها من يحميها من أفراد هذه القبيلة معرضة للنهب ، ولذا فقد اعتادت القوافل قديماً ان يصحبها عدد غير قليل من القبائل التي ستمر بارضها ويسمون هذا (رقيقاً) .

والبدو يمتنق الحضري مهما اكرمه كما ان الحضري يمتنق البدوي ، فاذا وصف البدوي الحضري فانه في الغالب يقول : حضيري تصغيراً لشأنه . ومن عادة البدوي الاستفهام عن كل شيء وانتقاد ما يراه مخالفاً لذوقه او لعادته بكل صراحة ، فاذا مررت بالبدوي في الصحراء استوقفك وسألك من اين انت قادم ؟ وعمن وراءك من المشايخ والحكام ؟ وعن المياه التي مررت بها ؟ وعن اخبار الامطار والمراعي ؟ وعن أسعار الاغذية والقهوة وعمن في البلد من القبائل وعن العلاقات السياسية بين الحكام بعضهم وبعض .

وبعض البدو لا يخلف كاذباً مهما كانت النتيجة . لقد شاهدت كثيراً من القضايا في الاحساء وغيرها كان البدوي ينكر اذا وجد مجالاً للانكار ، ويفلت بمهارة من الاجابة عما يسأل ، ولكن اذا وجه اليه اليمين وكان لا مفر له اعترف بجرمه اذا كان مذنباً ولا يخلف بالله كاذباً وهذا امر يدعو الى الغرابة والاكبار ايضاً ، فانه يدل على شعور عميق بالخوف من الله ، وان هذا الشعور اذا احيط بالمعناية والرعاية فانه ربما يوجه الى الخير او على الاقل الى الاقلاع عن الشر ومع وجود الروح الارستقراطية التي تتجلي فقط في الزواج ورياسة القبيلة والحكم ، فانه لا يكاد يوجد فارق في طرق المعيشة الاخرى ، فالفرد وشيخ القبيلة والامير يأكلون جميعاً الرز والاحم والابن والتمر ، ويلبسون جميعاً الثوب والعباءة والعقال والقترة (الكوفية) ويتمتع افرادهم بحرية لا حد لها فالبدوي يقف امام الحاكم فيجادل في سبيل حقه ويستعمل كل الاساليب التي يراها موصلة الى ما يريد . . اهـ .

وقال الاستاذ الشاعر خير الدين الزركلي في كتابه (ما رأيت وما سمعت)

البداية في كل عصر وجيل. يتطور المجتمع وتقلب الدول وتكثر الاختراعات ويتقدم الانسان ، وهم اولئك الحفاة الرعاة الشعب الغبر ، تميزهم الحضارة غمزات فينقادون خطوات وتأبى عليهم طبائعهم الا ان يعودوا القهقري فاذا سجاياهم سجاياهم وأخلاقهم أخلاقهم كأنما جبلوا من طينة اسمها «سنة الله» لا تحويل لها ولا تبديل !
وهم على انفرادهم في خلالتهم وعاداتهم انفراداً اوشكوا ان يكونوا فيه امة وحدهم لها ما لها وعليها ما عليها . فقد يشار كهم في بعض مظاهرهم وتقاليدهم من كثير الصلة بهم او قريب العهد في مساكنهم ومعاشرتهم من ابناء الحواضر المحفوفة بسكان القفار ولا سيما قطان القرى في الحجاز اخص منهم قروي الطائف فان جلهم بداءة يسكنون الدور بدل الخيام ويأكلون من خير زروعهم لا من لبن زروعهم وفي هؤلاء من يغزو ويفزى كاصحاب المضارب لا فرق بين القريةين ، الا ان ساكن القرية احرص على الاشتغال بمحراث ارضه واستغلالها وساكن بيت الوبر اولع بالمغازي واحتياز الاسلاب بقوة الساعد .

ومن لطيف ما قاله هذا الاستاذ الشاعر في كتابه الثاني « عامان في عمان » المطبوع في مصر ١٣٤٣ (١٩٢٥) ... وجرى حديث في الصلت عن البداوة وطرائق النجاة من شر المعتدين منهم ، فكثير المتكلمون ، وكانوا جماعة ، فلخصت حديثهم الطريف بما يأتي : يمر السالك في البادية بالاعرابي ، فينظر الاعرابي اليه نظرة الطامع به الوازن نفسه ، هل يستطيع سلبه ام هناك ما يمنعه ، فان رجح له الاول اعترضه وإلا تأوه ولوى وجهه ، وفي نفسه ان غنيمة عرضت له وفاتت !.. ولا يخلو سالك البادية من أن يكون أحد ثلاثة : (١) أما عزيز الجانب (٢) او في قوته ضعف (٣) أو ضعيفاً بادىء الانحلال. فاذا كنت الاول فلك ان تجري في الارض مرحاً ، وعليك ان تسلم على من تلقاه في طريقك وإذا نزلت حياً من احياء العرب أو قرية من القرى فتصدر المجلس تأمر وتنهى واطلب ممن انت نازل عنده كل ما تحتاج اليه فان المضيف الذي يسمونه (معزب) يلبيك مسرعاً ويرى الشرف في خدمتك وان كنت الثاني فاتبع النصائح الاتية :

١. — لا تسلم على احد في طريقك ما لم يبدأك بالسلام فذلك ادعى للرهبة.
 ٢. — إهمز جوادك لتظهر عليه علائهم النشاط والقدرة على الكر والفر. فانهم ان استضعفوا دابتك طمعوا بك .
 ٣. — لا تكثر التلفت يميناً ويساراً وخلفاً ، فانهم يشعرون بانك خائف فيعتزونك .
 ٤. — كن جهوري الصوت اذا تكلمت مع أي كان.
 ٥. — لا تكن منفرداً.
 ٦. — إذا لقيت أناساً فتشاغل بالحديث مع رفيقك أو رفيقيك
 ٧. — إذا لاح لك عن بعد أناس فضع بندقيتك امامك كلمهم للشر.
 ٨. — إذا زلت حياً أو قرية فلاطف المضيف (المعزب) ولا تكثر من كلامك.
- وإن كنت الثالث فخير لك أن تسالم من ترى فتسلم على الذهاب والآيب وتكثر من النزول في خيام العرب لتكسب مودتهم وان إعتزك أحد بشر فلاطفه ولا تتعنت وأولى بك أن تلقى اليه بما يطلب فذلك أحفظ لحياتك ... (لمتهدى) .
- رأي الفرنسيين في البدو .— من هؤلاء المقدم مولر المعروف بين العشائر منذ ان كان في تدمر ودير الزور وغيرها قائداً على المهجاة . فقد نظر هذا الى البدو بعين السخط التي تبدي المساويءدون غيرها ، وذكر لهم في كتابه اوصافاً كثيرة نجريء بعضها يعرف بنو قومنا ماذا كان يقال عنهم أحياناً . فما ذكره هذا المقدم ان البدو اذا تكلموا كذبوا واذا تناقشوا واربوا واذا تقاضوا ماحكوا ، وعندهم الطمع والجشع وحب السلب والنهب وقسوة القلب وحرمان الرحمة وضعف الدين مع الولع بالخرافات . وهم بخلاء الا إذا وجدوا مأرباً في البذل وجنباء الا اذا وجدوا خصماً ضعيفاً . وهم ان اظهروا شجاعة واندفاعاً لاطمان والبراز فما هو في الغالب الا للبخثرة والمباهرة ، وان تراوا اشداء فذلك للزهو وكسب الشهرة لا للاخلاص والتضحية ، لان الاخلاص والتضحية وفكرة الواجب امور تكاد تكون مجهولة لديهم .

وقد أوّل المقدم مولر حسنات البدو حسب رأيه فما قاله : ان كان البدوي قنوعاً وجلوداً فلاّنه يعجز عن حمل مؤنته الى اماكن بعيدة ، وان كان راضياً بعيشه وزاهداً بدنيّاه فلاّنه لا يرغب شيئاً بجعله . وان كان بعض الاحيان كريماً مضيافاً فلاّنه ينتظر ان يقابل بالمثل من ضيفه او غير ضيفه او لان في ذلك الكرم غرور شخصي ، وان كان نهاباً سلاباً فلاّنه يعد ذلك اسرع واسطة لاغنى واسهلها ، وان كان ذا أنفة وخيلاء فلاّنه لم يدخل بعد تحت سلطة ونظام ، وان عطف على اولاده فعلى أمل ان يكونوا له أعواناً وحماة . لكن اولاد البدو لا يحملون عطفاً واحتراماً كافين نحو آبائهم ، ومقام النساء عند البدو يأتي بعد المال والحلال إلا ما ندر ، وللبنات قيمة أكثر مما لامهاتهن ، لانهن سيمرضن يوماً ما للبيع ، وهم يفرحون لموت المرأة لانه سيسبب تبديلاً جديداً في الحياة ، ويحزنون لموت البنت لان فيه خسراناً لمورد لا يعوض ... الى آخر ما هرفه وقذفه .

وقال كاتب فرنسي آخر اعدل حكماً والطف لهجة من المقدم مولر في رسالة (المشائر البدوية ونصف البدوية في بلاد الانتداب الفرنسي) ما خلاصته : وفي صدد نوع المعيشة التي يتقضيها البدوي تقول ان البدوي قنوع وذو صبر وجسد جديرين بالاعجاب . فغذاؤه القليل الذي لا يتغير جعله رجلاً عصبي المزاج نحيفاً وذا قوة عضلية قليلة في النسبة ، وهو يعيش من اول السنة الى آخرها بحليب نعاجه وعنزاته وبالحبّز والبرغل والتمر ولا يرى اللحم الا اذا زحف نحو مائدة الشيخ عند قدوم الضيفان . وموائد الشيوخ تتألف من المواد الآتية : يقدم الفطور في ساعات مختلفة جداً (بين الساعة ٨ — ١٢) وهو حفنة من التمر والحلّيز واللبن الرائب ، ويقدم العشا (بين الساعة ٦ — ٩) وهو صحن من الرز وخروف وحبز ولبن . وقائمة الطعام هذه تتوالى دونما أي تبديل على مدى السنة كلها .

ومن خصوص المزايا والاخلاق فالبدوي لا يخلو من نصيب من الذكاء الذي يستعمله غالباً في الخداع ، وهو لا بد له بادىء بدء اذا سأله شيئاً ان يكذب ويراوغ قبل ان يعلم القصد من الاسئلة الموجهة اليه . ثم هو قليل التعلق بالدين

يؤدي صلاته على هون وحينما يروق له ذلك ، لكنه ورع جداً في صوم رمضان . ثم هو قليل الفتك وغير سفاك للدم . وهو وإن كانت حرفته الاولى السلب والتهب إلا انه يجتنب القتل . وأساس مزايده «الطمع» فهو لا يعرف فيه هواة . وخلافاً لما يروي عنه كحقيقة ثابتة فالبدوي ذو معلومات وذو استقامة . أما كرمه ووفاءه فهما في ذروة الشهرة التي نالها . وقيمة البدوي العسكرية نسبية . فهو لا يرغب أن يحارب في خارج البادية التي لا يعرف سواها . وهو حتى في أرضه إذا بدأ بمشروع حربي - كالغزو مثلاً - ينبغي لنجاح ذلك المشروع أن يحصل على نتيجته بسرعة وفوراً . أما إذا شاهد أمامه دفاعاً قوياً ومقاومة مستمرة لا يلبث أن يترك المشروع ويهمله ولا يعود اليه بعد . والبدوي غير جدير بحرب المشاة ولا بالكمون وإلتخاذ الموضع مهما كان موضعه قوياً . ومن ثم كانت قيمة البدو العسكرية محدودة جداً لا ينفعون إلا في مطاردة عدو منهزم وملاحقته وإزعاجه كما كانوا يعملون في أواخر الحرب العامة الماضية وراء الجيش التركي الرابع « اهـ .

✕ أما الرئيس رينو والطبيب مارتينه صاحباً كتاب (البدو في مقاطعة دمشق) فقد كانا أكثر اعتدالاً وإنصافاً من المقدم مولر في بحثهم عن أطوار البدو وأخلاقهم وأجود وصفاً ورصفاً منه . فقد صوراً أدوار حياة البدوي من حين ولادته إلى طفوليته فصبوته فشيوخه فماته . وإلى القاريء تعريب ما قالاه :

الولادة (عند البدو) حادثة كثيرة الوقوع ، لأن البدوي كغيره من المسلمين يرى الزواج والاستيلاء واجباً . واليقيم يعد من بواغث المهانة والازدراء . وهذا هو السبب في أن البادية تحوى أماكن للزيارة تهرع اليها النساء اللواتي لم يلدن في تلك السنة فيتوسلن لربهن أن يحسن اليهن بولد . والحق أن هذه الحالة الروحية جديرة بالتقدير جداً ، لأنها تعوض وفيات الأطفال التي تقع لديهم بكثرة . ويكفي أن تمر بمقبرة بدوية حتى يثبت لك عظم الخسارة في الأطفال . وإذن تكون هذه الحالة الروحية قد كفلت بقاء العرق البدوي وأمنت مستقبله إلى حد ما .

وبينما وضع المرأة حملها عندنا (نحن الأوربيين) يعد عملاً مرضياً أو حادثاً مزعجاً يعد عند البدويات القريبات من الطبيعة حادثاً فيسيولوجياً وحركة عرضية بسيطة . فإذا كانت المرأة الماخض في الخيم يهرع بعض النساء المتقدمات في السن والقدر ويساعدنها . ولا تمضي ساعتان أو ثلاث على الوضع حتى تعود النساء إلى أعمالها المنزلية المعتادة . أما إذا أدركها المخاض في الطريق وهي راكبة ، وكان سبب أدراكه إهتزاز (الرحول) تنبئ المرأة بغيرها وتضع ولدها بنفسها وهي جالسة القرفصاء وتقطع سرتة وتربطها بيدها وتلف الوليد وتحمله على ظهرها وتستأنف سيرها كأن لم يحدث شيء . وإذا تعسرت عليها الولادة بحيث خرج رأس الوليد وحده تأخذ حبلاً وتربط أحد طرفيه برقبة وطرفه الثاني بأحد قدميها بعد أن تعاطي فخذها وتشد عليه شداً قوياً بحيث أنها حينئذ تمد فخذها المذكور قد يخرج رأس الوليد منفصلاً .

والعنايات الأولى بالوليد بسيطة . يغسل بدنه بالرمل وقد يدهن بالزيت . وهي طريقة حسنة لأن الرمل ذو قوة امتصاص كبيرة . ثم إن ذر الرمل على الأعضاء التناسلية للوليد يمنع العطن عن جلده ما زال في القمط . ثم يكحل وهذا الكحل (كبريتات الانتيمون) الذي يحيط بالاحداق يؤثر في جلد الوليد الأصفر الذهبي ويظهره بلون الليمون . ثم يلف بخرق بالية مشدودة بخيوط القنب ويضعون على رأسه طاقية صغيرة عليها تآم . ويضيف الأغنياء منهم إليها ريشة من ريش النعام .

ولا يشهد أحد هذه الولادة أو يسجلها . إذ ليس للبدو سجل احصاء للنفس ومن ثم يبق الولد جاهلاً الزمن الذي ولد فيه . وإذا حاول أحد الفضوليين أن يعرف عمر أحد الاولاد وجاء يسأل أباه وأراد هذا الأب أن يخفيه يجهد فكرته ويستخرج تاريخ الولادة تقريباً من عدد سني النجمة التي تبدي فيها منذ نشأة ابنه وتعطي لأسرة الى هذا الولد اسماً . واسم البدوي يتألف من اسم أولي مضاف إلى اسم الأب أو اسم الأسرة التي ينتمي إليها كنوري بن شعلان ، وإذا صادف مرور

ضيف جليل القدر بهم أثناء جبل الام يسمى الوليد باسم هذا الضيف (١). وأكثر أسماء البدو هي كما عندنا (الاوربيين) من أسماء الانبياء الواردة في دينهم كمحمد وأحمد وإبراهيم وعلي.

والبدو لا يحفلون إلا بولادة الصبي. أما البنت فليس لها محل من الذكر أو الاهتمام. وإذا سئل أب عن عدد أولاده لا يعد إلا الصبيان. وأطفال البدو يولدون ويتامسون حياة البداوة وهم محمولون إما على ظهور أمهاتهم، وإما في إحدى عيني الخرج الموضوع على ظهر حمار صغير. وهم يتعرعون رويداً رويداً لوحدهم مثل الجديان والحملان الراقدة في بيت الشعر وحول أولئك الاطفال، لا فرق بين هؤلاء وأولئك.

ودور الطفولة شاق جداً، فالطفل البدوي يتعرع في الغالب دون أن يرى أي أثر للمعطف والحنان. لأن له إخواناً وأخوات كثيرين، ودون أن يتمتع باللعب واللعب. لأنه ما أن يشتد جسمه ويرجى عمله حتى يوجه الى غاية نافعة مشمرة. ولا يرى مسرات الطفولة ويفرح بها إلا القليل من أبناء الشيوخ والكبراء فحسب. ولا شيء يستحق التنويه في دور صباه البدو إلا حادث الختان الذي يجري بين السنة الثالثة والخامسة. واليكم وصف حفلات الختان عند البدو:

قبل الحفلة بأيام عددها بعدد عمر الصبي تقام معالم الافراح في كل الخيم، فتمد الموائد وتذبح الذبائح ويبدأ الرقص والمهرج. والرقص يدار حول دمية يعملونها من وتد كبير ويلبسونها لباساً ضخماً ويركزونها في الارض، وتسمى هذه الدمية «الموسانا» وتأتي أجمل فتيات الخيم وأرشقهن قواماً ونحسراً رأسها وتسدل شعرها وتشرع بالرقص حول الموسانا. ورقصها هو المعروف في هذه البلاد، وهو عبارة عن حركات بدنية أحصاها هز الأوراك والأرداف. ويلتف الرجال والنساء حول الفتاة ويعملون كما تعمل، فيصير الرقص هكذا عمومياً تديره امرأتان تسمى كل منهما «اللافحة». وفي ختام الرقص يدعى الحاضرون الى الطعام، وهو مؤلف من

(١) حتى أنهم سموا بعض أولادهم لورنس وطوماس وأمثال ذلك.

البرغل أو الرز واللاحم . ولا بد أن يعمل في إعداد هذا الطعام كل النساء اللواتي
لهن أولاد عمرهم ٣-٥ سنوات .

ويجري الختان في اليوم المعين وقت الظهر، يقوم به رجل أخصائي لقاء مجيدي أو
جزء وبرجل أو عدة جزات من صوف الغنم . ويسبق هذه العملية الهامة وليمة
أكبر من سابقتها وأكثر دسماً ، لأنهم يذبجون لها عدة خرفان أو ناقة سميكة توضع
فوق منسف كبير من الرز . ويعقب هذه الوليمة حفلة طراد الخيل مع إطلاق
الرصاص وتمثيل الكر والفر والحرب وزغاريد النساء . وتظل معالم الافراح بعد
الختان أياماً عددها قدر التي احتفل بها قبل وقوعه .

والصبي المختون يستمر في نموه وترعرعه . وهو يمشي في الغالب عارياً في فصل
الصيف . وإذا بسوه فمن بقايا الثياب التي كانت لآبيه ، ورجلاه حافيتان أبداً ،
وهي تتصلب وتعتاد على دوس الحصى والصوان . أما رأسه فمحلق بالمرّة ؛ إلا من
غديرتين طويلتين تتدلى الأولى على جبينه للبهرجة وتبقى الثانية في قمة رأسه ، وهي
في زعمهم لاجل أن يسجبه ربه إليها إلى السماء إذا مات . لان هؤلاء الاطفال
المساكين يموتون في كثرة . ويعود ذلك الى سوء التغذية ورداءة تقنياتها . ومن
هنا ترى بطونهم منتفخة متألّة . ثم إن الليالي في البرية باردة جداً ، والخوف من
الامراض السارية كالجذام والحصبة سائد . ومن ثم كان الانتخاب الطبيعي يعمل
عمله هنا بقسوة وشدة . فهو يبيد من هذا النسل الكثير كل من يعجز عن تنازع
البقاء في هذه الحياة .

وإذا ناهز الصبي البلوغ في سن ١٣-١٤ بحسب رجلاً . وحينئذ يغطي رأسه
بخرقة ويربي شعره ويجعله يستطيل وتتدلى جدائله على كتفيه وتحيط بوجهه الصغير
المقطب . وهو يأخذ صغار الابل وصغار الغنم الى المراعي ويمعدها الى البيت ويشترك
في حلب الغنم وفي التقاط الأعشاب اليابسة وجمع بعير الابل للوقيد . وهو يبق في
الغالب مع النساء اللواتي يساعدهن ويسابقهن الى العمل . وتراه أحياناً يدخل الى
الربعة ويقبل أيدي الضيوف . ثم يندس في إحدى الزوايا محديقاً في من حوله

ساعات طويلة صامتاً صموت أبي الهول دون أن ينبس ببنت شفة ودون أن يفتر عن أصغر ابتسامة .

وسن الفتوة البدوي هو دور روائي ومبهرج وشعري . فالفتى البدوي يغسل وجهه بيول الابل ليتقوى جلده ، ويمسح بدنه بعرق الخيل لتنشيط عضلاته ، ويمسده أيضاً بروت الخيل الذي يزيل الدهن جيداً . ولا يلبس الفتى البدوي إلا قليلاً من الخلي كخاتم من النحاس أو الفضة وإذا لم يجده يستعمل الوشم المشابه للاختام أو الاسورة .

والفتيات البدويات في باب التجميل والتزين أكثر تطلباً واندفاعاً من الفتيان فهن يحملن في معاصرن وأحياناً في كواحلهن عدة أسورة ودمالج من الفضة أو الذهب أو النحاس حسباً تمكنن ثروتهن فيسمع لها قعقة ترافق وقع أقدامهن . ويعلقن بالبراغي في أرنية أنفهن اليسرى وفي شحمة آذانهن كرية صغيرة بشكل وردة يدعونها (وردة) ، ويصبغن شعرهن وأظافرهن بالحناء وأخيراً يستعملن الوشم بكثرة تضطرنا الى التحدث عنه : فالوشم يؤتى بالابرة وذلك بان يوخز الجلد بها حتى يخرج الدم في المكان المقصود وشمه ، ثم يدلك هذا المكان بمسحوق النيلج وهذا العمل تقوم به النساء ويعملنه بين السنة الثالثة والعاشرة حسب عادة العشيرة وهو أمر محتم على الفتيات لا بد أن يقمن به ويعد من أكبر أسباب الزينة والتجميل لهن . ويعتقد البدو أن الوشم يرد مرض المفاصل « الروماتيزم » والفتيات يرسمن في أصابعهن رسوم الخواتم وفي أيديهن نجوماً وعلى شفاههن حبات الجمال وعلى أعناقهن قلائد وعلى اندائهن وأفضادهن ساسلتين عرض كل منها نحو سنتيمتر منفرجين كالمروحة وعلى بطونهن رسوماً متنوعة . هذه هي أخص رسوم الوشم التي تختلف حسب العشائر وحسب مقدرة الفتيات على تحمل آلام عملية الوشم .

واستعمال الفتيان للوشم أقل بكثير من الفتيات . فالشبان يكونون سواعدهم ، والسكي يستعمله البدو للتداوي ويسيثون استعماله بكثرة وفي أي مكان . فهم يكونون سواعدهم بمحيدة محمية أو بقطعة من الصوفان المحروقة ويجمعون الكية بقدر القرش

فالجرح يتعفن والفتحة تتقيح وتبيض فتشبه قطعة من النقد .

✕ والبدوي في سن العشرين يحب التمارين الرياضية والدياقة والرشاقة . إلا أن شجاعته ليست زائدة . وهي لا تخلو من التحذلق أو الفشار حينما يتم واجبه أو يتحدث عما جرى له . وهو من صغره يعود على الفروسية ، فيركبونه فرساً يسوقها برسن واحد مصنوع من الوبر ويكون السرج غالباً بدون ركاب . وهو يتجول بها مسافات طويلة تنوف عن المئة كيلومتر دون أن يقف أو يعرج على حي ثاني .

وحينما ترحل العشيرة من مكانها يذهب للتفتيش على المراعي والمنازل وقبل أن يأتي رائد آخر ويسبقه الى هذه المهمة . وحين الظعن يرافق القطعان وهو راكب لاجل أن يخبر عن هجوم قد يقع على هذه القطعان ولكي يدافع عنها أيضاً . ثم قد يذهب لكشف منازل الاعداء ولارشاد الغزاة الذين يكون هو منهم أيضاً . وقد يقوم هذا الفتى بوضعة أعمال من البطولة ، وحينئذ تراه قد انشرح صدره انشراحاً عظيماً وزاد غروراً وافتخاراً حينما تستقبل النساء الغزاة الراجعين الظافرين الغانمين ويتأهالن ويرحين بهم ويزغردن .

✕ والغالب أن يتزوج البدوي لأول مرة حينما يبلغ سن العشرين . وقد تشترط الفتاة المخطوبة على خطيبها أن يأتي بمائة أو مئذنة . وقد اختصت بنات الشيوخ وحدثن بحق انتخاب الخطيب وحق فرض الشروط عليه ، ولذا ترى خطباءهن يقابلنهم أحياناً بعمل من اعمال الفروسية الخالدة . وبن العشرين ليس سن محدد للزواج ومطلق . لان بعض البدو يتزوجون في الخامسة عشر ، وبعضهم قد يتأخر الى الثلاثين . لان مهوور النساء غالية . وكثيراً ما يفضل ألاب المعمر نفسه على ابنه فيتزوج هو بفتاة صغيرة ويدفع مبراً باهظاً ويحمل ابنه . وعدد النساء اللواتي يتزوجهن البدو غير ثابت . ويذكر عن بعض شيوخ الجزيرة الفراتية أنهم قد تزوجوا ١٥-٢٠ امرأة . ويذكر عن آخر زواجه بمئة ، أما البدو الذين نبحت عنهم فلا يجمع أحدهم أكثر من اثنتين سوية ، ولا يتزوج أكثر من خمسة مدى حياته كلها . والسواد الاعظم من البدو لا يحوى إلا امرأة واحدة .

وتجري الخطبة في هدوء وتكم ، ولا يسمح للخطيبين أن يتبادلا أكثر من بعض النظرات وبعض الكلمات أثناء الطريق أو حول البئر ، وربما دام هذا بضع سنوات لعجز الزوج عن تأدية المهر .

X وترسل بادیء بدء رسل الخطبة المنتخبون انتخاباً حسناً الى البيت فيطلعها هؤلاء على ما يراد منها . وترسل رسل آخرون مؤتمنون لمحادثة أهلها . وهذه المراجعات الرسمية مقررة ولا بد من تحقيقها حتى عند الفقراء . فإذا جاءت الاجوبة بعكس المطلوب يبقى كل شيء مكانه . وإذا جاءت وفق المطلوب تجري الخطبة الرسمية بمعرفة كبراء العشيرة . يذهب هؤلاء الى أبي الفتاة ويرجونه أن يخرج الى خارج البيت ليتمكن من الادلاء بحرية عن رأيه ، فيعرضون عليه القصد من مجيئهم . ومن هنا يفهم السبب في أن الاب لا يأخذ رأي البنت ، ذلك لأنها قد استشيرت في المراجعات الاولى وعرفت رغبتها . لهذا ندر أن يلاقي القادمون للخطبة الرسمية رفضاً . وإذا حدث الرفض يعد إهانة للقادمين المذكورين .

هذا وانتخاب الفتاة المخطوبة تابع الى حد ما الى تقاليد وقيود . فالشيخ أو أبناء الشيخ لا يستطيعون أن يتزوجوا إلا بنات من طبقتهم وأمشالهم . وقد تتداخل الدواعي السياسية في هذا الانتخاب والزواج . لان البدو يحتمون وجوب التماثل في الثروة والطبقة . ومن ثم كان الزواج محصوراً في الغالب بين أبناء الفخذ الواحد أو أبناء فخذين من العشيرة الواحدة . وإذا كانت العشيرة المطلوب مصاهرتها بعيدة وجب أن تكون صديقة . وهكذا يستمر نحو العرق محتفظاً بالخصال الاصلية . وهذه القضية حقيقية بحيث أنك بعد امتياد قليل تصل الى معرفة البدو الذين تلاقيهم ، وتستطيع أن تدبهم الى عشيرتهم ، وذلك إذا أعمت النظر في وجوههم وأسارهم ، ومن هنا تدرك السبب في أن شدة الترابية الدموية بينهم هي الباعث للعيوب البدنية التي تكثر لديهم .

وإذا تم التراضي يدفع المهر الى أبي المخطوبة أو أوليائها ، أما هي فلا يتأهلها منه شيء . ولكن إذا كانت من عشيرة أخرى يعطونها نصف المهر . وفي مقابل المهر

تحمل هي الى بيت بعلمها جهاز امتواضعاً مؤلفاً من سجادة وفرشة ووسادة وصندوق ثياب وأدوات زينة . وندر أن يدفع البدو المهر نقداً - بل يدفعون مقابله من الابل والغنم ، وقد يدفعون باديء بدء نصف المهر ويؤجلون النصف الثاني . ولكن لا يقع الزواج أبداً ما لم يدفع مقدماً نصف المهر على الاقل . ولا يمكن الشذوذ عن هذه القاعدة الا حين التبادل ، أي حيناً يأخذ أحدهم أخت الثاني ويواجهه هو أخته ، فيكونا قد تبادلا دون دفع شيء .

والاعراس أيضاً عند البدو بسيطة . واذا كانت حالة العروس موآتية يركبونها هودجاً على بعير ويرفونها الى بعلمها . وتقام معالم الافراح حين وصولها وتولم الولائم ويدعى لها كبراء العشيرة . وأساس هذه الولائم ذبائح الغنم أو الابل . واذا كان العرس لآناس أغنياء ، يضاف الى ذلك الطبل والزمر والغناء والرقص وطراد الخيل .

” ومظاهر الافراح التي تجري في الاعراس ليست رهن السلام الدائم في الحياة البيئية . فالشقاق اذا ذر قرنه والبغضاء اذا تنفست لا بد أن يعقبها الهجر والطلاق . واذا طلق الرجل امرأته تحمل هذه معها كلما أتت به من الجهاز وترجع الى أهلها الذين يحتفظون بمهرها ولا يردونه . واذا وقع الطلاق بطلب من الزوجة وهو ما اعتادت عليه بعض العشائر - يحق للرجل ان يسترد المهر الذي دفعه . والطلاق يتم اذا لفظ الرجل ثلاث مرات العبارات المعينة الآتية : انت طالق ، يمكنك أن تزوجي عن تشائين ، أنت وشأنك يا فلانة ، لا أريدك بعد الان .

يبد أن الطلاق نادر ، وأندر منه العزوبة ، لان العزوبة عند البدو تآكل العقم ويشبهون الاغرب بالشجرة غير المثمرة ويرونه جديراً بالمهانة . وأندر من هذا وذلك الزنا . لان أقل انحراف عن العفاف تقوم به المرأة عقابه القتل . ويقر الزوج هذا القتل بنفسه وينفذ يده ويوافق الجميع على ذلك . والزواج لا ينحرف عن عفافه في الغالب . ألم يهون دينه عليه الامر ويصح له بتعدد الزوجات ؟ ثم هو اذا لم يغش إمدن كيف يتمكن من الزنا وسط نساء العشيرة العفيفات ؟

٤ بل إن الامر بالعكس ؛ فما أن يتم شهر العسل وما أن تظهر علامم الجبل حتى تحتل المرأة مكاناً في فؤاد بعلمها . ويفسر هذا المسكان في أنها أي المرأة (مهلية اللذة الجسدية وقالب إيلاد الذرية) .

واذا تزوج البدوي سرعان ما تراه قد صار رب أسرة وسرعان ما تراه قد كبر وبلغ أشده . أما لباسه في هذا السن فهو ... (وبعد أن وصف المؤلفان لباس الرجال والنساء مما ذكرناه في مكان آخر قالوا :

ولباس الرجال والنساء عند البدو في أيامنا هذه لا يختلف قط عما كان عليه في العصور الغابرة . وهذا اللباس لا يفارقهم في النهار ولا في الليل . ولا يبدلونه الا مرة في العام عقيب شهر رمضان . وهو موافق كل الموائمة لحالة البادية . وماذا تريدون أكثر من الكوفية درءاً لعواصف الرمال ، وأشد من القفروة الفضفاضة في دفع برد السحر في الشتاء ؟ وهل هناك ألطف من الثوب المريض الملهل في تخفيف حرارة القيظ ؟

اما في الناحية البدنية فالبدوي كبير الجثة رشيق القامة شديد السمرة وله شعر مضفر يحيط بوجهه . متناول منته بدق مدورة او مثلثة الشكل تحمل لحية مجمدة مستدقة الطرف وخداه مقعران بينما وجنتاه بارزتان وانفه اخنس وربما كان اقنى . اما عيناه فسوداوان وصغيرتان وفظراته تعرف بالاطف كما تعرف العنف وتظهر احياناً من حدقة عينه المخدرة انعكاسات كالكاسات الفولاذ الاسمر . اما اعضاؤه فتجيفة وقوية العضل ، وحينما تراه اثناء الطعام يعجن لقم الرز الضخمة ويدملكها في يده وباصابعه النجيلية ويهيؤها للازدرد تلاحظ تحت جلده الاسمر وتحت سواعده المفتولة بروز عضلاته ودورانها كأنها خيوط من الفولاذ . ونساء البدو هن على الوتيرة نفسها وقد ألفن الاشغال الشاقة احياناً اكثر من الرجال ، ومن ثم تراهن في نفس اللون والسياء والمظهر الذي لازواجهن . والعضلات في اعضائهن لمصوبة تشبه حزمة من الجبال المشدودة .

اما في الناحية الاخلاقية فالبدوي يكاد يكون مجموعة متناقضات . كأن
المازيا الحقيقية الموروثة عن اجداده قد كُلت وكهت نتيجة المعيشة القاسية التي
يقضيها في يومنا هذا . فالبدوي غير خالٍ من الشجاعة . لكن شجاعته سطحية
وغير خالٍ من صدق الطوية ولكنه ينجح كثيراً الى الخداع والمواربة . وقد
اكتسبته التجارب ان الف وال دوران حول العقبات والمشكلات خير من مجابته
مباشرة . فهو اذا ما طرحت عليه سؤالا يحبك دائماً اجوبة غامضة . بيد انه
يمكن استخلاص الجواب الشافي منه فيما اذا كانت المسألة لا تمس مصلحته الشخصية
ومصلحة اقاربه الاذنين . لان مصلحته ومصلحة عشيرته هما اهم الامور التي تحدد اتجاهه
في المعاملة . والبدوي ميال الى السلب والنهب . وعنده في الوقت نفسه ميل الى
الكرم والسخاء . كل ذلك حسب الظروف والحاجة . والطمع رائد البدوي
بحيث ان وساوسه لا تمنعه أصلاً من ان يتجه نحو الناحية التي يجدها أصلح له
بيد انه تجده غيوراً ومنافحاً عن سمعته وحرية وهو سريع التأثر والغضب
لكرامته وشديد الانفعال اذا أصابته اهانة او عداوة ، لا ينسى ذلك ابداً حتي
آخر عمره ولا بد له من أخذ الثأر ومحو العار . فالبدوي حقود وطلاب للثأر
الى حد انه يورث حقه وثأره الى أعقابيه .

وشغف عيش البدوي لا يمحو الناحية المثالية من شخصيته . فكلامه موزون
ومعقول في عبارة صريحة وسرعة انطلاق نحو الهدف يزخر به بضرب الامثال
وبالتشبيهات التي تصدر عن روية ومعرفة . وفي السهرات يسمع البدوي ويصغي لما
يقصونه عن سير الابطال والفرسان من ابناء قومه وتترنح اعطافه طرباً حينما
ينشد احدهم امامه اغنية بصوت مطارد الاوزان ترافقه دقات الربابة التي تتلاشى
رناتها في الصمت الواسع للمخيم المستغرق في هجوده . والبدوي يقدر قدر الدماثة
واللباقة ، وهو يهوى السلاح ويحسن استعماله .

واذ كان البدوي رقيق القامة ومتخفق بكل اوصاف جنسه ودينوي النزعة حسب

بيئته ترى دوره الذي يمثله في مسرح الحياة دوراً تزيناً زخرياً . ثم هو يلاحظ أعماله ويصدر أوامره ويتقبل الزيارات ويردها . ثم هو الى ذلك صاحب سلطة وقيادة ويعرف حسن القيام بهما ، ومن ثم يكل الى نسائه وأولاده امر العناية بأعمال البيت وتربية الماشية وارعائها واسقامها . ولكن اذ كان هو روح أسرته وعماد بيته يعرف وقت هجوم الاعداء كيف يقف وينافح عنها ويعرف ان من واجبه خدمة شيخه يوم الغزو .

والبدوي في حقيقته اقل فروسية وانقص في المثالية (الكمال) مما يصوره الروائيون والقصاصون ، وهو خليط من الحاسن والمساوي . ولكن مهما كانت مزاياه يظل في نظرنا رجلاً مستحقاً كل الاستحقاق للاحترام والانجذاب والتودد نحوه .

× وتمتد حياة البدوي الفعلية مدة مديدة الى ان يشيخ ، وتخزله قواه رويداً رويداً ويعلوه الشيب . فينوب عنه ابنه الاكبر في الاعمال . وحينئذ يشتري الاب عقلاً ضحماً ويلتزم الانزواء في بيته ويرجع كما كان في عهد الصبي للعيش بين النساء لا يزار في بيته ولا يخرج منه الا حين الضرورة ، وتنسى العشيرة يوماً بعد يوم استشارته في مهام الامور على انها تحفظ له كل رعاية وحرمة . ويبقى سنياً عديدة مثال السلف الصالح ممسكاً بدفة الامور الى ان يموت كما يموت المصباح المنطفى .

× وموت البدوي كولاته تقع حسب ظروف الحل والترحال . واذا مات يمزق نساءه ثيابهن الفوقانية ويخين التراب على رؤوسهن وينتفن شعرهن ويرفن اصواتهن بالولولة . ومن علامات الحزن تنزيل احد اطراف الخيمة ، ويتوافد كبراء العشيرة ويقدمون لورثة الميت تعازيمهم بعبارات بالية انكالية . ثم يحفرون له قبراً في ذروة اكمة مشرفة على منزل العشيرة ويجعلون اتجاهه نحو مكة ، ويحمل ابناءه نعشه وحوطهم النساء الباقيات النادبات ويبلغون به الارض التي طالما دافع عنها في حياته .

وهناك يتلون بعض سور دينية بصوت منخفض يغسلونه الغسل الاخير بالرمل وهذا الرمل الذي غسل جسمه الصغير العبل الاصفر صفرة ذهبية لما كان طفلاً يعود لغسل الهيكل العظمي للميت الاسمر اللون . ويضعون على القبر ركام التراب المستخرج من حفرة ويحيطونه بسور مستطيل من الحجارة دون أن ينقشون عليها اي كلمة او رسم .

ثم يستأنف الحي سيره نحو آفاق جديدة وابعاد سحيقة ، ويعود الزمان الى فعله ، ويمحو آثار القبور الرثة ويلاشيها . وتدوس اخفاف الابل العريضة القبور المجهولة وهي سائرة دون علم ولا معرفة بها ولا باصحابها . واذا مات البدوي فمعنى ذلك ان حياة قد انتهت في كل بساطة كما بدأت ونمت في كل بساطة .

ونحن أهل الحضارة والتمدن لاندرک للحياة معنى ملم تكن محفوفة برغد العيش في الدور الفخمة والموائد المزخرفة وملم تكتمل بغشيان المقاهي والمسارح . ولاجل ذلك نعد حياة البدو عديمة الالوان ونعتبرها قاسية شديدة ، وزاها كأنها دواعي عذاب الجسم وارهاقه دون انقطاع او كأنها قشافة وزهادة على غير جدوى .

على ان هذه الحياة في عين البدوي هي منتهى القصد وغاية المنى . أليس ان كل رغد في الحياة هو نسبي ؟ أليس ان الرغد حالة توازن بين الانسان وبيئته التي يعيش فيها ؟ أليس ان العادة اساس كل شيء ؟ وان الفكرة التي توحىها العادة هي مختلفة في نظر كل منا ؟ اذن هذا هو السبب في ان البدو قليلو الاكتراث بمطالبهم الجسمية (طالما مطالبهم الروحية مؤمنة) .

وجل ما يحتاجه البدوي هو النهارات المضيئة والليالي الصافية والآفاق الواسعة الممتعة في البعد والمساحات الشاسعة اللانهاية لها حيث الارض يرثها اول من يطأها .

وحياة البدو مبنية على عدم المبالاة بالغد بتاتاً وعلى الانفعال الموقت الساذج

وعلى البطالة الطويلة تحت سقف الخيمة مع تدخين النار كيلة الحرارة (؟) واحتساء القهوة نغمة بعد نغمة بالفناجين الصغيرة. ثم ان حياة البدوي قد جبلت ايضاً وخاصة من الحرية الحقّة . والبدوي جلود جلادة البعير وجسور جسارة الاسد ونشيط كنشاط الغزال ، الا انه اكثر من هؤلاء جميعاً حريةً واستقلالاً ١٠

هذا هو البدوي وهذا هو ما يود ان يحرص عليه . ونفسيته المتعاضمة لا تقبل مطلقاً كل ما يشبه النير اذا حز الرقبة . فالحرية والاستقلال هما من الممتلكات التي يضمها البدوي فوق كل شيء ويبقى حريصاً على الاحتفاظ بها مدى الحياة .

وختاماً نقول ان عقيدة القضاء والقدر هي المتسلطة على كل شيء لدى البدوي . وكلّيات (الله اكبر) و (الله اعلم) و (لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) (انما تكونوا يدرككم الموت) وأمثالها هي القواعد التي يعتمد عليها البدوي طول عمره وهذا هو السبب ، في انه لما يتم البدوي حياته القاسية المتشردة وينقلب شيخاً هرماً ترى وجهه الذي كان نشيطاً فعالاً - اار يشع صفاءً روحياً تاماً . (انتهى مقالته الرئيس رينو ورفيقه) .

* * *

التقاليد والعادات

عند البدو

يتشابه البدو إنما كانوا في العادات والتقاليد والازياء . لأنهم جميعاً في حالة فطرية اولية واحدة . هديتهم اليها الحاجة وما اقتضته طبيعة البوادي والقفار القاسية المتشابهة في كل مكان . فهم متماثلون في تكوينهم الاجتماعي وفي أمور معيشتهم ، ولا يختلفون الا قليلاً من حيث العراقة في البداوة او قلتها وقربهم من الحضارة او بعدهم عنها وعن أهلها . اي من حيث كونهم من البدو الاصليين او من البدو المتحضرين . وما سندرهم من القواعد والاصول والتقاليد والعادات يشملهم في الجملة . واذا كان هناك بعض فروق بين عنزة وشمير العريقيين في البداوة وبين اعراب الديرة والشوايا انصاف الحضر او بين عشيرة في انشال واخرى من الجنوب فذلك ليس بجوهري ، ولا يزيد عن الفرق بين سكان دمشق واحدى قرى الغوطة او قلمون ، ولا يحتاج الى استطراد خاص قد يضيق نطاق هذا الكتاب عنه وها نحن نبدأ بذكر (التكوين الاجتماعي) لدي البدو وتدرج الى غيره :

التكوين الاجتماعي عند البدو . -

ان التكوين الاجتماعي عند البدو بسيط لا يتجاوز حد الاسرة (العائلة) قط . واسم الاسرة عندهم (الاهل) ومن الاسئلة الاولى التي توجه الى البدوي اذا عثر عليه في الطريق منفرداً « اين أهلك ؟ » . والاسرة تتألف من الرجل والمرأة ومن فروعها وفي بعض الحالات الشاذة من اصولها المنعزلة الطاعنة في السن او المريضة ومن بعض الايتام الصغار . ولا يزداد عد الاسرة بفعل الزواج . لان البنت اذا تزوجت تذهب الى بعلها والابن اذا تزوج يتخذ لنفسه بيتاً قريباً من أهله

في الغالب فيؤلف في العشيرة أسرة جديدة تلقب باسمه . والاب هو رئيس الاسرة وإذا مات يرثه في هذه الرئاسة ابنه الاكبر . على إن هذا يجوز أن يتخلى عن حقه في الرئاسة الى أخيه الذي يليه في السن . ولرئيس الاسرة على أسرته حق الحياة والموت دون منازع . ويمكن الافصاح عن هذا الحق بالقاعدة الآتية : إما الطاعة له أو الرحيل عنه . وللأسرة على رئيسها حق الادارة وتدير المعيشة وحل المشكلات التي قد تقع في داخلها والدفاع عنها بشدة إذا جاءها مكروه من خارجها .

والتضامن الكامل موجود في الاسرة البدوية باوسع معانيه . فإذا صدف أن اتى بدوي في السجن لشكر فعله ينبري أبوه وأخوانه وأعمامه وأبناء عمومته لتخليصه . فإذا جرى التحقيق وثبت الجرم على السجين تمتد التبعة المشتركة الى أنسابه المذكورين وتسري عليهم . ومن هنا كان المكلفون بإدارة البدو إذا ارادوا تحصيل شيء من الاموال أو العروض من بدوي لا يمتطاع القبض عليه تعويضاً عن أموال مسروقة ، أو دفع دية أو تأدية ضريبة ما جرت عادتهم أن يأخذوا أخاه بجريرته كرهينة ويسجنونه . فبعد بضعة أيام من إلقاء القبض على هذا الاخ ينادر الجرم الذي قد يكون بعيداً في أماكن قاصية جداً ويرسل الابل أو الغنم أو الدنانير الذهبية المطلوبة . وعاطفة التضامن هذه في الاسرة من أجل نواحي الحياة البدوية . إن تاريخ الاسرة البدوية ونشوتها ونموها هو كما في كل الشعوب البدائية .

فقد يبرز رئيس إحدى الاسر بشجاعته ومضاء عزمه ودكاء جنانه فتلتف حوله أسر أخرى وتلجأ الى حماه ويتقدم رجالها لخدمته ، ويصيرون من ثم تبعاً لتلك الاسرة التي إرتأست .

وحقوق الاسرة داخل العشيرة تختلف بالطبع حسب مكانة تلك الاسرة وشكلها وعدد المقاتلين الذين يمكن أن تسوقهم الى ساحة الحرب . وكما كانت الاسرة قوية وغنية كلما ازدادت حرمتها وقويت مكانتها وعلت كلمة رئيسها . بيد أن الاسر الصغيرة أو الضعيفة والتي لا تتألف إلا من الاب والام وولد أو ولدين

تحتفظ بحقوق الملكية كاملة غير منقوصة وتظل في حمي الجميع ونصرتهم. وإذا نكب
الاعداء هذه الاسرة في غزو ينضم الجميع اليها ويؤازرها وتعد حينئذ شقيقة الجميع من
حيث التضامن والتعاون. فمن مناقب البدو التضامن في البلوى والتعاون على المصائب
فترام يتسابقون الى إمداد العزيز إذا ذل بغارة أو مصيبة. فالبدوي كثيراً ما يكون
ذا ثراء في ربه عند الضحى إذا بك تراه عند المساء فقيراً مدقماً لا سبب ولا لبد بحكم
الغزو الذي يداهم أو الجائحة التي تصدمه. وحينئذ هذا يجوده يبيع وهذا بكساء
وحصير وذاك بنعجة أو نمجتين أو أكثر وذلك بقربة أو علبة أو قدر والآخر يرضخ
له بدميات يسترن مهتوك ستره ويرأى مصدوع أمره. وقد قامت قاعدة (التضامن
البدوي) هذه عند البدو مقام (الحق العام) عند الحضرة. فإذا قتل بدوي يكون اللصق
بالمقتول هم المطالبون بدمه من أقارب القاتل اللصق به. فإذا لم يطالب الأقرباء أو كانوا
عاجزين عن المطالبة فإن أهل عشيرته يطالبون ، لأن المقتول عندهم هو ابن العشيرة
وكل منهم هو (نائب عام) في دعواه .

الفلسفة عند العرب

النسب في كتب اللغة مطابق الوصلة بالقرابة فيقال بينهما نسب أي قرابة وجمعه
أنساب ونسبته الى أبيه نسباً من باب طلب عزوته اليه وانتسب اليه اعتزى والنسب
من كانت أصله ثابتاً . قال النويري في كتابه « نهاية الارب في فنون الادب » :
ومعرفة انساب الامم مما افتخرت به العرب على المعجم لانها احترزت على معرفة
نسبها وتمسكت بمتين حسبها وعرفت جماهير قومها وشعبها وأفصح عن قبائلها لسان
شاعرها وخطيبها واتحدت برهطها وفصائلها وعشائرها ومات الى أخفاها وبطلونها
وعماثرها ونفت الدعي فيها ونظقت بملى فيها .

وقد كنا بينا في الصحيفة ١٥٠ عند الكلام على (العصبية العربية قبل الاسلام)
ان طبقات الانساب عند العرب كانت كما يلي : الشعب والقبيلة والعارة والبطن
والفخذ والفصيلة والعائلة أو الاسرة، وزاد بعضهم العشيرة قبل الفصيلة . وعشيرة

الرجل ثم رھطه الادنون .

وقد فسر القلقشندي في كتابه (نهاية الارب في معرفة انساب العرب) هذا الترتيب فقال : وكانهم رتبوا ذلك على بنية الانسان فجعلوا الشعب بمثابة أعلى الرأس والقبائل بمثابة قبائل الرأس وهي القطع المشعوب بعضها الى بعض والعمارة العنق والصدر وجعلوا الفخذ تلو البطن ، لان الفخذ من الانسان بعد البطن وجعلوا الفصيلة تلو الفخذ لانها النسب الادني الذي يفصل عنه الرجل بمثابة الساق والقدم إذ المراد بالفصيلة العشيرة الادنون بدايل قوله تعالى «وفصيلته التي تؤويه» أي تضمه اليها ولا يضم الرجل الا أقرب عشيرته . واعلم أن أكثر ما يدور على اللسان من الطبقات الست المتقدمة القبيلة ثم البطن ، وقد أن تذكر العمارة والفخذ والفصيلة وربما عبر عن واحد من الطبقات الست بالحي أما على العموم مثل أن يقال حي من العرب وأما على الخصوص مثل أن يقال حي من بني فلان اه .

قلت ان أكثر ما يدور في أيامنا على السنة بدو بلادنا الشامية من المصطلحات في تقسيم الانساب هو كما يلي : إن العنصر الاول في المجتمع البدوي هو (البيت) ويعنون به العائلة أو الأسرة . فالبيوت أو الاسر القرية بعضها من بعض تؤلف (الفخذ) أو (الآل) مثل آل مشهور من فئدة الشعان في الارولة ومثل آل مهيد من فئدة المنيع في الفدعان . وتجتمع الافخاذ فتؤلف (الفرقة) أو (الفئدة) وجمعها فرق أو أفناد مثل فئدة الشعان وفئدة المنيع المذكورتين . والفئدة في الاصل عدة أفخاذ من جد قريب لا يكاد يتجاوز الخامس في الغالب . وتجتمع الفرق أو الافناد فتكون (العشيرة) مثل عشيرة الارولة وعشيرة الفدعان في عترة . وتجتمع العشائر فتكون (الضناً) مثل ضناً مسلم وضناً بشر في عترة . وتجتمع الضنات فتؤلف القبيلة مثل قبيلة شمر وقبيلة عترة . وقد يتساهل في التعبير فتسمى العشيرة قبيلة أو الفخذ فصيلة أو الفئدة فرقة . وزعم رواة البدو ان القبيلة إنما تنشأ من جد عام يورث اسمه الى قبيلته كبنی صخر وبنی خالد وغيرهم . والعشيرة تعترف بشيخ واحد . على

ان اعترافها لا يتجاوز القضايا العامة . وعدد بيوت العشيرة يختلف كثيراً . فقد يكون ٣٠٠٠ — ٤٠٠٠ أو أكثر كما هو الحال في القديان والارولة . وقد يهبط هذا العدد الى ٣٠٠ — ٢٠٠ — ١٠٠ — ٥٠ كما هو الحال في عشائر القسم الثاني أو الثالث . وكلمة ضناً بمعنى نسل احتضت بقبيلة عنزة دون غيرها .

وقال القلقشندي ايضاً : في بيان امور يحتاج الناظر في الانساب اليها وهي عشرة ١ . أ . اذا تباعدت الانساب صارت القبائل شعوباً والعماير قبائل والبطون عماير ٢ . الخ ٣ . القبائل هم بنو اب واحد . والاب الواحد قد يكون اباً لعدة بطون . ثم ابو القبيلة قد يكون له عدة اولاد فيحدث بعضهم قبيلة او قبائل فينسب اليه من هو منهم ويبقى بعضهم بلا ولد او يولد له ولم يشتهر بولده فينسب الى القبيلة الاولى ٣ . اذا اشتمل النسب على طبقتين فاكثر كهاشم وقريش ومضر وعدنان جاز لمن في الدرجة الاخيرة من النسب ان ينتسب الى الجميع فيجوز لبني هاشم ان ينسبوا الى بني هاشم والى قريش والى مضر والى عدنان فيقال في احدهم الهاشمي ويقال فيه القرشي والمضري والعدناني بل قال الجوهري ان النسبة الى الاعلى تغني عن النسبة الى الاسفل ويرى بعضهم تقديم العاليا على السفلى وبعضهم يرى العكس مثل ان يقال في النسب الى عثمان بن عفان الاموي العثماني او العثماني الاموي ٤ . قد ينضم الرجل الى غير قبياته بالخلف والمواالة فينتسب اليهم فيقال فلان حاييف بني فلان او مولا هم ٥ . اذا كان الرجل من قبيلة ثم دخل في قبيلة اخرى جاز ان ينتسب الى القبيلة الاولى وان ينتسب الى القبيلة التي دخل فيها مثل ان يقال التميمي ثم الوائلي او ما شبه ذلك ٦ . القبائل تسمى في الغالب باسم الاب الوالد للقبيلة كربيعة ومضر والاوز والنخزرج ونحو ذلك . وقد تسمى القبيلة باسم ام القبيلة كخندف وبجيلة ونحوهما . وقد تسمى القبيلة بغير هذا ، وربما وقع اللقب على القبيلة بحدوث سبب كفسان حيث نزلوا على ماء يسمى غسان ٧ . اسماء القبائل في اصطلاح العرب على خمسة اضرب ؛ اولها ان يطلق على القبيلة

لفظة آلاب كماد وئمود ومدين وماشاكلهم وبذلك ورد القرآن كقوله تعالى والى عاد والى ثمود والى مدين يريد بني عاد وبني ثمود ونحو ذلك ، واكثر ما يكون في الشعوب والقبائل العظام ولا سيما في الازمنة المتقدمة بخلاف البطون والافخاذ ونحوها، وثانيها ان يطلق على القبيلة لفظ البنوة فيقال بنو فلان واكثر ما يكون ذلك في البطون والافخاذ والقبائل الصغار لا سيما في الازمنة المتأخرة . وثالثها ان ترد القبيلة بلفظ الجمع مع الالف واللام كالعالميين والجماعة ونحوها واكثر ما يكون ذلك في المتأخرين دون غيرهم . ورابعها ان يعبر عنها بآل مدين كآل ربيعة وآل فضل وآل علي وما أشبه ذلك واكثر ما يكون ذلك في الازمنة المتأخرة لا سيما في عرب الشام في زماننا (١) بالآل والمراد الاهل . وخامسها ان يعبر عنها باولاد فلان ، ولا يوجد ذلك الا في المتأخرين من افخاذ العرب على قلة . ٨٠ - غالب اسماء العرب منقولة عما يدور في خزانة خيالهم مما يخالطونه ويجاورونه اما من الحيوان كأسد ونمر وحية وحنش وأما من النبات كنبث وحنظلة واما من اجزاء الارض كفهر وصخر ونحو ذلك ٩٠ - الغالب على العرب تسمية ابنائهم بمكروه الاسماء ككلب وحنظلة وضرار وحرب وما أشبه ذلك وتسمية عبيدهم بمحجوب الاسماء كفلاح ونجاح ونحوهما . والمعنى في ذلك ما يحكى انه قيل لابن الدقيس الكلابي لم تسمون ابناءكم بشر الاسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم باحسن الاسماء نحو مرزوق ورياح فقال انما نسمي ابنائنا لاعدائنا وعبيدنا لانفسنا يريدان الابناء معدة للاعداء فاختروا لهم

(١) يقصد القلقشندي الذي عاش في القرن التاسع آل فضل الذين لا يزال لهم أعقاب في زمننا موجودين في قضاء الجولان كوجود ابناء عمهم آل ابو ريشة امراء عشيرة الموالي في قضاء المعرة . اما آل ربيعة فهم أجداد آل فضل ، واما آل علي فهم كانوا من اقارب آل فضل المذكورين ثم انقرضوا او اندمجوا بنيرهم وقد فصلنا ذلك في بحث تاريخ البدو .

شر الاسماء والعبيد معدة لانفسهم فاختاروا لهم خير الاسماء .

قلت ، ومن غريب الاسماء البدوية في عهدنا ما يصعب فهم مدلوله وايجاد تفسيره في كتب اللغة كراكان وجدعان وهو يدي وشواخ ومجول وهويش ودندل وهفل وفدعوس وأثال ذلك . والاغرب ان يبلغ الامر ببعضهم الى تسمية اولاده باسماء الاجانب الذين قد يكونوا ضيوفاً عندهم اثناء الولادة كلورنس وطوماس ونحوه .

وقال فوآد حمزة في كتابه « قلب جزيرة العرب » : ومع شدة عناية العرب بالمحافظة على انسابها والتمسك باحسابها ومراعاتها لتسلسل فروعها واقسامها فانه من الصعوبة بكان عظيم أن يتمكن الباحث من الوقوف على أصول جميع القبائل العربية الموجودة في الوقت الحاضر بسبب ضياع قسم غير قليل مما كتبه الاقدمون عن الانساب وفقدان حلقات عديدة من سلسلة الانساب في الاعصر المتوسطة أيام ضعف الدولة العربية واختلاف قبائلها وأمرائها ومن الواضح أنه حصلت خلال تلك الحقبة هجرات قبائلية متعددة حلت فيها الواحدة محل الاخرى أو غلبتها على أمرها وأجلتها عن ديارها وشررتها بين القبائل فنسبها الناس وجهلواها . ومن أجل ذلك فاننا لم نحاول في كتابنا هذا أن نرد الفروع الى أصولها القديمة الا في المواضع التي تثبتنا من صحتها ، وتركنا تحقيق ما عدا ذلك الى محبي البحث والتدوين واكتفينا بما هو موجود في زماننا هذا من الفروع فسميناها باسمائها المشتهرة فيها . وبما تجب الإشارة اليه أننا شاهدنا بعض حالات تحدر فيها فروع القبيلة الواحدة من أصول مختلفة يبعد بعضها عن بعض . وقد نشأ ذلك على ما نعتقد عن تحالف الفروع في زمن مضى لا نستطيع تعيينه .

ونظراً الى ان الصعوبات التي اعترضتنا في إرجاع فروع القبائل الحالية الى أصولها القديمة تعترض كل باحث في الانساب والعلم بها مفيد من حيث ايضاحه طريقة تحول القبائل عن اسمائها الاصلية الى أسماء منتحلة ونشوء الفروع وصيرورتها

قبائل مشهورة رأينا أن نذكرها (أي الصعوبات) فيما يلي إتماماً للفائدة التي توخيناها من وضع هذا الكتاب : ١- تباعد الانساب وصيرورة القبائل شعوباً والعمائر قبائل والبطون عمائر (صبح الاعشى م ١ ص ٣٠٩) ٢- دموع الوقوف على التسلسل الصحيح للانساب لقدم العهد وعدم وجود المدونات ٣- إمكان اشتهاار قبيلة من القبائل باسم فرد مشهور منها يغلب اسمه الاسم الاصلي ٤- إفضاء أفراد الى قبيلة غير قبيلتهم بالخلف والموالاة ٥- دخول أفراد قبيلة على أفراد قبيلة ٦- تابعة أفراد معينين لقبيلة كالموالي والارقاء واشتهارهم باسم القبيلة الاصلية وم غرباء عنها ٧- إشتهار القبيلة باسم جديد لسبب من الاسباب ٨- تشابه أسماء القبائل بالرغم عن تباعد اصولها واختلاف انسابها .

العشيرة

تتألف العشيرة من أسر (بيوت) و فرق وأخذ يختلف عددها كثرة وقلة . والعشيرة قد تكون من نجار واحد أي متحدرة من جد واحد أعقب ذرية كثيرة أنجبت العدد الذي كونه . كما هو الحال في عنزة المتحدرة من (عنز بن وائل بن أسد بن ربيعة) الصافية في أصولها وفروعها على كثرة هذه الفروع وتوزعها ، وكما هو أيضاً في عشيرتي بني صخر وبني خالد اللتين يعتقد بنشأة كل منها من جد عام أورثهما اسمه . أو لا تكون العشيرة من نجار واحد ولا من موطن واحد بل مؤلفة من فرق عديدة ينتمون الى أصول ومواطن مختلفة كل الاختلاف أو بعضه جاءوا واجتمع بعضهم الى بعض بسائق الرهبة من شيء أو الرغبة في شيء ، ولتشابه الحاجات والمنافع وتشابك الميول والآمال وتماقدوا وألفوا (اتحاداً) أو (حلفاً) عشائرياً على النحو الذي يدعوه الافرنج (كوفندراسيون) ، كما هو الحال لدى أكثر العشائر التي سيأتيك ذكرها ووم فيها في القسم الثاني من كتابنا هذا . وينقاد هذا الحلف العشائري ويساع أسرة كريمة المحند طيبة الفعالي كما هو حال شمر الجزيرة الملتفين حول الشيوخ آل الحبراء وطىء الجزيرة الملتفين حول الشيوخ آل عساف والموالي في جنوبي حلب الملتفين حول الامراء آل أبي ريشة والفضل في

الجولان الملتفين حول الامراء آل فاعور والعقيدات والابي شعبان في وادي الفرات الملتفين حول بعض الاسر وأخصها آل هفل وآل ناصر وغيرهم ، اوينقاد الى شخص قوي الذم وشديد العزم كالخديدين الملتفين حول الشيخ نواف الصالح الجريح واسلافه آل ابراهيم من قبله .

ومهما يكن فالعشيرة هي امة في مقياس صغير ، وهي امة متقلبة تنقل معها في غدواتها وروحاتها فروعها واعضاءها الذين لا تحصرهم اي حدود ارضية ولا تقيدهم اي ملكيات عقارية . فكما ينبغي ان يكون للامم ماض وتاريخ والموكها ولرؤساء جمهورياتها انساب واحساب او كفآت يكون للعشائر ايضاً ماض وتاريخ ولشيوخها انساب واحساب او كفآت يذكرون بها . وكذلك ينبغي ان تكون مصالح العشيرة ومعايشها ومنازعتها واحدة . وفي حالة الحرب يتحد ابناء العشيرة كما يتحدون في السلم . وحينئذ ينضم بعضهم الى بعض تحت عاطفة وطنية حقيقية . لكن هذه العاطفة ليست في المعنى الذي نفهمه نحن الحضريين المؤدي الى تملقنا بارض آباءنا وأجدادنا ، بل هي في نظر البدوي معنى التعاق بالعنعات وذكرى الآباء والاجداد وبالدفاع عن سلامة هذا المجموع المتنقل المسمى (عشيرة) . والعشيرة لا تدافع عن ارضها ، لانها لا تملك هذه الارض ، بل هي تدافع عن حقها في الحياة في تلك الارض اي عن حقها في المرعى والمنزل . ويقول المقدم مولر في كتابه (في الشام مع البدو) : ان اكثر جموع البدو - وان كانت من نبعة واحدة - لا تجتمع على قضية قومية بل على غاية تبغيها . فالبدو لا يقيمون مجتمعين الا بسائق الاستقرار ، او كلما حالت المصالح المادية دون انفرادهم الشخصي . لانه متى رأت احدى كتائبهم نفسها قوية في قاييل او كثير او مطمئنة الى حد كاف تنفصل وتنفرد وتعيش لوحدها ، واعتقد ان الامن في البادية كلما استتب والطمأنينة كلما سادت وصل هوى الانقسام والانفراد هذا الى الافخاذ والبيوت الى داخل الفرق .

فالعشائر سائرة في طريق الافتراق ولا سيما في أيام السلم والاستقرار . فكل

عزة اصلهم قبيلة واحدة . ولكن حينما نزحوا من نجد نحو بلاد الشام ساروا في حالة فرق . وحينما استقرت هذه الفرق في بلاد الشام واقتطعت لنفسها منطقة نفوذ اكتسبت شكل عشائر منفصلة كالأرولة والولد علي والاحسنة والاسبعة والفدعان وهم على قرابتهم واتصالهم بنجار واحد ، اذا حدثت بينهم ثن على منافع او اذا شجر نزاع على مراعي ومنازل انقلبوا أعداء وقاتل بعضهم بعضاً كما جرى بين الارولة والولد علي قديماً وبين الارولة والاسبعة حديثاً ودام مدة مديدة . وامر الانفصال والافتراق ما برح دائماً . فالاسبعة قد افترت الى جذمين كبيرين البطينات والاعبدة . والفدعان الى ولد (بضم الواو) وخرصة . وقد ازعجت فتنة ديار الفرات حتى سنة ١٣٤٤ (١٩٢٥) التي اجبرهم الفرنسيون فيها على الصلح . وها ان الخرصة سينقسمون الى ضناً خريص وضناً كحيل بحكم ضعف القيادة لديهم .

العصبة العشائرية

بيد ان هذا الافتراق يؤتى مع الاحتفاظ بالقرابة او النسابة او بما يدعونهم (العصبة القبايلة) او (العصبة العشائرية) . والعصبة سيطرة قوية على عواطف البدو . فهي تجمع بين الاقارب والانساب الذين يمكن ان توجه اليهم المسؤوليات في حالة اخذ الثأر ودفع الدية ومنتهابها الجد الخامس . وهي تجمع ايضاً بين الفرق المختلفة في حالة اعلان العداء واشهار الحرب (رد النكا) على عدو مشترك . والبدو انما يتعارفون بهذه القرابة ويتسمون ويتنادون بالنخوة التي يتباهون بها ويتعارفون عند الكريمة وكلمات (ضناً مسلم) (ضناً ماجد) مستعملة بقدر كلمات الارولة والخرصة .

ولشدة اعتناء البدو بالعصبة تجد إنتصار بعضهم الى بعض على نسبة درجة القرابة . فكلما كانت العشيرة اقرب الى العشيرة كانت اولى بنصرتها ، لا يختلف ذلك فيهم الا لعوامل غير معتادة . ومهما اشتدت العداوة بين ابناء فخذ واحد

فانهم يجتمعون بطناً واحداً على بطن آخر يناوئهم بينما هو من ضناهم . وكذلك
تجتمع البطون المنتسبة الى ضناً لمقاومة ضناً آخر بينما هو من عشيرتهم ، وهلم جرأ
ولا بد ان ينزع عرق النسب في البدوي فيميل به الى الاقرب مها كان هذا الاقرب
بعيداً في الحقيقة . وقد كان القحطاني قديماً ينتسب الى شعب طويل عريض
يمد بالملايين ، والعدناني كان ينتسب الى شعب لا يقل عن ذاك
في العدد والمدد . ولكن اذا اختصا في موقف من المواقف وجدت عرق العصبية
تزع في كل عربي ، فمال القحطاني الى قبائل اليمن ومال العدناني الى قبائل الحجاز
ونجد اي مضر وريعة . وقد يوآخي الفريق منهم من كان يعاديه بغضاً بفريق
آخر اشد عداوة لانه ابعد نسباً ، وعليه قول شاعرهم :

وذوي ضباب مضمرين عداوة قرحى القلوب معاودي الافنان
ناسيتهم بغضاءهم وتركهم وهو اذا ذكر الصديق اعادي
كيا أعدهمو لا بعد منهم ولقد يجيء الى ذوي الاحقاد
على ان روابط النسابة ووشائج القرى لاتجتمع بين البدو جمعاً كاملاً
وتصهرهم في بوتقة واحدة . بل قصارها ان لا تفرق ولا تقصم . فانت لست امام
عناصر مندغمة اندغاماً تاماً ، بل امام عناصر لم ينقصم عراها بعد . والطائفة التي يتمتع
بها كل بدوي هي من وفرة العدد في عشيرته وذوي عصبية لا من اضطرابه
او اقباله على الدفاع المتقابل ، اذ ليس ما يجبر البدوي على نجدة اقرب جيرانه اذا
نال الغزاة من هذا الجار ما لم يكن ثمة نفع مادي له او يكون تجاهه مخي الغزاة
غداً اليه . ولا يكون الدفاع عاماً ما لم يقترب العدو من البيوت . فحينئذ يجبر كل
منهم على الدفاع ، ويسوغ للرئيس ان يقصره على ذلك حتى اذا تخلف او تمتنع
قتل فرسه او اباد غنمه .

وتكافل افراد العشيرة واتصافها بوجبان على رؤسائها ان يحافظوا على آداب
ابنائهم المنتسبين اليهم . ومن ثم اذا اتى افراد العشيرة امرأ لا تريد هي ان تأخذ
تبعته على نفسها ، او اذا اذنب نحوها كلها ينفي ذلك الفرد حينئذ من وسطها ،

واذا لم تقبله عشيرة اخرى حاق به البلاء لاحالة . فالعصبية هي التي تسوق البدو الى التضامن والتكافل او الى الدفاع عن الحقوق واتخاذ الوسائل المؤدية الى خير العشيرة ونفعها .

والنسابة او العصبية العشائرية تربط الافراد الى حد الجدا الخامس . وذلك عند دفع (المدة) اي دية الدم . ولا يدفعها احدهم الا للاحظة وقوعه دو يوماً ما في حادثه قتل يطالب بها فلا يجد من يعينه . وما خلا هذه الرابطة بين الاقارب فان الروابط الادارية والسياسية في عالم البدو ضعيفة جداً لا تقوّمها الاسلطة الشيخ (الرئيس) وحسن قيادته . فهذه الروابط منوطة بهما . ثم ان عظمة كل عشيرة بالعدد تختلف جداً من مقدار قليل من البيوت الى بضعة آلاف منها . واذا علت شهرة الشيخ (الرئيس) بسبب انتصار في الحرب او اصابه في الرأي او مقدرة في القضاء او حنكة في الادارة او مهارة في النفوذ الى اولياء الامر ولا سيما في الشجاعة والارحية ووفرة الاقارب والاتباع وكثرة الاموال والثمرات حينئذ يزداد عدد البيوت الملتفة حوله وتكثر حواشيه كما هو الحال في الارولة حول الامير فواز الشعلان الذي ورث ذاك عن جده النوري وفي النديمان حول الامير مجحم بن مهيد وفي الاسبعة حول الشيخ راكان بن مرشد وفي شمر حول الشيوخ آل الجربا وغيرهم . وبالعكس اذا ساءت ادارته او طغت فظاظته او نقصت كرامته او ذابت ثروته لسبب ما ينفضون من حوله تبعاً وياحقون رقيه ومنافسه الى ان لا يبقى حوله الا بضعة بيوت من انسابه الاقربين كما هو الحال لدى بعض العشائر كالولد علي والقدعان الاخرسه والاسبعة الاعبدية وغيرها .

الطبقات في العشيرة

ينقسم البدو في وسط كل عشيرة الى اربع طبقات : (١) - طبقة الشيوخ ؛ ويسمون شيوخاً ولو كانوا حديثي السن . وهم اصحاب الرأي الراجح والقول النافذ على سائر الطبقات ، وهم عماد العشيرة وملاذها وبهم سؤدها ورفع شأنها

وفيه يفترض وجود الشائل والمناقب التي سيأتي شرحها ٢٠. طبقة الرواسي او الكبراء وهم يلون الشيوخ في المنزلة الاجتماعية ويمثلونهم او يقربوا منهم في الشائل والمناقب ، وهم يرأسون فرقيهم ويسوسون افرادها . ٣٠ . طبقة العامة ؛ وهم السواد الاعظم من افراد العشيرة والحاملون اعبائها والمكلفون بضرائبها والمقاتلون في سبيلها وبكثرة هؤلاء او قوتهم او عدتهم يعظم نفوذ الشيوخ والرواسي . ٤٠ . طبقة العبيد وهم احط الطبقات ، ولا يزال اسم العبودية لاصقاً بهم ولو ان اسياهم اعتقوا فصاروا احراراً يتصرفون بانفسهم واموالهم كما يشاءون . وافراد العشيرة لا يصاهرون هؤلاء ، يحكمهم انهم ليسوا في مستوى اجتماعي مماثل لهم . وليس كل العبيد سود البشرة ، بل ان بعضهم بيض كالذين يكثر وجودهم في عشيرة طلي او النعيم، وهؤلاء العبيد رغم امتناقهم ما برحوا متعلقين بشيوخهم واسياهم لا ينفكون عن ولائهم وخدمتهم وبذل النفس والنفيس في سبيلهم . لولا صفة بارزة تتجلى احياناً في بعضهم وهي نكران الجميل فاحدهم يبق على الولاة مادام يرى احساناً ومعرفة . اما اذا قصر عنه مولاه ولو قليلاً بسبب عسر او سهو تنكر واقنعس وقد قدمنا ان البدو يسمون العبيد باحب الاسماء لديهم كلؤلؤ ومرجان وسرور وسلم وغراف وامثال ذلك وهم يخاطبون ساداتهم بيا عمي وسيداتهم بيا عمتي .

٨ ادارة شؤون العشيرة ، المشيخة وشروطها . . ان الطبقات الاجتماعية التي

عددناها يتساوى ابناءؤها في جميع الحقوق مهما اختلفت مراتبهم فلا فضل في علم البدوة لاحد على أحد . الا انه يكون على رأس كل فرقة رئيس يدعى شيخاً . وشيوخ الفرق خاضعون لشيخ العشيرة ، وشيوخ العشيرة لشيخ القبيلة المعروف عندهم بشيخ المشايخ او العاليم ، ولا يمتاز الشيخ الا بكونه مقدماً على الاقران ومكلفاً بالادارة والقيادة وله حق اعلان الحرب او عقد الهدنة او ابرام الصلح مع مشايخ العشائر الاخرى . والمشيخة عندهم تنتقل بالارث الى الاولاد فلاحفاد وكثيراً ما يكون ولي عهد الشيخ طفلاً وهو شيخ . ويبقى تحت وصاية احد اقاربه المتنفيذين حتى

يبلغ من الرشد . على ان المشيخة ليست بالارث وحده ، بل بالاستحقاق ايضاً فلا يصير ابن الشيخ شيخاً ما لم تتوفر فيه الشروط . ولا يستحق المشيخة وينالها الا من كان بين رجال الاسرة المتمشيخة او العشيرة اذ كان جناناً واكثرهم معرفة وسداداً واطلقهم لساناً وبياناً وافرهم يوم الطعن والنزال واغناهم بالرزق والمال وابسطهم يداً بالكرم واقراء الضيف واقدرهم على رفع الضيم والحيف واوفرهم بعدد الاقرباء والانساب والخواشي والمواشي واعرفهم بمخاطبة الدول والحكام واقدرهم على حل المشكلات لدى اولياء الامور . والشيوخ او رؤساء العشائر الرحل كانوا يعينون بقرار من المفوض السامي الفرنسي (والآن من وزير الداخلية في الجمهورية السورية) ، وتنص المادة ٣٤ من القرار رقم ١٣٢ بأنه يمكن عزلهم اذا اخلوا بالامن العام او تمردوا على القوانين والانظمة النافذة او استبدوا وعتوا حتى قيام العشيرة كلها لطلب عزلهم .

والمقام الاول عند البدو في المشيخة للجدارة الشخصية . روى الاب جوسن الدومنيكي في هذا الصدد انه سئل ذات يوم أحد كبراء البدو كيف يصيرون شيوخاً عندهم ، فاجابه وهو يهز سيفه : بالفهم السوي والزند القوي .

هذا ويصعب تحديد سلطة الشيخ ونفوذه الفعلي . اذ ليس ثمة اي دستور مقرر او قانون محدد . بل كل ذلك يتبع العرف المشروع والشرع المعروف . ويمكن ان يقال احياناً ان الشيخ هو المرجع في كل شأن والملاذ في كل خطب او هو كل شيء ، كما يمكن ان يقال - اذا كان ضعيفاً او مأفوناً - انه ليس بشيء . والقاعدة العامة ان تتناول سلطة الشيخ الامور الآتية :

١- يأمر الشيخ بالرحيل والنزول اذا نجح قومه وظعنوا . فهو يمين مقدماً مواعيدها حسب الفصول او حسب مراعي الكلا او موارد الماء ، ويراعي في ذلك العادات البدوية المتعلقة بحقوق الرعي ومناطق الجولان الخاصة بالعشيرة وماليتها . وهو ينظر في هذه الامور الى سلامة عشيرته او اطمئنانها من وجود

اخصام لها او عدمه ، فيستطلع لاجل ذلك اخبار الحالة السياسية في البادية ،
وحينما يظهر له ان الآوان قد آن يأمر بالرحيل ويكون هو البادى بتقويض
البيت وتحمله .

٢. — يراقب الشيخ امر الالفة والوثام بين ابناء عشيرته . وهو المرجع في حل
المنازعات وتسوية الخلافات التي لا تحتاج لمراجعة القضاة (الموارف) وهو الذي
يوقف القتال بين المتخاصمين بقوله « وجهي بينكم » فهذه الكلمة الصغيرة تحقن
الدماء ويحفظ النفوس . ثم هو الذي يحير الدخيل او الطنيب اذا استجار
ويسترد الاشياء المسلوبة ويكشف السرقة ويقسم الغنائم اذا عاد الغزاة ويحمي الفقراء
والضعفاء ويوافق على عقود الزواج والطلاق .

٣. — يمثل الشيخ عشيرته لدى الحكومات وذوي السلطات ويتحمل تبعه
مايفعله هو واتباعه من السيئات المندرجة في المادة ٣٤ من القرار ١٣٢ .

٤. — يعلن الشيخ الحرب ، واعلان الحرب معروف عندهم : (رد النكا) ،
او يقر الصلح والسلام بعد أخذ رأي المجلس المؤلف من شيوخ العشيرة ورؤساء
فرقها . وعند حدوث مايدعو للحرب او السلم يدعو الشيخ هؤلاء فيجتمعون في
في بيته ويتشاورون ويقررون ما فيه صالح العشيرة ، وعلى الشيخ ان يزعم لقرار
هذا المجلس . ومن العادة انه حينما تعلن احدى العشائر الحرب على عشيرة اخرى
يرفع الشيخ راية سوداء او يربطها في رقبة فرسه او بعيره ويطوف بين البيوت
منادياً بما معناه « لقد اشهرت الحرب على العشيرة الفلانية استعدوا » فيهب كل
واحد حينئذ الى سلاحه ويولي الدعوة . ومن لا يليي يحق للشيخ ان يضربه
او يطرده من المنزل او يسلب سلاحه وحلاله . والواقع ان اعلان الحرب من
عشيرة على اخرى امر ذو خطر كبير . ولا بد أن تكون ثمة دواعي حقيقية تسبغ
ركوب هذا المركب الخشن كالغزو والتعدي المتكررين او سلب حقوق الرعى
او الشرب او امثال ذلك . وحينما يقرر الشيخ اعلان الحرب على عشيرة اخرى

يبحث الى شيخها كتاباً أو رسولاً محايداً أميناً يقول فيه : مردود عليكم النكاح لاجل حالكم حالنا ومالك مالنا ، وبعد ذلك لا تكون احدي العشيرتين مسئولة عما يقع على الاخرى من الغزو او السلب والنهب ، لان كل ما يحدث من ذلك بعد (ردالنكا) يعد امراً قانونياً شرعياً . وأما ما يقع قبل اعلان الحرب فيكون تابعاً للضمان والغرامة .

هذا والبدو من حيث الطمع والاذعان جامعون بين الضدين . فاذا غلت ايديهم عن التحامل وضائق بهم الحيل قنعوا باليسير ورضخوا لكل الرضوخ ، وان تبينوا سبيلاً الى الاستطالة هبوا اليه . ويطلق هذا الحكم على الرفيع منهم والوضع ، وهو نتيجة كل ساططة مطلقة . ومن ثم لم يكن الشيوخ في مأمن من فتك اقاربهم او منافسيهم ، الا اذا استتب لهم الامر واكثروا من وسائل الارهاب والترغيب معاً .

ومن العادة ان يكون في بيت كل رئيس كبير او شيخ جليل انساب وذو قربى مخلصون وحاشية وعبيد معتقون او شبه معتقين هم مكلفون خاصة بخدمة الشيخ وصيافته ويؤلفون شرطته او حرسه الخاص (يسمون (بيرق) عند عنزة الجنوب « ضناً مسلم » و(ذكرد) (١) عند عنزة الشمال « ضناً بشر » وكذا عند بدو العراق . ويكون وراء هؤلاء اسر وبيوت بمن لاتصلها بذلك الشيخ وشيخة قري ، لكنهم متعلقون بولائه ووداده لا يفارقونه قط .

ومن المفروض ان يمتاز الشيخ بالارحية والنجدة والبسالة ورجاحة الفكر مع طلاقة اللسان والوجه والحلم عند الغضب وطول الاناة ورباطة الحاش ، ودواعي الارحية تقتضي على الشيخ ان يكون بيته اوسط البيوت وأعظمها واعلاها ليراه الطارق ليلاً ونهاراً فيقصده ، وان تكون ربعته اي مكان اجتماع الضيوف كالمتنبي

(١) ربما كانت تصحيف كلمة escorte الافرنسية وهي بمعنى جنود الحرس

العام مفتوحة في وجه كل قاصد لاتنقطع منها القهوة والتبغ والطعام والفراش . وعايه قول شاعر بدوي في صحراء سيناء :

الشيخوخة	ماهي	بالجوخة	ولا	بكبر	العبايسة	يابنية
الشيخوخة	صب	القهراوي	زي	العيون	المروية	
الشيخوخة	جر	المناسف	في	السنين	الردية	

ومن عادة الشيوخ في العشائر الكبيرة (شمر وعنزة) ان يتكفلوا بحماية ضرائب الابل والغنم التي تفرضها الدولة على عشيرتهم وعلى الغرياء اللاجئين اليهم لسبب ما فيتولى الشيخ توزيعها على الافراد مباشرة . وهو يجيبها ثم يدفع ما جباه الى الدولة ويحتفظ بالزائد منها لانفاقه في سبيل المصلحة العامة للعشيرة . وهذه الطريقة اي توسيع الدولة للشيوخ باب منعم كبير لهم فوق الراتب السنوي الذي يتقاضونه من الدولة . الا ان اكثر الشيوخ ينفقون ما يأخذونه بحكم ان مالهم يكاد ان يكون مشاعاً ونفقاتهم طائلة وبذخهم غير يسير . ومن عاداتهم ايضا ان يرسلوا احد عبيدهم فيمر بالفرق التابعة لهم ويجمع غنائمها وما عزا من كل واحد بحسبه . وذلك لقاء صيانة رزقهم من السرقة او السلب .

وفي العشائر الكبيرة ولا سيما في تلك التي على رأسها بيوتات كريمة المحدث وجليلة القدر (كآل الجرباء في شمر وآل عبدالرحمن في طي) وامثالهما يكون الشيخ محترماً جداً لا ينبغي لاحد ان يستغيبه بسوء او يعترضه بقول ولو شتمه او انهال عليه بالضرب . ثم ان مال الشيخ محرم لا يجوز لاحد ان يختلسه او يقتصبه ، وان فعل ذلك عن غفوة وعلم به اعاده بسرعة معتذراً . ومن المزاي التي يفترض وجودها في الشيوخ الصدق في القول والبر في القسم والوفاء في العهد والمثانة في الذمة والبعد عن النقض والنكث والغدر ، وتقدر درجة النبل والسؤدد عند الشيوخ بنسبة مالهم من هذه المسكارم . وكونهم عفيفي اللسان عزوفين عن الشر والاذى مترفعين عن الدنيا وعن اموال ابناؤهم العشيرة واعراضها ، لا يتقاضون اجراً عن معروف

اتوه ولا يتحزبون لاحد ولا يتوانون في مدافعة حقوق العشيرة ودرء المفسدة عنها وجلب المنفعة اليها ، يمدونها اذا عضتها سنو الجذب والحل وبأتون لها بالخطباء الاتقياء والمعلمين الصالحين اذا اخنى عليها الجبل بامور الدين والدنيا ويرشدونها ويوجهونهم — نحو العمل الصالح والرزق الحلال من سبيل الزرع والضرع وما اليهما .

وقد جرت العادة انه اذا عجز الشيخ بسبب التقدم في السن او المرض وشعر بحاجة الى الراحة والتخلص من اعباء الرئاسة وهمومها ينتخب من بين اخوته او اولاده او احفاده ذلك الذي يرى فيه هو الكفاءة في النياحة عنه . وقبل ان يحمله الامرة كلها يحمله بعضها كحل الخلافات والنياحة عنه في المؤتمرات ونحو ذلك . واذا اشتد عليه المرض وشعر بدنو الاجل يقلد نائبه المنتخب الرئاسة كلها . وقد جرت هذه الحالة عقيب الحرب العامة الماضية عند عشيرة شمر ، فازريش شمر العاصي بن فرحان كان باع من العمر ثمانين حولاً أو أكثر وانزوى الى اراضي دمبرقو (في قضاء ديرك من محافظة الجزيرة) التي اقطعها له الترك وقتئذ . فعهده بالرئاسة الى حفيده دهام بن هادي العاصي على ما كان له من الابناء الشبان النشيطين .

X اما اذا لم يظهر هذا الخلف الجدارة الكافية ونفرت العشيرة منه تنتخب غيره واذا حصل تبدل الرئاسة على غير انتظار كالموت الفجائي او لمصيبة داهية او ازمة عضالة ، فرواسي العشيرة اي كبارها ينتخبون غيره . وقد يصل الامر الى نقل المشيخة من بد الاسرة التي كانت متوليتها الى يد (العقيد) الذي يكون له اوسع شهرة في ذلك الحين . لان شيخ العشيرة ليس من الحتم ان يكون عقيد الحرب والامثال عند البدو على ذلك كثيرة . كجعدان بن مهيد في الغدعان ، فقد انتخبته عشيرة الاسعة عقيداً للحرب في معاركها مع الارولة حول سنة ١٢٩٢ هـ وفي عهدنا لم يكن عقيد الحرب عند عشيرة الموالي احد امراءهم من آل أبو ريشة . بل كان رجلاً من طبقة تالية يدعى فارس العطور توفي منذ بضع سنوات . وقد

نال هذا الرجل بفروسيته وحسن قيادته ووعورة خلقه مقاماً جعل السلطات تعتمد عليه رئيساً للموالي الشماليين في جانب الامير شايش والامير عبد حتى مات وخلفه ابنه احمد في العقادة وربما خلفه في الرئاسة على الموالي القبليين . على ان الشيخ اذا لم يكن عقيداً ولم يقد الحرب بنفسه له الامتياز الخاص في اعلان الحرب او عقد الصلح وهو في الحالتين مكلف بان يراعي الحالة الروحية في عشيرته . لذلك تراه في أغلب الاحيان يوفق الامر الواقع بما يلائمه . أما اذا تقدم الشيخ لعقد الصلح او اتمام المحاسبة والمقاضاة مع الاخصام حينئذ لا مرد لكلامه ولا تبديل او نقض لما سمح به في امر (الحفر والدفن) . واليك هذا المثال الذي ذكره المقدم مولر : في مؤتمر الصلح الذي عقد بين شمر الجزيرة وفريق الولد من الفدعان في سنة ١٩٢٦ لانتهاء الفتن والغارات التي دامت بينهما سنين عديدة قام الامير مجحم بن مهيسد ودفن الفأ وخمسائة بعير لفرقة العجاجة احدى فرق الولد (بضم الواو وسكون اللام الثانية) . وقد كانت شمر اغتصبت هذه الاباعر في احدى غزواتها ، ومنهما اكثر من ثلاثين الف ذهب عثماني ، ففضى الامير مجحم بذلك على اكثر من مائة بيت اضطرت الى ان تبقى عالة على بقية العشيرة في حلها وترحالها ومعاشها ، ذلك لان غزاة شمر لم يبقوا لها شيئاً . ولا ريب في ان مكانة الامير مجحم وشخصيته وسلطته التي يتمتع بها على عشيرته والمعونة التي كان ينتظرها وقتئذ من الحكومة حملته على قبول هذا الحل المجحف .

والرئيس في العشيرة هو المسئول عن اعمالها تجاه الحكومة وبقية العشائر . وقد يكون هذا غير الرئيس الذي وظفته الحكومة واعتمدت عليه كما كان الحال لدى شمر الزور (الخرسه) حينما كان رأسها رسمياً مشعل باشا الفارس وفعلياً ميزر العبد المحسن . فكانت العشيرة لاتقر على اي امر يبرمه مشعل مالم يقر به الشيخ ميزر الى ان نحي مشعل في سنة ١٩٢٧ واستقرت الرئاسة في يد ميزر . وثمة عشائر لا يعتبر ختم رئيسها الا اذا انضمت اليه اختام بعض الرؤساء

التالين الذين يدعون (ارباب الاختام) . ذلك ان معظم رؤساء البادية كرجالهم اميون ، يتخذون اختاماً لتوقيع رسائلهم التي يبعثونها وهذه يكتبها لهم كتابهم اذا كانوا اغنياء ومتخذين كتاباً ، او يكتبها لهم احد التجار العابرين . وطلب توقيع ارباب الاختام يظهر في العشاير التي خرجت السلطة فيها من يد الاسرة المتراسة الى رئيس آخر لم تلتف كل القلوب حوله بعد ، فبقيت متعلقة الى حد ما بالاسرة السابقة . كما هو الحال في الاخرصة من الغدعان التي نبغ فيها مزود بن قمييش الملقب بالنمر واغتصب الرئاسة من اسرة ابن غبين . فما من توقيع كان يضعه مزود الا وينبغي ان يقر عليه عبيد بن غبين كبير الاسرة المذكورة . وهذه الحالة موجودة ايضا في الاسبعة في جذمي الاعمدة والبطينات فكل منها ارباب اختام عديدون كابن عايد وابن الصايد وابن موينع وغيرهم من رؤساء الفرق .

ثم ان الرئيس فيما خلا مكاتته الشخصية لا يمكنه ان يحل او ييرم امرأ في أمور الحل والترحال والحرب والسلام ما لم يشاطره الرأي رجاله الملتفون حوله وخاصة الشيوخ المعمرين والرواسي المنظورين . فهو مضطر الى اخذ موافقة الجميع لاسيما اولئك الذين ربما انقلبوا عليه وصاروا رقباء ومزاحمة بفضل ذكائهم او مكاتتهم وهو اذا كان غنياً يصير على طريقتين : اما ان يربط القلوب حوله بجوده وكرمه واما ان يتخذ لنفسه عبيداً او (زكرد) اي رجالاً مسلحين يقضون مايرمه وينفذونه وهذه الطريقة الثانية تظهر للوهلة الاولى احسن ؛ لأن فيها فائدة تحميل قسم من النفقات المصروفة على رجال العشيرة . ولكن يبقى هناك حصة كبار الرؤساء فالببدو لا يرضون بخدمة احد يحسبونه اقل نبلاً منهم ولو لقاء جعل ، وليس ثمة مجال للضغط ، لان من يجد نفسه مغدوراً ليس اسهل عليه من ان يقوض خيامه ويذهب بأهله نحو رئيس آخر يرى الانصواء تحت لوائه انسب له ، وهذه الحالة كثيرة الوقوع ، ولطالما حدثت من جراء سوء التوزيع الذي كان يجري حين فرض الضرائب (كالودي والاغنام) وجبايتها . فمن الفرق من لم يدفع الا القليل

ولم يستطع شيوخها مراجعة السلطات ، خوفاً من افلات الفرقة من يدهم ، وكثيراً ما كانت هذه الحالة تدعوهم للمطالبة بتخفيض الضرائب بحجة النقص الحاصل في العشيرة من جراء مغادرة بعض الفرق وانفصالها . وآخر تدبير يلجأ اليه الشيوخ هو مراجعة الحكومة واستدعاء معوتها لتنفيذ سلطتهم على عشيرتهم . لكن هذه المعونة دقيقة جداً ينبغي على الشيخ ان لا يتعدى فيها الحدود وعلى ضابط القوة في المرسلة لمعوتته ان يجتنب كل ما يوجب الاقلاق والضجة .

هذا وكلما زادت افراد العشيرة حول الرؤساء والشيوخ كثرت اعمدة بيوتهم وكثر عدد عبيدهم ورجالهم وازداد بذخهم ورفهم بركوب السيارات الفضة وغشيان الخواضر والمدن . ويصير عند كل من نساء الشيخ فراشة وهي امرأة تقوم بواجب الفرش والحل والظعن ، وعند الشيخ نفسه طباط يذبح الذبائح ويطهي الطعام وحطاب يجمع الوقود وراوي يهني الماء ويحلبه وسفراوي ينقل الصحون والمناسف للعوائد ووكيل مكلف بدعوة الضيوف واجلاسهم وتوزيع الطعام عليهم ، هذا الى ثلاثة او اربعة سواس وراعي ابل وسائق سيارة ورعيان غنم لكل ٣٠٠ - ٤٠٠ رأس منها راع ، ثم صانع او حداد لاصلاح السلاح ولحم الخيل ونعالها وبواردي لاجل الصيد وصقائري لخدمة الصقور وامثالها من الجوارح . وبعض هؤلاء الخدم من العبيد الذين اعتقهم اجداد الشيخ حينما حضرتهم الوفاة بقوا في الخدمة لدى اولاده او اعقابه وهم يستمدون المعونة او الحماية في كل سائحة من « اعمامهم » الذين يمكنونهم من ان يتمتعوا وسط العشيرة بارضى عيشة . ويكون قرب بيت الشيخ بعد ذلك بيت خاص للخطيب او الملا ، المكلف باقامة الصلاة والاذكار والوعظ ، واذا كان هذا الخطيب صالحاً ودراسة يتمتع بحرمه كبيرة ونوال غير يسير .

انفصال او تبريل التابعة

يستطيع من يشاء من العشيرة ان يفصل عن عشيرته وينضم الى عشيرة اخرى

اذ راعى الشروط التالية : عند ما تقع مشكلة يتعذر حلها بين احد الناس وبين أسرته او عشيرته او بين عشيرتين او بين فريقين ووجد الشخص او العشيرة او الفرقة الواحدة انها مغلوبة الاخرى وغير قادرة على نوال الحقوق التي تطالب بها ولم تجد سبيلاً للتفاهم يسعى ذلك الشخص او تلك العشيرة او الفرقة المفاوذة بالمفاوذة مع عشيرة اخرى للانضمام اليها . وبعد ان يتم الاتفاق مبدئياً يقيم المغلوب وليمة كبيرة يدعو اليها الاعيان والشيخ ويعلن انفصاله من عشيرته بحضور الجمع المدعو ويرحل بعياله وحلاله وينزل على العشيرة التي كان قد تفاوض معها واعلن الالتحاق بها فتلاقيه رجال تلك العشيرة وتولم له ولذويه وتكرمهم . وفي اليوم التالي يدعو هو في دوره رجال العشيرة الى وليمة يقيمها في بيته ثم يرفع راية بيضاء معلناً انفصاله التام عن عشيرته وانضمامه للآخرى ، ويقدم الراية لشيخ تلك العشيرة ، وهذا يعلن قبول الشخص او العشيرة او الفرقة في عداد اتباعه ، بعد ذلك يصبح ذلك الشخص او تلك العشيرة او الفرقة في عداد العشيرة الاخرى مساوين لهم في جمع الحقوق والامتيازات .

الصداقة بين العشائر

× اذا كانت عشيرة صديقة الاخرى صارت مساوية لها في الحقوق والواجبات كأنها فرقة من فرقها . فكل من العشيرتين يحتفظ باستقلاله الناجز ، لكنها اذا تنازعا على الآبار وموارد المياه في مناطق النجعة والرعي ونحو ذلك ، يفصل الرؤساء في الامر باعظم مايكون من المسالمة والتسامح . واذا ازدادت هذه الصداقة انقلبت الى تحالف حقيقي . وفي هذه الحالة اذا اصاب احد الفريقين المتحالفين غارة او عداوة من عشيرة غريبة على الفريق الاول ان ينجده (يفزع له) ويقف بجانبه .

ان هذه التحالفات لا تكتب لها عقود وصكوك ولا تحتم بتواقيع . وهي موجودة

ومستمرة بطبيعة الحال وبدقة تامة بين العشائر التي بينها عصبية نسب واحد كمعشائر
عذرة مثلاً ، رغم النفور الذي قد يكون بينها . ومن ثم ترى العشيرتين المتنازعتين
إذا أصيبت واحدة منها بغارة عشيرة غريبة تحتمل النزاع الناشب بينهما موقفاً
وتضامناً للوقوف في وجه العشيرة الغريبة .

• وإذا توثقت عرى الصداقة بين عشيرتين أحدهما أقوى من الثانية تصير الضعيفة
من اتباع القوة ولو أحقها كما هو الحال بين الولد علي والأرولة وبين الفواعة والاحسنة .
إن أعمال العداء والتطاول على عشيرة صديقة تحاكم دائماً بمعقوبات أشد وأقسى
من التي ترتكب في حق عشيرة معادية . والقاعدة المتبعة هي إن العشيرة المعتدية
لا يصح لها أن تطالب عند المقاضاة بأي تعويض عن الأموال المنهوبة ولا إلا نفس
المقتولة . وإذا هوجمت عشيرة صديقة صدفَةً أو خطأً فالمنهوبات ترد بكاملها وبلا
إبطاء ، وكثيراً ما يضاف إليها هدايا لتلافي الضرر المعنوي الذي حدث .

الحرب بين العشائر

قلنا إن اشهار الحرب على عشيرة أخرى أمر عظيم وخطر ، ينبغي أن لا يقدم
عليه إلا بعد تفكير وتروي . وعلى كل ينبغي أن يسبقه باديء ذي بدء إرسال
إنذار وهو ما يدعونه (رد النكا) (١) ولألا ؟ فإن رئيس العشيرة الذي يقهر في
ذلك ويفدر حينما يقف في موقف الحكم تصدر في حقه أحكام قاسية عدلة ويعرض
نفسه إذ ذاك للذلان لحلفائه وانفضاضهم من حوله ، بحكم أن عمله كان مخالفاً
للمروءة والتقاليد العربية .

وإذا أعلن الرئيس الحرب بعد تفكير وتروي واستشارة كبار العشيرة تفتتح
أبواب العداء والشروع وتبدأ الغارات بين الفريقين ، وقد تصل هذه إلى معارك

(١) في أقرب الموارد ؛ نكا القرحة قشرها قبل أن تبرأ فنديت ونكا العدو
قتل فيهم وجرح وانخن . فلعل كلمتهم رد النكا من أحد المعنيين .

حقيقية، وهي في يومنا صارت خطرة جداً، لان البدو الرحل الذين بينهم عسكريون قدماء شرعوا يتخذون الاسلحة الآلية كالمشاشات والبنادق السريعة الطلقات كما جرى بين الولد والولدة في عام ١٩٤١.

وفي المعارك الحربية قواعد لا بد من مراعاتها. والا كان الناقضون لها عرضة لمواخذة القضاة الذين لا بد من استدعائهم يوماً ما حين تسوية النزاع. وخلاصة هذه القواعد هي:

١. - الجرحي - سواء أكانوا من الاصدقاء أم من الاعداء - يحملون الى الخيمعات ويعتق بهم ريثما يرسلون الى اهلهم. ٢. - الجرحي الخطرين يمكن الاجهاز عليهم فوراً لتخليصهم من الآلام. وذلك بعد موافقة خطيب العشيرة وطبيبها اللذين يجب عليهما عادة ان يرافقا الشيخ او عقيد الغزو. ٣. - يؤخذ سلاح الاسرى ويساقون الى مكان بعيد عن المعركة ويطلق سراحهم. ٤. - يقسم الشيخ الغنائم بعد أن يأخذ حصة قدرها في الغالب الثلث.

ويمكن انتهاء النزاع فوراً خلال المعركة او حين الخروج منها والوصول الى صلح سريع، وذلك في حالات خاصة صارت نادرة جداً، وهي:

١. - اذا وجد أحد الفريقين نفسه ضعيفاً وقصد التخلص باقل معروف يبعث نحو المهاجمين فتاة جميلة راكبة على ناقصة بيضاء. وحينئذ يقف اطلاق النار من كل جهة، ويضطر رئيس المهاجمين بحكم المروءة الى ان يذهب بنفسه للقاءها، او يرسل احد ابنائه، وحينئذ يجب على هذا الابن ان يتزوج تلك الفتاة. وحينئذ يعقد الصلح فوراً ويعود كل امرئ الى منزله.

٢. - اذا وجدت العشيرة المتعدية عليها نفسها ضعيفة جداً، يحق لها عقيب حدوث الغارة ان ترسل وفداً من نساءها الى رئيس العشيرة المتعدية ليستعطفه بامر الغنائم، وتحتم المروءة على هذا الرئيس ان يرد كل ما أخذته ويقبل بالصلح. وهذه الحالة ايضاً نادرة الوقوع كسابقتها.

بيوت البدو

كلما تجول المرء في البادية وضرب في آفاقها في فصلي الخريف والربيع ،
 لمح عن بعد قرب التلال وبين الاودية لطحات سود تشبه شامات ذوات القدود .
 وهي تبدل احياناً منظر السراب وتهدي التائه وتنعش السائر بمرآها وأمل وجود
 المأوى والقرى فيها . وهذه اللطحات هي بيوت البدو المصنوعة من شعر المعز .
 واجتماع هذه البيوت يؤلف (الحواء) او (الحلة) او (النجع) او (الدوار) ، وفي
 اصطلاح الافرنج (الخيم) وكلها بمعنى قرية البدو او منزل البدو . الا ان هذه القرية
 موقتة متقلبة ومعدة الى ان تزول بسرعة كأنشأت بسرعة . والحلة لا تحوي العشيرة كلها بل
 تحوى في الغالب رهطاً او فرقة من العشيرة واهل الحواضر اذا رأوا اجتماعاً من بيوت البدو
 قالوا رأينا (فريق عرب) او (نجع عرب) ، ويندر جداً أن تجتمع العشيرة كلها
 في حلة واحدة . والبدو لا يستعملون كلمة خيمة ولا مضرب ولا فسطاط ولا غيرها
 مما جاء في كتب اللغة بل كلمة (بيت) او (بيت شعر) فقط . وقد ورد في الكتاب العزيز
 وصف مساكن البدو وأثاثهم وامتعتهم بعبارة في منتهى الرقة والجزالة وهي
 « وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن
 اصوافها وابارها وأشعارها اثاثاً لكم ومتاعاً الى حين » .

وبيوت الشعر حارّة في الصيف ، باردة في الشتاء ، ولا تقي من الرطوبة والمطر
 كما ينبغي ، تحفق فيها الرياح وتهزها وقد تسقطها العواصف على رؤوس اصحابها
 لكن هذه البيوت على علائها المذكورة ما برحت منذ آلاف السنين مأوى البدو
 ومسكنهم يطوونها وينشرون ويقوضونها وينصبون ويهيمون بها ويمدحون . فمن
 المادحين لها ميسون بنت بحدل الكلبية زوجة معاوية بن أبي سفيان ، وذلك رغم
 الترف والنعيم اللذين غمرها بهما زوجها في قصرها المشرف على غوطة دمشق ورياضها
 فقد دخل عليها يوماً فسمعها تترنم في خدرها فأنصت اليها فاذا هي تقول :

لبيت تحفق الارواح فيه احب الي من قصر مشيد
ولبس عباءة وتقر عيني احب الي من لبس الشفوف
وكلب ينبج الطراق دوني احب الي من قط الوف
وأكل كسيرة في كسريتي احب الي من اكل الرغيف
واصوات الرياح بكل فج احب الي من تفر الدفوف
وبكر يتبع الاظلعان صعب احب الي من يغسل زفوف
وخرق من بني عمي نحيف احب الي من علج عنيف
خشونة عيشتي في البدواشي الى نفسي من العيش الظريف
فما أبغي سوى وطني بديلاً فحسبي ذاك من وطن شريف

فلما سمع معاوية ذلك منها قال : مارضيت بنت بحدل حتى جعلتني علجاً عنيفاً
ثم ردها الى أهلها .

وتنسج بيوت البدو من شعر المعزى الذي يجعل لها هذا اللون الاسود مع
تموجات كستنوية غامقة وهي تتألف من مستطيل كبير مؤلف من قطع طويلة
تدعى (شقق) جمع (شقة) تحيط الواحدة بجانب الاخرى، ويتكون منها (السقف).
ونساء البدو يصنعن الشقاق بأيديهن، وقد تشتري من بعض بلاد الشام التي اختصت
بصنعها كقرية الشمر القديمة غربي حلب ويبرود شمالي دمشق والكرك في شرقي
الاردن وغيرها. وللبیوت (جبال مرس) من القنب و (أطناب) جمع (طنب)، ويقوم
السقف على أعمدة جمع (عمود) علوها يتراوح من المتر الواحد في الخربوش الى
الثلاثة أو الاربعة أمتار في بيوت الرؤساء الكبار، وهي توضع في الخط المتوسط
بامتداد الطول الاعظم للبيت، ويتألف البيت أيضاً من (الرواق) وهو قطعة طويلة
من نسيج شعر المعزى أو وبر الجمل، وعندهم أسياخ كبيرة من الحديد (أخللال)
شكلاً كحرف S الافرنجي يربطون الرواق بها بطرفي السقف أو بطرف واحد
منه حسب هبوب الرياح أو ورود أشعة الشمس. ومنه كان لا بد أن يظل بيت

البدوي مفتوحاً من احدى الجهات .

والشقق تكون من شعر المعزى ، لان هذا الشعر لا يمتص الماء واذا كان بيت الشعر ثقيلاً في الاصل نلو اقبل نسيجه يصبح غير ممكن الحمل والنقل لو انه من غير شعر المعزى . ونسيج هذا الشعر في لحته وسداه ذو خيوط غليظة يؤلف حزاماً مترامدة جداً ، ويزداد تراصها حين هطول المطر حتى تصبح غير قابلة النفوذ والرشح ، بيد أنه يمر للنور ، وحين سطوع الشمس بشدة يظهر للاشباح ظلال ولذا يتعذر حسر الرأس تحته . وهذا ما دعا بعض البدو انصاف الحضرة أن يتخذوا بيوتاً بيض من نسيج القطن الخاص بالخيام . وهي أقل حرارة ، الا أنها لا يمكن اتخاذها في الشتاء ، وتترك في المعمورة الى حين العودة من نجمة الشتاء . وبيوت التجار والباعة الملتحقين بالبدو تكون من نسيج القطن الابيض ومخروطية السقف وعمودية الجوانب ، وهي التي يسمونها (خيام) جمع خيمة . وهم يضرّبونها في الغالب قرب بيت الشيخ ، ومن ثم كانت من علامات الاستدعاء اليه وللعمدة قيمة عظيمة لدى البدو . وهي تعد روح البيت في البادية وقوامه . ومنها قولهم فلان عماد بيتنا . وهي أيضاً كما طالت وكثرت دلت على الثروة . والرفعة . وعلى ان صاحبها طلبة الاضياف والزائرين ، وفي اللغة (فلان طويل العمد) أي بيته معلم لزارئيه (و فلان رفيع العمد) أي شريف لرفعة عماد بيته ، و(أهل العمد) اصحاب البيوت العالية الرفيعة . ومن فوائد الاعمدة ان الرجل في البادية اذا اجرم وطورد

فدخل بيتاً وقبض على عموده سلم وصار في حمي هذا البيت .

وأصغر البيوت ما ليس لها سوى عمود واحد . وهذه هي بيوت الارامل والطاعنين في السن الموحدين والمتهملين وبيوت الدخلاء والمستجيرين . واكثر ما تضرب هذه البيوت الصغيرة في جوار بيت الشيخ لتبقى في كنفه وعلى مقربة من احسانه . ويكون لكل اسرة بيت واحد ، إلا كبار الرؤساء ، فان لهم عدة بيوت عظيمة ويتبع مما ذكر ان مكانة البدوي وسعة حاله تعرف من عظمت بيته . فاذا اقبلت على منزلة من منازل البدو وقصدت اعظم بيت فيه وقعت حتماً على بيت الشيخ

او على بيت كبير يماثل الشيخ .

وعدد الأعمدة يكون بحسب كبر البيت ، ولا يدخل على كل حال في الحساب العمودان اللذان في طرفي البيت . وهما قلما يستعملان ، لان الطرفين يكونان في الغالب مائلين نحو الارض بالاطناب ، بينما اعراب الديرة انصاف الحضر يجعلونها مرفوعين والسقف ممتد باستقامة ، وهذا ما يجعلك ان تعين اصحاب هذه البيوت ان كانوا بدوياً ام من أعراب الديرة . وثمة علامة لتمييز البدو الرحل عن اولئك هي ان بيوت اعراب الديرة تكون اكبر واوسع واكثر اعمدة واقساماً ، ثم ان بيوت البدو ذات اروقة . لان البدو لا يبيعون اوبار ابلهم ، بل يستعملونها لنسج الاروقة . ونسج وبر الابل يكون اوسع خلافاً منه في نسج شعر المعزى . فوجود هذه الاروقة علامة ان البيوت بيوت بدو اقحاح . وقد امتازت عشيرة الاسبعة بان اروقها من وبر الابل وذات خطوط بيض في الغالب . وعلامة اخرى هي ان اعراب الديرة يتخذون لتفريق خدور النساء عن مكان الضيوف نسيجاً من القصب اسمه (درب) ، وهذا لا يوجد عند البدو ، الا لدى بيوت الكبراء ، وعيدان القصب تربط ببعضها بخيوط من الصوف ملونة وتجعل عالية . والمسافات بين الأعمدة هي اطول منها لدى اعراب الديرة .

وبيت البدوي المتوسط الحال ذو عمودين ، وبيت الفقير والضعيف منهم ذو عمود واحد ، يستثنى من ذلك عشيرة (الارولة) التي اكثر بيوتها ذات عمود واحد مما يجعل لحلمهم منظرأً كثيباً . وليس ذلك لقصر ذات يدهم ، فهم اغنياء يملكون عشرات الالوف من الابل ، بل لانهم لا يعنون بتربية الغنم الا قليلاً ، وأنساع بيوت البدو في شمال الشام من علائم تمايلهم نحو الحضارة وتدرجهم لتقليد (أعراب الديرة) الذين يربون الغنم ، وهي تدر ريعاً اكثر من ريع الابل ، لاسيما بعد أن شاعت السيارات وزاد الاعراض عن كل لحم الابل في مصر . واكثر رؤساء عشائر الفرات تكون بيوتهم اوسع واطول من بيوت كبار

رؤساء البادية ، وليس ذلك لأنهم أغنى وأرفه حالاً بل لأنهم لا يأوون الى بيوت الشعر الا في الشتاء ، اما في الصيف فانهم يطوونها ويقيمون قرب الفرات في (السبايط) جمع (سباط) المصنوعة من سوق الاشجار و أغصانها . لاسيما وان نجمة هؤلاء وترحالهم قليل وغير ذي بال . اما الحالة عند البدو الرحل فهي مختلفة جداً ، فالبيت لا بد من تخزينه الى قطع عديدة كلها قوض ، ومن اعادة تركيبه كلما بني ، والبيت اذا صارت اعمدته اكثر من ثلاثة يغدو نقله متعذراً على بعير واحد . وهذا الحل والربط يحتاجان كما لا يخفى لعدة أيادي عاملة لا يحواها الا الرؤساء والكبراء في العشيرة ، وهذا ما جعل وجود البيوت التي يتجاوز عدد اعمدتها الثلاثة في حكم النادر ، ويحتاج كل بيت ذي الاعمدة الثلاثة الى اثني عشر (حبلاً) طولها ثلاثمائة متر بست أو سبع ليرات ، مما يبلغ مجموعه خمس واربعون ليرة ذهبية .

وتختلف أسماء البيوت باختلاف عدد الاعمدة وقلتها وكثرتها . فالبيت ذو العمود الواحد باستثناء العمودين الجانبين يدعى (قطبة) وإذا كان صغيراً ورثاً وبدون عمود متوسط يدعى (خربوشاً) كما هو لدى الارولة وامثالهم ، وذو العمودين يدعى (مقورن) وفي بعض العشائر (جرنين) او (مدوبل) و دوبل الشيء بمعنى كبره وزاد حجمه ، واذا كان له ثلاثة اعمدة (مثولث) او خمسة مخومس وهكذا مسوبع ومتوسع ، واكثر رؤساء العشائر الكبيرة بيوتهم من صنف المسوبع ويبدو ان هذا العدد هو الحد الاقصى لدى عشائر الشام طراً . وبيوت الذين يلونهم من الكبراء من صنف المخومس او المثولث وهكذا . ومساحة هذه البيوت من ٦٠ - ١٠٠ متر مربع .

وقيل انه كان لابراهيم باشا الكردي رئيس عشيرة الملي بيت ذو ستة عشر عموداً لا يزال ابنه محمد بك يتخذه احياناً ، وازدياد عدد الاعمدة او نقصها يدل على تبدل حال صاحب البيت من العسر الى اليسر او بالعكس . ويلحظ الناظرون

ذلك فوراً .

والبيوت (أوتاد) ، ويغلق البيت من ورائه بالرواق . وفي الاماكن الباردة في شمال الجزيرة وخاصة عند العشائر الكردية يكون للبيوت رواقان . وفي الجهة اليمنى واليسرى في البيت لا يكون رواق ، بل اطراف تدعى (الرفة) وتجمع على (رفاف) مؤلفة من قطع قديمة من مختلف الشقق او من الاقمشة المتنوعة مخيط بعضها بجانب بعض . وفي القطبة اي البيت ذو العمود الواحد يدعى هذا العمود (بالواسط) وفيه عمود الامام او (المقدم) وعمود آخر من الخلف يسمى « منيحر » .

وهم اذا ارادوا ان يركبوا بيت الشعر يمدون شقق السقف على الارض ، ثم يغرزون الاوتاد على بعد ١٠ - ١٥ متراً عنها ، وذلك لاجل ان يصلوا بينها وبين البيت بالجبال الممدودة ، فاذا تم ذلك يدخلون تحت شقق السقف ويرفعونها بالاعمدة وهذه الاعمدة تبقى طليقة بدون ربط . ثم يعلقون الاروكة الجانبية بالسقف . اما هدم بيت الشعر او تقويضه فيجرى على العكس مما عددناه . وتركيب بيت الشعر على هذا النحو لا يحتمل اكثر من بضع دقائق ، ثم يقسم اذا كان صغيراً الى قسمين «الربعة» و«المحرم» واذا كان كبيراً يقسم المحرم الى عدة اقسام ، لكل من الزوجات قسم ، اذا كان صاحب البيت ذا عدة زوجات او له ام او اخوات يرى لزوماً للتفريق بينهن . وهذا التقسيم يكون بواسطة الحواجز المصنوعة من القصب او المنسوجة من الشعر ، وهي المسماة بالقطع او الساحة .

وجملة القول ان اللبدو كل الحق في المباهاة ببيوتهم والتعلق بحبها ، وان يقولوا :

لبيت تحفك الارواح فيه احب الي من قصر مشيد

لانها انسب مكان في البادية العاتية القاسية وأصلح مأوى للعيش القلق الذي يقضيه البدو ، لان الجبال اذا شدت يبقى السقف ممتداً مهما بلغ علوه . والبرد اذا قسى يميلون الاعمدة فيهبط السقف ويقترب من الارض ، والحر اذا طغى يوقفون

الاعمدة بانتصاب ويرفعون الشقة الجانبية (الرواق) وحينئذ يهب الريح ويحدث جرياناً ينعش الانفاس . والقاعدة العامة ان يوجه البيت نحو الشمس المشرقة . واذا كان هذا الاتجاه رديئاً بسبب الرياح مثلاً يسدون الشرق برواقه ويفتحون جهة الغرب . واذا شعروا بهبوب عاصفة رملية يدقون الاوتاد ويقوونها ويضعون جميع الاثقال فوق الجبال ليزاد وزنها فلا تعد العاصفة قادرة على العبث بشي .

داخل البيت

وينقسم داخل البيت الى قسمين : « الرتبة » او « الشق » للرجال « والمحرم » أو « الخدر » للنساء . ويفصل بين هذين القسمين حاجز من القصب اسمه (زرب) وفي بعض بيوت الكبار يسدل فوق الزرب قطعة كبيرة اسمها « خدره » او (ساحة) منسوجة من الصوف الملون او الشعر الاسود التظليل ويثقلها نقوش بيضاء من القطن ، وتتفن النساء في نسج هذه الحاجزة تفناً غريباً ، والزرب الذي يفصل بين الرتبة والمحرم يكون علوه قدر قامة انسان ، وهو يحول دون رؤية الضيوف لنساء البيت . وعند البدو الرحل يفصل هذين القسمين (النضيد) وهو حاجز يعمل بامتعة البيت . وهذه الامتعة اذا كانت حين تنزيلها عن ظهور الابل غير مرتبة تدعى (حلة) واذا رتبت وجعلت كحاجز تدعى « نضيد » وهي تتألف من (العدول) الاكياس المحتوية على المؤنة من الحب والطحين والسمن والبصل والتمر وامثالها ، وعلى الفرش كاللحف والاغطية والغفور جمع « غفرة » والبسط « والقطيفات » وهي ضرب من السجاد ومن الشف ودرغطاء ظهر الفرس ويكون من الصوف الرقيق « والخدات » اي الوسائد وغيرها . وفي بيت الشيخ يكون الحاجز بين الرتبة والمحرم جدار من الوبر يدعى « القلع » وفي منتهى قسم النساء وهو القسم الايسر في الغالب يوضع « الحوض » « والضررف » واحياناً يوضع القتاب وبين العمودين تعلق الهزازة وهي ارجوحة الطفل . وامام البيت تحفر

حفرة النار وعلى جانبها يكوم الرماد . وفي قسم الرجال او امامه تحفر حفرة القهوة ويدعونها (النقرة) وتمد في داخله البسط والاحف للضيوف ، وتوضع الخدات والرحال للاستناد والاتكاء . هذا ويمتد تحت شقاق البيت على رأس الاعمدة شقة يبلغ عرضها اثنتي عشر سنتمترًا وتعرف تلك (بالطريقة) يربط في أطرافها حلقات موصولة بحبال ثخينة وطويلة من المرس ، وهذه الحبال تشد الى اوتاد من الخشب الصلب تثبت البيت من جميع اطرافه في الارض .

وعندهم (القرب) وهي آنية الماء المشهورة وتصنع من جلود المعزى وهي أفضل آنية لتبريد الماء (والحجارب) جمع مجربة وهي اكياس التبغ تصنع من جلود الغزلان وجداء المعز و (الغلايين) لشرب الدخان . اما عودها فيصنع من شجر الاثل ، وهم يعلقون في الغليون سلسلة وفيها مبرد يدعى الابرة لتنظيف الحجر وملقط صغير لالتقاط الحجر وقد قل استعمال الغلايين عما قبل . اما أسرجة الابل والخيول والحمر فسرّج الفرس يعرف عندهم بالسرج أو المرشحة او المعركة وسرج الحمار بالبردعة وسرج بعير الحمل بالوتر او الحوية وسرج بعير الركوب بالغبيط او الشداد . وللغبيط حزامان من الشعر وهما (البطان) ويحزم بطن البعير و (الحقب) ويحزم مؤخر بطنه . وعندهم (الخراج) جمع خرج وهي ام اثاثهم ولا بد لهم منها في أسفارهم يصنعونها من الصوف الابيض والملون اخضر وأصفر واحمر ويصنعونها شراريب من الصوف والشعر و (المزاود) جمع مزوادة تشبه فروة الخرج وتصنع مما يصنع منه الخرج وتستخدم في السفر لحمل الدقيق و (الخالي) جمع خلاة تصنع من الصوف او الوبر . وكل هذه الانسجة الصوفية تحاك عندهم بانوال بسيطة يشتغل بها النساء او يشترونها من المدن .

مدل البرو او منازلهم

الحلال جمع حلة ، والحلة في اللغة جماعة بيوت الناس والمنزلة موضع النزول وهما تقابلان كلمة (مخيم) او (معسكر) المستعملة في الجيوش . وهي تنصب عادة في

صفين ، واذا كانت كبيرة في صفوف متعددة ، ويسمى الصف الواحد (سباط) . وقد اعتادوا نصب بيت الشيخ في الصف الغربي او الصف الاوسط ، ويمتاز برفع شارعته عن بقية البيوت . و « الشارعة » هي العمود الامامي من الربعة ، لهذا يستطيع الضيوف ان يهتدوا الى الربعة دون دليل . لان الشارعة هي الدليل . اما بقية افراد العشيرة فتنصب بيوتها على جانبي بيت الشيخ ، واذا كان بينهم غريب او (طنيب) كما هو معروف عندهم فان احد افراد العشيرة يتنازل له عن موقع بيته فيقيم ذلك الطنيب قرب بيت الشيخ معززا مكرمسا ، وتسمى بعض العشائر مضرب البيوت (الدوار) والفسحة التي بين صفوف البيوت (المراح) حيث تخرج مواشيهم . وفي الحل والترحال لا تنصب بيوت كبار الرؤساء بتمامها في كل مرحلة . وفي حالة الاستعجال في السير لا تنصب العشيرة بيوتها بتاتا .

هذا ولا يستعمل البدو مصابيح وفوانيس للاستئارة الا ما ندر عند بعض كبار الشيوخ والرؤساء . وذلك لعجزهم عن حمل هذه الادوات المربعة العطب ، وعن حمل صفائح النفط التي تحتاجها ، وهم يكادون يعجزون عما هو اهم من ذلك ، فالحلم ولزيادة الثقل . ومن ناحية اخرى ان المكوث في الظلام ادعى للاستئارة عن اعين الرقباء والاعداء في الليل . ولحفظ النظر ورؤية الاشباح في الظلام عن بعد . وهم اذا احوجتهم الضرورة كورود رسالة هامة في الليل لا بد من قراءتها - هذا اذا وجد من يقرأ - وضعوا قليلا من السمن في اناء واغمسوا فيه خرقة كالفتيل واشعلوها فتشع نوراً ضئيلاً قد يكفي للتلمس والعثور على شيء صغير . كذلك هم لا يستعملون وقوداً للتدفئة . فالنساء يدفئن انفسهن نهائراً بالحركة ، وليلاً بنار الطعام الذي يطبخنه ، اما الرجال فلا يرون الدفأ الا عندما يعمد طابخ القهوة الى قبضة من الشوك او القش او الحشيش

اليابس فيلقها فوق الضرم الذي قد يكون تحت المفورة من قبل .
 لكن هذه النار سريعة الحبوب والزوال لاتدفع ولا تنفي من برد .
 واذا كنت عندهم ضعيفاً مكرباً يستمرون على تغذية الضرم بهذا العشب
 ويقولون لك (النار فاكهة الشتاء ، ومن لم يصدق يصطلي) ، ولكنك
 لانتفيد منوى الدخان الذي يعمي الابصار ، وقد يحمي وجهك ويحمي
 ويبقي ظهرك متجلداً اذا لم تكن متدنراً بمعطف سبك او بفروة ثقيلة .
 ووقود البدو لايتعدى الاغصان والفروع اليابسة التي يلتقطها النساء
 وجذور بعض الجنبات والانجم الصغيرة التي يقتلعنها بالقؤوس ويحلبنها على
 رؤوسهن باسم حلب . واذا طاك مسكوث العشيرة في مكان ما يوقدون
 بعن الابل ، وهو وقود جيد ومستمر وعديم ارائحة وقليل الدخان .

لباس رجال البدو

البساطة غالبة على لباس البدو وخاصة اهل الطبقة الاولى كعزرة
 وشمر ، ولا يفرق عندهم بين لبس الصيف والشتاء ، الا ان الغني منهم
 يلبس عباءة رقيقة في الصيف اسمها (مزوية) او (حسوية) ، وفي الشتاء
 يزيد عليها كساء مبطناً او جلداً من جلود الغنم المدبوغة يسمونه (فروة)
 او (صديرية) ويتدارك البدوي لباسه غزيراً خالصاً من البائع الشامي
 او الكبيسي (نسبة الى بلدة الكبيسة في العراق) ، وهؤلاء الباعة يلتحقون
 بالعشائر ويبيعونها اكثر حاجتها المجلوبة من المدن . يتألف لباس البدو
 من قميص واسع وطويل ثم فوقه قميص اطول واوسع حتى القدم اسمه
 (الثوب) وهو (ثوب ابيض) او (ثوب مرودن) ذو اكمام عريضة طويلة
 فضفاضة مشقوقة تدعى (الردون جمع ردن) ولون الثوب ابيض او توابي
 مدبوغ بقرن الزمان في مدن الشام او عندهم ونسجه من القطن ،
 وكل حواشيه مكشوفة .

وكما كانت الردون طوبلة دلت على عراقه لابسها في البداوة ، فردون العنزي اطول منها عند عربان الديرة ، واذا وقف لابسها والقي يديه الى جنبيه يكاد ردنا ثوبه يمسك الارض ولكنهما في الغالب يعقدان وراء الظهر . والسروال هو سروال فضفاض مما يلبسه كل القرويين وبعض عربان الديرة . اما البدو الانحاج فلا يلبسون سراويل قط ، وربما طابوا لابسها ، رجالهم ونساءهم في ذلك سواء ، ويزعمون انها تحبس الهواء . والبدوي لا يغسل ثيابه الا كل شهرين او ثلاثة مرة اذ ليس لديه غيرها ، وقد يكون ذلك من ندرة . جود الماء عنده في اغلب الاحيان . وقد يلبس البدوي فوق الثوب « الصاية » او « الزبون » وهو عبارة عن قنبراز من القماش الرقيق اللصاع ، ويكون مفتوحاً من الامام ومشقوقاً من اسفل الجانبين واكمامه او ردونه اقصر منها في الثوب ، وله في كل جانب جيوب تدعى « مخبأ » . ويلبس البدوي فوق الصاية زئاراً وهو حزام من الصوف عرضه نحو عشرة سنتيمترات وطوله بقدر ما يلف الخصر مرتين او ثلاث وهو ابيض او احمر ، واذا كان مزدوجاً ويسمح بوضع النقود وحفظها فاسمه « كمر » . ويلبس ايضاً فوق الصاية « عسازم » او « جنادات » تمر من فوق الاكتاف ، وهي من الجلد ، وفيها يديوت لوضع خرطوش البنادق . وهم لا يرتدون هذه الاثنيات عنهم حتى ولا حين النوم . ومن عادة البدو نساء ورجالاً ان يتناولوا بياهم كلها .

اما غطاء الرأس فيدعى (قضاضة) وتجمع على « قضايض » وهي قطعة مربعة من نسيج القطن الابيض تطوى وتوضع على الرأس تحت العقال وقد يكون تحتها (طاوية) ، والقضاضة تقابل الكوفية المعروفة والمعمولة من الحرير ذات الشرارب الطويلة المستعملة لدى اعراب الديرة . والقيطية كلمة تدل على غطاء الرأس وجعها « قياطي » وهي تصنع من القطن السميك ذي اللون الاصفر او الاسمر ويستخدمها اعراب الديرة كثيراً والرحل

ولاسيما الاسبعة منهم نادراً . وغطاء الرأس يختلف عند كل عشيرة بلونه ونقشه واسمه (العقال) ويدعوه (المعصب) و (البريم) وهو ضفيرة ضخمة قليلاً او كثيرأ ، سوداء اللون في الغالب توضع على الرأس فوق القضاضة لتسكها ، ويكون للعقال ذوائب من خلفه منتهية بهدبات ، وطريقة لبسه ووضعه على الرأس مستقيماً او مائلاً الى جنب تدل على معاني الرزانة والبغض او الحب او عدم الاكتراث . والعقال يكون عند عربان الديرة غليظاً ، بينما هو عند عتره رقيقاً . (١) هذا ومعظم البدو يعيشون حفاة وبعضهم ينعل (الحدوة) ويتنطقون (بالحقو) وهو سير من الجلد مضفور ، ويلبسون (العباءة) التي تنفعهم دثاراً ولباساً وفرشاً ، ولوضع الخطب وعلف الدواب وغير ذلك . وفي الشتاء يلبسون الفروة وبعض الرؤساء والاغنياء يلبسون تحت الفروة (الدامر) او (القطشمية) وفي الشتاء وحين

[١] في كتاب قبائل العرب في مصر لاجد لطفي السيد ص ٣٥ : ويختلف زي العرب الافريقية عن زي العرب الآسيوية . فالعرب الافريقية يضعون على رؤوسهم طربوشاً احمر لا يعتمدون عليه ورتناً تحته قميص ، وقد يلبس بعضهم صدرية . ويكاد الحرام يلبس العرب المغرب جميعاً ، وتصنع هذه الملابس في المغرب ويشتريها العرب من الاسكندرية . اما اناسهم من خيام وبسط فيغزله نساء العرب وينسجهن . اما العرب الآسيوية فالتائد في لباس رأسهم الكوفية والعقال مما يصنع في بلاد الشام او بلاد العرب ولهذا يمكن التفريق بين المشاركة والمغاربة لاول وهلة ، ويتلاقى كلاهما في اناسهم من بسط وخيام ويطلق على الجميع حين يسكنون الخيام عرب الخيام وحين يسكنون القرى عرب الحيط . وهؤلاء الاخرون كانوا في اول امرهم بدواً ، ثم زحفوا على الاراضي الزراعية وسكنوها في خيامهم اولاً ، ثم ابنوا المساكن كما يبنونها الفلاحون . اهـ

ركب الخيل او حضور الجفلات . والدامر معطف قصير واسع من الجوخ
الازرق او الاسود ليس له رقبة اكمامه واسعة ومتدللة وفي بطائنه جيب
لوضع كيس النقود او ماله ، واجله ما صنع في مدينة حماة . وقد
يكون مطرزاً او مزركشاً بخيوط ذهبية او فضية . والنساء يلبسن
ما يشبهه ويدعونه (دراعة جوخ) .

لباس النساء :

اما النساء فاهن عبي وفروات كالرجال ، ولكن لا يستعملنها الا في
فصل الشتاء . وهن يلبسن على ابدانهن جلباباً من القطن يدعونه (ثوب
اسمر) يكون اسود اللون او نيلياً حتماً ويكون طويل الذيل في الغالب
مجروراً على الارض حين المشي . وهن لا يغسلنه الا كل سنة اشهر
مرة . ولذلك يكثر القمل عند البدو ، وهم لا يأنفون منه ويعدونه من
دلائل الصحة وجواذب الدم . وفتيات البدو يشددن منطقة غليظة من
الصوف يدعونها «شويحي» يلفقنها فوق الثوب الاسمر . والنساء يشددن
«الكمر» الاحمر اللون ، وتلبس الفتيات منهن «دراعة جوخ» زرقاء اللون
او سوداء قصيرة الكمين ويضعن على رؤوسهن «المقرونة» وهي تقابل
كوفية الرجال وتكون اوسع منها ، ومن الحرير الاسود ، واطرافها مائنة
وذات اهداب سود يجعلنها بشكل عمامة ويدعونها «عصبة» او «قطة»
ويلبسنها تحت «الشمبر» وهو ضرب من المناديل الملونة يضعنه في مؤخرة
الرأس ليظهر من بين قطعتي القماش قسماً من خصال الشعر ويعقدون
المقرونة وراء الرأس . وهذا عند غزاة ، اما فتيات عربان الديرة فحالا
يلبسن الشمبر بل يضعن على رؤوسهن كوفية او مقرونة بدون ان
يدورنها بشكل عصبة . و«الشمبر قريشة» عصبة طويلة عريضة من القطن او
الحرير الرقيق يلبسنه على رؤوسهن بشكل قطة فيبتدلى ذات اليمين وذات

الشمال على الصدر وعلى الظهر . وهن يتمنطقن بكمر مطاط يضعن فيه نفودهن .

وأكثر النساء يمتن حفاة ، اما في الشتاء فيلبسن حذاء كبيراً يدعى « جزمة » او « زربول » من الجلد الاصفر او الاحمر له من الامام هذبات زرقاء ومتدلية وفي نعله مسامير ضخمة وهو ثقله يزحفن به زحفاً ويحدثن به قرقة خاصة اذا سرن في شوارع المدن . ولكل امرأة مكحلة وامرأة ، وحين العمل في الاشغال التي توسخ يلبسن قب اصفر وهو كالثوب الا ان اكمامه اقصر ولونه اخضر ثم يسود ويتلوث بسرعة . ويدخن النساء بالغليون الذي يصنعه الرعاة من الطين .

حالة المرأة في البادية :

النساء في البادية اكثر من الرجال عدداً وبالطبع هن اللين جانباً وارق طبعاً ، ولسن مع ذلك دون الرجال نخوة وشهامة ، يطقن التعب وتحمل المشاق وتحشم المصاعب ، ويشاطرن رجالهن كل ضروب المتاعب فيقمن بكل ادارة بيوتهن ويعنهن حتى في غزواتهم ، ولهن بهم تعاق شديد وقد يؤثرنهم على الوالدين والاخوان بخلاف الرجال ، فاول مقام عندهم لاختوتهم ووالديهم ، وعلى ذلك يقولون اذا ذهب الولد والمرأة معاً فلها عوض ، واما الاخ فلا عوض له . والبدويات اشد تعاقاً بالبدواة من الرجال ، وعندهن من الاحكام السائرة انه اذا طلبت احدى بناتهم لرجل من الحضر ان تقول صكك باب ما يريدنه اي انه اذا نام اغلق باب بيته فهو اداً جبان لا يليق بها . وعندهن الزني (المودة) على نمط واحد يكاد لا يتغير . فالبنات العذارى في اكثر الاوقات يقصصن الغرة او الطرة ويبرزن شعورهن ما فوق الجبين الى قرب قمة الرأس ، واذا تزوجن ارخينها وسترن شعورهن بالمنديل ، وهي علامة فارقة بين البكر

والشيب . ويستعملن بلا تكلف اموراً كثيرة لو خطرت ببال نساء المدن لصفقن لها الايدي . فالاردان المتسعة مستعملة في البادية وكذلك الاردان الضيقة ذلك ليجمعن بين الهيئتين . فالنساء المتريات يلبسن الثوب النسيق الاردان ويرتدين فوقه بكساء متسع الاردان ضافي الحواشي ، اما الذبول الطويلة المنحصر استعمالها بين بنات المدن في ملابس العرس فلم يستعمل شائع في البادية . وجر الذبول في لسان الشعراء لا يخلو منه كلام منظوم . وقد يلبسن العباءة والزبون ، ولبس العباءة لا يزال مستعملاً عند نساء العراق المدنيات والقرويات والبدويات على السواء . والبدويات ومثلهن نساء العراق ايضاً يلبسن من الحلي الضخم الثقيل كاخلخال والحجول الكبيرة يصفنها ذهباً وفضة كل على ما وسعته حاله ويعلقن الخزومات المتسعة في انوفهن ، واكثرها مصنوع من الذهب مرصع بفصوص الفيروز الصغيرة ، ولهن اقراط طويلة عريضة . ويضعن الذهب والفضة عقوداً وقلايدات طويلة على ضروب شتى ، ويترن في القلايدات من النقود المضروبة القديمة كالغازي والمحمودي ينظمها صفوفاً وبدليها من النبق الى الصدر .

والجمال في البدويات قليل في اكبر العشائر وموجود في بعضها وقد يكون زائداً عند الاقل ، وهو اذا وجد تراء طبيعياً جذاباً ، وقديماً افتن به الشاعر الشهير المتنبي فقال :

ما اوجه الحضر المستحسنات به
كاوجه البدويات الرهايب
حسن الحضارة محبوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير محبوب... الخ
وفي قول المتنبي هذا مبالغة ظاهرة . لان نساء البدو ما خرجن عن كونهن من بنات حواء الاتي يتوسلن لاطهار محاسنهن بالتزيين والتطرية . وهن وان لم يلبغن شأوا الحضريات بذلك نجد عندهن من انواع التزيين (الحناء) فهي شائعة الاستعمال يصبغن بها الاكف والاصابع

والاظفار واخص الاقدام وقد يزججن حواجبهن ويكحلن عيونهن بالاعمد
ولهن ولع خاص بالوشم ، يحلين بالصبغة الزرقاء جلود ايدين بنقوش
مختلفة من ظهر الكف الى المعصم الى الكوع ، ويعملن نقوطاً صغيرة
في منتصف الجبهة وطرف الانب والذقن ، وربما وشمى الشفاه السفلى
والوجنات والصدر والنفود والاقدام .

✕ اما اخلاق البدويات فهي حسنة في الجملة ، وخير ما يزينهن عزه
النفس وشدة التعلق بالاهل والازواج ، وقيامهن مقامهم في أكبر
الاعمال ، ولا يقوم الرجال بشيء من اعمالهن ، فاشتغال البدوي
مقصود على الغارات والغزوات او على الاعمال الخارجية ، والمرأة رفيعة
له ومعيته في كثير منها ، وجميع ما بقي مفروض على المرأة بحيث لو
انقطع الرجل مدة عن طلب الرزق لكانت هي ربة البيت مكلفة بكل
ما تستلزمه ادارة المعيشة والتربية . فاعتاده عليها تام او يكاد يكون ،
واعتمادها عليه ناقص ، ومع هذا كله تراه متبرماً وغير راض في
الغالب . وقد يضرها او يملكها او يشتمها لاتفه الاسباب ، ولا ينظر
اليها في الغالب الا انها مطية الشهوة ومثابة المتعة والخدمة ، عليها له
الطاعة العمياء .

✕ والمرأة بنظر البدو محترمة مصونة من التعدي ، لا يجوز ان تمس
بأذى بالغاً ما بلغت الخصومة بين العشائر ، وقد درجوا على اخذ
النساء رسلاً بين الفريقين المتحاربين ، وكان من حق المرأة ان تذهب
الى العشيرة المعادية لعشيرتها وتعرف لجرحهم وقتلهم وتبلغهم ما انت
لاجله وما هي زنايب عشيرتها وترجع الى ذويها بسلام بدون ان يتعرض
لها احد بسوء ، وبناء على هذه الحرمة فانه لا يكتفى بالانتقام للمرأة
اذا ما قتلها القاتل بقتل احد او بأخذدية واحدة ، بل ان المرأة المقتولة

تؤدي باربعة الى ثمانية ديات بالنسبة الى حالة الجريمة .

ولا شك في ان العفاف في البادية اكثر منه في الحواضر واشده
 ويزداد في بعض العشائر ويقل بنسبة اتصالها بالحاضرة وبعدها ، والمرأة
 تسير وحدها في البراري مسافات طويلة ، ولا احد يعارضها او يتعدى
 عليها ، ومن فعل ذلك يناله العقاب الذي ذكرناه في بحث (الزنا) في
 فصل (القضاء عند البدو) ، على أن حوادث الاجهاض كثيرة عند نساء البدو
 تؤتى بحركة خارجية عنيفة او يبلغ بعض الاعشاب التي اسرارها عند
 بعض العجايز ، وتنشأ اما لستر جريمة او لمنع الولادة التي لا تنقطع
 كل ١٠ - ١٢ شهراً .

ونساء البدو مشغولات تعبات ابدأ ، فيبذلن تروى الرجل طول النهار
 وجزء من الليل تحت خيمته يتقوى (اي يشرب القهوة) مضطجعا
 يقص اقاصيصه او ينعم ببطالته ، ترى نساءه وبناته يشتغلن اشغالا كثيرة
 شاقة ، يحملن الماء على ظهورهن ان كن فقيرات ، او على ظهور الخيل
 ان كان رجلهن من ذوي اليسار ، وقد يكون ذلك من مسافات بعيدة
 او يحتطبن الحطب ويحمن العشب وينقلنه ويحملن المواشي ويرعينها
 احيانا ويمخضن السمن او الزبدة ويطحن الحبوب ويطحن الطعام ويخبزن
 الخبز ، واذا وجدن وقتا يغزلن الشعر والصوف وينسجن شقق الخيام
 والفرار والفرش ويخطن الثياب ، هذا فوق الحمل والوضع والارضاع
 وهن يقمن بكل ذلك عن طيبة خاطر واعتماد لانهن فيه ائرا للترحم والفضج
 وازجال والنساء في البادية قليلو الاعتناء بانفسهم ، ولا يضرهم
 عدم الاعتناء ، حتى ان الحوامل لا يتخذن الا القليل من الاسباب
 والمدارة ، وقد يحميهن المحاض وهن سائرات فيضعن في الطريق وليس
 من يعولهن بشيء فيجبرن بانفسهن كما تجبره القوايل ويلقن المولود
 ويسرن به . لكن اولادهن تعيش كالسائمة في البرية بدون عناية ويهلك

معظمهم قبل الخامسة من العمر ، ولهذا تكون اجسام من يفلتون منهم من الموت قوية تبعاً لقاعدة بقاء الانسب . والاولاد الذين يفلتون من الموت يربون في بيت ابيهم او مع اسمهم اذا كانت مطلقة ، ويبقون في احضانها سبع سنوات اذا كانوا صبياناً ، وتسع سنوات اذا كن بناتاً ، ثم يأتون الى بيت ابيهم ولا يخرجون منه الا ان تتزوج البنت فتلحق بعلمها او يتزوج الصبي وروح بانياً لنفسه بيتاً جديداً يترأسه هو في دوره .

والبدوية وان لم يكن لها محل في مجالس زوجها ، ولا يباح لها الهو والرعة المخصصة للرجال ، ولا يجوز ابدأ ان يسئل الغريب عنها وعن حالتها ، الا ان ذلك لا يعني ان ليس لها اي محل من الاشتراك او ابداء الرأي ، فيما اذا باع زوجها من حاله او تصرف في ماله مما لا يرضيها . والبدوية الشريفة لها منزلة رفيعة في قلوب الجميع ، وكثيرا ما تجزم السيدات منهن في امور كثيرة مهمة مما يدل على ان لكلمتهن في البيت او العشيرة شأناً خطيراً .

والبدويات سافرات بالطبع لا يستعملن البرقع ، ينجولن في الخيمات وفي البراري بكل حرية ، والسجوف التي توضع على هوداجهن ليست لحجابهن بل لرد الشمس والمطر عنهن . والضرورة او الحاجة في حياة البدو ، تدعو الى الاتصال الدائم والاختلاط المستمر بين الجنسين سواء في حلمهم او ترجمهم ، وفي الافراح والاعراس يختلط القوم ويشتركون جميعاً . وهم في هذه الحالة بمنزلة عائلة واحدة ، وكذا في الاتراح والازايا العامة كالغزو وهجوم الاعداء او موت عزيز وقته ، وفي الجيرة وسكني الخيام التي لا سبيل لحجبتها وتغطيتها ، كل هذه من دواعي الاختلاط وسبل التعارف والتحابب في الزواج مع العلم انه محاط بسياس قوي من الصون والعفاف والخوف ، والا تعرض الرجل او المرأة اذا شذا لاختطار قد تشترك فيها جميع افراد العشيرة بالتناطح والتطاحن . اذا

تربية الاولاد في بيوت البدو في نهاية القصور ، غير انهم يعدون احترام
الوالدين ، واكرام الشيوخ والكمول ، ومن آدابهم ان لا يدخلن الولد
امام أبيه ولا يأكل او يتكلم او يعترض ، الا ان كثيراً منهم اصبح لا
يراعي هذه القواعد الحسنة .

صم البرو :

يداوي البدو مرضائهم بما تعلموه من اجدادهم بالوصفات وتقووه بطول
ازمن في مداواة الجروح ، ويداوون اكثر الامراض المستعصية بالكي
وعندهم (آخر الدواء الكي) او بادهان وحشائش لهم يعرفونها واحرق
أطبائهم من عشيرة (الصايب) ، فعند هؤلاء وعند بعض العشائر اهل خبرة
في الطب من النساء والرجال . وجميع هؤلاء لا يعرفون من الطب الا المعالجة
بمخ عظام البعير وبالكى . فالملخ يستعمل بمنزلة دهان او مروح او مرهم لانواع
الامراض الخارجية او الادواء الباطنية ذات الاثر الخارجي كدواء لمفاصل
والرثية والنقرس والحضار ونحوها وكل ما لا يعالج يداوى بالكى . وطريقة
الكى عندهم ان تؤخذ قطعة صغيرة من ثوب ازرق صبغ بالنيل - لامن
غيره - ثم تلف هذه القطعة على نفسها لفات متعددة حتى تغدو كالانبوبة
دقيقة الرأس ثم يشعل هذا الرأس ويكوى المريض بالخرقة في انحاء شتى
من جسمه معلومة عندهم بموجب نوعية المرض وموطنه . فالداء الفلاني
مثلا يكوى المريض من كتفه وذراعه وظهره ، والداء الآخر من
ساقه وظاهر قدمه ومقدم صدره الى غير ذلك بموجب قواعد يعرفها
الكاوي . وربما كان هذا الكي في فسحة معاومة من الجسم فيقوم مقام
حرقاة او لزقة او لبخة او نحو ذلك من مصطلحات الطب الحديث ،
فيحدث هذا الحرق حويصلات ممتلئة ماء فاذا نضجت وسال ما بها شفي
المريض ، وقد تبدل الخرقة البلية بمادة حارة فيتمصرف بها الكاوي

تصرفه بالخرقة الزرقاء ، وقد تبدل الحديد بالصوفان ايضاً ، ومن نظر الى شكل الحديد او الخرقة او الصوفان علم بان آثار الكي تكون مختلفة الشكل والهيئة والقدر فمنها مستديرة او مستطيلة او مستعرضة او غير ذلك .

على ان امراض البدو قليلة بالنسبة لخشونة عيشهم وجشوبة طعامهم وذلك لمكان الهواء النقي والشمس المطهرة في اجسامهم ، ولندرة ما يطعمون من الاطعمة المركبة من حامض وحلو وحار وبارد ولحافظتهم على العفاف وعنايتهم بالزواج الباكر ولقلة الهموم التي تساورهم ، وما تساور في العادة الا سكان المدن والقرى ممن يفقهون واجبات الحياة ويكدهون في طلب المعاش^١ ، ولا يزالون مأخوذين بحب التقليد . والبدو اسنانهم واضراسهم سليمة براقة للطف اخلاطهم وتخليطهم . ولو راعوا النظافة وسائر شروط الصحة وخلصوا من القمل الذي لا يفارقهم لعاشوا بلا مرض وعمرؤا اكثر . ومن الغريب ان البدوي يشيخ ويهرم سريعاً فيتغضن جلده ويتشنج قبل آوانه في الهواء الطلق ، ولا يناهز الاربعين سنة الا وقد وخطه الشيب ، واذا بلغ الخمسين هرم هرماً بيناً ، ولا يبلغ احدهم الستين الا نادراً . ولقناعتهم ورضائهم باليسير من الطعام وقلة امراضهم وغلبة الصحة والجلد عليهم ، يكون فكرهم دائماً رائقاً وحافظتهم واسعة وخواطهم متنبهة وقد تعلموا منذ نعومة اظفارهم اتخاذ الارض فراشاً ، واحتمل حرارة الشمس المتوقدة ، والنوم غراراً ، والصبر على الجوع والظما ولو في حارة القيظ . وهم لا يمعطون المسكرات واغلب شربهم (الشنين) والبن الحقيق الذي يهز معاطف الانسان بدون ان يسكره ، وهم في الغالب لا يأكلون الا مرة واحدة في النهار هي الوجبة وقدرها شيء زهيد X بالنظر الى ما يأكله اهل الخضر من كثرة الالوان وغيرها . ومن المؤسف ان يكون المرض الافرنجي « الزهري » منتشراً جداً بين عشائر الفرات المعروفين بالشوايا ، وتكاد تكون نسبته ٨٠ بالمئة فيما ذكر ويسمونه (البجل) ،

الا انه على توالي الاجيال قد قلت فاعلمته في اجسام المبطلين منهم به ،
 وخف ظهور اعراضه الخارجية في ابدانهم عما قبل . ويذكر المقدم
 مولران البدو اذ كانوا عطلاً عن كل صناعة وحركة فهم يجهلون الرياضة
 البدنية (الاسبور) فيخسرون رشاقة الشباب باقرب وقت ويـكونون
 عديمي الحذاقة بطيء الحركة . وطامة البدو يكونون هزلي نخاف الابدان ،
 وخاصتهم سمان من قلة الحركة والرياضة التي يعدونها محطة بـكبرياتهم .
 ثم ان البدو على خلاف ما يشاع عنهم ضعيفو البصر ، ولعل ذلك من
 وهج الشمس او ذرات الرمل اكثر من انه مرض . ومن ثم اذا وجد
 بينهم من هو حديد البصر ناك شهرة ومكانة لا سيما في الغزوات ،
 ولاجل هذا ايضاً يقتتي رؤسـاؤهم النظارات الحربية وبعدونـها من ائمن مايهدى
 اليهم . وفي البدو جراحون يعالجون الجراح التي يصابون بها في غزواتهم
 فهم يخيطونها ويفسـلونـها كل يوم بمستحلب بـمر الحـمير مدة اربعة ايام .
 ويفلون البصل بالماء ويصفونه ويفسـلون به الجراح ويسقون القليل منه
 لمنع نقض الجرح ودفع اذى الرائحة ثم يفلون المر بالسمن ويجعلونه دهاناً
 فيدهنون الجرح اربعين يوماً حتى يبرأ .

وما يخشاه البدو في بعض السنين الاوبئة الخبيثة التي تنتشر في البادية
 احياناً بسرعة غريبة . ومن امراضهم الطاعون والهواء الاصفر والجدري
 فتتلع لها قلوبهم رعدة وجزعاً ، ويفرون من مضاربهم تاركين مرضاهم
 في سكرات الموت يتقلبون على فراش المنون بعد ان يضعوا لهم ماء
 وزاداً ، وقد يعهدون المريض اذا كان عزيزاً الى احدي العجائز لتعني
 بامرءه ربها يشفى او يموت . وبينما نراهم اسوداً في الحروب قساة القلوب
 على احتمال تكبات الدهر ، اذ نخدم في الامراض العامة اجبن الخلق
 واسرعهم الى الهرب . ولشدة ما هم عليه من الخوف يلبجأون الى الذبائح
 كي يستنهضوا عزائم الارواح لمساعدتهم ، وتلك الذبائح ذبائح القدو أو

الفداء لانهم بها يفدون انفسهم من الموت الزؤام .

الزواج :

يتزوج البدوي بين سن ١٥ و ٢٥ وقلاً يتأخر الى ٣٠ بل ربما سبق الزواج هذا الاجل . والبدوي ينتخب خطيبته خلال الصدف التي تبعثها حياة الحل وتترحال واختلاط الجنسين وتعارفها منذ الصغر .

— والبنات البدويات يتزوجن في سن مبكر جداً وقبل الحضرية بكثير . لان عيش البداوة واقليم البادية ينميانهن بسرعة وينضج استعدادهن في وقت وجيز ، وحتى انها يعجلان بشيخوخة المرأة وهرمها . وعلى كل حال لا تستشار الفتاة البدوية في زواجها ، ولا تسأل حين خطبتها . لان الرأي لوليا يعطيها لمن يشاء ويبيعها ببيع السلع لمن اراد او لمن يدفع له اكثر .

وازواج يتم بعقد ينطبق على القاعدة الشرعية بايجاب وقبول وعلى الصورة الآتية وهي : حينما يرغب احد الناس ازواج من ابنة الآخر يرسل اليها اشخاصاً يستمعون والديها وأوليائها فاذا قبلت طلبته مبدئياً يستصحب جماعة من ذوي الوجاهة ، ويذهب بهم الى منزل والد البنت او وليها ومعهم ما يلزم للطعام من ذبيحة وبرغل وطحين وسمن وقهوة . وهناك عقب الوصول والنزول يفتح متقدماً الجماعة البحث مخاطباً والد البنت او وليها هكذا (حينئذ طالبين ومن عندك ان شاء الله ما نعود خائفين) فيجيبه والد البنت (حياكم الله القراء امامكم والظلمة قفاكم) وعندها يعلنوا الموضوع الذي جاءوا من اجله وهو على الاغلب يجيبهم الى طلبهم ، وانه وهبها الخاطب فيجيبه اولياء الخطيب ، اننا نقابل عملك هذا بكافاة كذا من المال او الجلال (الماشية) ، ويطول الحديث على

المهر وهو ثمن الابنة . والمهور عند البدو غالية جداً باللاسف ، فالعروس تشتري باعان باهظة ، وربما يبلغ ثمنها لدى الاغنياء منهم ٦٠ - ١٠٠ ليرة ذهبية ونحو نصف ذلك عند الفقراء ، وقد يدفعون ما يعادل هذه النقود من الغنم او الابل او الخيل او الحبوب او البنادق وقد يستخدم الجدل على المهر ، فكان ولي الخطيب يشتري بهيمة وذاك يبيعها ، هذا يطلب كثيراً وذاك يدفع قليلاً ، فاذا تم الاتفاق بكلفون احد الحضور بتلاوة الفاتحة ثم يضع ولي الخطيب يده بيد ولي البنت ويقول احدهم للآخر ازوجت ابنتك فلانة الى فلان على سنة الله ورسوله فيجبه الثاني زوجته فيبارك لهم الحاضرون ، ويقوم اقارب الخطيب وينبحوا رأس الغنم الذي احضروه فيقال حينئذ « فلان ذبح على فلانة » اي خطبها من والدها ، وعند الشرايات والزواله ينضحون رأس المرأة ويدها بالدم . ثم يهيئون الطعام والقهوة ويقدمونها الى الحضور . وبعد ان يأكل الجميع ويشربون ، يربط الخطيب ليرة ذهبية في طرف كوفية حريرية ويقدمها لخطيبته دلالة على أن روابط المحبة استوثقت عراها فلا يفكها الا الموت ، ثم ينصرف كل الى بيته ويستعد الخطيبان للزواج .

ويذكر عن الشرايات وامثالهم المتزوجين في البوادي اذا ارادوا ان يفتنوا بالزواج لا يذبجون ذبيحة بل يضع الخطيب في قبضته اليمين حنطة وتطبق المخطوبة يدها فوقها ، فيقول الشاب : « أتقبلني لك رجلاً على سنة الله ورسوله » فتقول (قبلتك) ثم تعد هي الموال نفسه « أتقبلني لك امرأة على سنة الله ورسوله » فيجيب (قبلتك) فيقول (بحق البر وخالق البر لا تنوق ولا تنوق ، هي سنة الله ورسوله ، ورباط العيش ورب العيش انا لك زوج وانت لي حليلة) . والبدو يعتبرون الذبيحة ضرورية في عقد الزواج لانها تصد الاب عن طلب الزيادة في المهر .

هذا والمهر الذي يتفق عليه بأخذه ابو البنت ، وهي لا يصديها شيء ، وفي حالة زواج الفتاة خارج العشيرة تأخذ هي نصف المهر . ولا يتم عقد الزواج مالم يدفع نصف المهر مقدماً ، والعروس تأتي معها بجهاز يختلف حسب ثروتها . ومبلغ المهر عند عزة يختلف كثيراً من بعير الى عشرة اباعر مع عدد من الغنم . فهو لا يكون عندهم نقداً . اما عند اعراب الديرة فهو بالنقد كما قدمنا وذكرنا مقدار الباهظ احياناً . وقد يكون بالغنم والابل معاً . ويلاحظ ان المهر عند عزة لا يعين الا فيما ندر . لان تعيينه عندهم يعد معيباً . ويهدي العريس ام العروس هدية تختلف من بعير الى عزة اباعر . ولا يدفع اي مهر اذا تبادل رجلان اختيهما . واذا كان للعروس ابن عم فله حق الرجحان . اما اذا كانت هي تفضل غيره عليه فلا ينال المهر حق بطلب المهر لنفسه ، وبعد هذا ثاراً لحرمانه .

الطلاق

اغلب ما يكون للبدوي امرأة واحدة ولا يتزوج عليها الا اذا كانت طاقراً ولا يريد ان يطلقها . فتعدد الزوجات عند البدو اكثر ما يقع عند كبار الشيوخ . فلمؤلاء في اغلب الاحيان ثلاث نساء او اربع ، وذكر عن بعضهم انه كان لديه ١٠ - ٣٥ زوجة . وهم يفعلون ذلك لاسباب منها سياسية ليتسلوا بيت شهر مثلاً ، ومنها كثرة ما يحتاجونه من اماكن التزول والحل والترحال الى هنا وهناك ، ومن ثم تجد لهم عدة زوجات لدى فرق مختلفة او عشائر متباعدة كلما زاروها نزلوا عند زوجتهم الباقية قرب اهلهما . ويقول بر كهارت في كتابه (رحلة في بلاد العرب) ان اكثر

الاعراب يكتفون بزوجة واحدة. بيد انهم مغرمون جداً بشكرار
 الزواج تخفيفاً لوطئة الزواج الموحد ، وتغييراً للفراش في زعمهم
 وهم يتهزون القاعدة الاسلامية التي تجيز لهم الطلاق ، ويسيثون استعمالها
 كثيراً ، فهم يبدلون زوجاتهم على التوالي . فاذا غضب الزوج منهم على
 زوجته ولولسبب تافه واراد ان يطلقها يكفي ان يقول لها « انت طالق »
 فيعطيا حينئذ ناقة ويبعثها الى بيت اهلها ، وهو لا يجبر على ذكر السبب
 الذي دفعه لعمله هذا كما انه هو في التالي لا يعزي اي فضيحة للامراة
 او لاهلها . وكل الناس يعذرون الزوج بقولهم « لم يجبها » . وقد يتزوج
 هذا الرجل امراة اخرى في اليوم ذاته ، وحوادث الطلاق عند عنزة
 كثيرة جداً حتى في ابان الحبل . والامراة يمكن ان تتزوج وتطلق
 ثلاث او اربع مرات دون ان تمسها ادني ريبة او قولة . وقد صادفت
 من الاعراب في سن الحنسة والاربعين من تزوج او طلق خمسين امراة
 وكل امريء منهم في مقدوره ان يستغني عن ثمن بغير الا ويطلق ،
 ويبدل من النساء بالقدر الذي يشتهي وتسمح الشريعة للامراة ايضاً
 اذا لم تجد نفسها سعيدة في بيت بعلمها بان تطلب طلاقها (كذا) وتلجأ
 الى بيت ابيها واهلها ، ويمكن للزوج حينئذ ان يعيدها الى بيته اذا وعدھا
 وارضاهها باعلاء ثياب او حلق او سجاد ذي قيمة . اما اذا رفضت لا
 يحق له ان يقصرها لان القسر في نظر اهلها يعد تجاوزاً واهانة . وفي
 هذه الحالة جل ما يستطيع الزوج ان يعمل هو أن لا يلفظ كلمة الطلاق
 فتبقى متمتعة عن الزواج بغيره . ويجربون وقتئذ اقناع الزوج للطلاق
 بان يهدوه ابلاً ، ولكنه هو اذا ظل معانداً يحكم على المرأة ان تعيش
 وحدها ، ويسمون الامراة التي على هذه الحالة طموحاً ، ومثل هؤلاء
 النساء كثير لدى البدو . لكن لا يمكن قط ان يوجد عندهم بنات ابكار
 عوانس واذا مات رجل وترملت امرأته يتقدم غالباً اخوه لزواجها

لكن العادة لا تجبر هذا الاخ ولا المرأة على الزواج . والاخ لا يمكنه ان يمنع ارملة اخيه من الزواج برجل غيره . على انه من النادر ان ترفض الزواج . ، لان ذلك يحفظ ثروة العائلة من الضياع وللجار حق الرجوع في زواج جاريته . وان كان غير مجبور على الزواج بها . لكنها هي لا تستطيع ان تتزوج غيره الا برضائه ان سهولة الطلاق التي ذكرناها قد ادت الى انحلال روابط الاسرة . وان تبديل الزوجات كراماً قد ادى الى ان تهتك في العشيرة اسرار الآباء والاولاد ، وان ينتشر الحسد والبغضاء بينهم ، ولا حاجة بعد الى سرد النتائج التي تحدث في الاحلاق من جراء ذلك ومع هذا كله فان البدو يبدون احتراماً زائداً نحو والديهم كما ان لهم عطفاً خاصاً نحو اسمائهم ، واذا حدث شجار عائلي كثيراً ما يقفون بجانبين ضد آبائهم ، وكثيراً ما يطرد الآباء ابنائهم من جراء هذا الوقوف . . . اه .

وفي كتاب عشائر العراق لعباس الغزاوي : ان البدو يعنون كثيراً باختيار الزوجة ، ومراعاة اصلها وعراقية نسبها ، وعندهم من الامثال (العرق دساس) و (ثلثا الولد لخاله) و (بنت الذلول ذلول) وعندهم الامثال التي تحض على الزواج والاكثر من تكراره ليكون للمرأة اولاد يكيد بهم اعداء ويقهر اخصاره فيقولون : (خذ من النساء وكيد العدا) . وهم يلتزمون الاصل الصريح ولا يراعون الحسن والحب بقدره . ويقولون (مضرباً) لمن اخوانه ليس من اعماله او من اصل رديء وهو المعروف بالهجين اه .

الخطف

ان خطف النساء والبنات كثير الوقوع بين البدو ، ومن لا يزال على سنتهم من الحضر في بلاد حوران وشرقي الاردن ، ولا يمر شهر

الا ويسمع خبر كهذا بينهم ، ويقولون (فلانة خطفت فلان) ولا يقولون
فلان خطف فلانة ، لان اكثر الخطف يكون برضاء الطرفين ،
وكتيراً ما يخطفون ذات الزوج ، وقد يقع الخطف جبراً .

الخطف الجبري

هو ان يترصدها الخطاف الامراة او الابنة التي يعشقها ويرغب الزواج
بها دون رضاها ، وعندما تسنح له الفرصة يسحبها جبراً او بالتهديد
واشهار السلاح ويفتات على عرضها ويهرب بها الى ابعد العشائر ويعيش
معهما لينتقم من مصالحة ذويها ، وبهذا النوع من الخطف لاولياء
المخطوفة ان يستعملوا ما لهم من حقوق الانتقام كما يجري في امر الزنا
الجبري ، واما الزوج فليس له حق الانتقام بل له ان يستوفي مبلغاً من
المال يعادل مهر زوجته وذلك عند وقوع السراح .

الخطاف بالرضاء

وهذا يكون نتيجة التعارف بين الرجل والمرأة ، وتبادل الحب
بينهما ، وتقرير كيفية الزواج اذا رفض اولياء المرأة السماح لهم بالزواج
من بعضهما . فعندئذ يقرر العاشقان الخطة التي يجب السير عليها ، ويضربان
موعداً للعلاقة حيث يكون يرفقهما شخصان من الاصدقاء فيذهبون معاً
الى اقرب العشائر وينزلون عند شيخها ويعرضون عليه امرهم ، فيقوم
الشيخ اولا باستجواب المخطوفة ، وعندما يتأكد رضاها بالزواج من
خاطفها ، ويتحقق من الصديقين ان لازوج لها استدعي بالخال امام
العشيرة ، ويكلفه لعقد نكاحها . واذا لم يكن للعشيرة اماماً يجري العقد
بذبح رأس غنم يذبحه الخطاف قائلاً (اللهم حال لي هذه الانثى كما حالت
لنا هذه الشاة) ، وبعد ذلك يخلي لها الشيخ خيمة من مضارب العشيرة

ويزفها فيها كعروسين . وبعد ذلك يقوم الشيخ بجميع الوسائل لعقد الصلح بين الخاطف واولياء العروس حتي ولو اقتضى الحال الى ان يدفع بدل الصلح من جيبه اناس باعتبار ان عمله هذا من نوع البر والاحسان الممتاز . نعم ان اولياء المخطوفة وعشيرتها يشورون فور علمهم بخطف ابنتهم ويطاردون اقارب الخاطف ويعتدون على اموالهم واملاكهم في غضون الثلاثة ايام وثلاث اليوم ان لم يحل بعض العشائر الـليادية دون اعمالهم ، الا انهم عندما يتحققون ان الخطف وقع برضاء ابنتهم يسكن غليانهم ويتدخل العقلاء بالصلح بين الطرفين ، ويكون بدل الصلح ظلياً مقداراً من المال اكثر من المهر المعتاد ، فادا كانت المخطوفة طموحاً (اي ناسزة) يعطى منه الى زوجها مقدار المهر الذي دفعه ومازاد عن ذلك يكون من حق اوليائها ، واذا تعنت اولياء المخطوفة عن المصالحة فللشيخ الذي التجأ اليه الخاطف ان يستدعيهم الى القضاء وله ان يستعمل جميع الوسائل لارضائهم على المقاضاة ، وغالباً يكون حق القضاء عبارة عن ازام الخاطف لدفع مبلغ يزيد عن المهر المعتاد بعض الزيادة .

ان هذه العادة المنكرة ان كانت مغفورة وخفيفة الوقع في صدد البنات المخطوبات الراقي يخطفن برضائهن ، ولـاجل ان يتزوجن وينسرن بحكم غلو آبائهن بالمهور او لتمنع هؤلاء الآباء عن الاعطاء تمنعاً لامبررله فانها اي هذه العادة منكرة مرذولة اذا جرت في النساء المتزوجات مما هو واقع بكثرة باللاسف في بلاد حوران الباقية على جاهليتها الجهلاء . وقد نشر الشيخ محمد صالح الحلبي املم بلدة درعا الجديدة - اجزل الله ثوابه - رسالة خاصة في هذا الموضوع دعاها "ضربة الايمان لاهل حوران" طبعها في سنة ١٣٥٥ فما قاله فيها : ان هذه العادة تعدت من البنات الى النساء المحصنات ذات الازواج والاولاد فكم من امرأة خطفت او خطفت وهي في حجر ابيها او دار زوجها وبين اولادها ، وكم من امرأة

تواطأت مع رجل على ارتكاب هذا العيب الفاضح كأنها لم تكن بغياً ولم تأت شيئاً قريباً . فهذه مصيبة اخلاقية ويلات طائلة لم تألفها الجاهلية ولم تجر عليها الامم الوحشية . وهي عادة لا تتلاءم وكرامة العرب ولا تتوافق مع شرف الاسلام ، كم سببت للابدان جروحاً وعن الاوطان نزوحاً ، وكم حمل المخطوفات (او الخاطفات) اولاد ابناء زنا بطريقة السفاح الممقوت الذي يرذله الاسلام وينهى عنه رب الانام ، وكم سبب خطف النساء من شهادة زور وكذب وفجور وامانة حق واحياء باطل فبينما المرأة ترتكب هذه الرذيلة يتخذ وليها او زوجها عملاً هذا ذريعة لاقتناص المال من الخاطف بصورة بعيدة عن الرحمة والمرؤة . وبهذه الطريقة الوسخة يتمثل الطمع باقظع منظاره . فان دفع الرجل (خاطفاً كان او مخطوفاً) ما يفرضه عليه ذوو المرأة تحسن الحال وزال الاشكال ، فعادت المخطوفة « أو الخاطفة » الى حجر ابنيها او دار زوجها كأنها لم تأت خطية ، وعندها بغض الطرف عن تلك المدة التي قسنتها بالزنا مع ذلك الرجل . والا لعبت الخفاجر في المناحر وتقرحت من البكاء المحاجر واسرجت الخيل وعظم الويل واتزعج الانام وسلبت راحة الحكم . كل ذلك لا انتصاراً للشرف ولا دفاعاً عن العرض ولكن طمعاً في المال الذي اصبح معبوداً للجميع .

وقال عن اسباب هذه العادة المردولة انها : ١ - عدم مراعاة احكام الاسلام في التزويج مثل التكافؤ بين الزوجين والتساوي في السن والتجانس في الاسرة والتقارب في السوية النفسية والاخلاقية . ٢ - اكراه ولي المرأة على التزوج بمن يريد هو لابن تريد هي وذلك طمعاً بالمال . ٣ - اكراه ولي الفتاة ذات العمر ١٨ على ازواج بكبير السن ذي العمر سدين فاكثراً ، وذلك طمعاً بالمال ايضاً . ٤ - جعل المرأة سلعة في المزايدة العلنية ، فاي خاطب يزيد في مهرها لوليتها فهي له سواء يريد

قابها اولاً ، ٥ - افساح المجال للمرأة بان تتصل بالرجال في اي واد ومكان فتجد الرجل قابلاً في داره خوراً منه وكسلاً ، وتجد المرأة مجبورة على القيام بالاعمال البيتية والاعمال الخارجية العائدة على الرجل بجميع فروعها ٦ - غلاء المهور ، فلو اعتدل اهل البنت بمهرها وتساهلوا به لما حصل شيء من هذه القبائح ٧٠ - ايواء بعض من الشيوخ والمتنفذين للمتخاطفين وحمايتهم ايها طمعاً بنوال المال من الفريقين ، ولكي ينصبوا انفسهم بسفسة حكام حل ما ينجم عن هذا الخطف من المشاكل بين عشيرتي المتخاطف والمخطوف توصلاً لمنفعتهم المادية ، وربما وسعوا شقة الخلاف من وراء ستار توصلاً لهذه الغاية الخسيسة ، والاغرب ان يزعم هؤلاء الشيوخ والمتزعمين ان عمالهم هذا مكرمة ، لان فيه حماية الدخلاء واللاجئين . وقد فاتهم ان حماية المتخاطفين طعنة في كبد الشرف وايواء للرذيلة وحماية للفحش وتنشيط للزنا .

العرس :

بعد ان تتم استعدادات العرس يعلنون في اول الاسبوع اي يوم الاحد مباشرة الافراح ، فيجتمع في كل مساء الرجال والنساء يغنون ويدبكون ، معاً حتي يوم الثلاثاء تؤلف قافلة من رجال ونساء راكبين على خيولهم والبعض مشاة ، والنساء على هواجهن من الابل . فيذهب هذا الموكب الى منزل اهل العروس وهم يمرحون على ظهور الخيل والنساء تغنين ، ويطلقون الرصاص بالفضاء . . وقبل ان ينزلوا في بيت والد العروس يقابلهم اول اول من يصادنهم ويدعوهم الى ضيافته ، وبعد اكرامهم واطعامهم يذهب النساء بنشيد الى بيت اهل العروس ويدخلن اليه ، فيستقبلن اهل البيت بالترحيب . ومن ثم يأتون بالعروس التي تكون اختفت من الوجه خجلاً

يُحْمَنُهَا وَيَلْبَسْنَهَا اثْنَابُ الْعُرْسِ وَيَعْطُرْنَهَا كَمَا هُوَ الْمُعْتَادُ وَهُنَّ يَغْنَيْنَ وَيَنْشُدْنَ وَيَذْبَحُ أَحَدًا قَارِبَ الْعُرْسِ لَهَا ذَبِيحَةً خَاصَةً، وَبَعْدَ لُحْنِ الطَّعَامِ وَيَكْرُمُ كُلٌّ مَنْ كَانَ مَوْجُودًا هُنَاكَ مِنَ النِّسَاءِ . وَفِي مَسَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ يَأْتِي النِّسَاءُ مِنْ مَحَارِمِ الْعُرُوسِ اعْنَى وَالِدَتِهَا وَشَقِيقَتِهَا وَخَالَاتِهَا وَعَمَّاتِهَا وَمَنْ يَدُلِّي إِلَيْهَا بِقَرَابَةٍ وَيَحْمَمُنَهَا وَيُزِينُهَا بِأَجَلٍ مَا امْكُنْ مِنْ انْزَاعِ الزَّيْنَةِ وَبَسْمِينَ ذَلِكَ (تَمْتِيقُ الْحُلَايِبِ) . وَفِي الصَّبَاحِ يَأْخُذْنَ الْعُرُوسُ وَمَعَهَا امَهَا وَاحِدَى خَالَاتِهَا وَيُذَهِّبْنَ بِهَا بِالنَّشِيدِ وَالْأَغَانِي وَبَيْنَ رَمْحِ الْحَيُولِ وَأُطْلَاقِ الرِّصَاصِ إِلَى بَيْتِ الْعُرْسِ وَيَسْمُونَهُ هَذِهِ الْقَافِلَةَ (قَطَارُ الْعُرْسِ) وَيَدْخُلُونَهَا رَأْسًا إِلَى بَيْتِ الْعُرْسِ الَّذِي يَكُونُ دَعَاهُ أَحَدُ الْأَصْدِقَاءِ مِنَ الشَّبَابِ وَدَعَا مَعَهُ أَقْرَانَهُ وَلِدَاتَهُ لِلِاسْتِحْجَامِ وَالطَّعَامِ وَزَيْنَتِهِمْ وَكَرَمِهِمْ ، وَهُنَاكَ يَرْفُونَهُ إِلَى الْعُرُوسِ فِي خِيْمَةٍ أُحْدِثَتْ خَصِيصًا فِي مَكَانٍ مُنْفَرَدٍ مُتَوَسِّطٍ يَسْمُونَهُ (رَزَّةً) وَمَنْ الْمُعْتَادُ أَنْ يَهْدِمَ الْعُرْسُ فِي الْمَالَةِ الْأُولَى هَدِيَّةً لِلْعُرُوسِ أَوْ شَيْئًا مِنَ النَّقُودِ تَسْمَى (نَقُوطًا) . وَصَبَاحَ الْيَوْمِ الثَّانِي يَقْوَارِدُ الْأَصْدِقَاءُ لَهَيْئَةَ الْعُرْسِيِّينَ وَتَقْدِيمِ الْهَدَايَا وَاهْلُ الْعُرْسِ يَهْتَمُّوْنَ بِذَبْحِ الذَّبَائِحِ وَأَعْدَادِ الطَّعَامِ وَدَعْوَةِ الْأَصْدِقَاءِ وَالْخِلَانِ . وَبَعْدَ اسْبُوعٍ تَذْهَبُ الْعُرُوسُ لَزِيَارَةِ أَهْلِهَا وَتَأْخُذُ مَعَهَا مِنْ عِنْدِ عَرِيْسِهَا شَيْئًا تَقْدِمُهُ إِلَى الْأَهْلِ ، وَبَعْدَ أَنْ تَصْرِفَ الْمُدَّةَ الَّتِي تَرُغِبُهَا تَعُودُ مَزُودَةً بِالْهَدَايَا .

وهذه الأعراس أكثر ما يعنى بها ويتغالى هم أهل القسم الثاني «أعراب القديرة والشوايا» وبعض الرؤسا الأغنيا من أهل القسم الأول ، وعلى كل حال لا تجري هذه الأعراس إلا لدى من يتزوج للمرة الأولى . أما في المرة الثانية وما بعدها ، وفي زواج الأراامل والمطلقات ، فلا يجرون شيئاً في ذلك ، وعند أعراب القسم الأول أي البدو تكون الأعراس بسيطة جداً ، فهم يكتفون يوم الزواج بغداء يطعمون فيه الأصدقاء والأنساب وكفى ، وربما غنوا

ورقصوا واطهروا فرحاً وابتهاجاً ، وحينئذ يدخل العريس الى (المحرم) وهو المكان المخصص للنساء ويكون قد هياً واخلى لاجله ، وبينما تكون الضموضا وطلقات الرصاص صاعدة من بنادق بعض الاصدقاء بقصد اظهار الفرح او احداث جلبة خاصة يفترع العريس عروسه وينتهي .

قضاء الوقت واللهو عند البدو :

اصاب المتنبي في وصف عيشة البدو وكيفية قضائهم الوقت بالابيات الآتية ، فقد قال عن لسانهم :

ان اعشيت روضة رعينها أو نكرت حلة غزوناها
او عرضت طامة مقزعة صدنا باخرى الجياد اولاهها
او عبرت هجمة بنا تركت تكوس بين الشروب عقراها
والخيل مطرودة وطاردة تبحر طول القنا وقطراها
بمعجها قتل الكماء ولا ينظرها الدهر بعد قتلهاها

هذا ما كان عليه البدو قبلاً ، ايام السيف والسنان والخيول والعنان ، رعى ريان وغزو وركوب جياد وصيد وقنص وطراد وجلاد . اما اليوم وبعد انقطاع سبل الغزو وتطور ظروف العيش ، اصبح البدوي يكاد لا يعمل عملاً مذكوراً الا اذا رعى الابل او الغنم او جلب الغلال وفرش البيت ، وفي الغالب يرى ماشيته ترعى امامه او على مقربة منه يراقبها اذاعة ويدارونها من دونه ، وكل اعمال البيت تقوم بها النساء اما الرجل فلا شغل يدوي يلهمه ولا صناعة او حركة تسليه ولا كتاب او صحيفة يقرأها ، فما له اذا سوى الاضطجاع والاستمتاع بمنظر البراري الشاسعة ، واشعة الشمس الساطعة ، وهو يترقب مجيء الضيوف الى بيت الشيخ ، فيسعى لحضور مجالسهم ، ويصقئ الى ما يأتون به من الاخبار والحوادث الطريفة .



شاعر صليبي يضرب على الرباب



رقص الفتيات في عشائر الفرات كتاب عشائر الشام تجاه الصحيفه ٣٤٩

واحاديث البدو لا تخرج عن موضوعات الغنم والابل والماء والجو والامطار وبعض الامور المتعلقة بحياتهم اليومية او العائدة الى العشيرة الفلانية او الشخص الفلاني يتخللها نقد حيناً وتقريب حيناً آخر ، ثم موضوعات حل المشاكل المادية بين افراد العشيرة لخطف امرأة او اعتداء شخص على شخص آخر او قرار فتاة الى ما يماثل ذلك تتخللها مناقشة حادة تارة وهادئة اخرى .

والبدوي المعروف بأنه اذكى وابنه من الفلاحين اهل القرى يعرف من الاخبار التي تهمة من انباء العالم ما ينبغي الاخطاة به ويتناقله بسرعة البرق ، حتى ان ما يحدث في الحجاز او العراق كان يصل بخبره الى ابن بادية الشام وما وراءه من الاعراب قبل ان تصل القوافل او البريد ، فينتقل الخبر في الافواه من قم الى قم ويسمون الاخبار (العلوم) ، واول ما يسأل البدوي في البادية أو المعمورة عن العلوم ، واذا لم يكن عند البدوي ما يتسلى به من القصص والاخبار التي تكون في العادة نمطاً واحداً يأخذ شاعر العشيرة ربابة يضرب عليها ويفكهم من محفوظه او نظمه باشعار يدور اكثرها حول المآثر والمفاخر التي جرت لمشاهير انفرسان والغزاة والانتصارات التي احرزوها في ميادين البطولة والسياسة او الكرم والارحمية ، كما يدور بعضها حول وقائع الحب والقيام ، ينشد هم كل ذلك بلهجتهم البدوية وانما لهم الفطرية بأسلوب لايف شجي يأخذ بجامع قلوبهم وتترنج له اعطافهم حماساً وطرباً . وما عدا هذا التشيد او القصيد الذي يسمعونه فان لديهم ألعاباً كثيرة يتسلون بها كما انهم يتسلون احياناً بسباق الخيل يطلقونها فيروا الفائز منها ، او بالعراصة وهي ان تجتمع الخيل مستعريضة تلعب امام نساء العشيرة ، ويتسلون تارة بالرقص الذي يجرونه في الاعراس وحفلات الختان وفي ايام الربيع وافات المتعة والراحة . والرقص معروف عند البدو واسمه (الدحة) يقابله عند عربان الديرة واهل القرى (الدبكة) و (السحجة) .

والدحة رقصة باوضاع خاصة واصول مألوفة تقوم بها بنات العشيرة تتقدم الواحدة تلو الاخرى وتلعب دورها فتمسك سيفاً في الغالب والمتفرجون في الجانبين ، ويقال لهذه الالعبة (الحاشي) وتوصف باوصاف جميلة فتتقدم والقوم حولها كحلقة طولانية وتكون هي في الوسط ، وهناك قصاص (منشدون) ودحاحة (هم الذين يرددون مع القصاص ويختمون كل دور بكلمة دحي ، دحي) وخلال هذا الرقص لا يقع من احد قط ما يخالف الآداب لا في الفعل ولا بالقول .

والمتدى الوحيد لرجال العشيرة هو بيت الشيخ لا سيما اذا قدم ضيف من الغرض ، فاذا ما رأوه انسلوا من كل حذب وجاؤوا لرؤيته وقعدوا حوله يرهفون آذانهم لاقواله وأخباره (علومه) الطريفة ،

شرب القهوة عند البدو

يتعاطى البدو في مجالسهم قهوة البن ، وهم يجيدون طبخها لفراغهم وتوفرهم على معالجتها ، وقد يستغني البدوي عن الاكل او يقلل منه كثيراً ، ولكنه لا يستغني بحال عن تعاطي القهوة في كل ساعة ، فهي ثقله وحلاوته وشرابه المنعش ، وقد يصرف احدهم ثمن بن في السنة أكثر مما يصرف على طعامه ولباسه ، واحب الهدايا الى قلب البدوي ان تحمل اليه مقداراً من البن . فمن ادوات القهوة عندهم (النجر) وهو جرن القهوة ويكون في الغالب من خشب البطم او الزيتون المشغول المزخرف بمسامير النحاس ، او يكون من النحاس الاصفر ، وحجم النجر يختلف ، فقد يبلغ علوه احياناً ٥٠-٦٠ سم وكذا قطره ، والاداة التي يدق بها البن في النجر تدعى (مهجاج) . واستعمال المهجاج ودق القهوة في النجر له صنعة خاصة تحدث رنات مختلفة شجية حسبما يكون الضرب في قاع النجر او في جوانبه . ولصناعة دق القهوة اناس خاصون ، واكثرهم حذاقة بذلك هم العبيد خدم كبار

ارؤساء المكلفون بملبخ القهوة وتقديمها . ودقات النجور وسباعها من
علائم الاجتماع ودلائل الجود والكرم لمن يخدمها لديه . ومن ادوات
القهوة عندهم (الدلال) جمع (دلة) وهي من النحاس الاصفر ، وكبيرتها
تدعى (مفورة) من التفوير ، والصغرى (مصب) .

والنقرة تحتوي دائماً قليلاً من الضرم . فاذا ارادوا ايقادها القوا
فيها من القش او العشب اليابس او بحر الابل المجفف وهو اؤها بطرف
العبادة . وكما ثبت النار ودامت في البيت دلت على كرم صاحبه
وجوده . ويضعون فوق الجمرات عدة دلال من النحاس الاصفر
ملانة بالماء كما يضعون فوق الالباب الداخن دائماً محمصة من الحديد ذات
مقبض طويل يمحسون فيها كمية من البن الاخضر . وهذا العمل يقوم
به اخو الضيف او احد اولاده او احد عبيده . والقائم بهذا العمل
يقلب بدقة متناهية الحبات المحمصة بواسطة مطنة الى ان تخرج الحبات وتسود
وتتدخن قليلاً . ثم توضع داخل النجر وتدق بالهياج الى أن تسحق
وتنعم ودقيق البن الذي يحصل يوضع في دلة خاصة تدعى (المفورة)
ذات ماء غل فينتقع البن فيه ، وتناول طابخ القهوة كيمساً معلقاً
في زناره ويستخرج منه بضع حبات من البن المحمص (الهيل) فيدقها
ويضعها في المصب ، ويسكب فوقه البن المغلي في المفورة وينزع على فم
المصب قطعة من اللين او مصفاة معدنية ذات ثقوب لتصفية السائل ومنع مرور
الثفل والرمل . فاذا انتهى طبخ القهوة على هذا النحو يذوق الطابخ قليلاً منها
ليمتحن جودتها ولكم ، وليعلم الحاضرين ان ليس في الفناجين التذمة اليهم اي
اثر للسموم . ثم يشرع بتدوير القهوة على الحاضرين . ومن عاداتهم في الدورة
الاولى اسقاء القهوة للضيوف الممتازين وفي الثانية يدورون بها من اليمين
دون تمييز . ومنها قولهم (اول القهوة خص وتانيها قص) . والكمية
المقدمة لا تتجاوز بضعة سديمترات مسكبة في كل فنجان الا
انهم يشربون منها بضع مرات متتالية . ويمكن الزائر ان يرفض
الفنجان الثاني ، اما يرفض الفنجان الاول فلا يجوز ، وبحسب اهانة

عظيمة ، او انذار بشر او عرض حاجة يراد قضاؤها فتقضى حتماً لكي يشرب الضيف القهوة بهناء ، وهم لا يبرحون يصبون ويناولون حتي يهن الضيف التذجان بيده . ورب البيت هو آخر من تقدم اليه القهوة في الدورة ، وهذه القهوة مرة ، لانها محرومة من السكر ، والهيل ينفعها نكهة ذات حموضة وحلاوة معاً .

طعام البدو :

من ادوات الطبخ عند البدو تنجرة كبيرة ذات ميزاب يسمونها (مشعبة) ويضعونها على مناعيب لترويب اللبن وجلي السمن ، وعندهم (القدر) وهو من النحاس الاحمر لطبخ الطعام ووضع الماء و (الخبثا) او (المشوط) وهي معلقة كبيرة من الخشب . وعندهم (المنسف) وهو جففة كبيرة مستديرة من النحاس ذات حلقات يقدمون فيها الطعام للضيوف ويبلغ قطر بعض المناسف الكبيرة متراً ونصف بحيث يتسع لنافقة بكاملها فوق اكمة من الرز والبرغل . و (القدح) وهي اناء من خشب في شكل مربع مستطيل ولها يد وفم تستعمل لملب الابل وشرب الماء . ان هذه الادوات كافية بحكم ان طعام البدو بسيط لا يحتاج لكثر منها ، واسباب هذه البساطة عديدة : اولاً فقرهم النسبي الذي يعطوهم الى اختصار اناهم وخرثتهم واقلاله ، ثانياً قلة الرقود التي تمنعهم من اكثار الطبخ والتفخ واطالتهما ، ثالثاً وهو الاعم عسرة نقل المؤونة الوفيرة وادوات الطبخ الكبيرة المحتاجة الى عدد كبير من الابعار لا يتيسر وجوده دائماً ، وعلى افتراض وجود هذه الابعار هنالك عسرة التحميل والتنزيل اللذين يحتاجان الى ايدي عاملة قوية قد لا توجد ومن هنا كان طعام البدوي المتوسط الحال مقتصر على (الكسرة) اي الخبز الفطير فحسب ، يضيف اليه في الصيف قليلاً من الزبد او السمن ، وفي الشتاء قليلاً من التمر الذي يأكله رطباً أو مغلياً ويتونه

من بلدة شتانة في جنوبي العراق وغربي الفرات ، اما اذا انتهى الشتاء وبرز ربيع الارض يكثر درّ الغنم والابل فيتعذى به وهو يظل زهاء خمسة اشهر على هذا الغذاء اللطيف اعني به حليب النوق وزبدته اللذين لا يبيعهما قط ، ثم اللبأ والشينة والسمنة المستخرجة من حليب الغنم والمعز ، ثم الخائر وهو اللبن الرائب المعروف ، واذا حل الصيف واقترب البدو من المعمورة يحصلون باديء بدء على (الفريكة) وهي حبوب القمح الطري الاخضر المشوي ، ثم بعد انتهاء الحصاد والدراس في القرى يحصلون على « البرغل » ويحصل كبارهم على الرز فيقتاتون بهما ، الا ان هذا القوت لا يناله البدوي كل يوم ، ولا يحمل البرغل ويثونه للشتاء الا المازفين منهم ، فالبرغل هو اساس مؤونة البدوي وحمولته في نعمة الشتاء وكانوا قبلاً يحملونه حباً فتطحنه النساء في طريقهن ، اما الآن فقد صاروا يأخذونه مطحوناً جاهزاً في اكياس الشعر الكبيرة « العدول » التي تنسجها نساؤهم في اوقات فراغهن .

وهم يطحنون الحبوب بالرحى ويعجنون الدقيق في قدر او قصعة ويخبزونه فطيراً على الصاج ارغفة رقائقاً ، او يخبزونه على الجمر اقراصاً وهو اكهم في السفر ، وذلك انهم يطحنون الحب بهاون من خشب اذا لم يوجد رحى ثم يعجنونه في قصعة صغيرة ويعملونه قرصاً ثخيناً ويدقون الحطب على الارض حتى يصير جبراً فيزيلون الجمر عن الرماد ويظلمرون القرص في الرماد ثم يردون الجمر عليه الى ان يجف وجهه الاول فيكشفونه ويقلبونه ويعيدون الرماد ثم الجمر عليه حتى يجف وجهه الثاني فيقسمونه كسراً صغيرة ويأكلون ، ولا يستغرق عمل القرص بهذه الطريقة أكثر من ساعة ويدعى « قرص الملة » وهم يأكلون خبزهم بلا ادام ، او بادام من قر الدين او اللبن او السمن او الزيت او اللحم ، واطعمتهم بسيطة للغاية متشابهة تركيباً وطبخاً ، وقوامها كلها او اكثرها الحليب والسمن والدقيق والخبز والتمر والحفظ واشهرها : (الجريشة)

وهي انهم يحرسون القمح بحجر الرحى حتى يصير برغلاً خشناً ويسلقونه جيداً ثم يسكبونه في قصاع ويصبون عليه من الادم اللين او السمن او الزيت . « والعصيدة » يغلون الماء في حلة ويصبون عليه الدقيق شيئاً فشيئاً وهم يحركونه حتى يكون له قوام فيصبونه في القصاع ويأكلونه او يغلون اللبن او الحليب بدل الماء وهو « الثلبانة » و « الخميعة » وهو فتاة الخبز « الثريد » يصب عليه بدلا من اللحم حليب و (الدفنية) وهي الثريد او مسلق الرز بمرقه اللحم واللحم منشوراً قطعها فوقها ، وهم لا يتخذون البهارات في اطعمتهم ، واكاهم للخضر والفاكهة قليل وكذلك اكاهم اللحم والسمن . وفي اليم الربيع ينبت في بواديهم كثير من الاعشاب التي يأكلونها ، وهم يأخذون اغصان الشجر والجرجير والقريص والريبان والزعر و امثالها ويحففونها ويطحنونها بحجر الرحى ويمزجونها ويغمسون قرص الملة بها ويأكلونها .

والحمور لا اثر لها في البادية ، هذا ولشغاف العيش عندهم يعدون في الاعياد اليوم الذي ينزل على شيخهم ضيف يجب ان ياجر له شاة فانهم في تلك الوجبة مدعوون كاهم بالبداهة ، فينسلون من كل حذب ويصطفون داخل بيت الشيخ ، وعندها يأكلون اللحم ، وترى وقئذ السواعد مشمرة والايدي ممتدة تمزق اللحم وتضغظ على الرز او البرغل ضغظاً قوياً حتى يصبح كتلة واحدة والدهن يسيل على سواعدهم ، ويقبلون هذه اللقم الضخمة في الاكف ويعصرونها ويكورونها ثم يقدفونها في الحلق ، دون منزع وبسرعة خاطفة ثم يتناولون اثناء الشينة ويضعونه على قههم ويشربون وهكذا بينما الايدي العديدة صاعدة هابطة تسمع منها تهريق اللحم عن العظم وقرعته ، والقوم اذ ذاك حول المنسف يتزاحون بالمناكب ، وجائون على ركة واحدة لتسع دائرة المنسف اكبر عدد منهم ، وكلها شيع فوج كبير تلاء فوج امقرقرا الى ان يأتي دور الصبيان ، وهذا وفي اقل زمن يمكن واسرعه يصبح

المنسف في خبر كان .

ومن عادة المنسيف ان يتناول اللحم ويقطعه بيده ويقدمه لضيوفه .
ويعد عمله هذا من دلائل الكرم وحسن القرى . ومن اصول الطعام في
البادية انهم يسكبون المرق على الطعام كلها قل المرق عنه وذلك
ليسهغونه هنيئاً مريئاً ، واذا طلبوا المرق نادوا (اللبان يا عيال) بتشديد
اللام الثانية من لبان كانهم ينتحونه من اللبونة ، واذا شبع احدهم
قام يلحس اصابعه . وبعض البدو يمسحون اصابعهم وافواههم باهداب
البيت من جهة العامر وذلك لندرة الماء والصابون ، ويعرف القسم الذي
يمسحون به ايديهم بالرفه ، ولا يمسحون بلحاهم كما قيل ، وقول بعضهم
(صابون العرب لحاهم) يستعمل للهزل فقط ، واذا كان هناك رجال لم
يتح لهم الجلوس على المنسف لعدم وجود محل فان بعض متناولي
الطعام ينضجونهم بعظمة عاها ببقية من اللحم يتلمون بها حتى يأتيهم الدور
ومن عادتهم ان لا يقوم احدهم عن الطعام قبل ان يشبع الجميع ،
فهم يقومون عن الطعام سوية .

وفي صدد طعام البادية يقول الاستاذ عز الدين علم الدين في رحلته
الى وادي السرحان والجوف مانصه : (عن المقتطف ، اكتوبر سنة ١٩١٧)
لا يزال البدو مقتصرين - كما ذكر ابن خلدون -
على الضروري من الاقوات والملابس وسائر الاحوال والعوائد
ومقتصرين عما فوق ذلك من حاجي او كالي ، ويتناولون
اقواتهم بعلاج او بغير علاج البتة الا ما مسته النار ، وذلك لاضطرار
البدوي الى التنقل في كل حين ، فاختر بحكم معيشته الايسر تناولا ،
فتأنق الحضارة امر لم يعرفه البدوي ، فانه اذا اقام اياماً في منزل واكل
العصيدة ، عد ذلك من التعميم . وهذه العصيدة عبارة عن اللبن الحليب
يقلى ، فيذرون عليه الدقيق تارة ويضعون عليه البر الجريش « البرغل »
وقليلاً من الدهن ، ويقال لها حينئذ الجريشة ، واذا ضيف رجلاً

عزيزاً ذبح له نعمة او خروفاً ودعا اكراماً للضيف كثيراً من البدو
لمواكلته ، فكنا نفرح اذا ما حل بنا ضيف حفظنا من لحم لا نذوقه
في البادية الا قليلاً . اما في الاعياد والافراح فيترجون الابل الكوماء
لان لحم البعير عند البدوي سيد اللحم كله . وكان يريكان الصايبي
اذا اراد ان ينعمي بطام العشاء طبخ الارز وسمونه التمن وبعد ان
ينضج باوساخه يضعه في باطية ويحف في وسطه حفرة يضع بها الزبدة
التي تذوب بحرارة الطعام ، فتليق الارز بالزبدة ونزدره اذرداداً .
وكان شاهر الخريشة الصخري يذبح السمن ويأتيناه بمنلاته فنغمس في
خبز الصاج الفطير وقد يخرج لنا السحلب الاقط (١) وبأينا هكذا
اياماً لا نتعدى الا بالخبز والسمن . ولا يزال البدو على اثار اسلافهم
في صنع خبز الملة وذلك بان يلقوا الدقيق بالماء ويعجنوه عجناً خفيفاً
ثم يحطبوا ويوقدوا فيقرشوا الحجر ويطرحوا عليه الرغيف الثخين
ثم يغطوه بما بقي من النار فاذا نضج الرغيف تقاسوه . واكثر
ما يصنع خبز المسلة في السفر . واما في الاقالمة فيأكلون خبز
الصاج ، وفي كلتا الحالتين لا يذوقون الخبز الخير لانها من
الرفاهية التي حرم منها البدوي ، فاذا ما ظفر بها شكر الله على
تلك النعمة كثيراً . وقد كان سلف هؤلاء البدو الصالح يعد
الخبر من فاخر القرى فما رواه لنا عبد الله بن مسعود قال :
وقف معاوية على امرأة من بني كنانة فقال لها « هل من
قرى » قالت نعم قال « وما قرارك » ؟ قلت « عندي خبز خير
ولبن فطير وماء نيم » . وفي حديث ابي ذر الغفاري رضي الله
عنه : « الحمد لله الذي اطعمنا الخبر وسقانا النيم » .

(١) الاقط ويقال له اليوم الهقط ، وقد شاهدتهم يصنعونه من اللبن
الحامض ، ويتخذون من جبهه اقراصاً صغيرة يحففونها في الشمس
ليدخروها مؤونة لهم في الاسفار .

وسيد طعام القرى البدوية كدومة الجندل (الجوف) وسكاكة هو (الدفينة) وهو الثريد الذي كان العرب قديماً اذا ارادوا ان يفضلوا رجلاً قالوا: فصل فلان على سائر قومه كفضل الثريد على سائر الطعام. وتعد الدفينة من بدخ العمران البدوي، وقد اكلتها في دومة الجندل مراراً فاليقتها لذينة شهية، ولا تصنع الا في الولاثم او قرى ضيف كريم وطريقهم في عملها ان ينضدوا في طشت كبير (منسف) من رقائق الخبز فنداً يكفي المدعويين، ثم يغلون هذا المضيد بطبقة من الارز، ثم يأتون بالذبيحة ناضجة، فيسقون بمرقها الثريد ويكومون الاحم فوقه تكوئاً.

والصابون الذي نعه من مرافق الحضارة لا يوجد في البادية الا نادراً فما كان صابوناً بعد الطعام الا ان نسمح اكفنا من الدهن الكثيف بطرف الشقة من بيت الشعر. وما استغنى البدوي عن الصابون الا اقتصاداً في الماء القليل في البادية كاستغناء الشارع بالميم عن الوضوء. وهم انما يدخرون الماء للطبخ او اطفاء للعطش الذابح كما يعبرون. ولم ار بدوياً يمسح يديه بلحيته بعد الطعام وان كنا نسمع في بلاد الشام ان «صابون العرب لحاها».

لا ينزل قدرهم عن اثافي الموقد ويصب الطعام في الجفان الا ويحرق بها البدو احداق الخوارج بابي نعامة يلعقونه وهو يكاد لشدة حرارته يفور. فكنت ورفيقي نطلي جدار الجفنة بالطعام تبريداً فيستطاع نوعاً ما اكله. وكثيراً ما كنا ننزع من طعامهم يدينا بسرعة ونحرك في الهواء اصابعنا مدبوغة مستعيزين بالله من النار والطعام الحار، ولذلك كنا ابطاً القوم اكلاً ولم نكن باعجابهم... وقلما قت من الجفنة الا جائعاً لان يدي ما كانت لتصل باللقمة الى فمي مرة، الا وتكون يد البدوي قد وصلت كما يشهد الله عسراً، ولهذا كان اهل الذوق من الاعراب يلاحظ ما يصيبنا من الغبن الفاحش يشار كتنا ايهم في الاكل اذ «سباق

المذكيات غلاب ، فيضعون بصحفة لتأكل على حدة وتشتبع على رسلنا .
ولله ما اصدق ذلك البدوي الذي قيل فيه : ما سم المرق عندكم قال :
السخين ، قيل فاذا برد قال لاندعه حتى يبرد .

وقبل ان ندرك الجوف اصطاد بعض صحابتنا حيواناً صغيراً ابيض
البطن رمادي الظهر يده اقصر من رجله خلته فأرة برية فسألهم عن
اسمه فقالوا جربوع فعلمت انه اليربوع المذكور في كتب اللغة . ثم
أمرع الصائد وشواه وتناصبه وصحبه وازدردوه سريعاً كما يزدرد الحضري
الفلوذج ، ودع بدوي آخر على اثر قنفذ فاقترعه وطاد بعسد هنيئة
بصيده وكنه أب في جوف الفرا فاضرم النار ورماء بها حياءً ولما
تمكن من القبض على عنقه المنقبض حذر النار ذنبه وأكله ورفاقه
بعد تمام نضجه بجشع غريب ، ولقد باركت لهم لرفيقي بحصتنا من
القنفذ واليربوع .

ورأى عرب السرحان في رابعة النهار ضبعاً طاردوها بخيماهم والفرس
اسرع من الضبع فادركوها واحبوها رمياً بالرصاص ، وخبوها ،
واولموا تلك الآلية بها ، ويزعمون ان لحماً علاج من الحمى ، وللبدو
غرام باكل الجراد ، ولعله حل اكله توسلاً لابادته ، على ان له في
انسنة المجذبة نفعاً في البادية جزيلاً .

ذكر ياقوت في معجم البلدان نقلاً عن بعض الرواة : قال لقيت
اصرياً فقلته ممن الرجل قال من بني اسد فقلت : فمن اين اقبأت ؟
قال من هذه البادية ، قالت : فإن تسكنها قال : مساقط الحمى حمى ضرية (١)
بارض امير الله ما تريد بها بدلاً ، ولا تنبتني عنها حولاً ، قد حنتها
الفلوات ونفحتها القدوات فلا يملوح ترابها ولا يمع جناها ، ليس فيها
اذى ولا قذى ولا وعك ولا موم (البرسام) ، ونحن فيها بارقه عيش
(١) ضرية ارض بنجد ينسب اليها حمى ضرية ينزلها حاج البصر ، لها
ذكر في ايام العرب واشعارهم (عن ياقوت) .

وارقى معيشة . قلت وما طعامكم قال : بخ بخ المبيد (المنزل) والعنكت
والعلمن والضباب واليرابع ، وربما اكلنا والله القد واشتوينا الجلد ،
فلا نعلم احداً اخصب منا عيشاً ، فالحمد لله على ما رزق من السعة ،
وبسط من حسن الدعة ، او ما سمعت بقول قائلنا :

اذا ما اصبنا كل يوم مذقة وخمس تيرات صفار كنانز
فذن ملوك الناس شرقاً ومغرباً ونحن اسود الناس عند الهزاهز
وكم متمن عيشنا لا يناله ولو ناله اضحى به جد فائز
وللبدو عامة صبر على الجوع والعطش . واذا جاع احدهم ولم يجد
طعاماً شد حجراً مستديلاً على معدته واحتمل الجوع بصبر غريب
واكتفى باكل العشب . ومن بات بلا عشاء سبي (القوي) ومن لم
ياكل طعام الصبح سبي (الميوق) .

قرى الضيف :

قرى الضيف امر قد اشتهر به البدو منذ القديم . وتذكر الرواية
ان حاتم الطائي كان يشعل ناراً عظيمة امام بيته ليأتي بها المسافرين
والجائعون . ولا تزال آثار هذه العادة جارية في يومنا هذا لدى كثير
منهم . وقد ذكر عن الامير مجحم بن مهيد رئيس الفدح (الولد) انه يأمر
مؤذنه ان يصيح عقب اذان العشاء (العيش يا جوعان) . وتأخير الطعام الى
بعد العشاء يقصد به انتظار من قد يكون متخلفاً من الزوار
والمسافرين .

والواقع انه لولا عادة قرى الضيف واكرامه لما طيقت البادية
المحرومة من الفنادق والمطاعم . ومن هنا نشأت هذه العادة عندهم وصارت
من الواجبات التي لا مناص لهم منها . والمسافروا التزيل يغزو معزراً
مصاناً منذ حلوله بيت منيفه . واقراء الضيف من المكنة بحيث انه

لو لجأ المسافر الى بيت رجل فقير ليس لديه ما يقدمه للضيف ، على هذا الرجل ان يذهب الى جيرانه من البدو ويطلب منهم ما يكفي للقيام بواجب الضيافة ، وليس له ان يحيل ضيفه الى بيوت الآخرين : ويقعد الضيوف في الربة امام متجهمين نحو مسدحها في جانب المضيف (المعذب) او يجعلون ظهورهم الى الحواجز القصمية (القطع، الساحة) والضيف ينام في الربة ويأكل فيها ويسمر ويسهر. ويقيم في الضيافة ثلاثة ايام ، فاذا انقضت هذه المدة يغادر البيت . ويظل هذا الضيف في حضي المضيف الى بعد ثلاثة ايام من سفره . وحينما تزار مغازل البدو لا يجوز للضيف ان يغير البيت الذي نزل فيه ، واذا فعل ذلك ، يكون قد اهان مضيفه اهانة عظيمة كما لا يمكن ان يقبل اي دعوة مالم يدع اليها مضيفه ايضاً . ومن هنا جاء المثل : (الضيف اسير المعذب) .

ومن عادة البدو انهم يحتفون بالضيف حين قدومه اكثر من حفاظهم به حين ذهابه . ويكرمونه ما وسعهم الجهد . وعلى الضيف ان يكون ادبياً ومراعياً لعاداتهم ، وعليه اذا قدم منزل العشيرة ان ينحرف ما يمكنه ويقصد الربة مباشرة كي لا يقع نظره على الحريم او اماكن النساء . لذلك يأتي الضيف من طرف المنازل حتى يصل الى بيت الشيخ اي الى (الربة) فينزل عن مطيته ويربطها باحد الاوتاد او الاطواب . واذا دخل يحيي الحاضرين وينتظر قليلاً ريثما يعدون له محلاً للجلوس وهم يسرعون لانزاله عن دابته ويربطونها ويأخذون منه اسلحته وحوائبه ويأتون بالفرش والمساند ويدعونه للجلوس ثم يبادرون لاعداد القهوة والطعام . وعلى الضيف ان يحترم المنزل وكل من فيه ويقبل كلما يقدم له من طعام ، وليس له ان يرذاة خامة تقدم اليه . ويحظر عليه التقاء نظره الى ما وراء (الساحة) او الاصغاء الى محاورات النساء او الانشياء لاصواتهن وحركاتهن مهما قلت او كثرت . كما انه من العيب ايضاً ان يتغوط او يبول امام البيوت ، وعند الرحيل لا يجوز للضيف الخروج الا من امام البيت ، ثم يمتطي راحلته اذ يكون احد المعازيب اي المضيفين قد

اعدها له وامسك بجامها حتى يركب الضيف فيشيعونه بسلام يكون اقل من الاستقبال فيما يقال كي لا يذكر الضيف انهم سُموه ومسلوا وجوده بينهم .

اسلحة البدو :

كانت اسلحة البدو قديماً السيوف والرماح والسهام ، اما اليوم ومنذ نصف قرن فقد انتشرت البنادق ويدعونها بواريد جمع بارودة . وصار اعمها بعد الحرب الماضية بندق موزر الالمانية مما تركته الجيوش التركية . وهذه البنادق موجودة بكثرة في كل مضارب البدو . اما السيف فقد دالت دولته وهجر بالمرّة ، الا عند الرؤساء والشيخوخ الذين يحملونه للزينة او ذكرى لما خلفه الالباء . وعند البدو من الاسلحة اليدوية البيضاء الخناجر والشاركرات والشاربي المعلقة بالمناطق ، وقد يشدون على حقوهم (الرذاتي) جمع (رذية) وهي المسدسات على اختلاف اشكالها . وعند اعراب الديرة والشوايا (الكلنك) وهو شبه المطرقة ذو رأس حديدي دقيق من جهة وغليظ من اخرى وله مقبض خشبي طوله نحو نصف متر . و (القنا) او (الجنا) وهي كرة تكون من الحديد او من خشب البطم القاسي ولها مقبض خشبي ، وهي (الدبوس) عند الحضر ، وصبيان البدو يقاتلون به (المقلاع) المعروف وبقدفون به الحجارة .

الرحيل :

احب شيء الى البدوي الغزو والرحيل على حد قولهم :
لشرط البداوة كل يوم مغري وعن البداوة كل يوم رحيل
والرحيل هو انتقال البدو من مكان الى آخر وقد قدمنا ان البدو لا يستقرون في مكان ولا يطيلون الاقامة في ارض ، فهم دائماً يتنقلون من ارض

الى اخرى ومن منزل الى منزل يرتادون الكلاء ويفتشون على مراعي وموارد
لاباهم وغنمهم. ثم هم يرحلون من منازلهم لتراكم الاوساخ حول المحلات التي
يقيمون فيها فيتركونها ليتخلصوا منها ومن الروائح المنبعثة بسببها. وهم متى
ارادوا الرحيل يجتمع كبار العشيرة في بيت الشيخ فيتشاورون وكل واحد
منهم يذكر المكان الذي يراه مناسباً ليكون مرتعهم الجديد. فيختارون من
الاعراب رواداً يرتادوا الاماكن الكثيرة الكلاء والماء. فيمذهب هؤلاء على
الخيل او في السيارات اذا كان لديهم سيارات فيتحرون المنازل والمناهل في
المواقع التي اعتادونها في كل عام ويعودون ويخبرون عن المحل الذي اعجبهم
فيعين مجلس كبار العشيرة يوم الرحيل ويعلم ابناء العشيرة ليتأهبوا له، وفي
اليوم الموعود قبل طلوع الشمس تقوض النساء الخيام ويحملنها مع سائر
الاثقال على الابل ويسرح الرعاة بالغنم قبل الفجر نحو المحل المقصود وتقوم
النسجة اثناء الحمل والترحيل وبعد ان يتم تحميل الاناث يسير شيخ العشيرة
وكبرائها في الطليعة ثم تتبعهم الرجال والنساء مشاة وركباً ورافات ووحداناً
وبدون اي ترتيب او انتظام وتعلو النساء الغنيات الهوادج، اما الفقيرات
فيسرن وراء الحمير المحملة مشياً، وهكذا يسير الركب الى ان يصل الى المحل
المقصود وتنزل الاحمال وتنصب البيوت وتشد الى اطرافها وتوقد النيران
وتطبخ القهوة والطعام.

وقد وصف الشاعر الجاهلي الحرث بن حنزة اليشكري اهبة البدو
للرحيل باجل ما يمكن من الايجاز، قال:

اجعوا امرهم عشاء فلما اصبحوا اصبحت لهم ضروءاء
من مناد ومن مجيب ومن تصد هال خيل خلال ذاك رغاء

ويسمى البدو الفرسان الذين يتقدمون الاطعان « السلف » اي المقدمة
وهم حماة الاعراض والاموال، وتسير الابعار المحملة وغير المحملة خلف
(السلف). والنساء لا يركبن الهوادج الا ايام الرحيل او يوم الحرب بين



من مناظر البادية : بعد حركة الظمون



من مناظر البادية القفراء

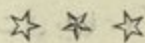
العشيرة واعدائها ليحرضن قومهن على الحمية وتضحية النفس . وهذه الهوداج هي بمثابة الوطن للبديوي فيضحى بنفسه ولا يترك العدو يصل اليها قبل ان تطأ سبابك الخيل جنته .

والهودج من الائنات اخص بالمرأة ، وهو يعمل من اعواد الصفصاف او من سعف النخل او من اي خشب خفيف ، يوضع على ظهر البعير وتجلس فيه المرأة وتكون « المنزاد » اي اكياس حاجاتها معلقة من الجانبين حفظاً للتوازن ، واذا كانت المرأة غنية تجعل هودجها حسب مقدرتها من خرفاً بالصدف والاقشة والاسرطة الملونة ، والهودج اذا كان كبيراً طويلاً بشكل الهلال وذوي قرون بارزة للعلاء يدعى « قتباً » واذا كان بسيطاً مستطيل الشكل وموضوعاً على حداجة البعير يدعى « باصوراً » . والهوداج ان كان فيها نساء او لم يكن تدعى (ظعينة) وجمعها ظعن . واطعان . وطمعن . ظعن في اللغة بمعنى سار وارتحل . والظعينة في الاصل وصف للمرأة في هودجها ثم سميت بهذا الاسم وان كانت في بيتها ، وكل امرأة بدوية ميسورة الحال لها هودجها تركبه وتحمل معها اشياءها الخاصة واولادها فضلاً عن بعض اثاث بيتها وادوات مطبخها ، وهي تستر بالسيوف وبما يشبه الكلل انقاء الشمس والبرد والمطر لا يقصد التخبب .

والبدويات ماهرات في امتطاء الابعار يتسلقنها برشاقة دون ما حاجة الى اناختها . وحركة الظعون هذه واهتزازها وتهاديها في السير ومنادمة النساء فوقها وحدوهن ومناغة الاولاد على ظمورها وحولها الفرسان والمشاة الزاحفة والابل المحملة والمتلاحقة بعضها وراء بعض والمنتشرة على مسافات دون انتظام . . . كل ذلك من ازوع الحياة البدوية . لاسيما اذا كان ذلك في صفو الربيع . تنمو الاعشاب وفوحان الشيع والقيصوم والخزامي وفي هدأة الفجر او ضوء القمر وسكون الطبيعة في البرازي والصحاري المترامية الاطراف . والحق ان هدأة الفجر او السحر لا تبدو على انهما الا في البادية ، فلا ليل

في الجلال كليل البادية ، ولا صبح في الجمال كصباحها ولا نهار في الشدة
كبارها . وما اجل قول زهير بن ابي سلمى في معلقته حينما مثلت في خاطره
ظعن الحباب ، بمحملات تغشيهن سدول صفيقة النسيم وكلة وردية الحواشي
فتبعهن ببصره الحزين وقلبه الواله ووصف ما سلكنه من طرق ونزله من
منازل حتى باغن المنزل الذي اردنه ، وما احلى اسلوبه في استحضر هذه
الذكرى حتى لكانها مائة للعيون فلو تبصر صاحبه قليلا لراها :

تبصر خليلي هل ترى من ظعن تحملان (بالعلماء) من فوق (جرم)
علون بانماط عناق وكلة وراة حواشيهام مشاركة الدم
بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن ووادي ارس كاليد للهم
وفين ملهى للصديق ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم
فلما وردن الماء زرقا حمامه وضعن عصي الحاضر المتخيم



اعمال البدو

الرعي ، الصيد ، الغزو ، التجارة

ان الاعمال التي يعتبرها البدو جديرة بهم هي الرعي او تربية الماشية
والصيد والغزو والتجارة .

اما (الصناعة) فانهم يأنفونها كما يأنفون الاعمال اليدوية . وقد شاهدنا
بعض اعيانهم المتحضرين لا يزوجون بناتهم من ارباب الصناعات والحرف
مما نبه قدر هؤلاء وضخمت ثروتهم .

اما (الزراعة) فقد كانوا ايضاً يزدرونها ويمتنون اهلها ويدعونهم
(فلايلج) جمع فلاح ، لانها فيما زعموا تربطهم بالارض وتجبرهم الى الخنوع
والذل وتفقدهم الحرية والانطلاق اللذين هما غاية منامهم ، ومن اقوالهم في ازدراء
الزراعة (الذل بالحرث والمهانة بالبقر) ، ويقابلون هذه الاقوال بكلمة (العز
بالابل والشجاعة بالخيول) . الا انهم مبدؤا ان انقطعت سبل الغزو ونضب معين
السلب والنهب وتوالت سنو المحل والجذب وكثر موت الحلال (الماشية)
اكرهوا على الميل نحو الزراعة وسرع رؤسائهم وكبرائهم منذ عشرين سنة
يقتنون الارضين ويتوسعون بالمساحات ويتنازعون على الحدود ويعنون بالحرث
وازرع والري ، ومن ثم صاروا يعتبرون الزراعة ويعتبرون اهلها الى حد ما .
ولو انهم لم يوفقوا بعد لتعويد اعراسهم على اعمالها واتعابها فاعتمدوا في الغالب
على سواعد الحضرة من ارباب القرى . ويرجى ان يوفقوا الى هذا التعويد
وان يسري الى صغارهم الميل والهوى المذان نشأ في كبارهم .

الرعي :

ان أكثر عناية اهل البادية وهو اعم هو في الرعي اي في تربية الماشية من الابل والغنم والمعزى والخليل، لان معيشتهم في الاساس متوقفة عليها وبدوتهم ناشئة منها، ولولاها لما كانوا ولولاهم لما كانت. وهم يربونها اما لحسابهم الخاص او لحساب شركائهم من اهل المدن لقاء قسمة معينة من النتائج. وهم يستخرجون من حليب الماشية اللبن والزبدة والسمن والقشطة، اما صنع الجبن فغير معروف عندهم. ومن العناية بالماشية يحصل للبدوي صوف من الغنم وانسجة من شعر المعزى او من وبر الجمال فيذهب بها الى المدينة ليبيعها مع الزبد والسمن وقد يبيع شيئاً من ماشيته التي رباها. واذا كان بحسن تربية ابل فهو يبيع من ذكورها بقدر ما يحتاج اليه من النقود ويشتري بدلها تمراً وجباً ونياباً وادوات للبيت.

الغنم :

ان أكثر الاغنام التي يستمرها البدوي هي للحضر اي لاهل المدن الشامية ولؤلؤ طرق عديدة في الاتفاق مع البدو وعقد شركات متنوعة للاستفادة من نواتج هذه الاغنام. والشركة على شكلين، الشركة الاولى (الغنومية) وهي ان يشتري الحضري الاغنام ويسلمها للبدوي، فينتقل هذا بها بين المعمورة والبادية حسب الفصول والمواسم، وتقوم اسرة هذا البدوي بكل ما تتطلبه الاغنام من عناية وخدمة وحلب تعاجم الرغوث وتحويل البانم الى زبد وسمن وخثر، ويتناول الحضري عن كل نعجة رطلاً من السمن علاوة على حملها الصغير ويأخذ البدوي مازاد عن الرطل، والنعجة الواحدة قد تعطي في سنة المئتين من الرطل الى الرطل والنصف الى الرطلين من السمن، اما الصوف فيرجع كله الى البدوي لقاء تعبه، واما الرسوم الاميرية المتحتم دفعها عن الاغنام للحضري يدفع رسوم الاغنام الرغوث والبدوي يدفع رسوم الحائل، وعلى البدوي ان

يدفع أيضاً كل النفقات من ضمان الماء وضمان الحقول المحسودة بما يسمونه (فراز) وخلاف ذلك ، والبدوي مسئول أيضاً عن ادارة الغنم وجلب الماء اليها من الاماكن البعيدة . واذا ما اراد الحضري ابدال هذا الشريك فان ذلك يكون في موسم (الفراز) اي زمن نزول اللبن او قبيله . ويقدر ان ربيع البدو لا لا يقومون بامانة في هذه الشركات اذ يعيشون بما هم اليهم من الغنم ويسدعون ان الذئب أكلها او ان البرد او المرض انتابها الى ما هنالك من الاعذار الملفقة . لكن الحضري لا يتقيد بذلك فيتلطف بتدبير يرد به غنمه ويودعه الى بدوي آخر .

× والشركة الثانية (شركة العظم او الشركة الحلبية) هذه تكون على شكلين : الاول ، يتناع كل من البدوي - الحضري عدداً متساوياً من الاغنام فيأخذ البدوي بتربيتها واستئجارها وفقاً لما ذكرناه في الشكل السابق ، وقسم الخسائر والارباح مناصفة كما تقسم النفقات بينهما على السواء ، الا ان هذه الشركة قد اصبحت نادرة جداً ولا تزيد نسبتها على ٥٠ . ٥ بين الشركات . الثاني ، يشتري الحضري مثلاً مائة نعجة بمائتي ليرة ويسلمها للبدوي بعد أن يأخذ عليه سناً بالقيمة ثم يبدأ بوفاء ائمانها من نواتجها فيبدأ البدوي باداء جانب من ائمانها كل سنة فلا تمضي سنتان او ثلاث حتى يكون قد أدى القيمة بتمامها فتصبح الغنم متناصفة بين البدوي والحضري ، فاما ان تبقى الشركة شركة عظم او ان تشغل كل منها على حدة .

الخيل :

اما الخيل ففخرة البدو ومبعث مجدهم ، عليها يقطعون السبابس ويهاجون العدو ويردون صدمات الغزو وفيها يعودون كاسبين ، وللخيل اكرام كبير ومنزلة رفيعة في المضارب تراها مربوطة في اكرم ارض امام البيوت كأنها من افراد الاسرة يحيطها كبيرهم وصغيرهم بكل رعاية وقد يؤثرونها على انفسهم في الماء والغذاء والتدفئة ، واذا انتجت الفرس مهرة حل الهذاء في الخيلام وعم السرور وذبجوا ذبيحة ونضحوا بدمها بطن الفرس والمهرة وقوائمها وناصيتها

واذا ابتاعوا فرساً او كسبوها في الف و يذبحون لها نعمة قبل ادخلها الى البيت .
 هذا والبدوي قلما يحب الاحتفاظ بذكور الخيل ، فهو يسعى الى بيعها
 وهي صغيرة ، وبهذا البيع الباكر يوفر على نفسه مشاقاً ونفقات . وهو
 يفضل اقتناء اثاث الخيل للولادة والربح . ومن النادر ان يبيع
 البدوي الفرس صفقة واحدة الا اذا اطعم بالملك الكثير وكان بحاجة اليه .
 والعادة انه يرضى ببيع النصف فقط ليكون له في نتاج الفرس حصة . فاذا ما
 اتت الفرس بمهرة جميلة واراد احد الشريكين فسخ الشركة حق له ذلك
 فتمن الام ومهرتها بمعرفة اهل الخبرة والاطلاع ، ويتقاصرا اي يستقل احدهما
 حسب الاتفاق بالمهرة او بالفرس الولود .

وللبدو في بيع الخيل طريقتان الاولى (المثاني) يأخذ البائع ثمن الفرس
 المتفق عليه كاملاً وله حق في نتاج الفرس ، وهو مهرة ثان ، الاولى منها وهي
 المهرة الاولى التي تسعها الفرس يأخذها غب مضي اربعين ليلة من الولادة واذا
 تأخر عن ذلك فالصروف عليه ، والمهرة الثانية يأخذها اما
 من نتاج الام او من نتاج المهرة الثانية التي تكون استجتها الفرس ،
 وتدعى الثانية التي يأخذها البائع فلو العامود ، اما الاحصنة
 فكلها للشاري .

والطريقة الثانية هي (المنافسة) يأخذ البائع نصف ثمن الفرس وهذه
 الطريقة أكثر شيوعاً من الاولى بين البدو ، ويقدم البائع للشاري اذا شاء
 الاخير حجة خلية تثبت اصل الفرس بمهورة من وجوه العشرة وشيوخها ،
 وتكون الحجة سداً صحيحاً في رسن الفرس واصلمها . لان كل فرس لا يثبت
 انتسابها لاحدى سلائل الخيل المعروفة لا يعتبرونها اصيلة بل يدعونها (كدشة)
 مما كانت مستوفية الاوصاف الممدوحة في الخيل . وعندما يصادف وجود فرس
 جيدة كمزده نسبها مجهول يدعونها (شتالية) فيسفدونها (يشبونها) من حصان
 اصيل ويستمررون على تلاميذها وتلقيح نسلمها من الحصن الاصيل الى ان يبلغ
 البطن الخامس وعندها يحق لهم ان يعتبروا ذلك البطن اصيلاً وان يسموا هذه

الفصيلة باسم الحصان الذي لقيحوا منه اول فرس من هذه الفصيلة .
والعرب طامة من بدو وحضر عناية كبرى في تربية الخيل وحفظ انسابها
(ارسائها) واشهر السلائل المعروفة هي الكحائل والصقلاويات وام عرقوب
والهدب والعبيات والشويمات والمعنكيات والجدرانيات والنواقيات والشرقيات
ونبدو يفوقون الحضر في ترويض افراسهم وتعويدھا العادات المفيدة في
العدو والكر والفر . ولهذا تنشأ الافراس عندهم اكثر جمالاً وجلدأ وعدواً
وفعلاً في الحروب خاصة وهي تعيش في الهواء الطلق والغطاء الفسيح دائماً .

ويوجد لدى عشائر عذرة وشمرو وبعض عربان الديرة اكثر سلائل الخيل ،
وتعنى عذرة بصورة خاصة في تربية الكحائل اكثر من غيرها ، والكحيلة
يضرَب المثل بعراقة اصلها ، فانا وصفوا امرأة بتجارتها قالوا (كحيلة) وهي
ذات اثواب مختلفة الالوان . ويذكر انه عند الاسبعة البطيئات كحيلة الاخرس
والنواقيات الشقر والعبيات ، وعند الاسبعة الموايحة الصقلاويات واغلب اثوابها
صفر ، وعند الاسبعة الامسكة امهات عرقوب الشقر ، وعند ابن سبيل من
الرسالين المعنكيات الجدرجية والسبيمية . وعند الفدطان الاخرصة الكحيلة
الجدرجية والكحيلة المضبة والكحيلة الاخذلية والديسيات والشيخات
والصقلاويات . اما الارولة فعندهم اجمل عتاق الخيل من كحائل وصقلاويات
جدرانيات ومعنكيات وشرقيات وشويهاات ام عرقوب ، ومثلهم بني صخر
في شرقي الاردن ، وقد اشتهرت عشيرة طيء بالمليحيات وعشيرة الموالي
بالصقلاويات والمعنكيات السبيليات وبني خالد بالمعنكيات الحجر ، وشمرو بالشنيمة
وبهدة انزحي وبالجدرانيات وهي عذرة حسن العامود قالوا وصلت اليه من
الفرجة من الارولة ، وعنده الصقلاويات ايضاً ، وعند غيرهم غير ذلك من
المرايط والسلال المختلفة الطيبة مما يضيق نطاق بحثنا عنه فاكتملنا
بما ذكرناه .

هذا وقد كان للخيل دولة واعتزاز لمضي ٢٠-٢٥ سنة في البادية والحاضرة
الى ان حظرت الحكومات الغزو وقطعت مورد السطو والسلب على البدو

وانتشرت السيارات في كل دانية وقاصية واقتناها رؤساء البادية لسرعتها وحسن بلغتها وظلوا بها فدالت دولة الخيل وقلت العناية والرغبة بها حتى لم يعد يركبها الا القليل، والفروسية التي كانت احدى مفاخر البلاد العربية اوشكت ان تضمحل، والبيوتات القديمة في مدن الشام المعتادة على اقتناء الصايفات الجياد قد اقفرت اصطبلاتها وصارت مرائب للسيارات، ولم يبق للخيل قيمة الا فيما كان منها صالحاً للسباقات الدولية وعقد المراهنة والمقامرة كما يجري في ميادين السباق في بيروت وبغداد وامثالها مما فيه خراب كثير من البيوت وانحطاط كثير من ارسان الخيل الاصيلة يا للأسف .

الابل :

واما الابل فهي صديقة البدوي الحميم ولولاها زالت البداوة ، وهي كما قال الاستاذ عباس العزاوي في كتابه « عشائر العراق » قوام حياة البدوي ووسيلة بقائها ... فمنها لبنه ومنها وبره ومنها لحمه وجلدها نافع له ، وهي واسطة نقله من مكان الى آخر وحمل اطفاله فهي في نظره (سفن البر) ، ولولاها لكانت حياته منغصة وعيشته مرة وآماله ضيقة ، وهذه فيها غناؤه وثراؤه بل من اعظم ثروته له ومن اثم تجارته ، لا تعيش للبدوي اعام وهو في حالة غزو وتنقل سريع من مكان الى مكان الا اذا كانت كهذه الابل تتحمل المشاق وتتقبل الصعوبات والاراضي الوعرة والفيافي البعيدة عن العمران فهي بحق تعد اعظم نعمة ناسبت اوضاعه فكانها خلقت لاجلة وقد رث له في اصل الخلقة وفي آية « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت » دلائل الامتنان بهذه النعمة . ولولا الابل لما تمكن البدوي ان يبلغ المكان الذي يريد الا بشق الانفس وصعوبتها ، والعرب في آثارهم الكثيرة من كتب الادب واللغة تعرضوا للسكلام عليها واوسعوا المباحث كما عمل الاسعدي في رسائله وابن سيده في مختصره . فما قالوه الابل مراكب العرب وطعامهم ، وهي اكثر البهائم شحوماً واطيبها لحوماً وارقيها لبناً واقلمها ذائلة واحلاها مضغة وهي من أرخص وسائل

النقل في الاسفار وتحمل الاثقال ورجاد الزروع من الحقول الى البيادر وان كانت بطيئة .

والابل انواع كثيرة ، واشهر المعروف منها مما ينتفع منه للحليب وللحمل ويسمى (البعير) فمنها (الخواوير) واحدها خوار ، وهي اباعر غزوة وشبر وظالب البدو بصورة طامة ، وهذه ابل بادية الشام تصبر على العطش وتستخدم للغزو وتعيش خارج المياه في البادية الجرداء ، والمعروف منها « بنات وضيجان » التي اصلها من ابل الشرارات ، وقد سميت بذلك لان لون قوائمها الاربعة واسفل بطنها ابيض وضاح وباقي الجسم اصفر مشرب حمرة كلون الغزال و (بنات عيجلي) و (البجانيات) وهناك قسم آخر يستفاد منه للركوب غالباً ويقال له (الذلول) ومن انواعه (التيبية) وهذه صغيرة ولها رسن قيد للسرعة والمغازي وتقطع مسافات بعيدة وهي عند الشرارات والحويطات في جنوبي بلاد الاردن ، وهذه تطرح النعام والغزال وهي للركوب خاصة ويقال ان اضلاعها سبعة في كل جانب ، و (الحرة) تعيش في البادية وتصبر على الماء وهي عند شبر وعزوة وعند الشرارات والحويطات وبها يتمكنون من الاطلاق بالخيول و (العمانيات) وهي جميلة ووافية ، وظالب ماتكون عند عشيرة المنتفق في العراق ، وقليلة في سائر الانحاء ومواطنها على ساحل خليج فارس . ويدكر ان ابل الحرة تتحمل اخفافها الارض المحصاة وتعرف ببروز قصبية انفها ، اما الابل التيبية فان اصلها من السودان وهي ترد فلسطين والبلقاء مع القوافل الآتية من مصر ، وقد كانت ابل الجيش الانكليزي في الشام من هذا الصنف خلال الحرب الكبرى الماضية . واما الابل العمانيات فاصلها من عمان (مسقط) وهي ذوات رأس نحيف وقد اهيف ومزاج عصبي ووبرد قاق ومنها الصبورة على العدو في القلوات والحساسة كالخيول العرب ، وكان الجيش الهندي في الحرب الكبرى المذكورة يبتاع منها ما يلزمه ، اما في الحرب الكبرى الثانية فقد استعاضت الجيوش عن الابل بالدبابات والسيارات المصنوعة خاصة للصحاري فزال دولة الابل كما زالت دولة الخيل .

هذا والابل عند كل عشيرة او فرع من فروعها علامة يسمونها بها اعرف وهذه تختلف اشكالها بالنظر لما تتخذه العشائر ولا تجد تقارباً في الوسم الا قليلاً، وكذا يقال للشاهد وهو من نوع الوسم الا انه لا يعول عليه في التفريق وانما هو اشبه بالاشارة الخاصة، والوسم يكون على اليمين او على اليسار او على الرقبة، والشاهد يكون على يمين الوسم او يساره، وقد يكون الوسم على اليد اليمنى او اليسرى والشاهد على الرقبة ويكون قريب الخشم ويصير محاذياً للعين او نازلاً الى الفك وعلى كل لا يعول على الشاهد، ومن الوسوم ما هو بشكل X او كحرف T او غير ذلك.

والبدو يطلقون ابلهم في البرية فتقتات من نباتها كالشيع والروثة وغيرهما ويوردونها الماء مرتين في الاسبوع في الصيف، اما في الشتاء فهي تظل اياماً عديدة دون ان تعطش، اما الحضر فيسقون الابل التي يستعملونها مرة في كل يوم من ايام الصيف. والحضر في بلادنا يسيئون تغذية الابل فلا يطعمونها اكثر من ثمنية (اي نحو كيلو غرامين) من الحب في اليوم من (الشعير او الكرسة او الجلبان او الفول او البيقية) على ان تكون مجروشة ومنقوعة في الماء لانه ليس للبعير قواطع في فكه الاعلى ويضاف الى ذلك مقدار كاف من التبن، هذا اذا كان يشتغل والا فيقصرون غذائه على التبن وعلى ما يصادفه من الاعشاب. والابل اذا كانت بالغة وتطعمها كافياً تحمل ٢٠٠-٢٤٠ كيلو غراماً في اليوم، اما اذا كان طعامها سيئاً فهي لا تحمل اكثر من ١٠٠-١٤٠ كيلو غراماً، هذا ووبر الجمل انعم من صوف الغنم، وتنتفع منه عبايات الوبر العراقية الشهيرة كما ينسج الفرائج منه نسجاً رقيقة غالبية الثمن، وبخشي البدو لحفهم ووساداتهم به. ومتوسط ما ينتف من الجمل في كل ربيع ٢-٣ كيلو غرامات من الوبر، وقد يبلغ ذلك خمسة كيلو غرامات، وتصنعون من جلده قرأباً عظماً منها التي تنسج ٢٠٠ ليتر من الماء كما يصنعون من عظم يديه امشاطاً، وبعمدون الى جلد ركبته وغيرهما من اعضائه السقى تحتك بالارض وهو جالس فيصنعون منها نعالاً غاية في المتانة، ولحم الابل لا يقل

عن لحم البقر، بل ان لحم سنامه الذ من لحم البقر، لكن البعير متى كبر يصير
لحمه قليل اللذة لا يأكله سوى الفقراء، ونسبة لحم الصافي الى مجموع وزنه
كنسبة ٥٥ الى مائه تقريباً. هذا وركوب الهجن الاصابيل المروضة على الجري يفضل على
ركوب ايدابة كانت لانهم يريح للغاية خصوصاً في البوادي القراء. ولا يصفو الاصل
عند البدو الا في الجليل الخامس، وذلك بان تلمح ناقة من هجين اصيل فاذا انتجت
ناقة ولفح هذه هجين اصيل ثم تكرر هذا التلقيح الى الجليل الخامس فهو الاصل
الصافي ونتاج اصيل، ومنهم من يؤصلون اباهم الى الجليل السابع او الجليل العاشر.
ولا بل عنزة خاصة صبر عجيب على العطش في ايام الربيع تبقي شهرين او اكثر
بلا ماء. اما في ايام الصيف فالتى تشتغل منها تطلب الشرب كل يوم او يومين
وقد تعبر الى اليوم الثالث والرابع. وهم يردون بها الابار اذواداً كل ذود
في حوض وبرونها على نعم الحدو ولطيف الاشعار.

ومصطلحات الابل في بلاد نجد على ما جاء في كتاب (قب جزيرة العرب)
هي مايلي: (الجمال) تفيد النوع مطلقاً (الابل) تطلق على الاناث التي لا تركب
وهي التي تلد وترضع صغارها ولكنها لا تحلب (الناقة) واحدة من الابل سواء
اكانت محلباً لا (المسح) الابل التي يستدرحليها وهي غير التي يرضعها اولدها (الجيش)
انثى الجمل التي تستعمل للركوب فقط (الذلول) واحدة من الجمل (الزمل) الذكور
من الجمل اجمالاً (البعير) لا يستعمل الا للذكور (الهجين) لا يستعمل في نجد
ولكنها تعني الذلول. وتسمى الناقة الحلبى (اللقطاع) والتي تحلب وراها ولدها
(الخلفة) والتي يسحبها ولدها الذي لا يزيد عمره عن عشرة اشهر (عشرة)
وقال: ولصغار الابل اسماء مختلفة بحسب السن التي تباعها، فيقال للذي
عمره اقل من سنة وقبل ان يظلم (حوار) وبتمام السنة بعد الفطام (المفرود)
او (الفصيل) وفي السنة الثانية (لبنى) وفي السنة الثالثة (مربوط) وفي السنة
الرابعة (حق) وفي السنة الخامسة (جدع) وفي السنة السادسة (رباع) وفي
السابعة (سداس)، فان كبرت من الرباع فصاعداً فهي (ناقة) والذكر (جل).
قلت، ان اسماء صغار الابل بحسب السن تختلف في كتب اللغة قليلا
عما ذكر، فهي تقول ان ولد الابل يسمى في السنة الاولى الى ان يفطم (حوار)

وفي السنة الثانية (ابن مخاض) لان امه تكون حامل وفي السنة الثالثة « ابن لبون » لان امه تكون ذات لبن اي ترضع اخاه ، وفي الرابعة يسمى « الحق » لاستحقاقه ان يحمل عليه ، ومتى دخل الخامسة يسمى « جذع » وفي السادسة « ثني » وفي السابعة « رباع » وفي الثامنة « سداس » وفي التاسعة « بازل » وفي تلك السن يكون البعير قد بلغ اشده وصار صالحاً للشراء ، ومدة الحمل في الابل ١٢ شهراً ومن النادر ان تكون ١٣ او ١٤ ، ومدة الرضاع تختلف من خمسة الى ثمانية اشهر ، قالوا ان ولد الناقة يقف في اليوم الاول من ولادته ويمشي في اليوم الثالث ويرافق امه للمرعى في اليوم السابع .

ان انقطاع الغزو وشيوع سيارات الركب السريعة التي صارت تطوي البيد طي يكاد يبيد الخيل كما ان السكك الحديدية وسيارات النقل الضخمة ابادت قوافل الابل العظيمة التي كانت تنقل نواتج الهند والعجم والعراق من بغداد الى دمشق ومصر ، ومصر التي كانت اكبر سوق للابل المعدة للذبح قل فيها عدد آكلي لحمها فلم تعد تربية الابل رابحة كما كانت من قبل مما اضطر العشائر الكبرى الى الافلال منها ، فبعد ان كان عدد ما يباع منها مثلاً عند الروالة حين اصطيفائها في الجولان ٣٠ - ٣٥ ألفاً في سنة ١٩٢٢ هبط عدد المبيع الى ١٢ ألفاً في سنة ١٩٢٧ وإلى اقل من ثمانية آلاف في سنة ١٩٢٨ وبينما كانت هذه العشائر لا تربي نعجة واحدة صار عدد الغنم لدى الروالة ٣٠ ألف رأس في سنة ١٩٢٩ ولدى الاسبعة ٥٠ ألف ولدى القدحان ٦٥ ألف وهكذا .

وعلى كل حال فالابل كما قلنا في بحث التحضير من ارنخس وسائل النقل وان كانت بطيئة ، وهي ثروة لا يستهان بها ، فالحاجة دون العناية بامرها غير صحيح ، ومن اعم ما يعرض للبديوي قلة المراعي لها ، ومن الوسائل الفعالة افساح المجال له للسرح بها في براري وصحاري لا يستفيد منها سواء ، وفي هذا تخفيف لشظف عيشه وترفيه حالته وربح لتجارة البلاد وموارد خزينة الدولة .

الصييد :

ولما (الصييد) وان كانوا مغرمين به الا انهم لا يميلون اليه الا في ايام الربيع بقصد اللهو والالعاب . ولبض شيوخ البدو ولع في قنص الغزلان والارانب والحباري والحجل والقطا وامثالها ، يخرجون اليها فرساناً بالبازي والشاهين على ايديهم فوق اكف من الجلد لئلا تؤذيهم الحبال وتتبعهم الكلاب السلوقية ، فاذا تراءت الحباري للبازي وهو يلحها قبل الناس طلب الانفلات من يد صاحبه فيطلقه ويغير وراه حتى يدركه فوق الحباري يمتص من دمها ويأكل من لحمها فينزل عن فرسه ويأخذه ويأخذ الحباري ويستأنف المسير . اما الارانب فتقتصصها الكلاب والطيور معاً فينطلق عليها الطير ينقرها في رؤوسها وعيونها حتى يعمى ابصارها وتتأثرها الكلاب وتبشش بها ، ولهم طريقة اخرى في قنص الغزال لا يطبقها غيرهم ، وهو اذا قل الماء في البر في الصيف حفروا حفراً عميقة عند موارد المياه واستكنوا فيها ببنادقهم دون ان يستروها بشيء من حرارة الشمس لئلا تنفر الطلياء ، فاذا قاربت الشمس الهاجرة واشتد القيظ طلبت الطلياء الموارد لتروي ظلمها واتها افواجا فيرمونها وقد يطرحون منها عدة بطلق واحد . وغالب صيد البدو الغزال ، وباقي الصييد لا قيمة له عندهم . وقد صاروا بعد انتشار السيارات يطاردونها بها بمنتهى القسوة والجور ويهقون هذا الحيوان المسكين ، وهم يكادون يقرضونه رغم وجود قرارات بمنع ذلك لعدم امكان تنميدها في الفيا في الشاسعة .

وقد يصطادون النعام والوعول والوضيحي والاروي وتالما او بقر الوحش وحمر الزحش او الفراء ، وهذه الحيوانات ايضاً تلاحق بالسيارات وترهق بالمطارادات وطلقات الاسلحة النارية السريعة وتعرض للانقراض ، وربما جاء يوم تقع بادية الشام منها ، فهل يلاحظوا غمها الى النفود في وسط الجزيرة العربية او الى الربع الخالي في جنوبها ؟

وبدوا الصليب وابناء عمومتهم الهيم والشرارات قد اتخذوا لهم الصيد حرفة يصطادون بالافخاخ او ببنادقهم الشخانة القديمة انواع الطيور والحيوانات الوحشية التي ذكرناها وفوقها اليرابيع والضباب والوبر الذي يشبه الارنب .

وعلى ذكر القطا نقول ان هذا الطير يقيم في البراري والقفار ، وهو شديد الطيران يبعد الى مسافات شاسعة في طلب الغذاء والماء ، والعرب قديماً احبوه واكثروا من ذكره في اقوالهم واشعارهم ووصفوا جنونه على بيضه في عشه ونهوضه من مجنحه ووصفوا سره ليلاً ووروده الماء وسيره اليها متدافعاً وصدوره عنها وعقد الوصفه المجالس والمباريات وقد حكى في احدها الشاعر ليلي الاخيلية وضربوا بصفاته الامثال وجعلوا تركه طيب المنام دليلاً على مزاجات الليلي وجعلوه شريك الحب في حبه والغريب النازح في غربته ورحلته ، وقد رأى مجنون ليلي سرباً منه فهاجت شجونه وقال :

اسرب القطا هل من بعري جناحه ليلي الى من قد هويت اطيرو
والقطا من فصيلة الحمام ، وهو يشبه الحجل بلونه ومشيئه ، وله اربعة انواع « الكدري » ذو البطن الاسود والظهر الارقش الاشهب ، ومنه ضرب يدعى الجوني يكون بحجم الحجل ، والنوع الثاني « الحر » وهو غير حر الصيد بطن القطاة منه بني فاتح وظهرها بني مرقط والثالث « المطوق » وهو مخطط بخطوط هلالية الشكل بعضها سوداء او رمادية وبعضها كستنائية والرابع « الصياح » او « القطقاط » يصيح قشاً قشاً يشبه الحجل في لونه غير ان لون بطنه بني . وهو كثير في البادية يسافر بالملايين في سنى المحل الى القرى الشرقية الواقعة في طرف المعمورة ، وبعض عشائر البادية واهل القرى يعيشون مدة من الزمن على بيضه المنتشر في البادية وتري الصبيان يطوفون في البراري والآكام يلتقطون بيوضه . وكثيراً ما ترى الآكام وقد حط عليها القطا وهي تكاد تخبى الشمس وتسمع صوت اجنحتها فوق رأسك كالزير الطائرات ، والقطا تبيض مرة في السنة ببيضتين وقد تبيض ثلاث ، وهي ولوعة يشرب الماء واذا لم تجده في البادية تهاجر هي وقراخها الى القرى التي في شرق المعمورة حيث ترد الماء اسراباً اسراباً وهي لا تغشي المعمورة الا في سنى المحل ، ومن ثم يقول النلاحون « سنة القطا يبع الغطاء » دليل المحل والفاقة وطريقة صيد القطا هي ان الصيادين يحفرون حفرة عند مصب الاودية او

الغدران بحيث يكون قطر الحفرة نحو متر وعمقها نحو نصف متر ثم يبنون حولها حائطاً من الحجارة في ارتفاع نصف متر يسدون ثقبها بالطين عدا ٣ - ٤ ثقب في كل جهة يتركونها كمنزاعل يسدون بئادقهم منها نحو القطا حين ورود الماء. ويسمون هذه الحفرة (نوجة) . ويرتدي الصياد ثياباً صفراء او غبراء ليختفي عن القطا المارة .

التجارة :

اما التجارة فلم يكن للبدو عناية خاصة بها وانما كانت عنايتهم من باب المعاونة لاصحابها بمعنى انهم كانوا ينقلون البضائع والاموال على اباعرهم ويحاميون عن القوافل التي كانت تنقل تلك البضائع ، وهذا كان دأبهم منذ اقدم الازمان الى ان ظهرت سيارات النقل الضخمة واكتسحت الصحاري والبراري بسرعتها وسهولتها وسلامة منقولاتها فانقطع رزق البدو من هذه الناحية . وقد كان اصحاب القوافل فيما مضى يدفعون الى حماة القوافل المدعوين بـ (المبرقه) اجرة يسمونها « الخفارة » وهذه العادة كانت جارية الى قبل نصف قرن عند العشائر النازلة على طرق النقل ولاسيما طريق الحج فانهم كانوا يتقاضون مبالغ من الحكومة العثمانية تعرف باسم « الصرة » . واذا اراد اهل الخضران عمروا بارض عشيرة يحبرون على دفع بدل المزدورهم يسمى « الخوة » ، وسأاتي الكلام على هذه الخوة في مكانها .

الغزو :

واما الغزو فهو في عرف البدو يطلق على عدة معاني فهو يطلق على الكتيبة المسلحة نفسها وعلى الفرسان الذين يؤلفون هذه الكتيبة ويسمون للقتال ويلتقى على القتال نفسه وفي اللغة غزا العدو غزواً ، سار الى قتالهم وانتهابهم في ديارهم والغازي اسم فاعل وجمعه غزاة ، والمغازي مثاقب الغزاة . والقصد من الغزو

السلب والنهب او اخذ الثأر و كشف العار .
والغزو عادة قديمة توارثها البدو منذ اعصر الجاهلية . فقد كانوا يتخذوها
وسيلة من وسائل العيش ، فيغرون على عشيرة معادية - وما أكثرت المعاداة
عندهم - فيأخذون ابلهم وغنمهم ويسبون نساءهم واولادهم . وتربص بهم
العشيرة الاخرى ذلك فتفعل ما فعلوا . بل هم اذا لم يجدوا عدواً من غيرهم
قاتلوا انفسهم . ولعل خير ما يمثل ذلك قول الشاعر القطامي :

فمن تكن الحضارة اعجبته فاي رجال بادية ترائنا (١)
ومن ربط الجمحاش فن فينا قناً سليماً وافراساً حسانا (٢)
وكن اذا اغرن على قبيل فاعوزهن نهب حيث كانا (٣)
اغرن مع الضباب على حلال وضبة انه من حان حانا (٤)
واحيانا على بكر اخينا اذا لم نجد الا اخانا (٥)
ويشبه هذا قول بدو زماننا وهم سائرون الى الغزو :

عيب طالي ما يحضر المنايا ويشترى في سوقها ويبيع
والعز في ظهور الصفايا والعمر عند الله وديع
وغزو العشائر بعضها عادة محرمة ممقوتة عقلاً ونقلاً ينجم عنها البلاء

(١) يقول ان كل ما اعجبك من رجال الحضرة فهو اكثر يدينا منهم وان
كننا أهل بادية (٢) واذا رضي اهل الحضرة بربط الجمحاش واقتنائها فاننا لا
نرضى الا بما عندنا من الرماح الطوال التي تسب النفوس والخيول الحسان
التي تعين على دفع الاعداء (٣) وكن اي الخيل انزلها منزلة اربابها وهم
المغيرون ، وجواب اذا اول البيت والجملة خبر كن (٤) و (٥) معنى البيتين
ان ارباب الخيل منا كانوا اذا اغاروا على ناحية وتعرض عليهم السلب والنهب من
الاباعد عطفوا على الحلى المجاور لحيمهم من عشيرتي ضباب وضبة . وقوله من
حان حانا اي من جاء اجله فهو لابد هالك . وهم احياناً يغيرون حتى على
اخوانهم من بني بكر اذا لم يجدوا الا اخاهم هذا .

وسفك الدماء وتحول دون بقاء الثروة الناطقة والصامتة فيهم . فقد تكون
العشيرة اليوم في الغاية من طيب العيش ناعمة البال بحلالها اي ماشيتها فتعزى
من الغد في عقر دارها فلا تلبث ان تصبح اعرى من مغزل لا سبد لها ولا
لبد مدع ما يصيبها من نقص الانفس . فقد كان من النادر ان تجسد رجلاً من
البدو بلغ اقصى سن الشيخوخة لانه يعتبط في الغزوات ويقتل في سن الفتوة
غالباً وهم يعتذرون عن الغزو اذا لوموا عليه بان الغزو ضرر لامفر منه ولم
فيه معاش لا يستغنون عنه وان في الضرب بالنار اخذاً للثأر وغسلاً للعار وان
لا طاقة لهم بحسمه ، اذ نفعه اكبر من ائمه الى آخر ما هنالك من الاعذار
الواهية . والغريب انهم يأخذون معهم الصبيان ليعتادوا من حدائهم شهود
الميدان والثبات في معترك الفرسان . على ان الحكومات في العراق والشام
وسرى الاردن في يومنا قد حظرت ولله الحمد الغزو على العشائر حظراً تاماً
وهددت بالعقوبات والغرامات واستعادة المنهوبات ومصادرة السلاح والعتاد
والخيل والسيارات وكافة الادوات المستعملة في الغزو وسجن رئيس العشيرة
والقت لاجل تنفيذ ذلك قوات برية من راكبي الهجن او السيارات المصفحة
وجعت جزر هذه القوات من ابناء العشائر انفسهم ، ناهيك الطيارات وقذائفها
من الجو حين الحاجة وكما زاد هذا الخطر واشتد جانب هذه القوات وحسنت
ادارتها وسيرتها استقر الامن والسلام في البادية ونجا أهلها من الفناء والشقاء
واضطروا الى ترك الغزو والتهب والسلب والاتجاء نحو التحضر وازرع
والضرع وهو غاية ما ينشده ويرجوه لهم كل يوم .

كان البدو دائماً بين مهاجم ومدافع وكل عشيرة على حذر تام من الاخرى
تتلقف الاخبار عن حركاتها وتجهز نفسها بالعتاد وتحتاط للحرب اشد الاحتياط
وكان في ذلك حكمة تدفعهم الى حصر النمو والنكاثر لئلا تضيق دونهم ارضهم
فالخليف عندهم يعرف « بالصديق » والعدو بالقوم او « القوماني » ، والغزو
اقسام حسب قلة او كثرة ، فمن قليله « الحنشل » وهو يتألف من ٢ - ٣
رجال مشاة يباغتون ابناء السبيل المنفردين العزل ويسلبونهم و « السرية »

وهي تتألف من ١٠٥ فرسان و « السرية » هي اكبر من السرية وتتألف من ٢٠ - ٣٠ فارساً ومن الغزو القليل ما يسمونه [الخواف] وهم ثلثة من اللصوص المغامرين يتسللون ليلاً الى حلق البدو وهم نائمون ويسرقون ما تصل اليه ايديهم ، اما اذا زاد العدد عن السرية تكون العشيرة كلها قد نازلت عشيرة اخرى وقالتها ، فهناك يقع ما يسمونه (الحرب) . فالغزو وتشكيل تام التجهيز مؤلف من فرسان وهجانة لا يقل عددهم عن ٦٠-٥٠ وهجانة يؤلفون ثلثي المجموع او ثلاثة ارباعه حسب المسافة التي يحتازونها ، لانهم يحصلون ازاد والعتاد ايضاً ، ويكون على رأسهم قائد يسمونه « العقيد » قد مارس كل ضروب الغزو من الحنشل وما فوق وعظمت مهارته وخبرته وعرفت شجاعته وحظوظه ، وهو وحده يقرر الحركات التي يسيرها وينظم اصولها وفروعها ويكون هو وحده المسؤول عنها ، يعاونه في ذلك [المنيخ] الذي يأتي بعد العقيد في القيادة والاشراف على الركوب والنزول والازاد وحفظ خط الرجعة ، وقد يستشير العقيد كبراء حملته ، لكن السلطة المطلقة له دون غيره ، ولابد في الغزو والحروب فنون خاصة اتخذوها منذ القديم ونحن نذكرها وننتبعها من حين بدأها الى ان تنتهي :

اذا تاق البدو الى الغزو وحذروا الى السلب والكسب ارسلوا [السوابير] جمع سبور من سبر بمعنى عرف واختبر او [الطراريش] بمعنى طارش وهو بنفس المعنى وعم الرقباء أو الكشافاة أو الجواسيس ، يكشفون منازل العشيرة المعادية ويستطلعون ما هي عليه من الاحتمياطات والتبصر فيما اذا كان لديها علم بقدم الغزو وتهيأته نحوها . وحينما يقتربون منها ينبطحون على الارض ويتسترون وقد يغامر بعضهم ويدخل المنطقة ضيف او طار سبيل ، يتفحص عدد البهوت والبنادق والماشية والحالة الروحية ثم يعود ويخبر جماعته عما رآه وتحققه ، ويجري كل ذلك سراً ، فاذا اتت [العلوم] اي الاخبار بما انسوا منه خيراً يعلن الشيخ الغزو ويضرب موعداً لاجتماع الغزاة في وقت معين ، ثم يتفقد جنوده ، فمن كان منهم غير مجهز بالسلاح والعتاد الكافيين او كانت راحلته

هزيمة لا يركن اليها فردء من بين الغزاة وامره بالرجوع ، ومن ثم يقسم الغزو الى فرق كل فرقة برأسها عقيد ، فاذا اكتمل العدد المطلوب سارت الفرق بين ركبان ومراديف ، ولا يعلم سبيل الغزو وهدفه في الاكثر الا العقيد وحده ، ويبقى رفاقه جاهلين ذلك الى ان ينتصف الطريق ، وحينما يطلع العقيد رفاقه على بغيته يخرج من الفرسان (طلبة) الى الامام ، ويتأخر الجزء الاكبر ورائها بضعة كيلو مترات ، ومن عادة الغزاة ان يتحاشوا الطرق المسلوكة فهم يسرون سيراً متمعجاً حلزانياً ولا يردون المناهل الا في الليل ولا يسرون منفردين كي لا يلاحظهم احد ، فاذا صاروا على مقربة من الحلة المقصود غزوها وقفوا وارسوا السوابير واستطاموا حالتها بدقة ، فاذا جاءت (العلوم) وقرروا الهجوم اقتربوا حتى يترائي لهم (ازول) وهو العدو المقصود حينئذ يذبخ العقيد هجائته ويبدأهم في طريق الرجعة ، ثم يقسم فرسانه الى قسمين يسمى الاول (الغوار) وهو القسم النشيط الخفيف الحركة وواجبه ان يسطو على المشاية ويحفظها باطلاق الرصاص ويسوقها بسرعة . ويسمى الثاني (الكمين) او (المالمة) وهو قسم يتألف من احسن الرماة واشجعهم ، وواجبه ان يقابل المدافعين (الغازعين) الذي يهبون للدفاع واسترجاع المشاية المنهوبة ويشاغلم بها امكن من الوقت وبما تصل هذه المشاية الى الهجانة فيستلمها هؤلاء ويسوقونها ، لان المدافعين يهاجمون الغزاة فوراً وبما يكون في الدفاع ويستمتيتون عند اموالهم وحلالهم ، فكل الشبان والكهول في الحلة التي هوجت وكل القادرين على حمل السلاح وازود عن المال والحلال يكلفون بالدفاع ويهرون للقتال ، فاذا قدروا ان يصلوا اليها قبل ان تؤخذ او قبل ان يسوقها الهجانة فازوا وردوا الغزو . وان تأخروا او ضعفوا عادوا خاسرين وفي القتال الفرسان تتبع الفرسان فمن قتلوه او اسروه او طرحوه عن ظهر فرسه وهو (القلاعة) منهم يحسبونه خير منهم .

واذا كان الغزو سائراً وصادف (زولاً) لم يتحققه عن بعد اطلع من فرسانه طلعة قليلة تغير بخيالها وهم يتبعونها خفياً حتى تدنو اليه دنواً يتحققه به ، وبين

الفريقين مرمى طلقة ، فتتحرف الطليعة شرقاً او غرباً او جنوباً او شمالاً على غير الطريقة المتخذة ، ولكل من هذه المراكض معان معلومة عندهم ، وهي التي يدعونها (العرض) ، وعرض الحيوش مأخوذ مناء ، فاذا عرفوهم حلفاء (اصدقاء) عرفت الحملة كلها وتدانوا دون ان يتاسوا بضر ، والا افترقوا فرقاً او ساروا فرقة واحدة حسب اقتضاء الموقف والكثرة فينشب القتال بينهم ، فان ظفروا بهم تولوهم وخافوا جماعة تسوق ما يصيب الابل والماشية . ومن عوائدهم ان يقسم كل السكين والغوار الى ميمنة وميسرة وقب ويشابكون على ظهور الخيل بالبندق ، وكل فارس يطارد آخر من العدو وفي الغالب ينادي الطالب المطلوب بقوله (خيال يا خيال) وينتخي كل منهم بقوله انا اخو فطيم او راعي البها او البها او الحمدانية وغير ذلك ليعرفه بنفسه ولينبه المطلوب حتى لا يكون فعله غدرآ او لاختافه ، فان اعتمد المطلوب على قوته او فرسه يحميه بقوله « نخسه (اخساً) انا اخو فلانة راعي كذا » وان احس بضعفه او ضعف فرسه عن الدفاع يحمي بقوله (امنع يا خيال) اي امنع اذاك عني ، وليس ذلك جيباً اذا كان ثمن اضطرار لمعذرة ، فيقول له الطالب (على رويحك) اي انني امنع اذاي عن نفسك فقط او (على فرسك وسلاحك) اي اذا سلمت تنجو بروحك وسلاحك وفرسك ، فيكون الامر مساومة حتى اذا قبل المطلوب نزل عن فرسه فيكون منيع الطالب ولا يحق لاحد معارضته ولو بقي سلاحه في يده ولا ان يشترك في الحرب .

هذا ولكل مبارز شعار ينادي به في ميدان الحرب ، وهذا هو المسمى عند الماضين بالاكتناء من الكنية وعند المعاصرين بالنخوة وهي في اللغة العظمة والفخر ، ويقولون انتخي عليه اي افتخر وتعظم ، واذا كان المنتخي اكثر ما ينتخي على طريق الكنية كأن يقول (انا ابو فلان او اخو فلانه) جعل هذا الفخر في ساحة القتال اكتناء ومسي هذا الاكتناء انتخاء ، وفي الانتخاء يعرف الفارس بنفسه في ساحة الوغى بلقب من الالقب او وصف من الاوصاف يصير عليها علماً ، فالشعلان رؤساء الروالة ، ينتخي احدهم

(خيال العليا وانا ابن نايف) ومتى قيل (رعاة العليا) علم انهم الشعان عند كل البدو، ولهم نخوة اخرى وهي «اخو صيته» ولم نعلم ما اصل هذه التسمية فهل هي من الصيت، ونخوة ابن سدير شيخ ولد علي «خيال المدحمة ولد علي» وقيل (اخو عذرا) وعذرا قرية في شرقي قضاء دوما يظهر انه كان لابناء سدير عليها خوة سنوية فتكنوا بها. ونخوة ابن التايار «اخو ثنية» ولعالمها ثنية العقاب شبالي عذرا، ونخوة السردية «اخو ذبية» ونخوة الفايز من بني صخر «اخو بلما» ونخوة الحمد من بطونهم «اخو عمشاء» والذين «اخو وضحاء» ولم نعلم مرادهم بالبلماء ونخوة الاسبعة «عرة سبيعي» ونخوة العمارات «اخوة بتلة» ومن الاقوال الشائعة «اخوة بتلة انسب الحمائل» ونخوة شيوخ الاحمسة آل ملحم «خيال البويضة احسن اخو فضة». ويقولون حين العرضة «خيال البويضة صاعدي»، ولم يفسروا معنى صاعدي. ونخوة الشيوخ من آل مهيد في القندان (اخو قطنة) ونخوة امراء الموالي خيال البلماء ولد الامير (نخوة اعراب الموالي (الدواخلة) ولم يفسروا معنى هذه الكلمة. هل هي من انهم دخلاء على الامراء؟ ونخوة الدنادشة (اخوة زرقاء) وهكذا لكل عشيرة نخوة وكنية تعرف بها لا يكاد يأخذها عد فاككتفينا بهذا المقدار. وهذه النخوة من اكبر اسباب التكاتف عندهم، ويقال لها (العزوة) ايضا، وفيها تشارك العشائر التي تمت الى نجار واحد، وغالب العشائر تعرف القربي بينها بسبب هذه النخوة. وهي حسنة اذا صرفت في سبيل اتباع الحق ونصرة المظلوم ومقاومة الشر.

ومن عوائدهم ان يغير الغزو صباحا قبل الفجر او قبل طلوع الشمس على الاقل حينما تكون مواشي العدو في حظائرها والابل معقلة واخيل مقيدة ووجال الحرب نائمين او غافلين بعيدين عن اسلحتهم فيمكن الغزو من الاخطاة بالغرب على حين غرة فينهب المواشي والاموال واذا امكن بيوت الشعر برمتها. ولهذا قالوا (ان العقيد الفلاني غزا العقيد الفلاني وخلي عمدتها تقرر) اي تمكن من اغتنام مواشيها واموالها حتى بيوت الشعر ولم

بترك في المنازل الا اعمدة البيوت تخرج بعضها بعضاً ، وكثيراً ما يتصر افراد قلائل من العشرة المهاجرة على الغزاة المهاجرين ، ذلك لان موقف الدفاع يكون اقوى من موقف الهجوم . ويذكر الناس كثيراً من الغارات التي ردها عن المغزوين شخص واحد او بعض افراد قلائل ، ليس هذا فحسب ، بل انهم تمكنوا من قتل كثير من الغزاة واسر من يبق منهم ، واذا قصر احدكم في الحرب او هرب من الميدان ساءت سمعة والده او ولي امره ، فكان لوالده او ولي امره الحق في ارغامه على لبس ثياب امرأة ، ولا يتزع ذلك حتي يبدي شجاعة قائمة في غزو آخر .

هذا واذا رجع الغزاة الى قومهم ظافرين غنائم لاقهم النساء بالهلاهل والاهازيج ، وخرج اليهم من تخلف من قومهم يمشونهم بالظفر ويصرخون (الحذية الحذية) وهي ما يعطيه السلب لصاحبه من السلب ، فيعطونهم ولا يبخلون ، وربما اعطى السلب سلبه فما كفاه فاعطى شيئاً من سلاحه او ملابسه . والغالب في قسمة السلب ان يأخذ الشيخ او الامير خمس المسلوب كله عملاً بالآية الكريمة : « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسة ... الخ » وقد جعلت العادة شيخ العشيرة مقام الرسول ، ويوزع باقي السلب للفارس سهران ولسواه سهم واحد ، الا القلائع فهي لاصحابها . وقد يرجع الغزاة مخدولين فتلقاهم النساء بالشتائم والاقسام ويصرخن بالعودة العودة كي يرجعوا ويأخذوا بالثار فيرجعون ويقاؤون شر قتال حتي يظفروا او يتلاشوا . وقد ترافقهم النساء ايضاً تنشطهم « تنخيمهم » وتسد جراحيهم وتسقيهم الماء وربما قاتلن معهم . والدفاع يختلف عما ذكره ، فاذا انهم علوم عن مجيء غزو وآتسوا بانفسهم قوة لدفعه قاموا على ما ذكرنا آفاً وعهدوا الى فريق منهم امر حفظ الحريم والمواشي والبيوت بما فيها واندفعوا للملاقاة ، وهكذا يشتهر بالشجاعة من يشتهر ، وهؤلاء المدافعون كثيراً ما يصدون الغزاة ويردوهم على اعقابهم خائبين لذلك يتحاشى الغزاة كثيراً الحرب عند الظعون او الهجوم على العدو عند البيوت .

إذا رأى المرافعون في أنفسهم العجز واخوار اقله في العدد ونقص في
العتاد اسرعوا الى زرع الاوتاد والرحيل بيديهم وذرايعهم ونعمهم ويتخلف
فريستهم وحقاقلوهم للدفاع والاشغال .

ومن عادات البدو القديمة اتخاذ العطفات جمع (عطفة) بضم العين وذلك
انهم ياتون وقت الحرب ببنت من اكرم بنات العشيرة واجلهم وانشطهم
واطفهم اسناناً والغالب ان تكون بنت الشيخ او العقيد ويركبتها باقة عليها
هودج ذو شكل خاص يدعونه العطفة يقطونه بريس النعام ويدعون هذه
البنت (العمارية) ، وهي تكون من العارفات برجال الحي ومزايا كل منهم
فتسوق ناقها الى الاقدام وتكشف رأسها وتبادل وتنحني القوم بكلام مؤثر
يفعل في النفوس فعل الكبرياء وتحرضهم على القتال وتمتدح المتقدمين وتقرع
المتراجمين وتلوم المهزيمين وتصيح فيهم العودة العودة ، عليهم عليهم ، فيصكر
هؤلاء ويستमितون في الهجوم والدفاع ويقصدها العدو خشية ان تشجع
ذويها وكثيراً ما تصاب المسكينة قبل كل احد وكثيراً ما يفاضل ذووها
عنها وهي تتقدم نحو العدو فيشتد الحرب حولها وبقوى الصراخ وتتجندل
الابطال الى ان يتم النصر لانه الفريشين ، وفائدة هذه العمارية او العاريات
استحضاث اطمع وتقوية الغرائز بصوت العذارى الجميلات ودعوتهم وتحسيسهن

ومن عادة البدو ان من خسر عطفته واوقعها في يد عدوه لا يمكنه ان
يتخذ بدلها ما لم يأخذ هو عطفة من عدو ويعتمها ، ومن ثم فقدت العطفات
من جميع العشائر الا من آل شعلان في عشيرة الروالة اكبر عشائر غزوة
عدداً وقوة ، فاقصروا على العاريات اي الفتيات المخرضات بدون عطفة
وهؤلاء يقفن على اباعر او في مكان عال ويصحن ويثرن الهمم كما قلنا .

ومما قاله الرحالة السويسري « بركهارت » في كتابه رحلة في بلاد العرب
في بحث الفزو : وكأنا قلمت عشيرة بحملة يرأس البكتيبة وجل يدعونه والعقيد
ومن مزايا البدو انهم خلال الحرب تبطل عندهم سلطة الشيخ بتأناً وبقصد
المحاربون منهم الى العقيد وحده ، فلذلك عشيرة عقيد غير الشيخ ومن النادر

جداً ان تجتمع الوظيفتان في شخص واحد ، او انني لم اسمع بذلك قط ،
ووظيفة العقيد وراثية في عائلة معينة وتنقل من الاب الى الابن . واذا
التحق الشيخ بالكتيبة ينقاد الى العقيد حتى يعود الغزاة الى اهلهم وحينئذ
تنتهي امرة العقيد وتعود امرة الشيخ كلها .

وشخص العقيد وخاصة وظائفه تحترم جداً وينظر الاعراب الى وراث هذه
الوظيفة كمنظرهم الى الفأل او الطالع او شيء مقدس وكثيراً ما يقررون
الحرب بناء على حلم رآه او الهام اتاه او حدس خطر له . وهو يحدد اليوم الذي
يرجحه للهجوم والايام التي يخيل اليه انها نجسة وحينما يشتهر العقيد بشجاعة
وفطنة يحتفظ حتى في اوقات السلام بنفوذ كبير في عشيرته . ورأي العقيد
وان لم يعلو على رأي الشيخ لكنه يستشار في الحالات الحرجة ويكون لاقواله
اعتبار كلي . واذا نجح اي بدوي بمعونة اصدقائه اخلص في بضع غزوات يلتف
حوله الانصار ، واذا توالى نجاحه يذيع صيته بانه (مبروك) في تشبائه وهكذا
يحوز مرتبة عقيد ثاني هذا واذا كبس البدو نخجاً ونهبوه في الليل ام
في النهار يعاملون النساء باحترام في الغالب ، واستطيع ان اقول انهم يراعون
شعورهن ، ولم اسمع بمحادثة مخالفة لذلك قط ، الا انه يحدث احياناً اذا كانت
العداوة محترمة بين الفريقين ان يسلبوهن الحلي ، وذلك بان يأمروهن بان
يشلحن الحلي بأنفسهن . وهذه القاعدة متبعة بدون تغيير لدى الوهابيين ، فهم حينما
يقرون على خي من احياء البدو يأمرؤن النساء ان يشلحن ثيابهن وحليهن
الثمينة التي يحملنها ، وحينما يصدرون هذه الاوامر يقفون على بعد كاف عن
النساء ويدبرون لمن ظهورهم اهد .

مقوق الغزاة :

هذا ومن عوائد البدو في الغزو انه اذا طعن احدهم فرداً من
الاعداء وارداه قتيلاً او جريحاً تكون مطيته ملك الطاعن .
وتعرف تلك المطية « بالقلاعة » اي مقلوعة بمن كان منصوباً عليها

وليس للعقيد الحق في أخذ شيء من القلائع . وكثيراً ما يطعن احد الغزاة شخصاً بعد ان يجنده عن فرسه فتهرب تلك الفرس وتقع في يد آخر من الغزاة فلا تكون من حق الذي أخذها بل من حق الذي أخلى سرجها . واذا وقع احدكم جريحاً او قتلت فرسه وسقط عنها وجب على كل من رآه طريقاً ان يبادر الى نجدة فيردفه ورائه على فرسه وينقذه من هول المعركة ويعرف ذلك الجريح عندهم (بالرديف) . وللشخص الذي ينقذ الرديف شأن عظيم عند قومه وله من الغنائم مثل ما للمجاهدين في المعارك ، ولو كان فعله فيها قليلاً . اما الغنائم فيأخذ العقيد الاكبر لنفسه ما يراه مناسباً وقدره الثلث في الغالب ، . يوزع الباقي مراعياً جهود كل فرد حين القتال . وليس اعدل من البدو في تقسيم الغنيمة حتى قد يتلفون الشيء تحرياً للعدل فيقسمون السجادة بينهم كما يقسمون القميص والسروال . كل هذا ارضاء لضمايرهم ودفعاً للظلم . وهم يعرفون بيوت الشعر جق المعرفة ، لانها بيوتهم التي يعيشون فيها ومع ذلك فهم يقسمونها مراعاة للعدل . اما الابل والغنم فانهم يقسمونها ادا امكن القسمة ، او يقومونها بثمان اذا لم يكن هنالك سبيل للقسمة . واذا وقع احد المتحاربين اسيراً في قبضة العدو اعتنوا به واكرموا وفادته واذا وجد العدو بين الاسرى جريحاً طالج جراحه حتى تشفى ، واذا مات دفنوه باحترام . واذا كان الميت من عيون قومه رثاه العدو . واخيراً يقدم العدو للاسرى زاداً ومطايأ تحملهم الى مواطنهم .

التضامن البدوي :

ان ثروة البدوي في هذا الغزو سريعة ازوال ، ولا تستقر على حال فهي تحاكي ثروة المقامر في المصفق (سوق البورصة) اذ بينا ترى البدوي يضحكي وهو ذوا ثراء في ربه اذا بك تراء عسي وهو لفقره المدقع كأن قد ضرب على سمعة وبصره . لكن البدو من مناقبهم التضامن في البلوى والتعاون على المصائب وقد قدمنا انهم يتسابقون الى امداد العزيز اذا ذل ويتعاونون على اقالة عزيزه

« والعشيرة او الفخذ او الاقارب بمنزلة اسرة واحدة بينهم « تضامن »
و « تكاتف » وهم اذا لم يشتر كوا في جريرة ما متضامنون في السراء
والضراء ويلبسون عند الدعوة ويحجبون النداء . يفضيهم نفضب قريهم دون
ان يعلموا السبب .

لا يسألون اخاهم حين يندبهم للنائب على ما قال برهانا
ومعيشة البدو قلقة ومعرضة لكثير من الاخطار والمهددات للكيان لاسيما
في ايام فوضى الاحكام وخفلة رجال الامن وضعفهم ، ولذا ترى البدو
يتخذون وسائل عديدة لدعم التضامن بينهم والتأهب لدفع الطواويء ، ولهم
هذه الوسائل الاجتماعية المتواليمة في ربعات الشيوخ والكبراء والمذاكر في
كيفية حراسة الاموال والانفس وترديد الوقائع السابقة واللاحقة وحكايتها
وتهميج العدا والخصام بالهوسات والاهازيج والخطابات المقترنة بالاشعار .

« واذا رأت عشيرة نفسها في ضعف عمدت الى التحالف مع العشائر الاخرى
المجاورة مذكرة لها بقرابة ونسابة معها كانت بعيدة او بوقائع مماثلة اعانتها بها في
يوم مضى ، او بان الخطر مشترك وسينالها ما ينال هذه وامثال ذلك ، وبعد
هذا التهرب والاستنهاض او الاستعطاف يحصل الاتفاق او التحالف الدفاعي
او الهجومى او يتدخل في امر الصلح ، وكل هذا يشبه ما يتبع بين الدول
التي تسمع بعقدها بحالفات ثنائية او ثلاثية او اكثر ضد حالف مماثل لها ،
حفظاً للتوازن ودرء الاخطار المشتركة في معترك الحياة .

القضاء عند البدوي

التشريع البدوي = اصول العشائر

القضاء عند البدوي يتبع العرف والعادة ، وليس ثمة قوانين مكتوبة ولا خطط مرسومة . وهذا القضاء في ايدي شيوخ العشائر ، وهم حريصون جداً عليه ، ولا يقبلون به جدلاً ولا يرضون بتعديله به (القضاء المدني) الذي يسلمهم سلطتهم ويخفض شوكتهم . وهؤلاء الشيوخ هم اما قضاء في الدعاوي التي تقام وسط العشيرة او هم محكمون في التي تقام بين العشائر المجاورة . وهم اذا لم يتولوا القضاء بانفسهم يقيمون عنهم رجالاً اخصائيين في القضاء البدوي يدعونهم (عوارف) جمع عارفة . والشيخ او العارفة يحكم من بنات افكاره ، بما اكتسبه من الاختيار والتعامل القديم والوقائع السابقة المماثلة . ولهذا القضاء انصار ومحذون كاله اخصام ومعتضون . ولكل من الفريقين آراء وبراهين . وها نحن نذكرها ونترك الحكم فيها للقاري .

يقول انصار القضاء البدوي ان هذا القضاء سريع في مرافعانه عاجل في احكامه التي لا استئناف فيها ولا تمييز ، وان فيه ميسرة تمكنه من تقدير المسؤولية المشتركة (في العشائر المعتادة على التنادي والتناصر والتطاحن عند حدود (الهوشات) و (الطوشات) التي يخوض غمراتها العشرات منهم واحياناً المئات ، فيتعذر تحديد الفاعلين وتمييزهم ، وان هذا التنادي والتناصر التاجين عن (العصبية العشائرية) و (الحمية البدوية) لابد منها لاقرار السلام وحفظ التوازن في هذه البوادي المترامية الاطراف البعيدة عن مراكز الدول ومحاكمها وقوانينها ، ويقولون ان في القضاء البدوي مجالاً للبدوي الضارب في تلك البراري يمكنه من ان يترافع ويبلغ حقه عند اقرب قاض وفي اسهل اسلوب

هذا لا ينبغي
استئناف من
الآخر منكم
في شرط
بدوي الجلسة

واقصر زمن وان في « القضاء المدني » تحقيقاً وتعقيداً وتطويلاً بينما البدوي يرغبون قضاء مفهوماً لديهم وحكماً عاجلاً لا تؤجل جلساته من وقت الى آخر ولا تبطي اجراءاته وان يحس لهم او عليهم في جلسة او جلستين .

ويقول اخصام القضاء البدوي ان الاسلام قد ازال العرف العشائري الجاهلي في القضايا العامة وامر باتباع الشرع وصرح بان الحكم بمقتضى هذا العرف مخالف للاية « افحكم الجاهلية يبغون » وللاية « ولا زر وازرة وزر اخرى » وان هذا العرف العشائري لم يعد الى الجزيرة العربية بعد منع الاسلام الا عقب ان ضعفت سلطة ائلافاء وقت غناباتهم بالعرب والعربية وانكشت العشائر في باديتها ورجعت الى كثير من العادات التي كانت عليها في جاهليتها كالغزو وما اليه ، وتولد التكتف على الحق والباطل معاً واتسع المجال للحزبية والعصبية القبلية « العشائرية » وصارت العشائر لاتعمل بالشرع الا في الاحوال الشخصية من زواج وطلاق . اما في الامور الحقوقية والجزائية فشرعها هذا القضاء العشائري او العرف البدوي الباقي من عهد عاد وثمود ، وهو نتيجة اثره وثغمه وقوة في جهة وضعف واستكانة في اخرى .

والمعتضون يقولون ان على الحكومة ان تعد من قانون العشائر وتجعل غالب الدعاوي الشخصية - مما لامساس له في السياسة العشائرية - في حسمها تابعة الى القضاء المدني والحكم النظامي وان توغر الحكومة الى المحاكم الناطرة في دعاوي البدو ان تسرع في بحثها وتحقيقها وحكمها ماوسعها الجهد كي لا يبقى ثمة حجة لهم في الاعراض عن هذه المحاكم . وهم اذ يذكرون القضاء البدوي يصفونه بانه قضاء جاهلي وان له المآخذ والنقائص الآتية :

اولاً - استعجالهم في الدعاوي : وعدم رويتهم ولا سما في الكبرى منها التي تتطلب بحثاً واستقصاء ونقداً وتكراراً ، فيأتي حكمهم مستعجلاً قد يؤدي الى ضياع حقوق وانتهاك حرمان .

ثانياً - ان كل عقوبة في القضاء البدوي مما كان سببها من قتل او ضرب

١. سرقة او غيرها انما هي في «المال» او «الجزء النقدي» دون غيره .
ومعلوم ان الغرم في المال ليس بالوازع الذي يزجر المرء عن المفسد ، بل ربما
كان باعثاً على زيادة المفسد لاستهلاك الغرم في جانب الحصول على الغرض
فيبقى القوم فوضى مستطيطة ايدي بعضهم على بعض فلا يستقيم لهم عمران ولا
يقرون على امان . ومن هنا كان لا بد من ادخال العقوبات البدنية في الاحكام
كالاعدام والسجن والاشغال الشاقة لتكون الوازع الكافي للصغير والكبير
والضعيف والقوى .

ثالثاً - ان في هذا القضاء البسودي هدم لكثير من الاحكام الشرعية
الاسلامية فيما يتعلق مثلاً بمؤاخذه الاقارب حتي الجد الخامس بجرمة قريدهم
الجاني واعتبارهم مدانين بقبول أخذ الدار منهم ودفع الدية وفيما يتعلق باستحصال
الحقوق عن طريق ما يدعونه «الوسقة» او «الوساقة» بمن لا ناقة له ولا جمل في
الامر . وفيما يتعلق بـ (البشعة) اي تلحيس المتهم قسيب الجاني المحمي بالنار او
اطعامه اقمعة الزقوم وامثالها من وسائل التعذيب والبربرية التي لا تكشف جرم
ولا تحجب غرم ، وفي اجحافه بحقوق النساء وحرمان المرأة من نصيبها الشرعي
في الارث ، وفي تزويج البنت البكر البالغ من اي رجل اختاره لها ابوها
او وليها بدون اخذ رأيها .

فما ذنب اقارب الجاني الابرياء حتي البعيدين عنه الى الجد الخامس الذين
لادخل لهم وربما ولا علم في جرمة القتل او الزنا او الخطف حتي مهاجوا
على حين غرة فيقتلون وتخرب مساكنهم وتتلصص بامعتهم وتذبح ماشيتهم وتحرق
بيادرهم خلال مدة «فورة الدم» وما مدني اجبار هؤلاء المساكين على الجلوة
الى عشيرة اخرى قريبة او بعيدة فتعطل اعمالهم وتقطع ارزاقهم وتسلب امتعتهم
ويكروهون على توسيط ذوي الوجاهة والنفوذ وبذل الاموال لاخذ الهدنة
التي يدعونها (عطوة) ثم الى اجراء الصلح ثم الى دفع الدية عن قريدهم الجاني
ولو كانوا بعيدين عنه ، مما ينطبق عليه قول الشاعر :

وجرم جرمه سفهاء قوم فأودى بغير جرمه المذاب

واي فائدة ومفعول زجري اذا لحق كل من الاقارب حينما يكونوا كثيرين
بضعة دنانير من اصل الدية ، وما قيمة هذه الدنانير القليلة في نظر من
لا يتورعون ولا يحدون سبيلاً للاهتمام والاسترشاد ، وهل هذا ما قصده
الآية الكريمة « ولستم في القصاص حياة ياولى الالباب » ؟
رابعاً - ان احكام العشائر كثيراً ما تكون عرضة للنقص وعدم الانباع
من كلا الطرفين المتناحرين لفقدان العنصر الحقيقي الذي يتمكن معه الحاكم
ذو السطة المختصة من تنفيذه وممارسته . . .

ويقول المعارضون على القضاء البدوي اخيراً ان دواعي الانسانية والواجبات
الدينية والقومية تقضي بتحضير البدوي وتعويد على الاحكام الشرعية
والقوانين المدنية المطابقة للتقدم العلمي والادبي بين البشر لا ببعاده عنها وبابقائه
في حكم الجاهلية . . . لاجل هذا اصبح من الواجب ان تصفي هذه (الشريعة
البدوية) او (الحقوق العرفية العشائرية) وتخفف غلوها ان لم يكن
دفعاً واحدة فتدريجياً وبقرارات وتعاليم خاصة تعدل دوراً بعد دور كي يتجه
هؤلاء البدو نحو الصلاح ، ولا سيما اولئك الذين استقروا منهم ونحضرُوا
وتملكوا وحرثوا وزرعوا ، وكي يرضخو للاحكام الشرعية والقوانين المدنية
وتخضع قضايهم في (المحاكم النظامية) وترفع ايدي المشايخ والعوارف واللجان
الخاصة حتى لا يكون هنالك رجعة الى الوراء وعودة الى اساليب القرون الاولى
في هذا القرن العشرين ، وكي تتخلص البلاد من (تبنية القضاء) من جعله
في البداية على خلاف الحاضرة .

وقد كان الفرنسيون سبغوا هذه الاعتراضات الموجهة الى القضاء البدوي
فمحضروه في البدو الرحل وفي الموجودين في البادية فقط من نصف الرحل ،
(نصف الحضر) . واتبعوا البقية الى مادعوه (قواعد الحق العادي) فقالوا
في القرار الاخير الذي اصدره في ٤ حزيران سنة ١٩٤٠ تحت رقم ١٣٢ ل ر
فيها يتعلق بالجنح التي يرتكبها البدو ان « قواعد العرف العشائري »
تخضع اليها العشائر الرحل في علاقاتهم فيما بينهم سواء أكانوا في البادية ام في

المعمورة ، وتخضع اليها العشائر نصف الرجل (نصف الحضر)
اذا كانت موجودة في منطقة الرجل اي في البادية . اما اذا كانت العشائر
نصف الحضري في المعمورة فانها تخضع الى قواعد الحق العادي كما تخضع الى
هذا الحق ايضاً العشائر الرجل في علاقاتها مع الحضر ونصف الحضر . لكنهم
اجازوا مراجعة العرف العشائري اذا اراد المغدور . ووضعوا في القضايا العائدة
للرجل معاقبة الجناة بالسجن من سنة الى خمس سنوات عدا العقوبات التي قد
تقرض بمقتضى العرف .

بعد هذه المقدمة التي اضطررنا الى ايرادها نشرع بسرده خلاصات عن
كيفية المرافعة والجرائم التي تستدعي الحكم والحسم في الامور الحقوقية
والجزائية عند البدو . ولا بد من القول ان هذه الخلاصات التي ذكرناها قد
تختلف بعض الشيء من عشيرة الى اخرى ومن منطقة الى منطقة ما زالت
التقاليد والعادات مختلفة ايضاً بحسب الاماكن والاطراف وبسبب العرافة في
البدوة والبعد عن الحواضر والاضمار . لهذا قد يكون في ما ذكرناه قواعد
متباينة عما درجت عليه بعض العشائر نرغب شموله بسعة الفكر والصدر . وانا
اعتمدنا في بعض ما بيناه على ما كتبه المرحوم السيد عودة القسوس احد
رجال القانون في شرقي الاردن في مقالاته المندرجة في المجلة القضائية الاردنية
سنة ١٩٣٦ ، وقد كان حاجة في موضوع القضاء البدوي .

المحاكمات الحقوقية لدى البدو :

يتقاضى البدو المتخاصمون عند رجال اختصوا بمعرفة (القضاء العشائري)
وهؤلاء القضاة هم من شيوخ العشائر ورؤسائها امتازوا بتوقد الذهن وسرعة
الاطار وسداد الحكم وخبرة عميقة في العرف والعادات البدوية وفي فصل
الخصومات وكشف حجج المتخاصمين وتمييز الحق من الباطل وفي قياس
الدعوى الحاضرة على دعاوي سالفة مثيلتها كان غيرهم حلماً حلاً مرضياً . وبعض
هؤلاء القضاة اناس من افراد العشيرة شبه فقهاء يدعونهم (عارفة) من المعرفة

ولو كانوا اميين كما هو حال اكثرهم . وفي عشائر انحاء دمشق وحوران والبلقاء
 لا يوجد عارفة ، والقاضي هو شيخ العشيرة ، والعوارف اختصوا بعشائر الشمال
 ولا سيما انحاء الفرات والجزيرة . ويقول رؤساء شمر نحن الذين نصبنا عوارفنا
 واختارناهم من جهة اننا نظراً لاشغالنا لا نقدر ان نرى الخصومات بانفسنا
 فلو دعناها الى من اعتمدناه وعمرور الايام صارت موروثه فيهم ، ولا يعتبر عارفة
 الا من كان ابوه عارفة ، اذ يشاهد الدعاوي من الصغر ويسمع بما يحكموا به
 ويتناقلونه وهو ينظر وعنده قلب واع وماذا بعد ذلك ؟

وللقاضي البدوي سلطة واسعة وزبالة قدر ، فاذا تكلم انقطع الحديث
 وباد الاعتراض وصمت المتخاصمون . وكثيراً ما يحدث بعد الحكم اعتراضات
 ومجادلات ، غير ان القاضي يلبث بين تلك الاصوات الصاخبة ساكن الجأش
 هادي البال ، وربما شطوا في الكلام ، ولكن لا ينتهي جدالهم الى الشتم والاهانة
 لانهم يكرمون بيت القاضي ويقدرونه . وقد يظول الجدل بينهم والقاضي
 يتحمل جدلهم بصبر عجيب فلا يخرج من فمه كلمة نابية . وللقضاة البدو منطق
 موزون . ويبان مرغوب يخلبون به الباب سامعين فيأتون بالتشابه البديعة
 ويضربون الامثال ويوردون الحكايات عن السنة الحيوانات او الجمادات مما يطرب
 له الحاضرون .

واحكام القضاة والعوارف واجبة التنفيذ فوراً ، الا انه اذا لم يرض احد
 الفريقين بحكم القاضي له ان يعارض حكمه ويطلب ان يرجع الى (المنهى)
 والى قاضي المناهي ، وهو آخر محكمة او بمثابة (محكمة التمييز) . وهؤلاء
 المناهي لا يختلفون عن اولئك الا في انهم اكثر شهرة وشأناً واذا عارض المنهى
 الحكم السابق بشرط عليه ان يأتي بشهادة من قاضي آخر كان قد حكم
 بما خالفه .

حينما يترتب لبدوي حق ما (كالدين) عند آخر بمانعه في اعطائه اياه
 فان صاحب الحق (الدائن) يرسل الى المدعي عليه وفداً من سرة الناس
 يطلبوا منه باسمه فقدم ان يخاضع صاحبهم في حضرة قاض بنفقان عليه ويتخبأه .

فاذا تمتع المدين بعاوده الدائن بأرسال وفد ثاني وقد يرسل وفداً ثالثاً .
والمقصود بذلك ان يبدأ الدائن مدينه بطلب حقه طلباً مجرداً حتى يعرف منه
رأي خصمه في موضوع الدعوى . فاذا اذعن المدعى عليه لمقترحات الواقدين
ضرب للوفد ميعاداً في يوم بعينه ليجتمع فيه اليهم في بيت أحد الشيوخ وهذا
مايسمونه (الوجه) للاتفاق معهم على تعيين القاضي الذي سيختصم المدعيان
اليه اما اذا رفض المدعي مقترحات غريمه التي حملها الوفد حول التقاضي بلجأ
صاحب الحق الى طريقة (الوساقة) ان كان قوياً ، والا فانه يستعير باحد
الزعماء والأقوياء طالباً اليه ان ينوب عنه في ارغام خصمه على الرضوخ لاحق
فان قبل المستجار به بعث الى المدعي عليه وفداً يكلفه الى مقاضاة دخیله ،
فان اصر على رفضه استعمل الزعيم قوته في اكراه المدعي عليه وذلك بالاطارة
على ماشيته واخذ ما ييسر اخذه منها والاحتفاظ به الي ان يذعن للطلب
الواقع .

انتخاب القاضي :

يجتمع المدعي والمدعي عليه في اليوم المضروب للحضور في بيت الشيخ
الذي سبق تعيينه ومع كل منهما رهط من ذويه وبشرعوا في انتخاب القاضي
فيسمى المدعى اليه شيخاً او زعيماً من العشيرة التي ينتسب اليها المتداعيان ان
كانا من عشيرة واحدة والا انتخب من مشايخ او زعماء عشيرة اخرى محايدة
ثم يليه المدعي فيسمى شيخاً ثانياً ويعقبه المدعي عليه فيسمى ثالثاً ، ثم يسئل
الاجتماع المدعي ان يقطع اسماً من الثلاثة ثم يسألون المدعى عليه مثل ذلك
فيفعل ، ويكون صاحب الاسم الثالث هو القاضي الذي له حق الفصل بين
المتخاصمين في القضية .

واذا اختلفا في تعيين القاضي يرجعان الى احد القضاة الذين يدعونهم
(المعترضة) فينتخب لهم القاضي الذي من حقه ان ينظر الى قضيتهم ويصدر
حكمه فيها .

(الفضوة) :

إذا اتفق المتداعيان وانتخبا أحد القضاة يراجعانه ويرافعان أمامه وهذا ما يدعونه (فضوة) .

وطريقهما أن يدخل بيت الشيخ (القاضي) حينما يكون جالسا في صدره للقضاء ومن حوله وجوه العشرة وبعد شرب القهوة يقوم أحد المتخاصمين وهو المدعي ، ويجلس في وسط البيت بين الحاضرين ويلتفت إلى القاضي ويقول ، وهو عندهم بمثابة الاستدعاء يفتتحون به الدعوى « وايش بك يا قاضينا ، ياللي حقتك تراضينا ، جيتك هدي ومشيا قدي ، افلح وضلي طالبي » (فيقول الجميع الصلاة والسلام عليه) ، حظي وحظك يدخلان على أربعة واربعين نبي من القوط والنوط والحق الردي ، وانا داخل عالمال والعيال من شيء مبين علي وعليك غبي ، وانا حاط ظمأ بعيونك السود وربعت القعود وبالا امرأة وما تجيب ونسافات العيب . ثم يذكر ماجري معه بصوت جهوري بحيث يسمعه الحضور من اطراف البيت ويورد اليراهين في ذلك ، الى أن ينتهي ويعود الى مقامه الاول ، فيقوم المدعي عليه ويجلس في وسط المجلس ويكرر المقدمة نفسها وايش بك يا قاضينا الى آخر الديباجة التي اتينا على نفسها بالفاظهم ولغتهم الدارجة في البادية ، ثم يفصح عن ادلته ولا أحد يعارضه في شيء ، والقاضي بين كل ذلك صامت لا يبدي كلمة ، وفي ختام ذلك يلتفت القاضي الى المتخاصمين ويقول : افلحوا واصلحوا خير لكم ، فاذا ايها الا اظهار الحق يقول : قدموا الرزقة .

الرزقة

الرزقة هي رسم المحاكمة الذي يدفعه أحد الخصمين للقاضي تقدر بربع قيمة ما يخاصم عليه ، وقد يجزى في هذا التقدير جدال طويل يدوم ساعات من أجل تعيين مقدار الرزقة ان تودا او عروضا كفرنس مثلا او سيف

أو بعير . وربما لم يقبل بها القاضي فيرفض الحكم الى ان يستحسن ما يقدر له . والرزقة انواع كثيرة ، منها رزقة المبطل ومنها رزقة الحق . فرزقة ^X المبطل هي التي يدفعها المجرم او المغتري للقاضي ويستثنى من ذلك دعاوى الدم والعرض والوجه والدخلة . ورزقة الحق هي التي يدفعها صاحب الحق . واذا استأنف المحكوم عليه دعواه الى قاض اكبر وحكم له بالحق وكان قبل ذلك قد دفع رزقات عديدة يرددها له المحكوم عليه ، لان المستأنف الكاسب حقاً بجميع الرزقات التي يكون قد دفعها للقضاة من قبل (١) .

(١) في كتاب المقدم مولران العوارف المصادق عليهم هم ابن سعدي من شمر وابن الطيار من الولد علي وابن سويط من الظفير في العراق اما الامير مجحم بن مهيد رئيس قسم الولد من الفدعان فهو اكبر العوارف . ومن العوارف الخصوصيين في قضايا الدم الامير مجحم وقريبه ابن زرعة ، ثم ابن السحالي من الارولة ومحمود العبد الجادر من بني خالد . وفي قضايا الخيل والمواشي محمد الصايد من الاسبعة وابن جروان من الاسبعة الاعرفية وكذا ابن مويضع وفانوس وهو حضري من دير الزور واخصائي في قضايا الخيل ومثله جابر من العقيدات وابن علي من آل حريميس وغيرهم . وفي كتاب عشائر العراق ان عوارف عشائر عنزة هم في (ضناشير) ابن زرعة من المهيد وابن هيازع من الجبلان ويرى كافة الدعاوي ماعدا حقوق النساء وقضايا الخيل ويقال لهذه المكلمات (المقلدات) وابن جاعود من الجلاعيد الدهامشة والسحالي من المطارفة من السلقة وهذا يرى المقلدات وابن عبده من الرسالين من الاسبعة والجليب من الزبنة . وفي (ضنامسلم) ابن الطيار وابن جندل وابن معجل وابن كويجب من الكواجبة وكميان بن دغمي رئيس المهنا ومويضع رئيس النصير وبشيتان بن بنيه وعويضة الاخضع رئيس الفرجة والقعقاع من الارولة والآن مونس وشاجي من رؤسائهم .

الكفيل :

بعد ان يتفق الخصمان على الرزقة يجب عليهما ان يقدم كل واحد كفيلاً يتعهد امام الشهود بدفع الرزقة اذا ابى الآخر تقديمها فيقولون : « ترى يا شيخ فلان هذه المسألة في وجه فلان » اي انه يتعهد بدفعها او يحمل المتخاصمين على دفعها . ويقول القاضي للكفيل : « عندك الشيء الفلاني ؟ » فيجيب « عندي يا تطلب ، وحق الله ورسوله اني ما ابوق » « اي لا اخون العهد » .

وأما ان الكفيل نوعان : غائب وحاضر ، فالغائب هو الذي لا يحضر مجلس القضاء حينما ترفع الدعوى فيختاره الحاضرون والقاضي لانفاذ الامر . والحاضر هو القائم بين الحضور في اثناء الدعوى . على ان لكل منهما واجبات خاصة تختلف عن واجبات الآخر . فالغائب مضطر الى قبول الكفالة والحاضر له الخيار في قبولها او رفضها . ولا بد للكفيل من صفات ، اخصها ان يكون معروفاً بين العشيرة بصدقه واقتداره على الدفع .

والذين يحرمون حق الكفالة هم النساء في جميع العشائر ، الا عند عشائر النصارى في شرقي الاردن ، ويحرمون شهود الزور والجنباء والخائنين وهاربي الثلاثة والشيخ البخيل والعييد الذين لم يعتقوا ، والمعتمدون على الفواحش والمنكرات وغدوا بطمحون الى النساء يطردون من العشيرة ويحرمون كل الحقوق ، هؤلاء كلهم مرذولون عند البدو لا يقبلون في مجالس الكرام ولا يشربون القهوة في بيوت الرؤساء ولا تقبل لهم شهادة . وانا جلس احدهم في هذه المجالس صب له الشيخ القهوة وبينما هو يرفع الفئجان الى فمه ينزعه الشيخ بعنف منه ويهرق القهوة على التراب ويقول انت لا تستحق القهوة ولا لك مقعد بين الرجال .

الشهود في الدعوى :

بعد تعيين الكفيل يتجه القاضي نحو المدعى ويقول له يا فلان اذا كان عندك شاهد لا يكذب ولا يوجد عليه اعراض فليقدم وليشهد فيجيب عندي يا قاضي العرب فلان وفلان وفلان . فليأنت القاضي الى اكبر الحاضرين ويسئله : وايس تقول يا شيخ عن فلان ؟ فان كان مقبول الشهادة يقول : والله انه مقبول الشهادة ، ما نا خابر عليه الذرب الذي يذربه عن الشهادة ، وان كان مرفوض الشهادة يقول : والله انه غير مقبول .

وقد تقع الخصومات في اختيار الشاهد فمنهم من يرفضه ومنهم من يقبله ، ويطول الكلام بينهم الى حد يسأم منه الحاضرون الى ان يقر رأيهم على شاهدين فيقفان ويقسمان القسم البدوي ، فيقول كل واحد على حدة : « والله العظيم والرب الكريم وحياة العود والرب المعبود والكاذب ماله مولود لا غيظ شافيه ولا طمع راجيه الا حق الله من رقبتي مؤديه » ان هذا الرجل قد فعل كيت وكيت ووجه يقصدون بالعود كل نبات من السنبلة الصغيرة الي الشجرة العظيمة ، وبكلمة لا غيظ شافيه ولا طمع راجيه اي انه لا يخلف لاخذ الثأر بل لاظهار الحق ولا يخلف لاجل المال . وللشاهد حق في طلب هدية ماء اذ لا بدالة من القسم . والبدوي كما سنذكره في بحث القسم يرهون القسم ولو كانوا صديقين في كلامهم ، فذلك يقدمون للشاهد هدية بدوية كسيف او عباءة وغير ذلك . ونصاب الشهادة في الامور العادية رجالان وفي الهامة جرداً اربعة ، وتقدير الفرق بين العادية والهامة يعود الى القاضي .

الحكم :

بعد ان تنتهي المحاكمة ينطق القاضي بامثال يبين فيها احكام القضاة

من قبله في امور جرت من عهد قديم . فيروي حكايات واقعية او خيالية يذكر فيها الحكم بمهم الكلام ، وربما آتى بامثال عن الحيوانات تنطبق على الامر الواقع ، حتى يدرك الحاضرون الحكم المراد قبل ان ينطق به . واخيراً يفوه بالحكم القاطع بقوله : « انا من عندي ومن عند القضاة الذين قبلي ، ومن عند اجاويد الله مثلكم ان فلاناً هو المجرم » وفلاناً هو البريء » ويورد في ذلك الادلة والبراهين والاسناد كي لا يبقى في الامر ريب . وهنا ينتهي الحكم فيقوم الحاضرون وينصرفون الى بيوتهم وهم يرددون الحكم المبرم . وخلال المحاكمة يسود السكون بين الحاضرين ولو بلغ عددهم ائمة ، فما منهم من ينبس ببنت شفة اذا لم يطلب منه الشيخ ذلك ، وكل الحالات والقضايا الحقوقية تعالج على هذا النسق كمسائل الارت والطلاق وقسمة الغنائم والشركات ... الخ ويخول العرف البدوي المدعي عليه رفض الشهود وتحليف المدعي اليمين ، فيكلف القاضي المدعي ، فاذا حلف كسب الدعوى ، واذا رفض سقطت دعواه وحكم القاضي بردها ويمتنع من معارضة المدعي عليه . وكذلك اذا عجز المدعي عن اثبات دعواه يكلف القاضي المدعي عليه ان يحلف اليمين على الصورة التي يرسمها له القاضي . فاذا حلف او استنكف المدعي عن تحليفه حكم القاضي برد دعوى المدعي ومنعه من معارضة المدعي عليه .

الحلف او القسم :

القسم من ارهب الامور عند البدو واقدسها ولا يقدمون عليه الا مضطرين . لان البدوي لسذاجته تملك قلبه اتيالات المختلفة والتصورات المرعبة ، لذلك يتجنب الحلف ولو كان به صادقاً وبههاب اتخاذ المولى الكريم او احد اوليائه وانبيائه شامداً على صحة قوله ولو كان من قطاع الطريق .

والقسم عند البدو انواع مختلفة : منه ما يسمونه القسم الجاري او
 القسم الصغير ومنه قسم اليد والقسم الكبير ومنه قسم العشبة ومنه
 قسم النملة والشملة . ففي القسم الصغير يقوم الشيخ وسط البيت ويقول
 اقسام عليكم بالله وبصلاة محمد هل فعلت الامر الفلاني . فيقول والله
 وصلاة محمد لم افعل . وفي قسم اليد يضع المحلف يده على رأس
 الحلف ويقول : اناشدك الله بما تحوش وتنوش (اي بما تملك في هذه
 الدنيا فاذا صدقت في جوابك بقي لك مالك واذا كذبت يهلك
 جريمه) بحلابات الحليب (هي الغنم والنوق والمعزي وامثالها) ونسافات
 العسب (هي عتائق الخيل والعسب ذنب الفرس) وبالنساء وما تجيب
 داخل عليك وعلى المال والعيال من الحل والاستحلال (اي اني ارجوك
 بحق اسرتك واولادك ان لا تتكلم بالغش) اليوم بين عينيكم وبارك
 بين متنيك (اي انك تراني اليوم وغداً ستحملني على النعش واقف
 انا . انت امام الدين العظيم) بغيبة علي وبيته عليك (اي الشيء المكتوم
 والشيء الخفي) ان اطلعها تسرك وان خبيتها تضرك أما صار كذا
 وكذا ، فيجيب : اي بالله ورسوله صار كذا وكذا . او لا بالله ورسوله
 ما صار ذلك .

ويقولون ايضاً في أقسامهم « انا حاضر بحضورك وموقد نارك ، اما
 صار كيت وكيت . ويقولون في حلف العشبة بحق هذه العشبة الملوحة
 والكاذب ماله ذرية . »

ولهم قسم عظيم يسمى قسم النملة والشملة ودونكم وصفه . حينما
 يكون البدو وكبرائهم ملتجئين في الربرة ، وقد طال الجدال بين الفريقين
 على ارض او فرس او غير ذلك ، يقوم صاحب البيت ويخرج من مجلسه
 الى خارج البيت ، ثم ينتضي سيفاً ويخط به دائرة كبيرة ويضع في وسط
 الدائرة حبة حنطة ونملة . فالحنطة تدل عند البدو على اكرم ما خلق الله
 تعالى والنملة تمثل الحكمة والفطنة والادراك ويمدون السيف في منتصف

الدائرة فيدخل المتهم في وسطها ويضع يده على نصاب السيف ويقسم قائلاً والله العظيم والسيب الكريم ما فعلت الشر ولا سرقت ولا قتلت ... الخ. وقبل أن يدخل في وسط الدائرة ينزعون عنه كل أسلحته وهو كثيراً ما يرجف رعدة وهمية وربما نكل عن الحلف وأقر بما فعل. x والحلف بالمقامات عند البدو يعد عندهم من الايمانات المغلظة. وربما أقسم البدوي بالله مراراً عديدة وأبى أن يقسم بالاولياء والمزارات المقدسة المعروفة لديه. وكثيراً ما يصير التحليف على قبر أحد الاولياء المشهورين بجدهاتهم. وطالب اليمين عندما يتأكد عزم الآخر على الحلف بعينه على الاغلب من اليمين. لأن البدو اجمع يتشائمون من الحلف والتحليف ويقولون (ياويل حالف ومخلف). ولذلك لا يجوز عمل الخطة والتحليف فيها في مراح العشرة أي بين دائرة المضارب بل يجب أن تكون خلف المضارب مما أمكن وفي مكان بعيد. وكثير من القضاة يرسل المقرر تحليفهم الى محل آخر بعيد عن أعرابه ليحلفهم فيه بناء على السبب المذكور. ولا يجوز عندهم تحليف أحد الخصمين إذا كان المنازع عليه من الكسب والغنائم. ومن حلف لا تتوجه عليه مطالبة x ويبرأ من الدية. وفي الغالب لا يخلف البدوي إذا كان قاتلاً أو فاعلاً. وهو يخشى أن يصاب بأذى في أهله أو ماله إذا حلف كاذباً.

البيع :

x لا يتم البيع إلا بالعقد والتسليم معاً. ولا يكون العقد ملزماً لأحد الطرفين، ولذلك حينما يبيع أحد الناس مالا غير منقول فإنه يتم البيع بعد المساومة عليه بين البائع والشاري والاتفاق على الثمن وتسليم المبيع المشتري. وتجوز الشفعة في بيع الاموال غير المنقولة والحياد من الخيل. والشفيع في الدرجة الاولى الاقارب ثم الشركاء ثم الجيران ومن العوائد أن يذكر المتعاقبان في الشروط حالة البيوع الحاضرة ويجب على البائع

ان يعرف حالة المبيع ويقول اني ابيعك هذا المال في جميع العيوب
فاذا وافق المشتري واستلم البيع على هذا الشرط لا يحق له الرجوع
مهما ظهر من العيوب في المبيع . واذا قال بعتك (صاغ سايم) اي
خالي من العيوب وظهر بعد ان المبيع معيوباً وتبين ان العيب قديم
يحكم برده على البائع . وظهور ذلك يتوقف على البيئات وبفقدها يختلف
المشتري بان العيب لم يحدث عنده .

الشفعة :

الشفعة ويدعونها (البداة) تشمل كل شيء من الاموال المنقولة
وغير المنقولة . والحق الاول فيها الى اقارب البائع ثم الى المجاور .
وحق الشفعة يتناول حتى الزواج ، ويدعونه (الهوة) وهو انذار الاقارب
لطالب الزواج ومنعهم اياه . ولذلك اذا تقدم خاطب غريب الى احدى
بنات العشيرة فان للاقارب حق الهوة والشفعة بنسبة درجات القرابة .
واذا لم يظهر طالب من الاقارب فالحق لافراد العشيرة . فاذا لم يظهر
من هؤلاء طالب فلافراد اقرب عشيرة موالية لتلك العشيرة . والاصول
في طالب الشفعة هو ان يعلن الشفع حالاً عند سماعه بعقد البيع او
الخطبة انه اولى بتملك المبيع او بزواج المخطوبة ويشهد الحضور على
اعلان هذا . ثم يجب عليه بالحال ان يحمل الثمن الذي علم بدفعه من
قبل المشتري نقداً كان ام عروضاً ام ماشية ويتوجه الى محل المشتري
ويعيد اليه الثمن الذي دفعه معلناً له انه ابدى اى اولى منه بشراء المبيع
او بخطبة المخطوبة لانه قريب البائع من الدرجة الاولى او جار للعقار
او خليط او شريك . ولا ريب في ان الخليط او الشريك اولى من الجار
الملاصق ، فاذا قبل المشتري وعدل عن المبيع قضى الامر ، وان رفض
يلجأ الشفع لطلبه الى القضاء بالاساليب المار ذكرها . واذا كانت الحالة
تقتضي اتخاذ الاحتياطات السريعة مثلاً لو كان الخاطب قد شرع باتمام

✕ الزواج فللشفيع ان (يجبر) المخطوبة من الزواج على احد المتنفذين بقوله امام شهود (انني اجبر فلانة من الزواج على الشئ فلان لنتيجة دعوي) وهذا القول يكون بمثابة الحجز الاحتياطي . اذ يصبح (المجبر) اي المتنفذ الذي انتدبه المدعي واجار البنت به من الزواج مازماً بتنفيذ الحجز الاحتياطي ، ولو كان المجبر غائباً عند اعلان المدعي جيرة البنت . فعلى الخاطب ان يتوقف عن ازاواج حرمة جيرة ذلك المتنفذ . فان لم يفعل عرض نفسه لغرامة كبيرة يدفعها الى ذلك المتنفذ المجبر اذ يحق له ان يطالب الخاطب عنها باربعة بنات لقاء الغرامة . وكثيراً ما قضى بذلك قضاة البدو . ولا سيما انه لا ينظر في الزواج الى رضا العروس من عدمه .

الميراث :

✕ ليس الميراث قاعدة عند البدو ، وهم لا يعملون في تقسيم الارث بالقاعدة الشرعية ولا بالقوانين المدنية ، بل لهم في ذلك اصطلاحات خاصة تتمركز على قاعدة حرمان الاناث من التركة بل هم يعتبرون البنات من جملة التركة التي تقسم بين الورثة . وغالباً تقسم التركة على الصورة الآتية : (توفي) عن اولاد ذكور واثاث وزوجة ووالدة واخوة فالميراث ينحصر بالاولاد الذكور . (توفي) عن بنات وزوجة واخوة واعمام فجميع الميراث محصور بالاخوة بشرط ان يقوموا بنفقة والده المتوفي وزوجته مالم يتزوجن باخر ، وعند زواجهن لا يبقى لهن ادنى علاقة بتركة المتوفي ، وعلى الاخوة ان ينفقوا ايضاً على بنات المتوفي حتى يزوجوهن ويستوفوا مهرهن ، واذا كان للمتوفي اخوة قد توفوا قبله عن اولاد فيقوم الذكور من اولادهم مقامهم بجميع مذكر (توفي) عن والد واخوة فالميراث جميعه يحصر بالوالد ، واذا (توفي) عن والد واولاد ذكور واثاث وعن اخوة ، ومن ثم توفي والده فليس

لاولاده ان يشتركوا بارث والدم ولا ان يقوموا مقامه . (توفي) ولم يكن له اب او اولاد ذكور ولا اخوة ذكور فينتقل حق الارث الى اعمامه واولادهم واذا لم يكن له اعمام واولاد اعمام فله سببة الاقرب فالاقرب انا (توفيت) امرأة بدون اولاد ذكور كان الوارثون لها اخوتها او اولادهم ومن بعدهم أقرب عسبة من الذكر .

X الوصفة (الوسقة) :

هي الطريقة للوصول الى المالك المصوب او المسروق . فكل شخص يكون له غريم (مديون) عسر عليه تحصيل دينه منه ، او كل من يكون قد سلبه شخص وعجز المصوب عن استرداد اشيائه المسروقة او عندما يرفض المدعي عليه طلب المدعي مقاضائه ، فان هذا المدعي او يجبره بعدان الى مصادرة اموال المدعي عليه (بشاعة ، ماشية . . الخ) المائدة الى اي فرد من الاسرة او العشيرة التي ينتسب اليها ذلك الغريم العاجز او المتمنع عن الاداء . وهي طريقة مخالفة للشرع ، فقد صرحت الآية : (ولا تزر وازرة وزر اخرى) . وقد نشأت هذه الطريقة من كون افراد العشيرة او الاسرة متكاتفين ، وهم وان لم يشتركوا في تلك الجريمة متضامنون في الخير والشر يلبون في الاستصراخ ويحييون عندما يندبهم دون ان يسألوا انما على ما قال برهانا . والوسقة يطالب بها لحد خسة جردود ، ولا يواخذ من هو ابعد . وحينما يحصل صاحب الحق على اي شيء مما يصاح لاستيفاء الحق ممن تمكن سواء من السارق او من غيره من اقاربه يودعه فوراً عند احد افراد عشيرة المطالب ممن هو فوق الجسد التماس ويضعه في جبرته ويدعوه الى اصاله اليه فيكون هذا لازماً بذلك . وما يلحظ ان الوسقة من اكبر دواعي النزاع بين العشائر والفرق والاسر ، لان الشخص الثالث الذي يرغب الدائن تطبيق حق الوسقة عليه يحتاج وكثيراً ما يدافع بالسلاح .

واذا وقع قتل يستخدم الشر وثنج معارك ختيقية من جراء تنفيذ حق الوسقة . وفي المعاهدة التي عقدت بين الحورانيين والدروز في سنة ١٩٢١ الغي حق الوسقة كما ان المحاكم العشائرية في شرقي الاردن على ما علمت صارت ترفض سماع دعاوي الوسقة .

الحشم (نسبة احدى النقائص):

ليس للشتم العادي اهمية اذا لم ينشأ عن ذلك شجار يؤدي الى الضرب او الجرح واذا بقي الامر مقتصراً على الشتم او التحقير البسيط ينتهي عادة بالصلح او الاعتذار . اما اذا كان الشتم قبيحاً او وسم احدهم آخر بعبث علناً وبمواجهته كالسرقة والسرقة من القتال او قذف بشقه عبارات تثل الشرف والعرض ، او يكون قد نهى عن امرأة يريد التزوج بها من اقاربه فلم يلتفت الى نهيه . . . كان للمعتدي عليه الحق بان يطلب المعتدي للمحاكمة عند القاضي وان يحسم عليه بتضمينات كبيرة وان يجبره على تقديم الاعتذار برفع راية بيضاء بين مضارب العشيرة . وهذا الحق يدعى (الحشم) فاذا ترتب على المعتدي عليه وجب فصله ، فان ابى عرض نفسه لخطر (العقر) وهو ان يقتل المعتدي عليه حيوانات المعتدي او يقطع قوائم ابله واطناب بيته بثلاث هجمات متعاقبة . وهذا العتر يعدونه اندساراً للاهانة اللاحقة .

البشعة :

هي تلجيس النار للمتهم اعني عندما تقصد جميع الادلة الثبوتية لاثبات المجرم بقرقر القاضي ارسال المتهم الى رجل من اهل الطرق الصوفية كالرفاعية وامثالهم يدعونه « المشع » . وهذا الرجل يأتي بقضيب عمود من الحديد ويحميه بالنار بحضور المدعي

او وكياله حتى يبلغ اقصى حد من الحرارة ويمسح به لسان المتهم بكل سرعة ولباقة ، ثم يذاوله في الحيا شربة ماء ، فاذا حصل ضرر في لسانه اعلن المبعث ان لاجس الناز مجرم ، وان لم يحصل ضرر يعلن براءته ، وحينئذ يرفع من تبرأ راية بيضاء وينادي قائلا : « بيض الله وجه المبعث وبيض الله وجه الكفيل » وهو يعني كفيل المحاكمة . وهذه البشعة من اغرب الاعمال واوحشها وابدها عن العقل والشرع وقد جرت مرة في الكرك (شرقي الاردن) امام احد الاجانب ، فرفع آلة التصوير وصورها وبعث بها الى صحف بلاده لنشرها وتشويه سمعة الامة العربية بها . فحبذا الاعراض عنها بتاتا .

الخزف والجزائية لدى البرو

الانتقام في البادية :

الانتقام او اخذ النار عند الاعراب من العوائد الشريفة يقيمون له وزناً رفيعاً ويعدونه من الفرائض التي لا يسعهم اتمامها ولو طال عهدها . وما كان يعرف عن اعراب الجاهلية في هذا الصدد . وقد ذكرناه في الصحيفة ١٥٦ - يطابق على اعراب زماننا . ومن المأثور عنهم ان البدوي يأخذ ثأره بعد اربعين سنة ويقول انني تمجلت اخذه . لان الضغينة تبقى كاسنة في صدورهم كالنار تحت الرماد ، وهم اذا راجعوا قصاتهم واخذوا حكماً على غرامتهم قد لا يعجبهم الحكم فيروون ظمأهم بدم الغرامه ويثأرون بايديهم ، وهم ينتظرون بسبر عجيب الفرصة المواتية لنيل امانهم ويقدمون على جريمتهم هذه بنفس هادئة وانسراح كبير ، وعندم النفس بالنفس والسن بالسن والعين بالعين ، اي انهم يعتدون على الغريم بمثل ما اعتدى عليهم . ومن تأمل في هذه السمة من اهل الحضرة استنكرها

بأديء ذي بدء . ولكن العارفين بشؤون البادية والعاذرين لاهامها يقولون
ان لولا وجود هذه السنة عند البدو لغدت البادية دار حرب مستمرة
لان سنة الدم بالدم تصد المجرمين والاشرار عن جرائم كبرى ، والبدو
يتجنبون القتل حتى في الغارات والغزوات ماوسعهم الامكان لئلا تنزل
بهم الضربات المائلة التي تمر بها شريعة الانتقام ، وهذه الشريعة تجعل
البيداء في امن وسلام يسافر فيها المرء غير خائف من صولة
اشرار البدو وان سلبوه ماله ، ولذلك ينذر القتل في البادية . والبدوي
لا يهدر دم المسافرين خوفاً من العقاب بل يسلمهم نيلهم وامرأهم
ودوابهم . وشأن البدوي شأن معظم البشر عبد القوة لا يحاذر غيرها .
ولطالما كان الجنود من ابناء بلاد الشام ايام كانوا يفرون على عهد
الترك من الين والامجاز ويقطعون جزيرة العرب من الجنوب الى الشمال
مشياً بطيل البدو عليهم ايدي الاعتداء تارة ويكسونهم ويطعمونهم تارة
اخرى وهكذا كان انوار يعرى ويكتسي مراراً حتى يصل الى وطنه .
على ان عواطف الثقة والحلم غير يسيرة عندهم تغلب فيهم مرات
عديدة على حب انقام وتحملم على الصنح . وفي كتب التاريخ والادب
القديمة حكايات وفيرة تشير الى شهامة ناسهم وكرم خالقهم . ولا يزال
يقع في ايامنا حوادث كثيرة من هذا القبيل ، فمنهم من اكرم قاتل
ابيه او خاطف ابنته او حارق بيادره ، ومنهم من يكونوا في اشد سورة
الغضب فيقوم شيخ رقوق بينهم يحاجهم ويوادعهم ويصالح ذات بينهم
فيزول كل شيء ، ويمثل هؤلاء الشيوخ والمصالحين ويفضل تؤدبهم
وحكمتهم تسكن الزوايا في البادية في الغالب ويسود السلام والاطمئنان .

الرزقة :

في القضايا الجزائية يأخذ القاضي قسمته من ارباح . وذلك أنه اذا

كان الرابع المدعى يدفع قيمة الرزقة مما حكم له به في التضمينات والغرامة . وإذا كان الرابع المدعى عليه يكون دفع الرزقة بمثابة رسم برأته من التهمة .

انواع الجنايات:

انواع الجنايات لدي قضاء البدو ١ - القتل مهما كان انواعه وتعميل العضو ٢ - اثرنا مما كانت انواعه ولو كان بارضا وخلف البنات او النساء ٣ - قطع الجيرة اي التجاوز على المحجوز عليه بدخالة زعيم ما ٤ - التجاوز على الدخيل اي المستجير ٥ - التجاوز على رفيق الطريق ٦ - نفع الجرح اي التجاوز على الخصم بعد ان تم بيم عقد الصلح او عقد الهدنة بكفالة آخر ٧ - التجاوز على الضيف ٨ - التجاوز على الطنيب ٩ - التجاوز على الناصي الذي قدم من ديار بعيدة واعلن انه قادم على زيد من الناس .

القتل :

لا يكون القتل عند البدو موضوعاً للمحاكمة اذا كان فاعله غير معلوم لدى الجمهور ، اما اذا كان القاتل معلوماً عمد ذروه الى ما لم من الحقوق على الوجه الآتي : اذا قتل شخص آخر كلاهما من عشيرة واحدة بثور اقارب المقتول ويهاجوا فرقة القاتل ، واذا صادفوا من يجتمع بقربائه مع القاتل حتى الدرجة الخامسة بالنسبة للجد الجامع بينهم سواء اكانت قرباتهم مع القاتل بالخط المستقيم او الخط المنكسر يقتلونه ثراً لقتيلهم ، وان لم يتمكّنوا من أخذ اثار فلم ان يتلفوا او يخرّبوا ما اتصل اليه ايديهم من اموال منقولة او غير منقولة تخص القاتل واقاربته حتى الدرجة الخامسة ، وذلك في غضون ثلاثة ايام وثلاث اعتباراً من ساعة القتل . وبعد مرور هذه المدة لا يحق لهم ان

يتناغوا شيئاً من مال القاتل ما لم يتمرد القاتل وذووه عن الانصياع
 لاصول العشائر فيما يتعلق بالدم . ومن المعتاد عند وقوع قتل احد
 الناس ان يسارع رجل احدي العشائر المجاورة لحماية اموال القاتل
 واقاربه من تجاوز ذوي المقتول ضمن المدة المنقضية عنها . وهذه المدة
 اي الثلاثة ايام وثلاث يسمونها (فورة الدم) وكثيراً ما يتسدارك عقلاء
 المشايخ الانور بحضورهم دفن القاتل واسداء النصح لآله وتخفيف غلواء
 صدورهم ، لان حماسهم في ذلك الحين يكون بالغاً اشدّه ، ومن المعتاد
 ان يحشدوا ويزحم بعضهم بعضاً وهم مسلحون وهمزجون الاهازيج
 الحماضية ويسرون خبيثاً قاصدين مهاجمة فرقة القاتل ، وقد يدغم
 الحماض للخطأ بالآخرين . ثم يجتهد عقلاء المشايخ المحايدين للتوسل بعقد هدنة
 لمدة فورة الدم المذكورة ، وتدعى هذه الهدنة القصيرة (عطوة المهربات
 المقربات) اي هدنة تكفي لتهدئة القريب . والعطوة تكون مؤيدة
 بكفالة احد الزعماء حيث يذهب الوسطاء ويلغون ذلك الى اقارب القاتل
 حتى يتمكنوا من الرحيل من وجه اقارب المقتول . ويساعد الوسطاء
 وغيرهم من المحايدين اقارب القاتل على سرعة الرحيل خلال مدة العطوة .
 وبعدئذ يتحتم على اقارب القاتل حتى الدرجة الخامسة ان يحلوا اي
 ان يرحلوا بببوتهم ومواشيهم وانماهم عند احدي العشائر الحماضية لعشيرتهم
 اي التي يربوها اتفاق حسن الجوار معها ، ولا يجوز لهم ان ينزلوا عند عشيرة
 اخرى تدخل تحت علم شيخ عشيرتهم ، وبعد ان يتكامل نزولهم يرسلوا ويطلبوا من
 مشايخ العشائر الاخرى التواسط مع فرقة المقتول ليقبلوا منهم (المعادد) اي
 تقسيم درجة القرابة والنسب بينهم وبين القاتل ، فيتم الشيخ الذي كاف به
 الوسطاء ويراجع اقارب المقتول ويطلب منهم ان يعينوا موعداً للاجتماع
 لبيان درجات انساب اقرباء القاتل حتى يطبق بحق كل فرد من ذوي
 القاتل بحسب درجة قرابته ما يتوجب عليهم وفقاً لاصول العشائر . وفي
 اليوم المعين يصير الاجتماع ويأتي الشيخ الوسيط بشخص خبير في نسب

فرقة القاتل يسمونه (العداد) فيجلس بين المجتمعين وبعد ان يخلفوه اليمين
بانه يقول الحقيقة ياخذ بيده اليمنى خنجرأ مسلولاً ويقبض على نصابه
بكامل يده ويبة ري' بذكر انساب القاتل درجة درجة اعتباراً من الجد
الجامع حتي يعرف ابعاد كل واحد منهم عنه . وهم يزعمون بالقبض على
الخنجر المسلول بان ذوي الدم قابضون على خنجر الانتقام قاصدون
ذبح من يسوغ قتله من اقارب القاتل وان اصابع اليد تمثل درجات
القربة باعتبار ان من كان قابضاً على الخنجر المسلول يمكنه الذبح .
وعند رفع احد الاصابع تنقص قوة اليد ، وهكذا دواليك حتي
ارتفاع آخر اصبع حيث يسقط الخنجر من اليد . فعندما يكون احد
اقارب القاتل بعيداً عنه في الدرجة الاولى يرفع العداد اصبع الخنصر
عن الخنجر ويعلن بان هذا الشخص يمكن ذبحه ويجب ان يبق بعيداً
عن اقارب المقتول ، ثم يرفع اصبع البنصر ويعلن أيضاً ان فلاناً القريب
من القاتل بالدرجة الثانية يمكن ذبحه أيضاً بالخنجر المقبوض عليه
بثلاثة اصابع ثم يرفع الاصبع الاوسط ويعلن ان فلاناً الذي في الدرجة
الثالثة يمكن ذبحه أيضاً بالخنجر المقبوض باصبعين وعلى كل اولئك ان
يبقوا في الجلى (المهجر) بعيدين عن وجه ذوي المقتول ، ثم يرفع
السبابة فيبقى الخنجر مسكاً بالباطم مع جانب الكف حيث لا يبقى
امكان للذبح فيه انما يمكن ان يخرج من يصيبه ولوجروحاً خفيفة ،
عندئذ يعلن العداد بان فلاناً الذي في الدرجة الرابعة لا يمكن ذبحه
بل يتوجب عليه ان يتي اضرار الخنجر التي بالامكان نهش بها و (ان
يدفع بعير النوم وينام) اي ان يدفع لذوي المقتول بعير ثي قيمته خمائة
قرش ويرجع من المجلس وينزل بين عشيرته . وبعد كل ذلك يرفع
الباطم لان جميع الاصابع تخلت عنه فيعلن العداد ان فلاناً الذي في
الدرجة الخامسة وقع عنه الخنجر ولا يؤذيه بشكل ماء ، ولذلك يحق له
ان يرجع من المجلس وينزل بين عشيرته من غير غرامة ، الا انه عند

وقوع الصلح بكتاب يدفع ما يصديه من الدية ، ثم يعلن نسبة اقارب القتال مع اقاربه وعددهم ويكون ترتيب ما يترتب على كل منهم وعلى فرقة المقتول من الحقوق مضموناً بكفالة احد الرؤساء .

وبعد الانتهاء من ذلك يتوسط مشايخ العشائر الاخرى لاختذ عطوة عمومية بين الطرفين فيذهب هؤلاء وينزلون في بيت اهل المقتول (جاهة) اي ملتجئين ، وهناك يرفضون ان يتناولوا القهوة والطعام حتى يلبي طلبهم ويعطوا مبتغاهم وهو عطوة تشمل القاتل وجميع اقاربه ، ومن ثم تعين لهذه الهدنة شروط وحدود تربط بكفالة احد المتنفذين من العشيرة المنسوب اليها القاتل ، وعندها يصبح القاتل واقاربه بمأمن على انفسهم وعلى اموالهم بشرط ان لا يتجاوز الشروط والحدود التي تعينت عند الهدنة . وباتناً هذه الهدنة يسمى المصلحون لاقناع اقارب المقتول على قبول المصالحة ، فاذا تمكنوا من اقناعهم على الصلح طلبوا منهم بواسطة (جاهة) اخرى تتألف من عدة مشايخ (عطوة اقبال) وعندما يعطى اقارب المقتول عطوة الاقبال هذه يكونوا اسقطوا حقهم باخذ الدار ولا يبقى لهم اي حق الاخذ الدية ، واذا تمس اقناع اقارب المقتول بقبول الصلح يذهب اليهم بعض المشايخ ويحددون العطوة مرات متعددة حتى يتمكنوا من اقناعهم بقبول الصلح واعطاء (عطوة الاقبال) وهي تعني الهدنة التي يسعى في غرضونها اقارب القتال لاقناع اهل المقتول بالصلح . وقد جرت العادة بان يدفع رسم على هذه العطوة ويكون مبلغه محسوباً من أصل الدية عند تعيينها .

الصلح بين الافراد :

يعين المتوسطون بالصلح يوماً لاجراء الصلح ويعلنونه للطرفين ، وحينئذ يهتتم اقارب القتال لجمع عدد من المشايخ ذوي الوجاهة والحرمة

في العشرة ومن غير مشايخ العشرة ان امسكن ، وياتسون من احمد المشورين في حسن البخت والحظ ان يعيرهم بيت الشعر بخاصته ، وبعد اعارته يحملونه سرأ ورسولونه ليلاً مع اشخاص لاعلاقة لهم بالدم فيأخذوه هو لاء وينصبونه سرأ قبل طلوع الفجر وراء بيت عائلة المقتول ويجلسون فيه بعدون الخطب والنار لحضور (الجاهة) ، وعندما يفيق اقارب المغدور من النوم ويشاهدوا البيت المنسوب وراءهم يجمعون رجالهم المحنكين ويستعدون للمذكرة بامر عقد الصالح ، وعند ضحى النهار يقبل وفد المشايخ ومعهم عدة اشخاص من اقارب القاتل العقلاء وثلاثة او اربعة من عائلات النساء . ويتقدم هذا الجمهور كله كفيل (عطوة الاقبال) اشارة الى انه يعني اقارب القاتل ذهاباً واياباً ثم الصالح لم يتم ، وينزل هذا الجمهور في بيت الشعر الذي نصب ويكون اقارب القاتل قد احضروا معهم جميع ما يلزم من الذبائح والطحين والسمن والبرغل والرز لاطعام الجموع وقهوة ودخان اي كل ما يقتضيه اكرام الضيوف ، هذا فضلاً عن عدة ثياب جديدة لاكساء ذوي القليل .

وبعد ان يستقر المقام بهؤلاء يقول امر المفاوضة أكبر المشايخ الموجودين فيرسل من قبله احد المشايخ الاخرى ويستدعي اقارب المقتول الى بيت الشعر المنسوب للمصالحة ، وحينئذ يأمر ذلك الشيخ اكبر اقارب القاتل امام الحاضرين ان يتقدم الى اقرب شخص من اقارب المقتول ويطلب منه الصالح فيقوم الاول ويجعل عقاله في عنقه ويستل خنجرأ بيده ويتقدم ويجلس بين يدي قريب المقتول ويسلمه طرف عقاله المعلق بعنقه مع الخنجر ويخاطبه قائلاً انني بالاضافة عن فلان القاتل اعترف بانني قتلت قريبك فلاناً وها انا اسلم وروحي ليديك فان شئت اذبحني بهذا الخنجر وان شئت اعف عني واقبل فدية حياتي

الدية التي تفرضها علي ، وعندها يمسك قريب المقتول القتال المعلق بعنق
 ذاك ويسأله ثلاث مرات من هو القاتل فيعترف بهذا ثلاثاً بحضور
 الجميع انني انا القاتل منهيقاً اقراره الى القاتل الذي لا يجوز له الحضور
 عند عقد المصالحة . وبعد ان يتم الاقرار بهذه الصورة يختار اقارب
 المقتول احد الامرين ، فاما ان يتنازلوا عن دمهم ويترفعوا عن اخذ
 الدية فيقابل اقارب المقتول كرمهم هذا بمثله كأن يهدوهم بعض بناتهم
 او عقاراتهم ، واما ان يعين اهل القاتل ما يرغبون بأخذه من دية ،
 واذا تقرر الامر الاخير يتسديء الشخص القابض على طرف عقال
 قريب القاتل هكذا : هل تدفع لي البنت الفلانية من عائلتكم (غرة)
 لدية فلان ، وهل تدفع العقار الفلاني (طلبة) ، وهل تدفع كذا من
 الدراهم وكذا من الخيول وكذا من الابل وكذا من الاعنعام
 والابقار وغير ذلك ، الي ان يذكر عدداً ضخماً من المال والمواشي ،
 ونائب القاتل يعلن رضاه واستعداده لدفع جميع ماطلب منه . وعندئذ
 ينتهي الطالب من سرد طلباته يعلن بانه يعفيه من دفع النوع الذي
 يختاره من انواع الاموال التي بشرط دفعها عليه ، فيقف هذا ويعلن
 بانني اخترت ان اقوم وانا معني من دفع الخيول مثلاً ، وعندها يعود
 الى محل جلوسه يسأل قريب المقتول وبماذا تجلسني اعني ماذا تعفي عني
 من انواع الاموال التي طلبتها حتى اتمكن من الجلوس فيجيبه الطالب
 اجلس ، معفي من الابل مثلاً او اي نوع من الاموال المطلوبة التي
 يختار المتنازل عنها . وبعد ان يجلس يتولى رئيس الحضور من المشايخ
 اكمال المفاوضة فيخاطب اقارب القاتل انني بلسان الحاضرين اشكركم
 لانكم احترمتمونا وتنازلتم عن دمكم وقبلتم عنه الدية ولذلك اسألکم
 عما تسمحون به من الاموال التي طلبتها اكراماً لله فيعلن متقدماً طائفة المقتول
 انني اتنازل عن هكذا مقدار من النوع الفلاني من الاموال التي
 طلبتها اكراماً لوجه الله ، ثم يخاطبه رئيس الجلوس وماذا تسمح لرسول

الله فيجيبه أيضاً بالتنازل عن مقدار معين ، ثم يخاطبه ايضاً وماذا تسمح
 لخطاري ، وهكذا يتكلم كل واحد من المشايخ الحاضرين ويطلب السماح
 عن شيء من الاموال المطلوبة اكراماً لخطأه فيسمح هذا لكل
 واحد من المشايخ بمقدار من الاموال المطلوبة . وعند ختام ذلك
 يعلنون انه قد تم الصلح ، فيطلب القاتل كفالة احد الزعماء لتنفيذ
 احكام الصلح بغير المعارضة لهم فيما بعد . ويسمونه (كفيل الدفا)
 واقارب المقتول يطلبون من اولئك كفيلة لتأدية بدل الصلح ويسمونه (كفيل
 الوفا) وبالجلسال يقوم الشخص المتقدم من اقارب القاتل ويرفع راية بيضاء
 ويعلن بها شكره لاهل الدم ويقدم هذه الراية ويسلمها لكفيل الدفا
 وبعد ان يستلمها هذا ويعلن حمايته لجميع عائلة القاتل يسلمها لكفيل الوفا
 الذي يعلن استعداده لتأدية جميع ما تم عليه الصلح . وحينئذ يأمر شيخ
 المجلس بتقديم القهوة التي تكون اعدت من قبل اقارب القاتل ، ولما
 يتناول كل شيخ فنجانها يطلبون من اقارب المقتول ان يسمحوا بمقدار
 من الدية اكراماً للقهوة فيسمحوا لهم بما يشاؤون . وعقيب شرب القهوة يأتي
 اقارب القاتل بالاياب الجديدة التي احضروها ويلبسوها اقارب المقتول
 وبباشرون الذابح وطبخ الطعام وتقديمه لجميع الحاضرين . وبعد ان
 ينتهوا من الطعام ويهيموا بالانصراف تقف متقدمة النساء وتسال من
 اقارب المقتول وبماذا تصرفونا وما الذي تتنازلون عنه من الاموال
 المطلوبة اكراماً لنا فيتنازل ذوو المقتول عن جانب من الدية اكراماً
 لخطأ النساء . ثم عند قلع بيت الشعر يتكلم احد الحضور مخاطباً أحد
 اقارب المقتول وبماذا تودعون هذا البيت وصاحبه صاحب البخت وحسن
 الحظ فيجيبونه بالتنازل عن مقدار معلوم ، ويكون الباقي هو صافي
 الحساب للدية ، ويعلنون ان ما بقي من الاموال المطلوبة هو الواجب
 التأدية بكفالة كفيل الوفا كما يعلنون انه لا يبروز التنازل او السماح
 عن الطلبة والغرة من الدية . ثم ينصرف الجموع شاكرين كرم
 اقارب المقتول برفع الراية البيضاء التي يركبونها في كل عشرة

يمرون بها برجوعاً

تقسيم دفع الدية واستيفائها :

ان الدية تنقسم على جميع انواع عشيرة القتال بالنسبة لعدد الذكور الذين كانوا احياء بعد وقوع القتل . واذا كان سبق انفصال اداري بين العشيرة فالدية تدفع من قبل اقارب القتال حتى الدرجة الخامسة من القرابة . وكيفية دفع الدية وتوزيعها يتم على الوجه التالي :

يدفع القتال مستقلاً الطلبة والغرة وثلث الدية ويدفع باقي افراد العائلة من الذكور الاحياء والذين وجدوا عقب تاريخ القتل حتى تاريخ عقد الصلح بما فيهم شخص القتال الثلثين الباقيين من الدية وتوزع عليهم بالتساوي . وعلى اساس هذه القاعدة يقسم اقارب المقتول الدية بينهم اي ان ورثة المقتول يأخذون الطلبة والغرة وثلث الدية باجمعه ويختصون به انفسهم وثلثي الدية الباقية يقسم على الذكور من الاقارب لحد الدرجة الخامسة بما فيهم ورثة المقتول ، وتعتبر الابنة التي تعطي غرة للمصالحة من المشومات حيث لا يمكنها ترك زوجها الذي يكون من اقارب القتل ولا بوجه من الوجوه ، ومهما جار عليها زوجها لا يمكن لاهلها الانتصار لها الا اذا وادت اولاداً ذكراً وبلغوا درجة الرجال فعندها يزود اولادها عنها .

جريمة المرافة :

ان جريمة المرافة تعود مسؤولييتها على ذويها بحسب درجة القرابة الخمسة ، ولا يسأل زوجها او اولادها عما اوقعته من الجرائم ولا يضمنون عنها اي بدل ، فلو قتلت المرأة شخصاً عمداً او خطأ او جرحته او اتلفت مالا لآخر الناس يدفع ذووها الدية او التضمينات التي

يتوجب دفعها ويكون موقف زوج المرأة واولادها كموقف احد الجيران ليس الا . والمرأة اذا قتلت تؤدي بدية ٤ - ٨ اشخاص بالنسبة الى وصف الجريمة ، فان كان مقتلها وقع تسهلاً للتعرض لشرفها يحكم القاضي باقصى درجات الغرامة .

المجروح وتعطيل العضو :

اذا نشأ من الجرح تعطيل عضو او طاعة دائمية يتوجب على الجراح ان يرسل من يأخذ منه عطوة اي هدية من المجروح واهله لمدة مناسبة . واذا لم يرسل ويطلب عطوة يعد مستهيناً بالمجروح . وفي اثناء العطوة عليه ان يبادر الى استصحاب بعض الوجوه ويذهب الى منزل المجروح ويصالحه اما بمنزلة المجروح بدون عوض او بمقابل شيء من النقود او العروض بقدر بمعرفة هيئة المصالحة واتفاق الطرفين ، واذا رفض المجروح او تعالى في بدل المصالحة يستجير الجراح باحد ائتمائه وهذا يرغم المجروح على المحاكمة او بيعت بهما رأساً الى القصاص ذي الاختصاص بتقدير التضمينات التي تجب على الجراح مراعاة قيمة المعالجة ومدة العطل عن العمل . واما اذا استهان الجراح بالمجروح ولم يرسل له من يأخذ منه عطوة ولم يسرع للمصالحة فالمجروح ان ينتقم لنفسه بأي طريقة كانت ولا يعد مسؤولاً . ومن عوائد البدو اذا كان الجرح مشوهاً او معطلاً لعضو ان تؤخذ نصف الدية فما دون . وفي المحاكمة يحال المجروح الى القصاص الخبير فيقف المجروح على مقربة منه بحيث يتمكن القصاص من رؤية كافة اطراف الجرح بعد شفائه ومن ثم يتدبر بالتباعد عن المجروح شيئاً فشيئاً الى ان يبلغ نقطة لا يمكن منها ان يتبين التشويه الذي تركه الجرح في وجه المصاب ويتخذ من المسافة التي بينه وبين الجرح قاعدة لتقدير قيمة الجرح ، وذلك

بأن يقدر هذه المسافة بالخطوات ويحكم بتقدير الغرامة والتضمينات بالنسبة لكل خطوة من البعد .

المرحلة :

إذا وقع شخص في طامة وخوف وابقن انه سوف يدرك اذا هرب ولا يتمكن من النجاة يلتجئ الى احد المشايخ ويقول له (انا دخيلك) فيصبح هذا ذلك الشيخ مكلفاً بمجاوبته ودفع الطالبين عنه ، ويسمى ذلك الشخص (دخيلاً) . فاذا تجاوز احد هؤلاء على اموال الدخيل ونفسه يحق لذلك الشيخ ان يستدعي المتجاوز الى المحاكمة وان يطلب منه تضمينات شخصية بنسبة ما لحق دخيله من اضرار وتضمينات معنوية تناسب مع سرف الشيخ . وكثيراً ما يقع احد البدو في جناية قتل او جرح ويركن الى الفرار من وجه ذوي المقتول او المجروح فيدخل الى اقرب بيت حتى ولو كان صاحب البيت من اقرباء القتل فيكون صاحب البيت مجبوراً حميماً وطاداً على حماية هذا الملتجئ ويحذر على المطاردين الحقوق باجاني بعد ان يدخل ضمن البيت حتى ولو كان بيت ارملة فقيرة لانعتز بشيء من القوة .

الصالح بن العسائر :

عاش بلغت درجة العداوة والخصومة بين عشيرتين لا يكون الا مل بالصلح بعيداً بل هو يحتل المبادأة والشروع في كل وقت . فاذا ضغطت الحوادث الخارجية السياسية او الاقتصادية او حدثت مضاجاة اثرت في الفريقين المتنازعين او فرضت الحكومات والسلطات رغبتها واكرهت . . . في مثل هذه الحالات يعرض الصلح ثم يدرس ويبحث فيه ثم يقبل . وها نحن ذا كرون امثلة على ذلك : في شتاء ١٩٢٤

١٩٢٥ - كلب البرد واشتد المحل بما لم يسبق له نظير ، وضاق ذرع
البدو ورأت العشائر ضرورة قسوى لتجاوز مناطقها المعتادة خوف
الجوع والتلف ، فاجتمع الرؤساء وقتئذ وتساموا وهياوا لعشائرم
مبادين للجمعة دون ان يحدث بينها نزاع ماء ثانياً : في سنة ١٩٢٤ شعرت
عشائر عنزة بخطر عشائر نجد وقرب هجومها على بادية الشام فتصالح
نوري الشعلان ومن ورائه عشائر (ضنا مسلم) كاماً مع ابن هذال شيخ
عمارات العراق وتأهبوا للقاء الخطر المهدم ، ثالثاً في حزيران سنة
١٩٣١ تسالحت اخصيان اللدودان الموالي والحديديون في مؤتمر عقد في
سلمية باكره السلطات الفرنسية ومداخلتها وانتهى الحرب الذي كان
مزمناً بينها على ماسند كره في بحثها .

والمصالحات يعقد لها مجالس ومؤتمرات ، وهي اعمال طويلة جداً
ومملة تؤدي الى مناقشات ومداورات لاتعد ولا تحصى ، وقد تنقطع هذه
المجالس او المؤتمرات ثم تستأنف بمراد الحديث مراراً . ومن اراد الحصول
على نتيجة صالحة في هذه المصالحات ينبغي ان يكون طويل البال الى
ابعد مدى صابراً حازماً . لان طول البال والصبر والحزم صفات توءدى الى
تعب الفريقين المتخاصمين وسئما واضطرابها الى المسامحة والمصالحة .
وعند شيوخ البدو القائمين باعمال المصالحة قدر وافر من هذه
الصفات .

اما كيفية وقوع الصلح فهي انه حينما تنهك قوى احدى العشيرتين
المتخاصمتين سواء اكان ذلك من خسارة في الانفس او الماشية او من
الاضطراب الذي يمتريها من جراء ترك مناهلها ومراعيها المعتادة تتقدم
بواسطة شيخها الى شخص ثالث من الشيوخ المحايدين ذوي الكلمة
النافذة . فيفتح هذا ابواب المفاوضة سراً وبلباقة الى ان يوفق لعقد
هدنة بين الفريقين تعرف عندهم بالعطوة ، وتبقى لمدة معلومة . يمتنع

في خلالها تجاوز احد الفريقين على الآخر وذلك بكفالة ذلك الشيخ
 الحايد او امثاله ، ثم ينتخب كل فريق محكميه من الشيوخ البعيدين عن
 الفريقين وعن المعروفين بحكمته وحولم وطولهم . على ان يقبل كل
 فريق محكمي الآخر بالتقابل وقد يحتاج الامر لانتخاب حكم مرجح .
 ثم ان مكان اجتماع لجنة التحكيم يجب تعيينه والاتفاق عليه . وهذا
 ايضاً يؤدي للنقاش . لانه وان كان ذلك من حق السلطات واللجنة
 نفسها ، الا ان اخذ موافقة ذوي العلاقة فيه امر مرغوب . وحينما تجتمع
 لجنة التحكيم في الوقت المعين يدرس اعضاؤها الاختلافات وعواملها
 وتأثيرها ويبحثون عن الباديء بالتعدي ويستنطقون شيوخ العشيرتين
 المتخاصمتين على افراد ، وهم يحاطون اذذاك بكل التأمينات الممكنة ،
 ثم ينظم المحكمون قائمة مفصلة بالخسائر الواقعة لدى كل عشيرة ويقدرون
 قيمها ويقررون . ومن النادر ان لاتقبل العشائر مقررات هذه اللجنة .
 وهم يعلمون نتيجة قراراتهم للفريقين ويصفون بكل توفد الى الاعتراضات
 المقدمة من هذا وذاك ، وبعد ان يعيدوا المفاوضات والاستشارات ويقلبونها
 مراراً يتوصلون في الآخرة الى حل نهائي يرضى به الجميع . فاذا تم ذلك
 يطلبون شيوخ العشيرتين المتخاصمتين واعيانها ويجمعونهم في بيت الشعر
 الذي استقر فيه المحكمون ، وبعد تنزيل قسم من التضمينات المفروضة على
 النحو الذي ذكرناه في (بحث اصول الصلح عن دم او هتك عرض)
 يتم الصلح نهائياً ورسمياً . وحينئذ تصافح الايدي وتعمانق الوجوه
 وتقبل اللحى ويتناول الجميع الطعام سرورية . ولا بد من ان يكون هذا
 الصلح حقيقياً ومادياً وموئداً بكفالات قوية ، والا لا يكون طوبل
 المدى والنفوذ ، لاسيما اذا كان نتيجة الضغط والاكرام .
 هذا وكلما كانت الخصومات قديمة طالبت المفاوضات والمساومات ،
 ومثل ذلك كلما كانت اسباب الاصنام الفاعلين غير معينة قليلاً ام كثيراً
 وكذا كلما كانت الاضرار والخسائر عند الفريقين فادحة . وما يلاحظ

أيضاً ان المصالحات التي تجري تحت ضغط الحوادث يمكن ان تنفسخ حينما تزول الحوادث التي اوجبت عقدها . وها نحن الآن نذكر الاسس التي يعقد عليها الصلح ، فهذه ذات شكلين : (١) التعويض المتقابل (٢) الحفر والدفن .

أ - فالمصالحة على اساس التعويض المتقابل لا يمكن ان تتم مالم يكن العداة حديثاً والاضرار التي اوقعها المتخاصمان طفيفة . واذا حدث عداة بين عشرين على اثر حادث ما كقتل او خطف فتاة او سرقة وما الى ذلك ، واذا كان هذا العداة اوقف في حيزه بتموسط اشخاص آخرين او بحوادث فجائية ، يمكن ان يتم الصلح بسهولة . وكل عشيرة تحسب دية ارجال الذين قتلوا بما يعادل ٣٣٣٣٣٣ قرشاً ذهبياً للرجل المقتول ونصف هذا المبلغ للفرس اي ان كل فرسين برجل ، وتخصى الابل والغنم والحمر . . . الخ المسروقة حساباً دقيقاً ، ويقسم ثمنو الفريقين على سعة الارقام التي يدلون بها . فقوائم الحساب تعرض على المحكمين ، وهؤلاء يقومون بعملية الجمع والطرح ويسمون العشيرة المكلفة بدفع الفرق الزائد على قاعدة (هفا من وفي) . وفي الغالب تعاد الاغنام المسروقة عيناً لاسيما وان كلا من البدو يعرف وسم فرقه . فاذا اتممت الاموال ودفعت ديات القتلى تجري حفلة الصلح الرسمي . هذا وكل مايقع من القتل والتلف خلال مدة (فورة الدم) وقدرها ثلاثة ايام وثلاث اليوم لايدخل في حساب الصلح ، بل يدخل ما يهدر ويتلف منذ اليوم الرابع .

٢ - اما (الحفر والدفن) فعناه السماح العام او يسمونه (حفار ودفان عن كل ماغي وبان) ومعناه تناسي كل ما وقع بين الفريقين المتخاصمين ودفن المطالبات والسماح بها . وهذا النوع من الصلح يقبل في الغالب حينما تكون الضغائن قديمة العهد والمتخاصمات انتدت زماناً طويلاً واصبح الصلح على اساس التعويض المتقابل غير ممكن الاجراء

• وإذا كان ميزان القتلى مائلاً كل الميل الى جانب واحد ، وائمة
المنهوبات وكمياتها التي نهى هذا الفريق او ذاك بلغت حداً لا يمكن
تعويضه او حسابه . وعلى كل حال تربط شروط الصلح بكفالة ، اذ
يقدم كل من الفريقين كفيلاً من زعماء العشائر الاخرى يعمن تنفيذ
شروط الصلح بحق عشيرته ، وبعد ذلك يتبادلون الزيارات والمعاملات
دون خشية بعضهم بعضاً . والبدو الرحل ليس من عاداتهم ان ينظموا
وفائق خطية بل يكتفون بنهضة الشهود الشفوية . أما البدو نصف
الرحل والحضر فهم بالعكس يطلبون بوثقة تبقى حجة لمدعيهم فيما اذا
اخذ احد بشروط الاتفاق والصلح . وطريقة انشاء هذا العقد او
الوثيقة تفتح مجالاً لمباحثات عديدة ، واحياناً توجب كلمة او جملة
واحدة الرجوع الى المناقشة والمماحكة في الموضوع من اوله .

السرقه :

السرقه سواء سميت سرقة او غصب ليست عملاً مخجلاً كما بتسوره
الحضر ويتلقونه بل تعد من ضروب البطولة . والسارق الذي يقبض
عليه ويده في الجيب ويعرف عقيب وقوع الجرم ليس عليه الا ان يؤدي
ماسرقه ويعوضه على صاحبه كما سوف نذكره ، وبعد تأدية ذلك يظل سارق
السارق سالماً من كل تعرض . وفي السرقة يسترد المتضرر ماله بادي
بده بطريقة الوسطة التي تقدم ذكرها ، وعند المحاكمة يحكم على السارق
اذا كان قد سرق من الاقارب او من الزيل باعادة المسروق وتعويض
ما يترتب على هذه السرقة باربعة اضعافها اذا كانت من الحيوانات اي
على عديرةوائمها . واذا سرق شخص حيوانات واموالاً تعود الى شخص من
عشيرة اخرى صديقه او حليفة لا يكون التعويض الا بالمثل الواحد (بعير
لقاء بعير) ، وبأخذ الوسيط في هذه الحالة لقاء انعابه رأساً واحداً

عن كل خمسة رؤوس. ولا حاجة للقول ان السرقة التي تقع ضد عشيرة
عدوة لا تتحمل اي تعويض . ومن عادتهم اذا سرقت ناقة او فرس
او نعجة اي كل انثى عشار وردت الى صاحبها الاصلى بعناية شخص
ثالث يكون لهذا الشخص حق الحصول على الحوار المهر او الطي المولود .

التجارز على رقيق الطريق :

من الحقوق التي يجب على ابناء العشيرة رعايتها حماية رقيق الطريق
الذي لا ينتمي الى تلك العشيرة من كل اذى يصيبه من افراد تلك
العشيرة ابناء وجوده بسحبة رقيقه والى ان يبلغ المحل الذي يكون
اميناً فيه على نفسه والله ، فاذا ما تجاوز احد افراد تلك العشيرة على
ذلك الغريب كان لرفيقه حق الدفاع عنه بجميع الوسائل والحق بان
يستدعي المتجاوز للمحاكمة ، وللقاضي ان يحكم عليه بتضمينات الغرامة
الشخصية وبتضمينات رقيقه المعنوية .

تفطيع الوجه :

من القواعد عند عقد السامح بين الفريقين المتخاصمين ان تربط شروط
المصالحة بكفالة احد المشايخ البارزين لكل من الفريقين ليقوم هذا الشيخ بتنفيذ
شروط السامح المنوطة على ذلك الفريق . فاذا كان المصالح عليه اموالاً
مفقولة او غير مفقولة فعلى الكفيل ان يطلب من المكفول تأدية بدل
الكفالة فاذا تقاعس وجب على الكفيل دفع هذا البدل او ما يماثله
بشروط ان يعلن ذلك المكفول ويشهد بشهوداً . وبحق للكفيل ان يطلب
المكفول بان يعيد له اربعة اشكال ذلك المال الذي دفعه عن بدل الكفالة
. واذا كانت المصالحة على اساس جزائي فتكون الكفالة عبارة عن
تأمين الطرفين المتعاقدين من اعتداء احدهم على الآخر . مثال ذلك

لو قتل أحد الثمان شخصاً آخر وجرت المصالحة على الأصول فلا بد
 من ربطها بكفالة شخصين أحدهما (كفيل دفا) والآخر (كفيل
 وفا) ، فالولياء القاتل يختارون شخصاً وبطلبون كفالته لتأمين استيفائهم
 الدية ، والقاتل يختار كفيلاً يحميه من تعدي اقارب المقتول . ولكل
 منها اجرة ، فكفيل الوفا له ان يستوفي واحد من تسعة من مجموع
 بدل ما كفل عند التحصيل ، واما كفيل الدفا فله ان يأخذ من
 الشخص الذي كفل حمايته جزءاً من الابل او ما يعادل ثمنه من
 الدراهم . (والجذع البعير عند اول تحميله) .

فاذا أخل اقارب المقتول او المروح بالكفالة وتمدوا على القاتل
 او الجارح او على أحد اقاربه ولو باطالة اللسان او بما يستش منه راحة
 التهديد يعتبر ذلك تقطيعاً لوجه الكفيل . وعندئذ يحق لهذا ان يستدعيهم
 للمحاكمة ، والقاضي يحكم عليهم بتضمينات شخصية للمتعاقب عليه
 وبتضمينات معنوية للكفيل . كما انه عند عقد هدية (عطوة) بين
 فريقي متحاربين او متخاصمين فعلى وسطاء الهدنة ان يربطوها بكفالة
 كفلاء يختارهم الوسطاء ويرضى بهم الفريقان ، وبعدئذ اذا أخل أحدهم
 بشروط الهدنة يعتبر انه قلع وجه الكفيل واصبح عرضة للحكم
 بالتضمينات الباهظة .

التجاوز على الضيف :

ان الضيف يبقى بحماية المعزب (المضيف) الى ان ينقض الملاح
 ويراد بقولهم ينقض الملاح الى ان يأكل طعام ضيف آخر ، وكل تعد
 يقع على الضيف اثناء ضيافته او بعد ذهابه والى ان ينقض الملاح يكون
 المضيف ملزماً بتلافيه اما بنسيان الشر من نفسه او بتحصيله من
 المعتدي عن طريق الطلب الى المحاكمة . هذا وان وجود شخص في

يبب احد الاعراب يجعله في حاية صاحب البيت ولو كان مرتكباً لا كبر
 الجنايات ، وتكون حاية الضيف اوجب اذا تمكن من ان يدوق قليلاً
 من طعام المضيف . وهذا ما يهيب بالكثير من الاعداء للدخول الى بيت
 احد افراد عشيرة معادية بقصد الاجرام حتى اذا انتبه اليه رجال تلك العشيرة
 وقبضوا عليه وايقن ان ليس اسمه الا الموت بذل كل ما في براعته
 وجهده ليرمي بنفسه الى الخدر حيث النساء وسارع بالتقاط ما تباعه يده من
 طعام والتمه وحينئذ يصبح في نجوة من الموت ، ويجب على صاحب
 الطعام الذي ذاقه ذلك المقبوض عليه ان يبذل اقصى جهده لانقاذه وايصاله
 الى اقرب مكان يأمن فيه على حياته ، واذا كان صاحب الطعام ضابطاً
 فعلى مطاردي ذلك الشخص ان يكفوا عن مطاردته وان يفسحوا له
 المجال ليفلت سالماً ، والا حق لصاحب الطعام ان يسوق من تجاوز على
 ذلك الذي ذاق من طعامه الى المحاكمة وان يطالبه بتضمينات مادية
 ومعنوية باهظة .

مذوق الطنيب :

الطنيب هو الشخص الذي ينزع من بلاد نائية تقضي عليه الظروف
 بان ينزل في عشيرة ايس لها ارتباط ما مع عشيرته ، فينصب الطنيب بيته وراء
 بيت شيخ العشيرة فيكون هو وعماله وعرضه بحماية تلك العشيرة التي ينزلها
 فاذا وقع عليه او على ماله او عرضه تعدي من احدى العشائر التي بينها
 ارتباط فلشيخ العشيرة التي هو طنيبها واسكل فرد من افرادها ان يطلب
 المتجاوز الى المحاكمة بالطرق التي سبق بيانها . واذا تمرد المعتدي عن
 الخضوع بلجأ المدعي الى طريقة الوساقة لاختضاع المعتدي للرضوخ للمحاكمة
 . وكثيراً ما سبب التجاوز على الطنيب اعلان الحرب بين العشائر فالتهمت
 نازها الاخضر واليابس . ويعتبر التجاوز على الطنيب من اكبر الجرائم .

اجفائية في عرف البداوة ، ومحاكمة هكذا جريمة تجري امام احد قضاة المناهي وبحكم بفرامة وتضمنات باهظة للطبيب ولشيخ العشيرة ، وقد تناهز هذه التضمنات دبة المقتول . ولا يؤاخذ الطبيب على ي خلأ ارتكبه او جرم اقترفه في اثناء نزوله طبيباً ، ولا يذادى للمحاكمة بل يقوم مقامه شيخ العشيرة التي يكون طبيباً عليها وبدفع ما يلحقه من تضمنات ، ووجهة القول ان للطبيب عند البدو مكانة كبيرة جداً يحوطونه بمنتهى الشهاة والمرؤة .

النجاوز على الناصي :

الناصي هو الشخص الذي يقدم من ديار بعيدة قاصداً احد المشايخ او ازعماء الامر يرتجيه منه او يؤمل فيه ويشترط لاعتباره ناصياً ان يعلن حين عزمه على السفر بانه يقصد العشيرة الفلانية او البلدة الفلانية او الشيخ او الزعيم الفلاني فيصبح بذلك من ذلك التاريخ بحماية الشيخ المنصبي . واذا حصل له ادنى تعدي في اثناء قدومه من احد افراد الشائر ذات الارتباط مع العشيرة التي ينتسب اليها الشيخ المنصبي كان مكلفاً بتلاني اضرار ناصيه . ولم ان يطلب المعتدي الى المحاكمة ، ويستقاضاء الفرامة والتضمنات الادبية والمادية . والحكم بذلك يتوقف على ثبوت علم المعتدي بان ذلك القادم كان ناصياً للشيخ او الزعيم المدعي . وعند انتهاء المحاكمة يعود الناصي الى اهله شاكرآ عناية المنصبي ورافماً له راية بيضاء لدى كل عشيرة يمر بها .

ام طام الرزنا الجبري :

اذا تعرض احد الناس لامرأة فافترسها نهاراً وغصباً بينما كانت مارة في الطريق وحدها او ذاهبة للاستقاء او الاحتطاب كمن هي طارة نساء

البدو ورجعت تصرخ وثلث عشرة حمية عشيرتها وكانت دلائل النسب متوفرة عليها أصبح لعشيرتها ولاقاربها الحق بتخريب اموال الجاني خلال ثلاثة ايام وثلاث اليوم وبقتله او قتل احد اقاربه حتى الجد الخامس انتقاماً لمرضهم . واذا وجد هناك ما يستدعي الصالح او مراجعة القضاء يحكم القاضي بدفع غرامة تكون غالباً اكثر قيمة من دية القتل . ويعتمد القاضي في مثل هذا الموضوع على تغريم الجاني بما يكون لونه ابيض من الاموال والحيوانات ، لان الجاني سرود المرض . اما اذا كان التعدي قد وقع خارج منزل العشيرة وبعد المساء فلا يعتد بصراح المرأة بل يحق لاوليائها ان يقتضوا منها باعتبارها زانية بالرضا وانها خرجت للقلاء معشوقها وما كان صراحها الا سترأ لعيها الذي يحتمل ان يكون قد اكتشفه بعض الناس . ويسمون المرأة من هذا القبيل (طاقية السرح) اي التي تأخرت عن الرجوع لبيتها بعد رجوع الماشية ، وتطبق عليها احكام ائزنا بالرضا . والسبب في ذلك انه يتمتع على النساء الخروج من المنزل بعد مجيء الماشية من المرعى ، وتغدو الامراة التي خرجت قد اقامت على ذلك بقصد ائزنا . اما اذا وقع التعرض على امرأة نهاراً ولم يستطع الفاعل افتراسها لاسباب مانعة حالت دون اتمام فعلته فيجوز القاضي بغرامة تتناسب مع شرف الامراة ومركز اسرتها .

الزنا بالرضا :

ان الزنا بالرضا يجعل الراي غير مسؤول عن فعائه ما لم يقتص اولياء المرأة من الرانية التي يتحتم عليهم بعد التحقق من رذاهها بالرضا ان يقتلوا جهازاً ، والا ظلت وصمة عار لا يحصى للعشيرة ، يعيرهم به جميع الناس بقولهم لسكل واحد من عشيرتها (انت الخاير وانت الصابر) اي انك خربت عيب من انت من اوليائها وصيرك عليها دليل رضاك على فعلتها ،

ولذلك لا يسلمهم الا قتالهم . وقد يقتلون البرية لشدة الحماسة التي لا تجعل
 لديهم مجالاً للتحقق عن صحة جرمها من عدمه . وعلى ذوي الرأية
 ان يقتلوها وان يذروا عشيرة الزاني بها ليقتلوا صاحبهم
 بأيديهم او يعلنوا للعالم انهم خلعوه عن عشيرتهم وغير مسؤولين
 عنه فلا يطالبون به . وعندئذ تتولى عشيرة المرأة الانتقام من الزاني
 بنفسها . اما اذا لم تخلع الزاني عشيرة فلمعنى انها تؤيده ويصبح عندئذ
 الحق لعشيرة المرأة ان تطارد كل واحد من افراد عشيرة الزاني الى
 الجد الخامس ، وخلا ذلك يحكم لهم القاضي بغرامة قدرها دية اربعة رجال .
 فاذا انتقموا وقتلوا شخصاً من اقارب الزاني يكون لهم الحق باستيفاء
 ثلاثة مقادر الدية المفدرة للرجال فضلاً عن الشخص الذي قتلوه ،
 وذلك جزاء لعشيرة الزاني التي لم تخلعه وتنصل منه

خطف النساء والبنات

هذا امر كثير الوقوع بين البدو والبلاد العربية التي لا تزال
 متأثرة بعوائدهم كجوران وشرقي الاردن . واكثر الخطف يكون برضاء
 الطرفين وكثيراً ما يخطفون ذات الزوج وام البنين . والخطف اما جري
 او بالرضاء وقد ذكرناهما بالتفصيل في (الصحيفة ٢٤٢ — ٢٤٦) .

ج. اثم الجنح في عرف البدو

- ١ . = الجرح الذي لم ينشأ عنه تعطيل عضو ٢ . = اطلاق الرصاص
- ولو لم يصب جرحاً ٣ . = الضرب العادي سواء أكان بعصا ام بحجر
- او باليد او بمادة اخرى لم تسبب جرحاً ٤ . = نتف شعر الذقن او الشارب
- ٥ . = الطعن بالعرض ٦ . = القدرح بنسبة احدى النقائص المخجلة عادة

بين البدو الى المقصود فيه . ٧ - الشتم بأنواعه او شتم الوالدين .
 ٨ - العداية . ٩ - التعدي على شخص آخر يكون حاضراً في بيت
 آخر . ١٠ - قتل الحيوان . واليك شرح هذه المواد :

١ - الجرح الذي ينشأ عنه تعطيل او عاهة دائمة . - يتوجب على
 الجارح ان يرسل من يأخذ له عطوة او هدية من المجروح واهله لمدة
 مناسبة ، واذا لم يرسل ويطلب عطوة بعد مستهتاً بالمجروح . وفي اثناء
 مدة العطوة عليه ان يبادر لاستسحاب بعض الوجوه ويذهب الى منزل
 المجروح ويصلحه اما بعض المجروح بدون عوض او بمقابل شيء من
 النقود او العروض بقدر بمعرفة هيئة المصالحة واتفاق الطرفين . واذا
 رفض المجروح او تآلى في بدل المصالحة يستجير الجارح باحد الزعماء
 وهذا يرغم المجروح على المحاكمة او يبعث بها رأساً الى القصاص حيث
 بقدر التضمينات التي تجب على الجارح مراعيأ بدوره قيمة المعالجة ومدة
 العطل عن العمل .

واما اذا استهان الجارح بالمجروح ولم يرسل له من يأخذ منه عطوة
 ولم يسرع للمصالحة فلم يجروح ان ينتقم لنفسه منه ولو بطرق خارجة
 عن اصول العشائر ولا يكون بذلك مسؤولاً .

٢ - اطلاق الرصاص . - ينظر القاضي غالباً الى اطلاق الرصاص
 نظره الى جريمة كبرى ويعتبر الجرم من نوع الجنابة ويحكم على مطلق
 الرصاص بتضمينات كبيرة تناهز احياناً نصف الدية . واذا ثبت ان
 اطلاق الرصاص لم يكن بقصد القتل بل كان بقصد الاخافة فيعتبر
 القاضي ذلك من قبيل الاهانة ويحكم على الفاعل بتضمينات تتناسب مع
 مركز المتجاوز عليه ويجبر الفاعل على الذهاب الى بيت المعتدى عليه
 وتقديم الاعتذار له .

٣ - الضرب العادي . - يفصل فيه غالباً بالمصالحة وبالاعتذار ، واذا

لم تنجح هذه الوسائل بقدر القاضي المضروب تضمنات بسيطة جداً .

٤ - نتف شعر الذقن - . ان نتف شعر الذقن او الشارب من اهم المسائل عند البدوء اذ انه يبع المتشاجرين ان يستعملوا انواع الضرب والملاكمة والمشادة على ان لا يمد احدهم يده الى ذقن الآخر ، واذا مد يده ونتف ولو قليلاً من ذقن خصمه او شارب كان للمتضرر ان يطلب الفاعل الى المحاكمة وكان للقاضي ان يحكم له بتضمينات ماهرة تقدر بنسبة عدد الشعر المقتوف . ومن المتعارف عليه بين العشائر ان قيمة كل شعرة منتوفة من الذقن خمسين قرش وكل شعرة منتوفة من الشارب الف قرش . وذلك لان للذقن والشارب حرمة بمقارنة . ومن عوائدهم ان يحلف الواحد بذقنه او بشاربه .

٥ - الطعن بالعرض - . الطعن بالعرض كقول احدهم انت اخبر انت الصابر (١) او كقوله خصمه انت ابن العائبة او اخ العائبة او امثال ذلك من العبارات التي تشين سمعة العرض من غير ان يذكر الطاعن مادة معينة من الجرائم التي المتجاوز عليه معها ان يدعي المتجاوز الى المحاكمة وان يحكم عليه بتضمينات كبيرة وان يحسبه على تقديم الاعتذار علناً (٢) وكثيراً ما نجر هكذا حقارة الى عدة جرائم ان لم يتمكن القضاء من تنفيذ احكامه .

٦ - نسبة احدى النقائص - . اذا وصم احد الناس الاخر بعيب علناً وبمواجهته كما لو قال لآخر انت شرود اي انت هربت من وجه خصمك في ميدانه القتال او قال له انت سارق وسادتك اي سرت مضيئك او انت بائق اي عذرت بمن ياتمن جانبك او قذف بحقه هكذا عبارات تلم الشرف كان للمعتدى عليه ان يطلب المعتدي للمحاكمة

(١) راجع فصل الزنا بالرضا (٢) رفع رواية بيضاء

حيث يطلب القاضي من المعتدي ان يثبت ما نسبته للمدعي من الطعون
فاذا اثبت ذلك تخلص من المسؤولية ، واذا عجز عن اثباتها حكم عليه
بتضمينات باهظة مع اكراه على الاعتذار العلني للمعتدوف بحقه برفع
راية بيضاء بين الجمهور .

٧ - الشتم العادي - . ليس للشتم العادي أهمية اذا لم ينشأ عن
ذلك شجار يؤدي الى الضرب او الجرح واذا بقي الامر مقصوراً على
الشتم او التحقير البسيط ينتهي عادة بالصلح والاعتذار .

٨ - العداية - العداية مشتقة من عدا يعدو عدواي وثب لاخذشيء ماء
فكلمة عداية المصطلح عليها بين البدو تعني خطف شاة من غنم الآخر
علناً وذبحها . غير ان لها شروطاً تبرر عمل القاتل وتجعله غير مسؤول
ادبياً ، وذلك اذا ضاع العادي اناس لا مندوحة له من اكرامهم بذبح
رأس من الغنم ، اذ من المعروف بين العشائر بانه لا يكفي لاكمال
الضييف تقديم ما يكفيه من الزعام بل لابد من ذبح عدد من رؤوس
الغنم بنسبة مكانة الضيف وكرامته وكثيراً ما يذبحون له جزوراً [١]
وعليه عندما يكون احدهم في موقف اضطراري كهذا لابد له فيه من
اكرام ضيفه وليس في وسعه ان يأتي بذبيحة من مواشيه لبعدها عنه
او كان ضيق الوقت غير مساعد على مشترى الذبيحة من اناس آخرين
وكان لغيره اغنام على مقربة منه كان له ان يأخذ منها رأساً او اكثر
بقدر ما يكفي لقري [٢] ضيفه شرط الا يستعمل الجبر والشدّة مع
ازاعي لانه عندما يكون اراعي ممن بدركون هذه الواجبات يقدم
ما يلزم من الذبائح عن طيبة خاطر للعادي الذي عليه ان يعيد الى
صاحب الاغنام مثلاً عند اول فرصة تسبح . واذا لم تتوفر هذه الشروط
اي اذا اخذ العادي من غنم الغير دون ان يكن عنده ضيوف يستحقون

(١) جل كبير وسبعين او سبعة رؤوس غنم (٢) لوليمة ضيفه .

الذبيحة او كان عنده هكذا ضيوف الا ان اغنامه كانت قريبة منه
ويمكنه ان يأتي منها بذبيحة وان يجهز الطعام ويقدمه الى الضيف باوانه
او كان هناك اغنام لآخرين هي اقرب اليه من الاغنام التي اخذ منها
حاجته كان لصاحب هذه الاغنام ان يطلبه للمحاكمة وللقاضي ان يحكم
عليه بتضمينات قد تبلغ اربعة اضعاف ما اخذ .

٩ - التعدي على شخص وهو في محل آخر - اذا تجاوز احد
الناس على آخر وهو في بيت شخص ثالث ولو كان وجوده فيه من
قبيل الصدق وليس من قبيل الدخالة فضربه او جرحه او اهانته او
سلب منه شيئاً كان لصاحب البيت ان يطلب محاكمة المعتدي وللقاضي
ان يحكم عليه بتضمينات تتناسب مع كرامة صاحب المحل مع اجباره
على ارضاء المعتدي عليه ارضاء يعلن معه شكره لصاحب المحل برفع
راية بيضاء بين الجمهور .

١٠ - قتل الحيوان - . اذا قتل شخص حيوان آخر عمداً وبدون
ضرورة ملجئة لا يمكن دفعها الا بقتل ذلك الحيوان فيضمن قتاله
اربعة امثال قيمته . واذا كان المقتول كلباً يحرس الفم او البيت فيكون
الضمان اكبر من ضمان قيمة احدى الحيوانات الباقية ويعود تقدير ذلك
لحكمة القاضي ، وقد سبق ان حكم احد القضاة بتضمينات عن كلب
مقتول بشكل غريب جداً وهو ان يربط الكلب من ذنبه ويدلى من
نافذة حتى يصل الارض ويكلف قتاله بان يأتي بمخنطة ويهياها عليه من
تلك النافذة حتى يغيب الكلب بتهامه عن الانتظار . وهذه الحبوب
تعطى لصاحبه ضماناً عنه ولذا كان هذا العقاب الشديد خيراً رادع
للكف عن التعدي على الكلاب .

قطع الجيرة :

من الجنايات التي فانا إلحاقها بالصحيفة ٣٢٨ (قطع الجيرة)
والجيرة لغة الحماية يقال! اجار فلان فلاناً اي حماه وجعله في جواره
وقطع الجيرة في العرف البدوي هو التجاوز على الجوار والاخلال بحقوق
الحماية التي ضمها احد الزعماء او الكدلاء لآخر احتمى به ، مثاله :
اذا وقع اختلاف بين فريقين من الناس على مال منقول او غير منقول
يحتمل معه المحذور ، ففي مثل هذه الحالة يحق لاحد الفريقين المتنازعين
او لشخص اخر ان يضع المال او الشيء الذي هو موضوع اختلاف
تحت حماية احد الزعماء او المتنفذين فيعلن قائلاً : (اني اجير هذا المال
بالشيخ الفلاني) وهذا يعني انه يضعه تحت حماية هذا الشيخ وفي جواره
الى ان يفصل في الامر قضائياً . ويترتب على الفريقين المتنازعين بمجرد
اطلاعهما على اعلان الجيرة ان يرفعا ايديهما عن الشيء المنازع عليه وان
يكفيا عن معارضته ويعملا على المناهضة في الحجبة والمقاضاة او المراضاة
حل الخلاف بينهما بموضوع المال او الشيء المجار . فاعلان الجيرة هو
قرب الشبه بحجز احتياطي لصيانة المنازع عليه الى نتيجة المحاكمة ،
ويمكننا ان نعتبره ايضاً عملاً ادارياً يراد منه الحيلولة دون وقوع ما
يمكن وقوعه من المحاذير ما لو ظل المنازع عليه عملاً للتشادد بين
الفريقين المتنازعين يتعاورده كل منهما بما تطوله يده من الاسباب والوسائل .
ان هذا النوع من الحجز يكون نافذ المفعول حتى ولو كان المجير
(وهو الشخص الذي وضع الشيء المختلف عليه تحت حمايته) قائماً ،
فاذا تجاوز احد الطرفين على الشيء المحجوز ووضع يده عليه او تصرف
به باي وجه كان عد ذلك منه اساءة للمجبر يعبرون عنها بقولهم :
(ان فلاناً قطع جيرة فلان) ويصبح الطرف المتجاوز على الشيء المجار
مجرماً بحق المجير جريمة جنائية يحق معها للمجبر ان يستدعي المتجاوز

على ما هو في جواره للمقاضاة وإن يعمد الى اسلوب البداة او الوساقة
 اللتين سبق تعريفها لاحضار خصمه لدى قاضٍ من قضاة المناهي ينتخب
 حسب الاصول التي جئنا على ذكرها ، فيحكم القاضي على المعتدي
 اي الذي تجاوز على جوار المعتدى عليه بغرامة وتضمنات باهظة تناسب
 مع مركز الشيخ الذي انتهكت حمايته ، ويحكم فوق ذلك بانزام
 المعتدي بارتضاء المعتدى عليه الى حد ان يعلن بين الناس بياضه ، وذلك
 بان يرفع راية بيضا ينادي فيها بالشكر والامتنان لذلك الشيخ الذي
 اوصله حقه . وليس بخلاف ما يكلفه مثل هذا التجاوز على الشيء
 المحمي من غرامة وتضمنات قد تعادل دية قتيل احيانا . كما ان
 استرضاء الطرف الآخر حتى يعلن البياض ربما يكلف ذلك الطرف
 التنازل عن حقوقه على الاقل ، ولذلك كانت الجيرة قاعدة محترمة
 ولها فوائد جمة للإدارة والمحافظة على الامن .

الخوة (الجزيرة ، من الرضاء) .

هو حق يتناوله الاقوى من الاضعف لقاء تحمله كلفة حمايته ،
 وهذا الحق تجيبه العشائر الكبيرة من الفرق الصغيرة او من سكان
 القرى والحواضر او من القوافل والقطعان والمالكية . ففي (الحالة
 الاولى) تدفع الخوة في الغالب من الابل او الغنم او نتاج الارض ،
 ودفعها يكون لشيخ العشيرة الكبيرة لقاء تعهد صيانة اموال الفرق
 الصغيرة واعراضها وارواح افرادها وحمايتهم من بقية العشائر . واذا حدث
 تعدي من هؤلاء يذهب ذلك الشيخ بنفسه او يرسل من يقرب عنه
 لمراجعة المتعدي واسترداد المنهوب منه . ويعرف من يقوم برد الاعتداء
 واسترداد المنهوب (بالحسيب) ، اما المفدى (فبالكسب) ،
 ويعرف المقدار الذي يتسلمه الشيخ من الفرق او العشيرة المحتمة (بالخوة)

وهذه في الغالب سنوية ويدفع بانتظام . وفي حالة رفض الدفع يأخذها المطالب بالتهديد والقسر . وحينما تؤدي الخوة يبقى الخوي (الاخر) مكلفاً بحماية المحمي ، ويكفل كل الاهانات والغزوات والسرقات التي قد تصيبه ويتدخل للدفاع عنه كأنه حقيقي . وفي [الحالة الثانية] تدفع الخوة بعضها من الغلات وبعضها نقداً . وهذا النوع من الخوة على القرى ليس له في الغالب مدى سوى للدفاع عنها ضد التهب والسلب اللذين قد تأتيهما العشيرة القابضة لهذا الحق دون ان تتضمن اي حماية اخرى ، وهذا ما كانت تدفعه قرى المناظر كتمدر والسخنة والقريتين وغيرها مما هو في وسط البادية الى ان ازالته قوى الحكومة فانسح المجال لعمران هذه القرى واستقلال اراضيها .

ومن دواعي الاسف ان بعض القرى المتطرفة في شرقي بلاد الشام لا تزال تؤدي هذه الخوة لملاحظة ضعف الدرك وتراخيه احياناً او حدوث انقلابات فجائية يتضامل فيها نفوذ الحكومة . ومبلغ هذا واحد عن كل مئة رأس ، وفي [الحالة الثالثة] تؤخذ الخوة من القوافل وتدعى [خفارة] كما قدمنا . وهذه زالت الآن بفضل انتشار السيارات واستتباب الاسن في البوادي . وكان مقدارها في عهد المجيديات مجيديان عن كل بعير . وهذا ما كان يتقاصه ابن هذال شيخ العمارات عن كل بعير ذاهب الى العراق لا كتيال التمر ، وما كان يتقاضاه الامير نوري الشعلان شيخ الارولة عن الابعار القادمة الى الشام من العراق . وقطعان الغنم تدفع ايضاً خوة يختلف مبلغها حسب المساومة ، لكنها ما كانت تتجاوز البرغوث الكبير عن الرأس . وكان فيما مضى السباح الافرنج المجتازون مناطق بعض العشائر يدفعون الخوة ، ومقدارها كان ليرة ذهبية عن كل شخص ، وكان كبار التجار في عهد القوافل التي تجتاز الصحراء يدفعون لكل العشائر خوة سنوية تختلف بمقاديرها حسب مكانة العشيرة وحسب القوافل العائدة لذلك

التاجر ، ومنهم الحجاج محمد البسام المتوفي في سنة ١٣٥٣ ، فقد كان يدفع الخوة لجل عشائر الجزيرة العربية .
هذا والعشائر الصغيرة او الضعيفة تحتمي باكبر منها وتتبعه تبعية حماية (قوي يحمي ضعيفاً) لاتبعية قرابة او عصبية . الا ان هذه الحماية تخلق واجبات اقربها العرف يمكن تحديدها بان الغنم بالغرم . فالتابع يدفع للمتبوع (الخوة) ويسام في الدفاع عن منطقة النفوذ فيما اذا هددت هذه باجتياع . وقد اصبحت هذه الصلة (الخوة) في عصرنا بغيضة الى كل مخوى لانها تعبر عن ضعفه وذله وهي سائرة الى الزوال ، لانها تتعطل مع قوة الدولة وهيبتها طرداً وعكساً . والعشائر الصغيرة تكره ان تكون خاضعة لسلطتين في آن واحد ، سلطة الحكومة وسلطة المشيخة ، لذلك فهي تتبع القوي منها .

النجدة .

من اكبر العار عند البدو ان يفر الرجل من القتال او يجبن عن نجدة رفيقه او يسرق مملوكة جاره او يغش على قذى امرأته او بنته ، فمن فعل هذه الجرائم او واحدة منها احتقر ورذل ورفضت البنات زواجه ، قالوا واذا دخل مجلساً ووزعت القهوة على الجلوس مد الساقى يده بالفنجان موهماً انه يقدم له القهوة حتى اذا مد يده لتناول الفنجان كبه الساقى في الارض استخفافاً به واحتقاراً لشأنه فيمنصرف الرجل من المجلس من غير ان ينس ببنة شفة فاما ان يذهب ويغسل طاره بالدم ، واما ان يقوض بيته ويرحل الى بلاد لا يعرف احد فيها ينجابته ، والادلة على ذلك كثيرة .

* * *

المعارف عند البدو

ليس عند عامة البدو ولا خاصتهم شيء من (المعارف) يا للأسف ، فالقراءة والكتابة مجهولتان في البادية الا ، نادر عند بعض أبناء الشيوخ . لكن البدو اذ كياه يدركون اموراً كثيرة بالسليقة ، واذا القيت عليهم مشكلة تعلموها وفهموها حالاً . وبعض الشيوخ النباه الذين عرفوا فضل العلم على الجهل يستقدم من المدن معلمين لتعليم اولاده تعليمياً وان لم يزد عن قراءة القرآن وكتابة رساله بسيطة ، لكنه نافع على كل حال ومن ختم من اولادهم القرآن الكريم فرح اهله وأدبوا له مآدبة واحتفلوا به كاحتفال الزفاف .

وقد شرعت الحكومات العربية في العراق والشام ففتحت مدارس اولية سيارة لدى بعض العشائر الكبيرة ينتقل المعلم معها في تجوالها ويعلم صفارها . لكن عدد هذه المدارس لا يزال اقل من الحاجة ، وكفاءة بعض معلمها لعيشة البادية ومخالطة اهله لا تزال سبب التردد والتلكؤ وشكوى (ادارات المعارف) من عسرة اتحاد المعلمين المستعدين لتعليم العشائر والاقاede بينهم ، ومن الموانع الواقفة في هذا المشروع تفرق بيوت العشيرة وراء المراعي وعسرة اجتماع عدد كاف من الاولاد لدى المعلم ، واذا اجتمعوا لا يدارمون بانتظام ، وكثيراً ما يزيدون وينقصون بين يوم وآخر ، فلا يتأني للمعلم ان يسير على وتيرة واحدة مع الكل ، وكثيراً ما يبقى بدون تلامذة ، او مختصاً بأبناء الشيخ فقط ، فيقعده في الربعة كخطيب او كاتب او ضيف يوم الايام وينتظر الراتب . واذا لم يسعفه الشيخ بنفوذه ويضغط على آباء التلامذة ويحضهم على ارسال اولادهم تضيق الفائدة من وجوده .

وعلى افتراض وجود المعلمين والتلامذة ومثابرتهم على الدوام

والاجتهاد يجب ان لا يقتصر التعليم على القراءة والكتابة فقط ، بل على مبادئ العلوم الضرورية ايضاً كالحساب والديانة والتاريخ العربي والاسلامي والجغرافيا ودروس الاشياء والزراعة ... اكل ذلك على ايسر وجوهه وبالطرق العملية الجذابة التي تقبلها أذهان ابناء البادية ، وهو ما يكفيهم وليسوا في حاجة الى اكثر من ذلك .

ولاجل هذا ارى ان يكون المعلمون المكلفون بتعليم ابناء العشائر من ابناء القرى ومن بيئة معتادة على حياة البادية وعشرة اليدو ومن خريجي دور المعلمين الريفية وامثالها . وان يكون وقت التعليم في فصل الصيف ابتداء من شهر حزيران اي حينما ترجع العشائر من تجمعتها في البادية اي الى مقايظها داخل المعمورة او على مقربة من المعمورة . لانها تكون وقتئذ متكتلة الى حد يسمح باجتماع عدد كافي من ابنائها لدى المعلم ويسمح ايضاً بايجاد المعلمين الذين قد يفضلون خدمة الصيف قرب ديارهم على خدمة الشتاء في اقاصي البادية . ومدة تقيظ العشائر في المعمورة لا تقل عن ستة اشهر ، وهي كافية لتعليم اولادهم لو كان العمل متقناً من الجهتين والدوام مؤمناً .

وحبذا لو سلكت الحكومات العربية سبيل السلطان عبد الحميد العثماني فقد رأى بثاقب حنكته ان من جملة السبل لتحضير العشائر واصلاح حالها هو (العلم) ففتح في الاستانة مدرسة خاصة اسمها : « مدرسة العشائر » جمع فيها نخبة من ابناء شيوخهم ورؤسائهم فعلمهم وثقفهم حتى اذا اكملوها كان يدخل بعضهم في الكلية الحربية فيخرجون منها ضباطاً برتبة رئيس ويمنحهم لقب « مرافق فخري » لجلالته ، وبذلك كان يحجب اليهم التمدن والتنوير وخدمة الدولة من جهة وخدمة انفسهم وعشيرتهم من جهة اخرى ، وكان يدخل بعضهم في « الكلية الملكية » فيخرجون موظفين اداريين وقوام مقام . وقد تثقف في تلك المدرسة العشائرية رجال كثيرون سمعنا بخبر بعضهم وادر كمالا آخرين فمنهم

تركي النجريس ورمضان الشلاش والمرحوم عبد المحسن الهزل ، وهؤلاء الثلاثة من رؤساء عشيرة العقيدات القرآتية ، وعيسى الفحل من السبخة الابي شعبان ، والمرحوم برجس بن هديب شيخ الاسبعة الابعدة ونواف الصالح شيخ الحديابين وفاز الغسين شيخ سلوط اللجا الشماليين ، وقد صار هذا بعد قاضياً ومحامياً . ومن جبل الدروز علي الاطرش ومحمد عز الدين الحلبي وغيرهم ممن ترأسوا عشائرهم بعدما كبروا ونفعوها كل النفع بدراباتهم وثقاتهم .

— ومن هذا الرعيل المثقف نعد المرحوم طراد الملحم شيخ عشيرة الاحسنة ، فهو وان لم ينشأ من مدرسة العشائر ، لكن اياه الشيخ فندي الملحم كان علمه في احدى مدارس حصص الاهلية ، فشجذب ذلك ذكاه الفطري وصار طراد من بعد خطيباً لسناً ومحامياً منطبقاً في مجلس النواب السوري كما طرحت قضايا العشائر ومطالبها لبساط البحث . وعندنا ان احسن عمل تقوم به « الجمهورية السورية » فوق المدارس الاولية التي تقدم ذكرها هو فتح مدرسة في تدمر ، بحكم ان تدمر عاصمة الصحراء وقطب دائرة منتجعات العشائر وممر اكثرها في رحلي الشتاء والصيف ، على ان تكون هذه المدرسة الخاصة داخلية مجانية مستوفية الشروط يتعلم فيها ابناء شيوخ العشائر وكبراءهم تنشيطاً لهم وجذباً لقلوبهم . لان هؤلاء الابناء الذين سيخلفون يوماً ما آباءهم اذا تعلموا وتنفقوا او نالوا على الاقل (الشهادة الابتدائية) يرجي ان يكونوا قدوة حسنة لغيرهم ودعاة التحضير والاستقرار والتهديب لعشيرتهم .

واحسن عمل يقوم به شيوخ العشائر ورؤساءها الميسورون ان يبعثوا بابنائهم الى العواصم والخواضر ويضعونهم في المدارس الداخلية الراقية ويعنوا بتعليمهم وثقيفهم كما فعل بعضهم من الذين عرفناهم كالمرحوم الشيخ عجيل الياور شيخ شمر العراف الذي علم ابنه وخليفته صفوق في جامعة بيروت الاميركينة ، و خليل بك ابراهيم باشا رئيس عشيرة

الملية الذي علم ابنه محمد علي في مدارس حلب وانا به عنه في رئاسة
العشيرة والحاج مصطفى شوبطية شيخ عشيرة الابوليل الذي علم ابنه
وخليفته نوري في تجهيز حلب .

وليت يكبر عدد المقتدين بهؤلاء والمدرسين بان عصرنا الحالي
هو عصر المعرفة والثقافة وان من لا الملم له بمبادي العلوم على الاقل
- ناهيك باللغات والقوانين - ومن ليس له لسان يحسن الافصاح وجنان
يحيد الدفاع عن مطالب عشيرته وحقوقها تجاه الحكومات والسلطات
وقضاة الحاجات . . لا تسمع كلمته ولا تحفظ حرمة كل ينبغي مما
كرمت نبعته وكبرت شيعته وكبرت ثروته ورحم الله من قال :
العلم يرفع بيوتاً لاعمالها والجهل يخفض بيوت العز والكرم

* * *

الدين عند البدو

قال الاستاذ عز الدين التنبوخي في هذا الصدد : الانسان ابن البيئة والمربي ، والبدوي شؤنته وعنجيته في اخلاقه شراسة وقسوة فهو لا يشعر بما يشعر به القروي المتحضر من عواطف الرحمة والحنان او ما تجعل به من محاسن الحضارة كاللين والطف ورقة الطبع وخفة الظل الا قليلاً . وبما حفظته كتب الآداب لنا ان رجالاتنا من وفد تيم نادوا النبي (ص) وراء الحجرات فقال الله تعالى « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون » فالبدو لشؤنتهم وتوحش بوادهم جفنة الطباع قساة القلوب واشد الناس حاجة الى ما يشذب من اخلاقهم ويثقف من اميالهم وينبسط ماء الحنان والشفقة من قلوبهم . والبدو لفقد الوازع بين ظهرانهم وفقد انتشار العلم بين قبائلهم بحاجة كبيرة الى الدين البسيط الخالي من الخرافات وهم اشد الناس خضوعاً للدين اذا عرفوه وله في نفوسهم تأثير شديد جداً .

في القرون الاخيرة عم الهمل بالدين جزيرة العرب اللهم الا بعض جهاتها كعمان واليمن ، ولم يستفد العرب من سبائهم ولا انقشعت عنهم ظلمات الجهالة الا بعد قيام محمد بن عبد الوهاب وآل السعود بثورتهم الدينية والسياسية القومية . فترى اليوم ان عربان نجد والقصيم اقل من عربان بادية الشام وسواد العراق شروراً وجهلاً بامور الدين — فربان شمر مثلاً يصلون واما الارولة فلا يعرفون اقامة الصلاة ومثلهم بنو صخر والسرхан واكثر عربان بادية الشام .

وقال الحمران بولس سلمان يصف بدو شرقي الاردن : البدوي له دين ويعتقد بوحدانية الله عز وجل ويسلم برسالة نبي الاسلام فيقول دائماً في كل خطوة من خطواته (الله ومحمد رسول الله) . وأما باقي

الفرائض الدينية كالصلاة والزكاة والحج والصيام فلا يقر لها وزناً ولا اعتباراً . قال : وهم يأمنون الى المعتقدات الطبيعية ويكرمون الاحجار المقدسة والاشجار المورقة والمياه الرفيعة التي يعزون اليها شفا' الامراض ويقدمون اليها ذبائح شكر .. وقال : وكثير من أهل البادية لا يعتبرون ما هو مسطر من السلوات بل يعرفون غيرها فيوردونها قائلين : يا رب فرشت عباي اقبل صلاتي :

وقال الاستاذ عباس الغزاوي : العقيدة عند البدو قليلة السكفة بسيطة واساسها قبول ما كان قريباً من أذهانهم واحق بالخذ .. ومن حين دخلهم الاسلام زالت منهم عبادة الاصنام والاستخاص وحل التوحيد فلا يميلون الى الرسوم والاوضاع الزائدة . ومن المعلوم ان الاسلام اعلن عقائده بأوجز عبارة وهي ايمان وعمل صالح واستقامة . والبدوي لا يريد ان يعرف غير ذلك ولا يشغل ذهنه باكثر ، والبدو اقرب الى التوحيد الخالص وتراهم في نفرة من مراقصد الصلحا' ، وغالبهم على مذهب الساب بسبب المجاورة لنجد او هم قريبون منها . وقال : ومن حاول اصلاح هؤلاء وجب عليه ان يلقنهم العقيدة من ناحية تفكيرهم دون ان يدخل فيها ما لا تقبله افهامهم ، بان تلخص له اساسات العقيدة بلا توغل في تفرعات زائدة وان لا يعرف باصحاب المذاهب الا انهم علماء معروفون لا اكثر ... وارى ان يكسر له من تدريس القرآن الكريم وان لا يعدل عنه وان يسترشد باحكامه ... وهم في الغالب مالكية او حنابلة ويجب ان يلقنوا العبادات على مذاهبهم بما لا تصح بدونها ، وان يلاحظ تقليل التكاليف قدر الامكان والدين يسر .. وارى من الضروري تدريسهم مجمل التاريخ الاسلامي وذكر الغزوات والملاحم الاسلامية بحيث يتجلى لهم النشاط وصفاء الاخلاق والتفادي في سبيل هذا المبدأ الجليل وان لا تنسى العلاقة وان يحل هذا التاريخ محل القصص الخرافية والحكايات التي لا يؤمل منها نفع تهذيبي .

قلت ، وبعض شيوخ العشائر العقابيين المتدينين يستقدم من المدن

رجالاً من منتسبي العلوم الشرعية ويجعله في العشيرة اماماً لاقامة الصلاة وتلاوة الاوراد والاذكار وربما كلفه تعليم الاولاد القرآن والقيام بعقود النكاح . ويدعون هؤلاء في براري الشامية خطباء جمع خطيب وفي براري الجزيرة ملالي جمع ملا وهي كلمة تركية بمعنى فقيه . ويكون هؤلاء قدر واحترام في العشيرة وبذتهم منصوب قرب بيت الشيخ . واذ كانوا من ذوي الورع والعرفان نفعوا نفعاً جليلاً في بث روح التقى والصلاح بين البدو وحذبوا لو يكثّر عدد هؤلاء الخطباء والملاي في كل عشيرة وفي معية كل شيخ ، على شريطة ان يكونوا من ذوي المبادئ والمعلومات الدينية الصحيحة المؤدية لاشراب البدو اسس الدين وحب البر والتقوى واجتناب الانثم والعدوان وعلى ان لا يكونوا من المتزمتين او الحشويين لئلا يفسدوا ويضروا بدل النفع .

وليت (دوائر الافتاء) و (الجمعيات الدينية الاسلامية) في عواصمنا وحواضرنا تنبه لهذا الامر وتنبه خطباء ووعاظاً من خريجي المدارس الشرعية تدربهم وتضع لهم تعليمات وبرامج وتنشرهم بين العشائر ليعظوا ويرشدوا وينشروا روح الفضيلة والعبادات الاسلامية الصحيحة .

ومن المؤلم ان يكون في اوربا وامريكا (جمعيات دينية) تجد شيئاً وشباناً من الرهبان والراهبات تقذف بهم الى اي مكان في الاقطار البعيدة عن الامان والعمران في مجاهل افريقية وصحاري آسية حتى بين البرابرة والمتوحشين ، فيذهب هؤلاء ويعيشوا في ظاية من الضنك والحرقمان وخطر الامراض والثورات ورا الدعاية لدينهم ومنههم ، بينما لا يكون عند المسلمين دوائر شرعية رسمية ولا جمعيات او طرق دينية تقوم بهذا العمل الضروري لزوال عند امر الآية القائلة (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) ولا فتيان من منتسبي العلوم الشرعية او العصرية يضحون بنعيم المدن ويقبلون على ارشاد ابناء قومهم ودينهم من العشائر . وقد تكون العشيرة التي يرافقونها غير مقصرة في تسهيل مقامهم وتوفير غذائهم . فهل من مجيب ؟

الشعر عند البدو

ان هذا البحث يضطرنا الى ان نأتي باديء ذي بدء ببضع كلمات عن الشعر البدوي الجاهلي ثم عن الشعر البدوي المصري وتساوينا بينها ما وسعنا الجهد والاحاطة - وان لم نكن من فرسان هذا الميدان - فنقول :

الشعر عند بدو الجاهلية :

للبدو في كل زمان ومكان عواطف كالتي لكل الناس . والعواطف كما هو معلوم هي منبعث (الشعر) ومصدر العلم والنظم ، تتكون حسب البيئة التي ينشأ فيها الانسان وتتشكل بشكل المعيشة التي يعتادها . والبدو في الجاهلية كان لهم شعر من ابداع الشعر خضع لاناموس النشوء والارتقاء وما زال يتدرج حتى بلغ الى ما بلغه شعرا المعلقات السبع وامثالهم من نظم منسجم ونفس طويل ووحد في القافية . ويقال ان هذا الشعر بدأ في وزنه بالرجز مناغمة لسير الابل ووقع اقدامها او نحو ذلك ثم تدرج بعد في اوزانه من البسيط الى المربك ، وهكذا . وكان في الجاهلية لكل عشيرة شاعرها او شعراؤها من اكثرهم شعوراً واحدهم طائفة واقدرهم على تصوير عواطفهم القومية وواحييهم الشخصية ، وكانوا كذلك من اعلم قومهم بما تتطلبه هذه المعيشة من معرفة بالانساب والاخبار وفضائل العشيرة ومثالبها ونحو ذلك . وفي كل ما يحول بنفسيهم وما يحدث لهم ولعشيرتهم قالوا شعرهم مشتقاً من بيئتهم التي نشأوا فيها وتنوع شعرهم بتنوع العواطف التي تحبوا بها .

وشعراء البدو في الجاهلية ما كانت تقع اعينهم الا على البراري
والقفار الشاسعة والوحوش والغزلان السارحة وظواهر الجو العابسة
وعوارض الارض اليابسة ، ناهيك الطعن والضرب والخييل والنوق
والنساء . فاذا سار احدهم وحده وراح يطوي اليبس الخالية خاطب
مهرته او نافته وناجها بشعر موزون على وقع اقداسها فتجاوبه بهممتها
وانتها كانها واعية والهة وتنشط وتغذ السير .

واذ كانت باديتهم محدودة المناظر مطردة المشاهد قد كفوا مشاغل
المدنية فاكثروا من وصف مطاياهم ، وهي (الابل) اذ هي صديقهم
في رحيلهم ومادتهم في مأكلهم ومشربهم وملبسهم فاكثروا القول فيها
من كل نواحيها ، وكما وصفوا الابل وصفوا الخيل والطير والقطباء
وغيرها من حيوانهم ووصفوا الصحراء الجذباء والخضراء اي ان شعرهم
كان صورة صادقة لحياتهم ومناظرهم وعواطفهم .

وامثلة هذا الشعر البدوي القديم كثيرة لا تحصى ، تجدها في
كتب الآداب والدواوين يضيق مجال كتابنا عن اتيانها .

ثم ما اكثرت ما كانت المرأة تعبت بعواطفهم لكثرة فراغهم واتصال
حياتهم بحياة النساء يشاركنهم في الحل والترحال ، فاذا رحل احدهم
فلا بعدم في الطريق (بيت شعر) يضيفه رى فيه نساءه ويحدثهن
ويحدثه قهيج عواطفه بالحب والذكرى كل هذا ونحوه ملاء حياته
بالمرأة ، يشعر فيها اذا حل معها ويشعر فيها المساء لفراقها ويستفتح
بذكرها قصيدته ولو لم تكن موضوعها ، وربما خاطرت في ذهنه في
اخرج مواقف القتال او اذا هبت الريح من جانبها او ناحت حمامة
بجانبيه ، فكل شيء يذكره بهذا فيأتي من الشعر بقول لا تعمل فيه
ولا كلفة بلائهم امزجتهم وطباعهم ويناسب بيتهم وسذاجتهم . وقد
يكون لهم مع ذلك النكتة البارة والكلمة الجميلة مما يصيب الطرب

والاعجاب ، وكل هذا من الوحي والالهام الذين تنزلها الفطرة القوية
لا من نتاج العلم والتعلم .

قال الجاحظ في البيان والتبيين : وكل شيء للعرب فائما هو
بدية وارتجال وكأنه الهام وليست هنالك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة
فكر ولا استعانة . وانما هو ان يصرف وهمه الى الكلام والى رجز
يوم الخصاص او حين يتج على رأس بشر او يحدو ببعر او عند
المقارعة والمناقلة او عند صراع او في حراب فما هو الا ان يصرف
وهمه الى جملة المذهب والى العمود الذي اليه قصد فتاتيه المعاني ارسالا
وتثقال عليه الالفاظ اثنالا . اه .

والشاعر الجاهلي كان اكثر ما ينظم الشعر لحاجة في نفسه من
حماس او غرام او افتخار وما اشبه ، تهيج فيه قوة التصوير فينشد
ويقنع بشعره فيحفظه بعض الاعراب عرضاً او عمداً فيسير من حي
الى حي ومن ماء الى ماء حتى اذا ما اشتهر اسمه انت وفود العشائر
تهني عشيرته وتطرب معها وتترج . وكان الشاعر الجاهلي دليل قومه
والمدافع عنهم يفتخر بنفسه وقومه احياناً فيقول :

انا نعم فلا تربت حايذا ونكف شخ نفوسنا في المطمع
ونقى - بأمن مالنا - اجسامنا ونجر في الهيجا الرماح وندعي
ونخوض غمرة كل يوم كريهة تردي النفوس وغنمها للاشجع
ونقيم في دار الحفاظ بيوتنا زمناً ويظعن غيرنا للامرع
وقد يحمل الشاعر من المعايير محاسن كما فعل الحطيئة ببني أنف
الناقة حينما قال :

قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنب
ولم يفت ساسة العرب الانتفاع من هذا المورد العجيب . فكانوا
يدفعون به بين العشائر لتهمة افكار الجمهور لانقلاب مفاجيء او لاعداد
صلح او لاشهار حرب او لنشر مائة . فكان الشاعر كثير النفوذ

شديد التأثير حتى شبهه بعض الباحثين المتأخرين بقوله « هو صحتاني
تلك الأيام » ولكن صحتاني تلك الأيام لم يكن ليتزلزل فيخدم رأياً
لا يراه ويبدأ لا يسلم به ، ولم يكن لينال إلا بالاعاطفة والرغبة .

الشعر عند بدو زماننا :

أما بدو زماننا فهم يشبهون أسلافهم الجاهليين بقرض الشعر وحفظه
وسمائه . ولهم في صفاء جوههم وخلو بالهم أكبر عون على ذلك . ولا
يزال يظهر بينهم شعراء يقولون (القصيد) الذي هو من صنف الشعر
الغنائي ويتفننون به ، فيتغزلون ويفخرون ويتحمسون ويشبهون ويمدحون
ويهجون ويرنون . وهم يستخدمون التشبيه والمناظر كما كان يراها
أسلافهم في البادية ، ويستعملون المعاني والاستعارات التي كان الجاهليون
يأتون بها في عصرهم ، لكنهم لا ينطقون بمثلم ولا يبلغون شأوهم
يا للأسف في امتلاك فاجرة اللغة النحوي واجادة السور وسمو المعاني
وبلاغة اللفاظ والمباني .

فالشعر عند بدو زماننا ليس فيه على الجملة مزايا ما سلف ولا
وضاحة ما مضى وانصرف ، لانه يقال بلهجة مشوهة بالحوشي والغريب
من الكلام طافية بالاجن محرومة من الاعراب بعيدة بعداً كبيراً عن
الصورة الناصعة ورقة اللفظ وحلاوة الجرس التي للشعر البدوي القديم
كما تشهد على ذلك المنتخبات التي سردناها في خاتمة هذا البحث .
واكثر شعراء الماضي كانوا من غلبة القوم والبادزين ، فهم كانوا لا
يقولون الشعر للتكسب بل لحاجة في انفسهم او لدافع فطري او لمنظر
حماسي او غرامي ، بينما اكثر شعراء البدو في زماننا اناس مرتزقة
فقراء في الغالب يتجولون بين الاحياء ويتكسبون من شعرهم . وجل
هؤلاء من عشيرة الصليب ، وهم مقبولون اكثر لغاية البداوة الصريحة

على أخيلتهم وألسنتهم فتجدهم عند البدو الاقحاح من شمر وعسرة .
وبعضهم من طائفة النور ، وتجد هؤلاء عند البدو المتحضرين (اعراب
الديرة) . ولكل عشيرة الآن شاعر خاص يتبعها في حايها وترحالها
يمدح الشيوخ والرؤساء ويثني على كرمهم وجودهم ويصف الغزوات
وافعال الابطال الكماة ويشهر قدرهم ويعلي ذكركم .

على ان الاستاذ الشاعر خير الدين الزركلي الذي خبر شعر البادية
في الحجاز يعذر بدو زماننا في مارجونا ان لا يكون . فقد قال في
كتابه (ما رأيت وما سمعت) تحت عنوان (ادب البداة) ما يلي :
ليس من الخطأ في شيء ان يقول قائل ان عرب الجاهلية وصدر
الاسلام وما بعد هذين العصرين المذين اينعت فيها ثمار الادب والشعر
وانت قرائح ابنائهما بالمعجب والمطرب لم يبرحوا يراهم من يرى عرب
هذا الجيل في الكثير من عاداتهم واخلاقم وآدابهم الا ما فقدوه وهو
الخسارة الكبرى اعني (الاعراب) في لغتهم والاحتفاظ بفسيح البيان
في منشورهم ومنظومهم ، فهذا لا مجال للمقابلة بينه وبين العمدين .
اما الشعر من حيث هو شعور في النفس يترجم عنه اللسان فانه لم يزل
مما تحافظ عليه البادية وتنفرد بالابداع فيه عن الحواضر دع ما بين
سكان المدن وسكان الخيام من الفرق في قدرة الاول على الاختراع وقوة
الثاني في الرصف والصنعة . يقف الشاعر البدوي اليوم فيسامر الآوار
ويصف السحاب وينعت الجبال او يحن الى حبيب او يبكي لفراقه او
يرثي كريماً او يمدح عظيماً فترى فيه روح ذلك الشاعر البدوي الذي
كان يقصد عكاظاً قبل اربعة عشر قرناً حاملاً في صدره ما قال من
وصف او حنين او رثاء او مديح .

وبالجملة فان الشاعرية الفطرية ما انفكت تصحب الكثيرين من البداة
حتى اليوم . ولا ارى ما قد يراه سواي من انتقاص هؤلاء او بنقص
ادبهم للشيوخ العالمية فيهم او لاعتمادهم عليها في شعرهم بما كان الشاعر

الجاهلي لينطق بغير اللغة الشائعة المتداولة في أيامه ، وما كان - ولن يكون - من الانصاف ان نطالب ابن هذه الصحراء القاحلة بالتعبير عما يجيش في صدره بلغة غير لغته التي تلقاها عن امه وابيه وعشيرته واهله . فالبدوي الجاهلي قبل الاسلام والبدوي المعاصر من ابناء هذا العهد سواء من حيث الافصاح والابانة عن كوامن النفس بلغته المعروفة المألوفة فما كان ذلك بالمتكلف اعراباً غير اعرابه ، فتكلم هذا وما كان ذلك بمتلقى عروض اخليل او نحو سيبويه فغيب على هذا اجتنبهما .

على ان من يكثر من سماع شعر البادية في عصرنا الحاضر وينعم النظر فيه لا يعدم العنور على كثير من مبتكر المعاني والتشابه مما لو اعرّب ونسج على منوال ما الفناه من الاوزان لرأينا فيه حسنات غير يسيرة . ولئن عد من اعظم خصائص الشعر في الجاهلية تأثيره في النفوس ولعبه بالعقول وتخليده الوقائع ، جرى شعر البادية في عصرنا مع شعر الجاهليين في ميدان واحد وصحت المقابلة بينهما من هذه الوجهة لا غير . ذلك لان شعر البدوي اليوم يؤثر في عقول البداة كما كان يؤثر الشعر الجاهلي في الجاهليين ، وقد يخلد الحوادث العظيمة فيهم كما كان يخلدها شعر ابن تلك العصور الخالية ، ولو اقبل اهل الحواضر من المعاصرين والمتقدمين قليلاً على تدوين شعر البداة لحفظ لهم تاريخ هؤلاء كما حفظ تاريخ اولئك ولما ذهب ضياعاً ما لجاورينا في صحرائهم من خبر او اثر او معنى مبتكر .

بل لو ولم العربي في هذا الزمن باخبار بداة العرب في الازمنة المتأخرة بعض ما كان له من الولوع باخبارهم قبل العصر الاسلامي وبمده بقليل لاضطر الى رواية شعر هؤلاء كما يروي شعر اولئك ولا يضيف الى الادب العربي اسلوب جديد اختارته هذه البداة كما اختارت ذلك تلك ، ومعاذ الله ان اقول باحلال هذا منزلة ذلك او بالرضى عن قبول هذا الادب المشوه بالعجمة والاهن ، يتغافل بين حنايا الادب الصحيح

ادب العرب الخالد ، فان في ذلك لحناية على لغة القرآن وسهماً في كبد البيان .

وان المختلط اليوم بالبداة ليعجب مما لبساعة شعرهم فيهم من الزواج وراحم في تعلقهم بها واقبالهم عليها يفوقون الحضر في عنايتهم بشعرهم الصحيح وادبهم القويم . ينظم الشاعر المبدع من اهل مصر او الشام او العراق القصيدة وينشرها في احدى الصحف مشكولة كلماتها مفسرة الفاظها موضحة معانيها ثم ينظر اليها عن بعد بترقب ما يكون لها من الاثر في نفوس القوم فاذا قارئوها ثلاثون في المئة من قراء الصحيفة وقاموها عشرة في المئة منهم ولا يحفظها واحد في الالف . ويبتجل الشاعر البدوي القصيدة ارتجالاً لا يتعمل فيها ولا يتكاف ولا يرجع الى قاموس - فيتناقلها الحفاظ من بعيد القبائل يتناشدونها ويتغنون بها . ولا اظلي اذا قلت انها تعيش في ادمغة هؤلاء قبل ان تكتب اكثر مما تعيش تلك في ادمغة اولئك وقد نشرت وكتبت ، اه

وقال الاستاذ طه حسين في رسالته «الحياة الادبية في جزيرة العرب» طبع دمشق سنة ١٣٥٤ : ان في جزيرة العرب اديبين مختلفين احدهما شعبي يتخذ لغة الشعب اداة للتعبير لافي جزيرة العرب وحدها بل في البوادي العربية كلها في الشام ومصر وافريقيا الشمالية . وهذا الادب - وان فسدت لغته - حي قوي له قيمته الممتازة من حيث انه مرآة صافية لحياة الاعراب في باديتهم ، وهو في موضوعاته ومعانيه وابهاليه يشبه كل الشبه للادب العربي القديم الذي كان ينشأ في العصر الجاهلي وفي القرون الاولى للتاريخ الاسلامي . ذلك لان حياة العرب في البادية لم تتغير بحال من الاحوال . فحياة القبيلة الاجتماعية والسياسية والمادية الآن كما كانت منذ ثلاثة عشر قرناً . فطبعي اذن ان يكون الشعر المصور لهذه الحياة كالشعر الذي يصور الحياة القديمة وان يكون

موضوعه ما يقع بين القبائل من حروب ومخاضات تدعو الى الفخر والدمع والمجاء والزناء وما يثور في نفس الافراد من انواع الآلام واللذات التي تدعو الى الغناء والشكوى حيناً والحب حيناً آخر والعتاب مرة ثالثة . والقصيدة العربية الشعبية الآن كالقصيدة العربية القديمة تبدأ بالغزل القليل البسيط المؤثر ثم تنتقل الى وصف الابل والصحراء فتطيل في ذلك ثم تطل الى غرضها من مدح او فخر او غيرها من افنون الشعر . ومثل ذلك يقال في الخطابة ، فالبديوي الآن فصيح كالبدوي القديم حلو الحديث محب للسمر والقصص اذا اطمأن واستراح ، خطيب بليغ اذا كان بينه وبين غيره خصومة او جدال . وهذا الادب الشعبي العربي يرويه في البادية جماعة من الرواة يتوارثونه عن آبائهم ويورثونه لابنائهم ويكسبون روايته حياتهم المادية ومكانتهم الممتازة احياناً . ول سوء الحظ لا يعنى العلماء في الشرق العربي بهذا الادب الشعبي غناية ما . لان لغته بعيدة عن لغة القرآن ، واداء المسلمين لم يستطيعوا بعد ان ينظروا الى الادب على انه غاية تطلب لنفسها وانما الادب عندهم وسيلة الى الدين اه . قلت : ان بين البدو اناساً كثيرين واسعدو الحفظ يستظفرون على صنجات قلوبهم ما يسمعون مراراً او مرة واحدة وهم اميون لا يعرفون من القراءة والكتابة حرفاً فيحفظون قصائد سمعوها من دهر بعيد لا يخلون بكلمة واحدة منها .

وقد قدمنا ان اكثر شعراء البدو في زماننا من المرتزقة . ومن حزايا الشاعر عند البدو فوق اتساع الخيال وكثرة الحفظ ان يكون نقاداً لاحوال العشائر عارفاً بأذواق الاعراب وطبائعهم وما يحصل في صدورهم محل الرضى والاستحسان بارعاً في وصف المواقع والحروب ومن مزايده ايضاً ان يكون ذا صوت رخيم واضح لان الشعر عند البدو مغنى ، والاصوات الرخيمة عندهم هي القوة المرتفعة ،

والاصوات الناعمة المائعة التي يحبها اهل الحواضر لا تنال عندهم استحساناً بل ربما استهجنوها وكرهوها . وهم يعدون انقام المرتين والمطربين في المدن الحاناً شاذة مملة لا يجدون بها لذة ولا تبعث في اعطافهم هزة ، وكذلك اهل الحواضر اذا سمعوا غناء البدو كما قدمنا يدركون له معنى ولا يفهمون اكثره . ذلك لان البدو كما قدمنا لا يراعون في اشعارهم قواعد العربية . فعندهم الفاظ كثيرة شذت عن منقول العربية الفصحى فانزلت في غير منزلها ، وعندهم اغلاط كثيرة صرفية ونحوية ولغوية تحتاج لمعجم او ترجمان يفسر الغامض منها ويأتي بما يقابلها من العربية المعروفة في الكتب او المؤلفه في الحضر . فهم يكسرون اواخر الافعال المضارعة للقافية ، ويضعون نون المضارعة على الافعال الماضية ، وينصبون المبتدأ في كثير من الاحوال كما ينصبون الفاعل كنصبهم للنادى المفرد والمبتدأ او يجرونها كما يجروا المفعول به ويسكنون اواخر الكلمة للوزن ويدغمون الاسماء . وشعراء البدو يستعملون الكلام الحوشي الذي قل ان يفهمه اهل الحواضر ويستسيغونه خاصة اولئك الذين لم يألفوا معايشة البدو ومطارحتهم . وعلة هذا الاستعمال ذوقهم الخشن وما اعتادوه وألفوه . وشعرهم اليوم خص كالشعر الجاهلي بالبسادة والسداجة وفقدان التكلف مع المغالاة احياناً في الوصف .

هذا ويكون الشاعر عند البدو مجيداً اذا ضرب على الرباب وانقن الضرب فتأتي الرباب تارة بصوت حزين وتحن وتشن انات الاسى عند انشاد مرثية محزنة وتارة تهب بصوت عاصف كصوت الابطال في الحروب فتترنج اعطاف الحاضرين طرباً واستحساناً ، وتارة تجري كسيل هادي في مدح الشيوخ وأهل الكرم و تارة تمثل سيد النياق والظعمون وهكذا . والشيوخ يعلقون الرباب وسط مضربهم يعدونها للشعراء في اوقات الافراح كولد او عرس

او ختان او عير . والشعراء بكرمون ويعززون بها كانوا اذلاء او فقراء ، وتخشى العشائر لسانهم وهجائهم ولو كانوا من طائفة النور او من عشيرة الصليب المعدودين من الخشارة في المجتمع البدوي والمحترفين حرفة الشعر والتكسب منه .

وكما كان للعرب في جاهليتهم اسواق كسوق عكاظ لانشاد القصائد الغراء والتفاخر بها على مسامع الجماهير المجتمعة ، كذلك لهم الآن ما يشبهها في بيوت الشيوخ ، فترد الشعراء من اطراف البادية الى بيت الشيخ ويأخذون الرباب المعلق في العمود ثم يضربون عليها وينشدون واذا انت حضرت هذه المجالس ترى السامعين قد ترنحوا نشاوى حينما يغنيهم احد المنشدين شعراً جميلاً على نفحات الرباب . فاذا كان حليماً قلقت بهم المقاعد واقنعت ، واذا كان تشيبياً تمايلت الرؤوس وتسارعت الانفاس ، واذا كان في التوجيع والشكوى سكبت الدموع وهطلت ازفرات .

ومن راق اشعاره حكموا له بالفضل وعوا القدر فتنقلها الالسن وتحفظها الصدور وتنشرها العشائر ويتغنى بها البدو دهرأ طويلاً وتبقى اثرأ جليلاً ، وبأمر الشيخ للشاعر المجيد بالجوائز السنية . والبدو اهل بصيرة نقادة يميزون بين جيد الشعر ورديئه .

وقد كننا ذكرنا في المقدمة ان المستشرق الميسر مونتاني الفرنسي احد اساتذة معهد الدراسات الشرقية في دمشق كان من المولعين بادب البدو وشعرهم حريص على التقاطه وتدريبه قبل ان تعبت به دواعي التحضير وعوادي الزمان فتضيعة وتغيره ، فذهب الى مضارب عشيرة شمر في الجزيرة وتجهل بضعة اسابيع واشهر من فريق الى فريق واستنطق المعمرين والمدرسين وتسقط منهم قصصاً وقصائد حريصة وحاسية وغرامية وغيرها مما يتداولونه ويترنم به شعراؤهم ، وقد كتبها بنصها وفصها وترجم كلماتها وجملها بالفرنسية ترجمة دقيقة وسرحها . وبعد

هذا التعب خرج بمقالة ضافية غاية في الجودة والمتعة درجها في «مجلة الدراسات الشرقية» للمعهد المذكور (ج ٥ سنة ١٩٣٥) تشبه ما عمله أبو الفرج الاصبهاني في كتابه (الاغاني)، نتمنى لو ان احداً من الناطقين بالضاد والمولعين بالادب والشعر يقرأها وينسج على منوالها ويأتي بمثلها .

هذا وانواع القصيد عند البدو متعددة ، فمنها «المرحي» الباحث عن السرح اى عن السفر الى الغزو والحرب و «الهجني» الذي يرافق سير الهجن ويحثها على السير و «الحدو» او «الخداء» وهو غناء الراعي حينما يسوق الابل والغنم ويغني لها كما هو غناء الفرسان وهم يغدون السير . والامثلة على ذلك كثيرة درجنا بعض المختارات مما عثرنا عليه ، وغرضنا من ذلك الفات النظر والا فلا حد للاستقصاء والاختيار . ومجال كتابنا لا يتسع لاكثر من ذلك .

ان شعراء البدو في زماننا اما ان يستلوا قصائدهم بذكر المولى عز وجل وصفاته الكريمة وبالاستغفار اليه والاستغاثة بلطفه كقول «ادكيس» وهي امرأة من الصليب اشتهرت بقرض الشعر والظرف :

يا الله يا طيد على كل ذيرة يا رب يا منشي مزن مصادير
يا الله عسى ما تكره النفس خيرة يا والي الدنيا حاكم التدابير
وكقول احد شعرائهم :

ابدي بذكر الي على الكل منان يا رب يا خلاق عرشاً بساها
نطلبك يا رب يا رافع الهان ترفع عبيدك من جميع الدهايا
واما ان يستهلونها ببنداء (يا راكباً او يا راجباً) فيخاطبون
راكبي النوق والخليل المغيرات الذلولة السباقة ويصفون هذه النوق او
الخليل وهي سائرة براكبها نحو مضرب الشيخ الذي وجهت اليه الرسالة
كقول شاعر من عشيرة الاحسنة بعائب (الموالي) واميرهم ويفتحون

بقومه لما ردوا الموائى في احدى غزواتهم ، وقد حملوا فيها الينادق
اول طلوعها وجروا معهم بعض الحديدية ، واعل الامير المقصود هو
احمد بك الذي قدمنا ذكره في بحث التاريخ (ص ١٠٩) ، واعل
هذه الغزوة حدثت قبل الاخيرة التي قتله الاحسن فيها . وقد سمعنا
هذه القصيدة من المرحوم الشيخ طراد الملاحم :

يا ركباً من فوق موه العلو كي	عليه من ياخذ خنيف الرسالة (١)
تلفي لنباح الغم والفرو كي	وسلم عليه وسايه كيف حاله (٢)
يا هير اليه الشاة رايد تبو كي	وفرشت وجهك لتحديدي عتاله (٣)
انتم عليكم البوك والرب فرو كي	واحننا علينا ردهم بالجالة (٤)
ركبوا عليكم مخضمين العرو كي	عياك الحسيني كل ابوهم جهالة (٥)
من يوم بطلتوا شيلكم للعرو كي	بارود كم سوى عليكم رزالة
بارود كم يخشوم ربي نشو كي	عطر البنية اللي تنثر جدالة

وكقول احد شعرائهم في وصف الناقة التي حملت قصيدته الى
المرسل اليه ، وهم يسمون هذا المظلم (مشد القصيدة) . والناقة كما
تعلم صديقتهم في الحل والترحل ومادتهم في المأكل والمشرب والملبس ،
فمن حقها ان توصف وتمدح :

يا راجب اللي سولع الذيب	رماله ولا عمر الجوير اغذى به
تجري بذرعان سوات الدوايب	وحده تقلطها ووحده جنيده
شذب عليها مظلم الليل تشذيب	يوم السرايا دويحت والجنيده
جان الشجر عنها عداله جناديب	عن السهل لجه هنائش الذنيده
العين حمر لون ضوء المناهيب	والا خلاصة نار من مبتلي به

(١) العلو كي : العلائق المربوطة بشداد البعير (٢) الفرو كي :
الجزور (٣) تبو كي او تبوق : تسرق (٤) بالجالة : بالحسني (٥)
الرو كي الرماح المحضبة بالدم

ريحة عرقها عنبر من هلو جيب او زعفران بالحدود العجيبه
لودر همت شدة ملاوي العصايب حيس ريدا وماج عنها ليميه
ابوها منزلها على الفطر الشيب وامها عفان الجيش ما ينفجنيده
سبيها بكسي متان العراقيب ويلوك للعز والمعش ذوبيه...
ومثلها قصيدة مدحمة قالها كنعان الطيار سن رؤساء عشيرة الولد
على في حق مطلق الجريا وشيوخ شمر :

يا راجباً هجيناً اليا شوملن جن السفن والا نعام الهوارب
سلم على نزل (السيفاة) تحية ملفاك (اخو جوزة) عفيف الشوارب
يشدا هداج ليا كثر وردو سوى بزاد البيت مثل الهباب
قاصين الرجل عن بيت جارهم ما يدخنوا قاصين اليا غائب
ادهان اذ كان مابلحق الضدجيلهم عيان الى لوا مقلقين الطلاب
يا ما نقضو من حجي مخفي عداوه وما دبحوا من شاشن بالخراب
قماره المظهور بوجه صدهم وان هلمن بالكون حمر الاشايب
يفطن برغام العجاج ويشن ويطامن معجلات الجنايب
محمل ركاب السبايا لوج صدهم غابحين الهوا بي مجل التراب .. الخ
تفسير هذه الايات - يارا كها هجيناً سبوقاً اذا عدا تحية سفينة
في البحر او نعامة هاربة سلم على من هم في منزل السيفاة [يعني الخرصه
ورؤسائها] الملقبين بالسيفاة تافى اخو جوزة ذا الشفاء العفيفه [اخو
جوزة نخوة مطلق الجريا] - وهو يمثل بشر هداج [بشر في تيماء
مشهور بغزارة مائه] حينما يكثر الورد حوله وتحال ان في بيته نهياً وسلباً
حينما يسوي الزاد لضيوفه - وآل الجريا يقصون ارجل كل من يحاول
الدخول لبيوت جيرانهم حتى ولو كان هؤلاء الجيران غائبين - وهم
ذوو دهاء وذكاء يمجز عدوهم عن احباط خططهم الحربية ، ويعارضون
في كل شكوى ومطالب ترفع اليهم - كم فرقوا جمل الكلام الذي
يخفي عداوة وكم ذبحوا من الابطال المغاوير - وهم قهارو الظعون

في وجه اعدائهم ولا سيما حينما تهاول لهم نساءهم اللابسات العصابات الحمر
وخيوالهم تخوض رغام العجاج وتنثني فتعسود بالجنائب المسلوقة - وهم
يرخسون اعنتهم امام اضدادهم ويطلعون بالرماح ظهور هؤلاء
الاضداد الماربيين .

مشاك التشبيب : قسيمة لشكري يصف بها ما يجري بينه
وبين محبوبته دون ان يصرح بالاسم وهي لا تعدو التصوير وتشبه
قصائد عمر بن ابي ربيعة ، وقد اقتبسناها من كتاب عشائر العراقي
لعباس العزاوي قال :

غاب الخليل وشفت بالترف ميلاح وجيت انخطى جن اهلها نسابه
كالت تكلع لازهيج النزل بصياح مالى من الي بالردى ينهكي به «١»
كنت انبطح له واديره بالمزاح لان الحبيب وكام يضحك بنسابه
ثار الحبيب وطبك الليب بسياح وكشفت عن نابي الرديف ثيابه
غظيت بالثوب الحر زين الملاح لما شعاع الصبح بين سرايه «٢»
كالت تنكل هذا الصبح باح ووداعتك عرضنا الخزابه «٣»
كلت ماني ولد عفن على السرنياب الي ليا كفي رفيجه حجابيه «٤»
واراد ان يبعد المرمى ويذبل الشبهه فقال :

علمي به يا غنيم يوم المطر طاح واليوم مدري وين ربي دوابه «٥»
مدري مع الي سندوا يم السباح والا وبالي فيشوا يم طابه «٦»
مشاك الحدو عند بعض العشائر :

يارب تخلي مهوتي تكبر واصير خيالها
واشري لها برشم ذهب تكبر واصير خيالها

• • •

يا بنت يا ليلي المصيف طلي وشوفي خيولنا

«١» ينهكي به : يؤمل به ٢ لما : لما ان ٣ احرب على نفسك : تاهب
٤ الي : الذي ، اليا : اذا ٥ دوابه : رمى به ٦ ويا : مع ، يم : عند

وانت تغاوي بشعرك وحننا تغاوي بفعالنا
مشاك آخر :

واللي تمنا حربنا غويت يا ظدي الدليل
كم واحد من ضربنا دمو على الشلفي يسيل

...

من شاعر جينا صابلين تسمع وزيرهم ارنا (١)
وان ساعف الله الكريم بليزر ناخذ ارنا (٢)

وقد بخطاب شعراء البدو قلمهم الذي يكتبون به ويأمرونه بان
يحسن تنميق الكلام وتغليظ الخطاب وايداعه لرسول امين كما قال
جابر بن الصباح من منزه في الاناضول يخاطب محبوبته :

سر يا قلم واكتب لنا ما نريده ان كنت بزين التواصيف قصاد
بمزرف القرطاس ضمه وزيده واستغفر الرحمن خلاق العباد
وله رسلته مع برق الرعيده لا تأمن عليه من الرطوبة والوقاد
ياهيبة يا برقاً تلعب [٣] وقيده بلغ سلامي من اللذات الانشاد
سلاماً مقطوع لدار بعيدة الذ من تمر العراقاً وبقداد
سلاماً من وريد [٤] لوريده على عدد ما زوملن [٥] كل غاليامطراد
مني لمظنون عيني وريده يرسل جوابه بالذي كيف مراد
الصوبجب اللي عذبي بقصيدة زين الحلايا يا منية القلب ومراد
ابو عيون تقول عين الفريضة عين الفهود اللي على القاع وراد
اللي يا صمرت تشدوين نجم السعيدة تلقاه في برج الحبل بان ما حاد ... الخ
ومن وصايا البدو التي تدل على اخلاقهم :

احفظ وصاتي يا ولد يوم بوصيك وان شاتها تصبح كثير الروح
اوصيك عن جارك وضيئك واللي بعانيك تدر عليهم در حرا مسوح

(١) شاعر اسم جبل في غربي تدمر وشرقي الباعاس ٢ الميزر بنادق
معمل ماووزر الالمانية ٣ تلعب - تشعل ٤ وريد - محب ٥ زوملن - اسرعن

أوصيك عن بنت اللاش لو كان تهنيك
أوصيك خذ بنت سبع لو كان بعاديك
أن غلقت البيضان يفتح ويعطيك
ومن أقوالهم في تكريم النسب

أنسب وليدك أنسبه

والنار من مقياسها

والعز في أوراك النساء

والجري في دمع النضار الأبل

ومن أقوالهم في وصف النجعة (التشاريق) وهو يشبه ما قلناه

في الصحيفة ٢٦٣

وتيشيرين بيمان قلبي بالفراح
يا ما حلا المشرق يوم البرق لاح
يا ما حلا المسلاف رياض شياح
يا ما حلا زهوة العشاير بالمراح
يا ما حلا ريحة عبيهن لافاح
على عريب تحططوا بالنزلي
ويوم العرب تقضت من المكيلي
ويوم الركائب عند وجه الرحيلي
ولبينهن طاريق يشفي الغاملي
وعشرة مع عشرين رحلة تشيلي

تحضير البدو

ذكرنا في الصحيفة ١٢٨ ان اقسام البدو ثلاثة رحل ونصف
حضر وحضر . وقد بسطنا هناك اوصاف كل من هؤلاء وما بينهم
من فروق .

فالتحضير هو سوق التسم الاول والثاني وحضهما على التطور
والتمدن والاقبال من الغموم والاسفار ومغادرة بيوت الشعر المتنقلة
وسكنى بيوت الطين والحجر المستقرة وامتلاك الارضين وتفجير ينابيع
والقنوات والتوفر على الحرث والزرع والعيش بكند اليمين وعرق
اليمين وما الى ذلك مما فيه خير حلال وماء زلال . ونحن وكل محب لهم
وغيور على مصالحهم نود لو ان الزمان يفعل فعله هؤلاء البدو ويكرهم
رويداً رويداً على قبول هذا التطور والانتقال . وهو امر طبيعي ،
نفذ في كل الشعوب التي كانت قبلهم على فطرتها وبدونها ودفعها شاعت
ام ابنت . والبراهين على ذلك كثيرة في تاريخ البشر عامة والعرب
خاصة . وقد بسطنا في بحث تاريخ البدو ص ٧٠ ما فيه الكفاية من ذلك
والبدو كانوا في الماضي القريب يعتمدون على (الغزو) و (السلب
والنهب) ويعدون بعد (الرعي) مرتزقهم الطبيعي ، ويتهلون الغر
من فوضى الاحكام وضعت السلطان ليستبيحوا حتى المعمور ويمعنوا
في اذى الغير . الا ان هذه الفرص لم تعد توافيهم كالاول ويجب ان
لا توافيهم ، فسيميل (الغزو) قد اقتطع او كاد بفضل دوريات الهجانة
وحراس البادية داخل الحدود العراقية والاردنية والشامية والسعودية
وسيارات الركب والتحميل ضربت الخيل والابل وسدت ابواب الرزق
منها الى حد بعيد . ومن اجل ذلك اصبح البدو في حاجة كلية الى

(التطور) اي الى ايجاد مورد عيش جديد ثابت في المعمورة او في قربها والى الانصراف نحو الحرثة والزرعة واستثمار خيرات الارض ، وهو التحضير ، الذي زومه لهم .

لكن البدو قوم حائرون باثرون لا يحبون الحرثة والزرعة ، لانها فيما يزعمونه متعبة لاجسامهم ، مقيدة لحريتهم ، مانعة لعبهم ، حائلة دون استنشاقهم الهواء الطلق وانسيابهم في البر الضميج . وهم يكرهون خاصة الاعمال اليدوية والانتاج الجسمية والملاحظة والملاحقة اللتين يقوم بهما الفلاح الريفي ، وقصارى اجدهم ان يضطجع طول نهاره يشرب قهوته وينعم بخموله وبطالته ، ما زالت امرأته ساعية كادحة لاجله ومشيتة مكثفة برعائها مطمئنة في فضاءها ، وماذا بعد ؟

فالبدو لا ينصرفون للحرثة والزرعة ولا يرضخون للتطور الطبيعي ما لم يفرض عليهم فرضاً ويضطروا الى اعتناقه قسراً . وهم لا ينجحون للسكون والاستقرار والارتباط بالارض واستثمار خيراتهما الا متى عرفوا ان (الحق سيف قاطع) ومتى وجدوا فوق رؤوسهم حكومات قوية وقوانيناً صارمة تردعهم عن اظهار نزوات انفسهم المتحفزة للوثوب . والبادية لا تفهم لغة الرفق واطالة البكال . فهي بعد ان توارى ظل الفرنسيين صارت تتمخض بالمطامع والنزوات بعضها على بعض كما جرى في سنة ١٩٤٥ بين عشيرة الاحسنة والنعيم في براري حمص وادى الى قتل عدد من الفريقين اجلهم قدراً الشيخ طراد الملحم واخوه بدر ، وكما جرى بين عشيرة ثمر والبقارة في شمالي الجزيرة وادى الى قتل عشرات الرجال والاطفال والنساء وخراب عشرات القرى .

ولا حافز لهذه الوقائع الا العوامل النفسية التي بينها آفئ ، فيعمل المحافظون في الالوية على قمع هذه الحركات بوسائلهم الضئيلة ويحلون الخلافات بتدابير موقفة واهنة . ثم لا تقيم هذه الفسارات

والخلافات حتى تتجدد متأثرة بالمؤثرات ذاتها . لأن الذين قاموا بها لم يعاقبوا عقاباً شديداً يكفي لزرعهم عن الاعتداء ثانية ، ولم تعالج الخلافات بمعالجة عملية صحيحة تزيل الاسباب وتبحث الاحقاد .

قلنا في بحث سابق (ص ١٢٨) ان مناطق النجمة لكل عشيرة هي ثابتة غير متغيرة ، واذا جاءت عشيرة اخرى وهمت بان تتبدي في منتجعاتها غيرها تعرض نفسها فوراً للمهاجمة والمطاردة . وكما اختصت كل عشيرة بمنطقة للنجمة في البادية اختصت ايضاً في المعمورة بمنطقة نفوذ واستقرار او بما يدعى (المدى الحيوي) ، وهذه المنطقة تكبر وتصغر لقاعدة (التوازن العشائري) او (توازن القوى العشائرية) وعملاً بهذه القاعدة لا تكون حياة الاستقرار الكلي او الجزئي دائمة عند البدو ، وان هي دامت فدوامها لا يكون الا لبعض الوقت ، ما لم تشرف عليها « الصرامة » و« السرعة » .

تختلف العشائر على ملكية بشر أو أراضى تعدد كل منها داخلاً ضمن مداها الحيوي فتمنع الاخرى عن ازتياده وينشب النزاع بسببه ، ثم قد يكون هناك بعض الاراضي الموات يقوم باحيائها بعض العشائر فتحدد المطاعم البعض الآخر لمزاحمتها واستخلاص الارض منها او لمشاركتها فيه فتندلع نار الفتنة بين الفريقين ، ثم قد تكون هنالك قارات متأصلة في بعض النفوس تتحين الفرص للاخذ بها فتهاجمها ، وتهاجم وتسلب المواشي وتهرق دماء من يقاومها وتعود الى مشاربها بعد ان تكون قد عاثت في الارض فساداً .

وهنالك الخلافات بين بعض عشائر القسم الاول « الرحل » والثاني « نصف الرحل » ، ومرد هذه الخلافات جميعها يكاد يكون منحصراً بالتطور . فقد كانت العشائر الرحل الكبيرة تفرض على العشائر المتحضرة اناوة « خوة » لقاء حمايتها من غزو الآخرين وحماية مواشيها وزروعها ، غير ان هذه العشائر بعد ان تطورت وتحضرت ودخلت

تحت حماية الحكومة والقانون امسكت عن تأدية هذه الاناوة وخلعت عنها نير استعبادها فساء ذلك العشائر الكبيرة التي ما فتئت تحن الى استعادة سلطانها عليها متى وجدت الغرة، وهو نزاع تطوري بين «التحضر» و «الدخول» في حى القانون، وبين البقاء تحت رعاية الاناوة والسيطرة البدوية القديمة .

ولا يمكن القضاء على هذه الخلافات الا باحقاق الحق وتنفيذ مواد القرارات المتعلقة بمنع الغزو والعدوان وعقاب المعتدين عقاباً صارماً سريعاً والعدول عن قاعدة (الحفر والدفن) وتبديلها بقاعدة قانونية تنفع غليل المظلومين وتقطع ايدي الظالمين . لان قاعدة الحفر والدفن ليس فيها قصاص زجري بكفى لاجتثاث الحزازات ومنع تكرار العداوات . وينبغي على العشائر المعتدى عليها في حقوق مرعى او بئر او ملكية ارض ان تلجأ الى الحكومة لا ان تستحصل حقها بقوة السلاح ، وعلى الحكومة ان تسرع بحل الخلاف في غير تردد او اطالة بال ودون ان تتأثر بالعوامل الكثيرة التي يتذرع بها بعضهم لتبرير مواقفهم . ولا يتم ذلك الا حينما يكون لدى الحكومة جنود كافية من حرس البادية واسلحة آليّة وسيارات ومصفحات وحتى طائرات تقطع نياط كل من تحدته نفسه بالشذوذ والخروج على اوامر الحكومة والمصلحة العامة . كما عملته كل الدول التي تعاورت الحزم على البادية من اقدم عهود التاريخ حتى يومنا هذا وقد بيناه في بحث التاريخ في الجزء الاول . ومن المستحسن ان نحدد لسلك عشيرة منازلها في رحلتي الصيف والشتاء وتعين الآبار والمناهل التي تستقي منها ويثبت ذلك على خريطة اصولية لا تتعدها عشيرة من العشائر الا لاسباب قاهرة كوقوع جذب في المراعي او شح في مياه المناهل ، وعندئذ تفصل الحكومة في الامر وتعين لها منطقة ترنادها مع العشيرة التي تقع تلك المنطقة ضمن مداها الحيوي ان تنفيذ التدابير الصارمة السريعة هو من صالح البدو الذين بعمي

الجهل والطيش بعضهم احياناً فيبعدهم عن محجة الصواب . ومن ثم كانت هيبة الحكم وصرامة العقاب في البوادي ضرورة حيوية للبسوا اكثر منها للحضر - كما يقول بذلك كل عاقل منهم ويطلبه - ليرتدع جهلهم عن العدوان والاذى ، وينصرفوا نحو الاستقرار و (التحضر) انصرفاً كافياً ، وليفعل الزمان وتطوره الطبيعي فعله فيهم فيخضعهم الى ما جرى على اسلافهم الذين تركوا البداوة والبقوة واستقروا واطمأنوا وعنوا بالرزق الحلال فصار قسمهم الاول ثانياً وقسمهم الثاني ثالثاً على ما بسطنا في الصحيفة ١٢٨ ،

وما يبعث السرور ان انقطاع الغزو وظهور سيارات الركب والنقل وبوار سوق الابل والخيول منذ ربع قرن وجه البدو اهل القسم الاول فضلاً عن الثاني الى الغاية التي نشدناها لهم ، وظهرت من ذلك الحين بادرة جديدة عندهم .

فشيوخ العشائر الكبيرة بعد ان كانوا ينظرون الى الزراعة واربابها بازدراء انصرفوا منذ ١٥ - ٢٠ سنة الى اقتناء الضياع والارضين من املاك الدولة وغيرها وصاروا يزاحمون بعضهم بعضاً على امتلاكها ويختلفون ويتناحرون على حدودها ، وقد تفرروا على احياء الحرب الدائرة في براري حمص وحماة والجزيرة وعلى تفجير القنوات الغائرة وشربوا يهتمون بالزراعة ويجنون ثمراتها ويتجهون الى سكى المدن والقرى وبناء الدور وغنيان بالجمعات والمنشآت ، ولا سيما ان جل هؤلاء الشيوخ عضو في المجلس النيابي يسمع خطبه ويشترك احياناً في نقاشه فيكتسب اخباراً وعلوماً جديدة تنوره وتثقفه . والمسأول ان نتقل عدوى هذه البادرة من الكبار الى من بعدهم ومن هؤلاء الى طائفتهم ، مازال الناس على دين ملوكهم .

ولو اتيح لهؤلاء الشيوخ ان يعلموا اولادهم في المدارس الراقية كما عمل بعضهم او لو فتحت لاولاد هؤلاء ومن يليهم مدارس خاصة

على طراز مدرسة العشائر التي كان السلطان عبد الحميد فتحها ، ولو
زيدت مدارس المعارف المخصصة لعاشمتهم ايضاً واتقنت ادارتها . . .
قلت لو تم هذا وسير فيه بترتيب واستمرار لتعجلت حضارة البدو
وحسنت اطوارهم ومعيشتهم وعمرت براريها الفاصدة وصاروا اعضاء
نافعين في جسم الامة العربية .

وبمناسبة البحث عن بادرة التملك واقتناء الارضين والانصراف نحو
الحرث والزرع نقول ان هذه البادرة يجب استغلالها بكل واسع والدعوة
لها لينفتح باب « التحضير » و « الاستقرار » هؤلاء البدو جلهم ان
لم يكن كلهم . على ان يكون الاستملاك والاستثمار للجميع بالعدل
والمساواة وبشكل ملكيات صغيرة ، وليس على شكل ملكيات كبيرة
يختص بها الشيوخ والرؤساء ويحرم غيرهم قيمتها الواحدة منهم الوفاء
المكثرات ويحرم الألوف من مساحة اشجار . هذا على ان يعمد الى
اقرار الاراضي الصالحة من التي ليس فيها حق او سبق وضع يد لاحد
من البدو والحضر ، فنقسم هذه الاراضي على فرق العشيرة وافخاذها
تقسيماً عادلاً تقوى فيه الملكية الصغيرة المذكورة وبهذا نجتاز بهم خطوة
مباركة نحو الحضارة والسعادة التي ينتمها لهم .

ولرب قائل يقول : اين تضع هؤلاء ، وهل في ديار الشام متسع
فنجيبه ان براريها الصالحة للحرث والزرع كافية وزائدة . فلما مننا
سهول الجزيرة الفراتية وضاف اليها البليخ والنجف والحسبور ذات التربة
الذكية والمساحات الواسعة والانهار والسدود والترع العديدة التي تقدم
الكلام عنها في بحث الجزيرة (ص ١٩ - ٢٢) تندب مجدها الدائر
حينما كانت تطعم اضعاف سكانها الحاضرين وتستغيث طالبة سواعد
قوية وهمم عالية لاستثمار خيراتها الدفينة ، وهي لو انصرفت اليها العشائر
الحاضرة برمتها واستعمرتها بجماعتها لما كفتها ولقات (هل من مزيد ؟)
ومثل ذلك يقال عن اراضي املاك الدولة في مشارق الاندلس والحجاز

وسعن وسعين وعقيريات وجب الجراح والفركلس وجبل البعاس
والجبل الابيض وحول القريتين وتدمر والرصافة وغيرها مما اكثره
الآن خواء قواء ناهيك وادي الفرات من حدود جرابلس الى
ابي كمال غير المستمر كما يجب ، لو اتاحت له وسائل الري الميكانيكية
المستعملة في العراق ومصر لاروى من المساحات اضعاف ما تستغله عشائره
الحاضرة ولاحتاج لمئات الآلاف من الانفس او الايدي العاملة فوقها .
ومن عرف جغرافية بلاد الشام ودرس استعدادها يقر بان المجال لا يزال
رحباً لاعالة جميع عشائرها الحاضرة بل لاكثر منها لو صارت الزراعة
(زراعة حقيقية) تجيد الحث والعزق والري والزرع والفرس كما ينبغي .
هذا ونحن في حضنا على (التحضير) والتعلق بالارض والحث
والزرع لا نرمي الى ترك (البداوة) بتاتاً ، ولا نوصي باهمال هذه
البادية الشاسعة التي فيها مراعيها ، ما زلنا في حاجة لاعشابها وحتى
اشواكها لتتحول عن طريق الابل والغنم الى الدفء والمنافع التي نوه بها
الكتاب الكريم .

وبهذه المناسبة لا بد من كلمة نصصح بها فكرة من يظنون ان
البداوة زائدة عن حاجة الانسان ينبغي القضاء عليها بتاتاً او الاصح
على خصيصتها الكبرى وهي (الابل) ، وحجتهم في هذا الظن ان
البدوي لا يتحضر ولا يستقر ما دام وراء ابله . ويرهنون على امكان
الاستغناء هذا بان اوربا وامريكا ذات المواشي الوفيرة ليس فيها بدو
ولا من يرحل وينتقل . . وهم ينظرون الى (التحضير) الذي ننشده
بانه توجيه البدو نحو القرى كلياً واخلاء البادية بتاتاً .

وجوابنا على ذلك ان قياس بلادنا باوربا وامريكا قياس مع الفارق ،
فساؤنا صاحبة وصيفنا طويل الامد وهو اؤنا جاف الا في الاقل وامطارنا
قليلة ومراعيها واعشابنا غثة ضئيلة في النسبة . كل ذلك على خلاف اوربا
وامريكا اللتين تهطل الامطار في اكثر اقطارها حتي في فصل الصيف

وتنزل سهولها وهضابها خضرة نضرة في اكثـر الفصول . وهي تقيت
قطعاتهم الوفيرة دونما حاجة للارتياح والابتعاد . فاين نحن منهم ، واين
هذه المنحة السهاوية من سني المحل^١ وشح الامطار التي تتوالى عندنا ؟
لهذا لا بد لنا من (البداوة) ولا بد من (بدو) و (بيوت
شعر) شريطة ان تكون هذه البداوة هادئة وديعة منصرفـة الى الخير
بعيدة عن الشر على النحو الذي نسمع بوجوده في المملكة السعودية .
ولا بد لهذه البداوة من (الابل) التي توصف بانها سفائن
البر وقوام الحياة والحركة في البر . ويخطيء من يحكم عليها
ويتمنى زوالها ما زالت لا تعبت بزرع الحضر وغرائسهم ومنشآتهم
ويخطيء اكثر من لا يفكر بعمران [البادية] وتوفير اسباب العمل
والتهل للانعام السارحة فيها ودرء شذائد العطش والجوع عنها في السنين
الشديدة ، بحكم انها من اجل ثروات البلاد وارزاق العباد .

فالابل وان دالت دولتها الى حد بعيد منذ ان شاعت سيارات
الركب والنقل ، الا ان لحما لا يزال من اخص اللحوم التي تأكلها
الطبقة الفقيرة في المدن العربية كما انها من اخص وسائل النقل في
الاسفار وتحميل الانتقال ولا سيما في رجاـد الزروع من الحقول الى البيادر
في بلاد مثل بلادنا ذات اوعار واحجار ومسالك متشعبة ومجاري مياه
او مروج ومستنقعات لا يستطيع الحركة والتجوال فيها الا (الابل) .
واما الابل التي هي روة البدوي دون عناية بامرها او التفكير بمحوها
من عالم الوجود بحجة ان الابل والتحضير لا يلتئمان غير صحيح .

فالابل ترعى عشب البادية البعيدة (الحماد) كما ترعى الغنم
عشب البادية القريبة الى (المعمورة) ، وينقلب هذا العشب الى لحم
وجلد ووبر من الابل ولحم وسمن وصوف وجلد من الغنم ، فهل يجوز
الاعراض عن هذه الثروة المنتزعة من البوادي الشاسعة وهل يسوغ
اهمالها وعدم الاستفادة منها ؟ وهل خلا عصر من اقدم عضور التاريخ

اصدح مال العشائر

١ = لما كان للبادية والعشائر حالات شاذة وحاجات خاصة تختلف عما في المدن والقرى وجب ان يكون في العاصمة (مديرية عشائر) وفي المحافظات فروع لها ملحقه بالمحافظين . من واجبهما الاختصاص بشؤون البادية ونفسية البدو ودرس حالاتهم وحاجاتهم وحركاتهم والعمل على ما فيه خيرهم وصالحهم وابداء مشورتها بذلك الى المراجع ذات الحل والربط . ومنه العناية بتمهين العشائر وتهيئة سبل هذا التحضير من تقسيم مناطق وتوزيع اراضي واتحاد قري ومساكن والحض على الاستقرار والزراعة والتعليم والتربية والصحة وما الى ذلك مما هو مذكور في المواد التالية .

٢ = توطيد الامن في البادية ومنع الغزوات والغارات منعاً باتاً ، بحيث يطمأن النازلون فيها والعاثرون على اراواحهم واموالهم اطمئناناً تاماً . ووسيلة هذا الامن اتخاذ (الصرامة) اساساً في معاملة اهل البادية وقصاص المعتدين قصاصاً عاجلاً حاسماً ومنع اعتداء الكبير على الصغير والقوي على الضعيف منهم . ولا يتم ذلك الا بتقوية سرايا الهجامة وتكثير السيارات المسفحة والخافز المحسنة في البادية وربط نقاط البادية ومفارق طرقها ومنازلها بالدوريات المتجولة وشميل رؤساء العشائر تبعه ما يحدث في مناطقهم ومن اتباعهم .

٣ — تصغير حدود البادية وتكبير حدود المعمورة التي وضعها الفرنسيون في القرار رقم ١٣٢ وابعادها الى اقصى مدى في الشرق والجنوب كي تحصل طمأنينة في نفوس القاطنين في القرى النائية والراغبين

بأعمار الحرب الدائرة والاراضي البائرة .

٤ = تجريد البدو الرحل من السلاح حين رجوعهم من نجمة الشتاء ودخولهم المعمورة . لان بقاء الاسلحة لدى هؤلاء يحفزهم الى التنازع بعضهم مع بعض او مع الحضريين وابقاد نار الفتن لادنى سبب .

٥ = تغيير القرار رقم ١٢٢ المذكور بما هو انطباق للروح القومية وتخفيف وطأة (القضاء البدوي) او (الاصول العشائري) وعدم اللجوء اليه ما لم يكن ثمة ضرورة قصوى ورفع القوارق الموجودة فيه او تخفيفها الى ادنى حد .

٦ = حل (المحاكم النظامية) و (الدوائر الادارية) التي تعرض اليها قضايا البدو على الاسراع في رؤية هذه القضايا واجتتاب الاطالة والتأجيل في الجلسات والاستعجال باصدار الاحكام وتنفيذها لا سيما في المسائل التي فيها وميض يخشى ضرامه .

٧ = تسجيل افراد العشائر في سجلات النفوس وتحميلهم تذكرة النفوس او (ورقة الهوية) ليشعروا انهم جزء من ابناء الوطن لهم ما لابنائهم وعليهم ما عليهم ، ويمكن تسهيلات الامر ان يمدحوا التذاكر بلا بدل في بادئ الامر .

٨ = حض البدو على الاستقرار والتحضر وحثهم على بناء القرى والمساكن والعمل في الزراعة وارشادهم الى منافعها وتعليمهم ما يملونه من اساليبها وتعويدهم على مساوئها .

٩ = تفويض الاراضي البائرة والحرب الدائرة من املك الدولة وتقسيمها على افرادهم بالعدل لا على مجموعهم كي لا يستبد اناس بها دون اناس ، على شريطة ان لا يتركوها مراعي وفيافي او يسلموها الى شركاء او اجراء من ابناء الحواضر بل يبنوا فيها ويستقروا وينصرفوا بانفسهم وايديهم نحو الحرث والزرع والرزق الحلال .

١٠ - منح المحتاجين منهم اعانات لشراء الادوات الزراعية والبذور

ودواب العمل وفتح قنوات الري ، واقراضهم لاجل ذلك رؤوس اموال بشروط خفيفة ، على ان تربط هذه الاعانات والقروض بكفالات قوية تؤمن انفاثها في سبيلها لا في سبيل البذخ والترف .

١١ - تزيد عدد الآبار الحديثة التي حفرتها (مصلحة الري) وتنظيف الآبار القديمة وترميم جدرانها وتسهيل سبل الامتياح منها .

١٢ - ايجاد الملاحيء الصالحة لايواء الماشية في فصل الشتاء وحفظها من الصقيع والثلج عند حدوثها ، وذلك وقاية لثروة البدو وشركائهم في الحواضر ، ومن وراء ذلك وقاية مورد كبير لخزينة الدولة .

١٣ - تأسيس مستوصفات نقالة محمولة على سيارات كبيرة يذهب بها اطباء وممرضون ويلحقون البدو الى اماكن نجعتهم في الحماوي وداوونهم ويلقحونهم ، ويعالجون البجل والجذري والتراخوما وامثالها من الامراض التي تقتكهم وبذراريهم ، ويخشى ان تنتقل بالعدوى الى الحواضر ايضاً .

١٤ - تخفيف المستنقعات في الاماكن التي يظفون فيها في المعمورة وتخليصهم من حمى الملاريا التي تصيبهم دائماً .

١٥ - ايجاد معلمين يتنقلون مع العشائر ضمن الشروط التي ذكرناها في بحث (المعارف في البادية)

١٦ - فتح مدرسة داخلية في تدمر لابناء رؤساء العشائر ووجعائها للاسباب والمنافع التي ذكرناها في بحث المعارف .

١٧ - ايجاد وعاظ وخطباء من اهل الحمية الدينية والعقيدة الصحيحة لارشاد البدو الى ما يحولونه من العبادات والمعاملات ويدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

القرار رقم ١٣٢ ل ٢٠

الصادر في شأن ادارة العشائر ومحاكمهم

كانت المفوضية الفرنسية العليا في بلاد الشام اصدت في سنين مختلفة عدة قرارات بشأن ادارة البدو وعقوبات الغزو والغزاة ، ثم بدلتها كلها ودجمتها في قرار واحد رقمه ١٣٢ وتاريخه - ٤ حزيران ١٩٤٠ رأينا درجه هنا اتماماً لموضوعات كتابنا وتاريخاً لشكل الحكم ومبلغ الاهتمام اللذين كانت تقوم بهما المفوضية المذكورة في حق اهل البادية وقد انشقت في العهد الوطني صلاحيات المفوضية المذكورة المندرجة في هذا القرار الى (وزارة الداخلية السورية) وصلاحيات (دائرة مراقبة البدو الفرنسية) الى (مديرية العشائر) ، ونرجو ان يصدر في هذا العهد الوطني قرار في هذا الموضوع اكمل وادعى لدرء المفسدة وجلب المنفعة وحفظ الكرامة القومية .

- الفصل الاول - احكام عامة -

- المادة ١ - يتألف قانون العشائر الرحل في سوريا من احكام هذا القرار .
- المادة ٢ - يعتبر رحلاً في سوريا بالمعنى المقصود من هذا القرار .
- ١ (الافراد التابعون للعشائر المعينة في الملحق رقم ١ من هذا القرار .
- ٢ (الافراد التابعون لعناصر جميع العشائر التي لم تذكر في هذه القائمة ، وذلك في كل مدة اقامتها في منطقة الرحل كما هي محددة في المادة ٣ ادناه .

المادة ٣ - تتألف منطقة الرحل بمقتضى احكام هذا القرار من الاراضي الواقعة شرقي منطقة « المعمورة » ، يعين الخط الفاصل بين

منطقة الرحل والمعمورة بالتخوم المحدودة في الملحق رقم ٢ من هذا القرار ، يدخل في منطقة المعمورة المزروعات القائمة في مختلف الاماكن المذكورة كتخوم لهذه المنطقة .

المادة ٤ - يعتبر نصف حضر بالمعنى المقصود في هذا القرار العشار المذكورة في الملحق ٣ من هذا القرار .

المادة ٥ - ان مجرد قيد احد الافراد التابعين لعشيرة من عشار الرحل او نصف الحضر في سجل الاحوال الشخصية لا يفقده مطلقاً صفة الرحل ولا صفة نصف الحضري .

المادة ٦ - يخضع الرحل مبدئياً لقواعد العرف من حيث علاقاتهم فيما بينهم ولقواعد الحق العادي من حيث علاقاتهم مع الحضريين او نصف الحضريين . يطبق المبدأ المذكور اعلاه ضمن الشروط والتحفظات الناتجة عن احكام هذا القرار .

المادة ٧ - ان القضايا المتعلقة بالرحل التي لا تطبق عليها احكام الحق العادي بيت فيها كما يلي حسب نوع كل قضية منها : اولا - اذا كانت خاضعة للعرف فصل فيها رؤساء العشار تحت اشراف ضباط مراقبة البدو ، ثانيا - اذا كانت خاضعة لاحكام خاصة فصل فيها المفوض السامي ومندوبوه او المندوبون المعاونون عاملين عند الاقتضاء بمعاونة الحكومة السورية والسلطات الادارية الصلاحية ، يؤازر المفوض السامي في تطبيق هذا القرار لجنة تدعى لجنة الرحل ويعين المفوض السامي كل سنة اعضاء هذه اللجنة ،

المادة ٨ - ان القضايا التي لا تطبق عليها احكام الحق العادي بمقتضى هذا القرار لأنها خاضعة للعرف او لأنها من صلاحية السلطة العليا او لجنة تحكيم لا يحوز في اي حال من الاحوال حالتها الى المحاكم العادية . اذا رفعت الى المحاكم العادية دعوى من هذه الدعاوي وجب على هذه المحاكم ان تقرر في الحال عدم صلاحيتها . وحالا

بعد صدور القرار بعدم الصلاحية تحول اضية الدعوى الى السلطة ذات الصلاحية ، تسترجع في الحال مذكرات التوقيف الصادرة بحق المتهم او الظنين اذا لم تكن قد نفذت عند صدور القرار بعدم الصلاحية . اذا كان المتهم او الظنين موقوفاً نقل بهمة الدرك الى مركز ضابط مراقبة وسلم اليه

(الفصل الثاني - في القضايا العائدة للرجل)

- القسم الاول - في قضايا الرجل بعضهم مع بعض -

المادة ٩ - ان الجنائيات او الجنح التي تقع بين الرجل يفصل فيها حسب قواعد العرف تحت سلطة الشيوخ واشراف ضباط مراقبة البدو . اما الاعتراضات على الاحكام الصادرة فينظر فيها مندوب المفوض السامي وهو يبت فيها في الدرجة الاخيرة وبدون مراجعة .

المادة ١٠ - يمكن الحكم على مرتكبي الجنائيات المقررة بحق الافراد وعلى شركائهم او المتداخلين فيها بالسجن من سنة الى خمس سنوات عدا العقوبات التي قد تفرض بمقتضى العرف . يصدر الحكم من المفوض السامي بناء على اقتراح مندوبه لدى الحكومة السورية . يحق للمفوض السامي ان يمنح عفواً عن كامل العقوبة او عن جزء منها .

- القسم الثاني - في القضايا بين الرجل والحضر -

المادة ١١ - تخضع الجنائيات او الجنح المرتكبة بين الرجل والحضر او نصف الحضر للحق العادي

المادة ١٢ على انه يجوز بناء على طلب من القدور البت في الجنائيات او الجنح المرتكبة بين الرجل ونصف الحضر وفقاً للعرف ضمن الشروط المنصوص عليها في المادة التاسعة اعلاه . يبلغ المندوب او المندوب المعاون هذا الطلب الى مدعي طام المنطقة ذات الشأن ، وهذا المدعي العام يتخذ بلا اتمهال التدابير اللازمة لاستصدار قرار من المحكمة العادية بعدم صلاحيتها وفقاً للمادة ٨ اعلاه .

القسم الثالث - في بعض الجنح الخاصة
 المادة ١٢ - ما عدا الجنح المنصوص عليها في العرف تعتبر جنحة
 بمقتضى نص هذا القرار :
 ١ - التزوير واستعمال التزوير في الاستدعاءات الاجالية ٢٠ - التقاضي
 بالقوة من الرحل او نصف الحضر او الحضر « الخوة » او « المنحة »
 او اية فريضة اخرى مزعومة قديمة من اي نوع كانت ٣ - تقاضي
 رسوم عن الورد من الآبار العائدة للدولة .
 المادة ١٤ - تعاقب الجنح المذكورة في المادة السابقة بالعقوبات
 التالية :

١ - فيما يتعلق بالفقرة الاولى تعاقب بجزاء نقدي من ٥٠ الى ١٠٠
 ليرة سورية وبالسجن من خمسة عشر يوماً الى ثلاثة اشهر او باحدى
 هاتين العقوبتين فقط ٢٠ - فيما يتعلق بالفقرة الثانية والفقرة الثالثة
 تعاقب بجزاء نقدي من ٥٠ الى ٢٠٠ ليرة سورية مع استرداد المبالغ
 المستوفاة بغير الحق . يصدر الحكم من المفوض النامي بناءً على اقتراح
 مندوبه لدى الحكومة السورية وبعد اخذ رأي لجنة الرحل .
 القسم الرابع - في النزو

المادة ١٥ - يعدل غزواً ويعاقب كغزو كل سرقة او نهب يقوم
 به في الصحراء عدة اشخاص مسلحين مجتمعين تابعين لعشائر رحل
 ضد عشائر اخرى رحل او نصف حضر .
 المادة ١٦ - ان الجنايات او الجنح التي يرتكبها الرحل في انفسها
 النزو تظل خاضعة للقواعد العامة المنبئة في هذا القرار .
 المادة ١٧ - ان التابعين للقبائل نصيب الحضر اذا اشتركوا في غزوها
 بصفة شركاء او متداخلين يعتبرون رحلاً من حيث قمع الغزو ويقعون
 بهذه الصفة تحت طائلة عقوبات العرف وكذلك تحت طائلة العقوبات
 الخاصة المفروضة في هذا القرار .

المادة ١٨ - ان الاشخاص الخضر يبين الذين يشتركون في غزو بصفة شركاء او متداخلين يطلون تحت طائلة عقوبات الحق العادي ، يحق للسلطة التي ترفع اليها لدعوى في بادي الامر - اي ضابط مراقبة البدو او مدعي عام المنظم - ان تقرر التمييز بين المتهمين الرحل والمتهمين الخضر وان تلاحق القضية في الامر الذي يتعلق بصلاحياتها وان تحولها للسلطة ذات الصلاحية لملاحقتها فيما زاد عن ذلك .

المادة ١٩ - ان المرتكبين او شركائهم او المتدخلين في الغزو التابعين لقبائل رحل او نصف خضر يقعون تحت طائلة العقوبات التالية او تحت طائلة عقوبة او اكثر من هذه العقوبات ولا يمنع ذلك تطبيق عقوبات العرف ، وكذلك تطبيق العقوبات التي يتعرضون لها بسبب الجنائيات او الجفح التي ترتكب بمناسبة الغزو :

١ - رد المسلوبات ٢ - مصادرة الاسلحة والذخائر والمطايا وبصورة عامة جميع المعدات التي استعملت في اثنا الغزو ٣ - غرامة نقدية او غرامة من اسلحة حربية او غرامة من دراهم واسلحة حربية معاً واقصى غرامة تطبق تكون ضعفي المسلوبات المسترجعة . ٤ - السجن من شهرين الى سنتين .

المادة ٢٠ - يصدر المفوض السامي الحكم ببناء على اقتراح المندوب لدى الحكومة السورية وبعد اخذ رأي لجنة الرحل ، يجب على اللجنة في كل مرة ان ترسل رأيها معلاً وان تتخذ الآراء باكثرية الاصوات يحق للمفوض السامي ان يمنح العفو عن جزء من العقوبة او عنها بكاملها

المادة ٢١ - المطايا والسيارات والمعدات المصادرة بمقتضى المادة ١١ اعلاه تباع بالمزاد العلني ويدفع حاصل البيع بمحاملته لصندوق الغرامات ، لصالح الشيء المصادره او لمؤجره الحق التام في ان يقيم اية دعوى قضائية كانت على رئيس العشيرة المتهمه بالغزو .

المادة ٢٢ - اذا لم يتم التنفيذ في المهل المعينة في الحكم الصادر بحق

لمندوب المفوض السامي بعد مصادقة المفوض السامي أن يقرر حجز القطعان وأن يشرع ببيعها ضمن الشروط المنصوص عليها في النبعة الأولى من المادة السابقة .

- القسم الخامس - في لجان التحكيم -

المادة ٢٣ - جميع النزاعات التي تتولد بين ارجل والحضر او نصف الحضر بشأن اعمال الداب والتهب التي يرتكبها احد هذين الفريقين تكون من صلاحية المحاكم العادية .

يجب بصورة اجبارية ان يؤخذ رأي ضابط من ضباط مراقبة البدو او ضابط الدوائر الخاصة في المنطقة في جميع المسائل سواء كان الامر يتعلق بتسوية حبية او بتحكيم وسواء اكان ذلك في اثناء التخصيمات التي يقوم بها الفريقان نفسها او محكموهم او خبراء معينون من قبل السلطة القضائية .

المادة ٢٤ - بالرغم من احكام العادة السابقة يحق للمغدور سواء اكان الامر يتعلق بسرقة او نهب او تخريب مهما كان ان يرفع طلبه المتعلق باسترداد الاموال المسروقة او باصلاح الضرر المسبب الى لجنة تحكيم المادة ٢٥ - يرسل الطلب اما الى المدير او قائممقام المنطقة واما الى ضابط الدوائر الخاصة او ضابط مراقبة البدو، وفي هذين الحالتين الاخيرين يحول الضابط الذي ترفع اليه القضية الطلب بدون امهال الى القائم مقام ليجتمع لجنة التحكيم في الحال .

المادة ٢٦ - يجب ان يشمل حكماً طلب التحكيم الاعتراف بصلاحية اللجنة دون سواها وبقرارها الهائي . يجب على القائم مقام في الوقت نفسه الذي يدعو فيه اللجنة للاجتماع ان يبلغ الطلب الى مدعي علم المنطقة ذات الشأن . وهذا المدعي العام يتخذ بدون امهال التدابير اللازمة لاستصدار قرار من المحكمة العادية بعدم صلاحيتها وفقاً للمادة ١٨ اعلاه .

المادة ٢٧ - تؤلف لجنة التحكيم كما يلي :

قائم مقام المنطقة التي ارتكب الضرر فيها رئيساً، رئيس عشيرة من عشائر الرحل او فخذ من عشيرة رحل غير العشيرة التي ينتمي اليها المدعون او المدعي عليهم . ويجب ان تكون العشيرة او الفخذ من اقرب العشائر الى القرية الاقرب الى المحل الذي ارتكب فيه الضرر ، مختار القرية الاقرب الى محل الضرر . يشترك عدا ذلك في مذكرات اللجنة ويكون لها صوت استشاري : ضابط الدوائر الخاصة وضابط مراقبة البدو او احد هذين العاطلين ، وجيه ينتخب بالاتفاق بين الفريقين او في عدم الاتفاق ينتخبه رئيس اللجنة بصفة خبير .

المادة ٢٨ - يعين في الدعوات المرسلة الى المتداعيين مهلة كافية ليتمكنوا من الحضور امام اللجنة او ارسا من يمثلهم امامها في الوقت المناسب اذا لم يحضر المدعي امام اللجنة او لم يرسل من يمثله في اليوم المعين في الدعوى فجرد ذلك يعني حكماً تركه كل حق في التعويض ما لم يبرز عدم حضوره او تمثيله بظروف قاهرة .

المادة ٢٩ - تصدر اللجنة حكماً باكثرية الاصوات وثبت باصلاح الضرر وبالاسترداد والتعويضات المقدم بها الطلب . ولما ايضاً ان تقترح اذا رأت ذلك مفيداً عقوبات اضافية وان تقترح انما اقتضى الامر سجن المجرمين ، وفي هذه الحالة الاخيرة يعين مدة السجن المفوض السامي بعد اخذ رأي لجنة الرحل اذا كان الامر يتعلق باحد الرحل وبعد اخذ رأي مندوب المفوض السامي اذا كان الامر يتعلق بحضري او نصف حضري .

تكون عقوبة السجن من شهر الى ثلاث سنوات .

المادة ٣٠ - تعين في حكم اللجنة شروط تنفيذه وبوقعه من صوت له من اعضائها . يكون الحكم غير قابل المراجعة ويصبح نافذاً حالاً بعد مصادقة المحافظ عليه ويكون له قوة الحكم الصادر عن محكمة عادية .
- القسم السادس - في العلاقات مع الدول المجاورة -

المادة ٣١ - ثبت في النزاعات التي تقع بين عشائر رحل سورية وعشائر رحل موضوعة تحت مراقبة الدول المجاورة وفقاً لاتفاقات معقودة او تعقد بين سورية والدولة ذات الشأن .

المادة ٣٢ - كل شخص تابع لبلد عقدت معه سورية بهذا الشأن اتفاقاً على قاعدة التعامل بالمثل لحقه ضرر ما في الاراضي السورية يحق له ان يطالب بتطبيق احكام المادة ٢٤ والمواد التي تليها فيما يتعلق بالبت بطريقة التحكيم في النزاعات بين الرحل والحضر او نصف الحضر وتتبع القاعدة نفسها بشأن الرحل الذين يلحق بهم ضرراً في الاراضي السورية حضريون او نصف حضريين او رحل تابعون لدولة مجاورة عقدت معها سورية بهذا الشأن اتفاقاً على التعامل بالمثل .

المادة ٣٣ - كل تابع من الرحل للحكومة السورية يرتكب في خارج الاراضي السورية جريمة يعاقب عليها القانون السوري يمكن ملاحقته ومحاكمته في سورية . كل تابع من الرحل للحكومة السورية يرتكب في خارج الاراضي السورية امراً يعتبر جنحة في القانون السوري يمكن ملاحقته ومحاكمته في سورية اذا كانت قوانين البلد الذي ارتكب فيها ذلك تعاقب عليه . ويكون الامر كذلك اذا كان المتهم قد حصل على التبعة السورية بحق الجوار والتجائه الى قبيلة سورية (دخيل) بعد ارتكابه الجريمة او الجنحة .

على انه سواء اكان الامر يتعلق بجناية او جنحة فلا تجري اية ملاحقة بحق المتهم اذا اثبت انه حوكم محاكمة نهائية او عفي عنه في الخارج . واذا كان قد حكم عليه فعليه ان يثبت ان العقوبة قد نفذت فيه او انها اسقطت بمرور الزمن او انه نال عفواً عنها . اذا ارتكبت جنحة بحق احد السوريين او الاجانب فلا تجري الملاحقة الا بناء على شكوى من الفريق المتضرر او على شكوى رسمية تقدمها الى السلطة السورية سلطة البلد الذي ارتكبت فيه الجنحة . لا تجري اية

ملاحظة قبل رجوع المتهم الى سورية .

الفصل الثالث - في احكام تتعاقب بتنظيم العشائر

ونظام مراقبة السلاح وبعض تدخلات السلطات العمومية بشأن الرجل

القسم - الاول في رؤساء العشائر

المادة ٣٤ - يعين رئيس كل عشيرة من عشائر الرجل بقرار من

المفوض السامي .

يمكن عزل رئيس العشيرة لاحد الاسباب التالية :

١ - الاعمال التي شأنها الاخلال بالامن العام

٢ - رفض الموضوع الاختياري وبصورة مكررة للقوانين والانظمة

النافذة .

٣ - اعمال العنف المتكررة التي تؤدي الى طلب عزله من قبل

جميع اعضاء العشيرة .

يقرر المفوض السامي عزل رئيس العشيرة بعد تحقيق دقيق بناء

على اقتراح معمل من مندوب المفوض السامي لدى الحكومة السورية .

كل طلب يقصد منه الحصول على عزل رئيس عشيرة مسند الى ادعاءات

غير صحيحة او الى اعمال ليست هي من الخطورة بما كان يقع صاحبه

تحت طائلة جزاء نقدي من ٢٥ الى ١٠٠ ليرة سورية والسجن من

٥ ايام الى شهر او احدي هاتين العقوبتين فقط . يصدر المفوض

السامي قراراً بهذا الشأن بناء على اقتراح المندوب لدى الحكومة

السورية .

القسم الثاني - في حيازة الاسلحة وحماها

المادة ٣٥ - ان الرجل الذين يتنقلون منفردين او عشائر في منطقة

من مناطق الرجل يرخص لهم في ان يظلوا مسلحين بدون ان يجبروا

على الحصول على رخصة حمل السلاح . وعند وصولهم الى المعصورة

يجب عليهم ان يخضروا لتزج سلاحهم عند ضابط مراقبة البدو او

معاونيه المرخص لهم ترخيصاً رسمياً بذلك . لا يجوز للرجل ان يقيموا في المعمورة الا بشرط خضوعهم للقوانين والانظمة النافذة بشأن حيازة الاسلحة وحملها . يرخص مبدئياً للرجل المقيمين في الاراضي المزروعة الداخلة في منطقة الرجل في ان يظلوا مسلحين . على انه يجب عليهم ان يعملوا بمقتضى الاحكام الخاصة التي يمكن تقريرها بأمر اداري من مندوب المفوض السامي او مندوبيه معاونيه . ولا يجوز لهم بأي حال ما عدا في حال حصولهم على رخصة مهيأة بصورة قانونية لهذه الغاية ان يظلوا مسلحين في الاماكن الآهلة التي هي مراكز لمنطقة ادارية (المحافظات والاقضية والنواحي) وان تكن هذه الاماكن في منطقة الرجل . اذا كان من بلدية في هذه الاماكن الآهلة فتكون حدودها حدود منطقة بلديتها .

القسم الثالث - في الاوراق القضائية العائدة للرجل

المادة ٣٦ - تبلغ للرجل بواسطة الدرك الاوراق القضائية العائدة لهم . فاذا لم يكن بوسع الدرك ان يؤمن تبليغها حولها الى ضابط مراقبة البدو المكلف بالاشراف على القبيلة التي ينتمي اليها الشخص المبلغ . وعندئذ يقوم ضابط مراقبة البدو بالتبليغ اما بهيمته واما بهيمة رئيس العشيرة ويرسل وصل التبليغ بالتلويخ نفسه الى السلطة المبانة . يلفت ضباط مراقبة البدو نظر قواد وحدات الدرك الى الاحوال التي يطلب منهم بصورة غير قانونية مساعدتهم لتأمين اتصال التبليغات .

المادة ٣٧ - يجب في الاوراق القضائية المتعلقة بالرجل ان يذكر بصورة جلية وبأكبر ما يمكن من الدقة جميع المعلومات عن اسم المرسل اليه والقبيلة المنتسبي اليها . يجب ان تصل مذكرات الجلب او الحضور الى مختبر الدرك المكلف تبليغها الى ضابط مراقبة البدو قبل شهر على الاقل من التاريخ المعين للدعوة او الحضور .

المادة ٣٨ - يجوز ان يدهي ضابط مراقبة البدو ضمن الشروط

نفسها المذكورة اعلاه لتقديم مساعدتهم في سبيل تنفيذ مختلف المذكرات او القرارات القضائية التي يقصد منها القاء القبض على شخص تابع لعشيرة من عشائر الرحل . فاذا اوقف شخص مطلوب مدله ضابط مراقبة البدو مع المذكرة او قرار المحكمة لاول مخفر درك او شرطة .

المادة ٣٩ - يمكن بصورة استثنائية تماماً ان يدعى ضابط مراقبة البدو لتقديم مساعدتهم في تبليغ الاوراق القضائية او تنفيذ المذكرات القضائية العائدة لحضريين او نصف حضريين مقيمين في منطقة الرحل . يجب ان يرسل لهم الطلب كتابة وان يذكر فيه بصورة صريحة ان الشخص المبلغ المذكورة ليس من عاتقه ان يأتي بصورة منتظمة الى منطقة الحضر وانه لا يمكن مادياً تأمين التبليغ او التنفيذ بالوسائل العادية .

القسم الرابع - في الاوامر بالسجن .

المادة ٤٠ - يكون للاحكام الصادرة من المفوض السامي تطبيقاً لهذا القرار جميع مفاعيل الاحكام القضائية وتكون قابلة للتنفيذ في الحال . يترتب على ضباط مراقبة البدو القيام بالبحث والتحقيق في الدواوى وتنفيذ الاحكام . المندوبين والمندوبين المعاونين الصفة اللازمة لتوقيف المتهمين الموقت او سجن المحكمين . وهم أنفسهم يعطون الاوامر بالسجن او يفوضون لهذه الغاية ضباط الدوائر الخاصة او ضباط مراقبة البدو .

القسم الخامس - في الضرائب والتهرب .

المادة الرابعة - يخضع الرحل فيما يتعلق بالضرائب الاميرية للقوانين والانظمة النافذة .

اما الاحكام الخاصة المتعلقة باستيفاء ضريبة الاغنام فتقررها قبل ابتداء كل موسم ادارة الواردات بعد الاتفاق مع دائره مراقبة البدو . يجوز لدائرة مراقبة البدو ان تتدخل في سبيل جباية الرسم بناء على طلب صريح من مديرية المالية .

المادة ٤٢ - يخضع الرحل فيما يتعلق بالتهريب ولا سيما بتهريب

الملح للقوانين والانظمة السافذة . يعطى علم بالحجوز التي تجري الى دائرة مراقبة البدو ويجب ان يؤخذ رأي هذه الدائرة قبل اتخاذ قرار بشأن تعيين العقوبات وكذلك بشأن تعيين طرق تنفيذ هذه العقوبات .

القسم السادس - في الاعانات

المادة ٤٣ - يجوز اعطاء اعانات لرؤساء العشائر الرحل المعيّنين بقرار من المفوض السامي . تعين مبلغ هذه الاعانات كل سنة الحكومة السورية بعد الاتفاق مع مندوب المفوض السامي لدى الحكومة السورية وتدفع هذه الاعانات مشاهرة .
المادة ٤٤ - يمكن اجراء محسومات من الاعانات لاستيفاء ديون للخزينة او للأفراد .

لا يجوز ان تتجاوز المحسومات لاستيفاء الديون المعدلات التالية :
الخمس من القسم الاول البالغ ٣٣٠ ليرة سورية من الاعانة السنوية ومن جميع المبالغ التي دونه ، الربع من القسم الثاني الكائن بين ٣٣٠ ليرة سورية و ١٠٠٠ ل . س
الثالث من القسم الثالث الذي يزيد عن ١٠٠٠ ليرة سورية مهما بلغ ، يحق بصورة استثنائية للمندوب لدى الحكومة السورية ان يرخس في حسم مبالغ تزيد عن المعدلات السابقة . يحق دائماً للمديون ان يدفع ما عليه من الدين بصورة اسرع اذا فصل ذلك .

المادة ٤٥ - يجب حتماً ان تحسم من الاعانة الديون العائدة للخزينة . على الامر بصرف الاعانات ان يمسك سجلاً خاصاً للاعانات الممنوحة لرؤساء العشائر ويفتح في هذا السجل حساباً خاصاً للمحسومات الواجب اجراؤها في كل حساب مع ذكر نوع المحسومات وبيان الحوالات والاورامر بالدفع العائدة لها . اذا كان نزاع على مبدأ الدين او مبالغه فلا يجوز اجراء الحسم الا بعد موافقة مندوب المفوض السامي لدى الحكومة السورية .

المادة ٤٦ - يجري الحسم لاستيفاء ديون الافراد بناء على اعتراض او حجب احتياطي . تجري الاعتراضات او الحجوز الاحتياطية بين يدي مندوب المفوض السامي لدى الحكومة السورية ، وهذا المندوب يرى اذا كان من الواجب تحويلها الى الدائرة التي تأمر بصرف الاعانات .
المادة ٤٧ - يجوز ان يؤخذ من الاعانات محسومات موقوتة او نهائية كلية او جزئية بصفة عقوبة عن اعمال من شأنها الاخلال بالامن . يفرض المفوض السامي هذه المحسومات بناء على اقتراح المندوب لدى الحكومة السورية او المندوبين المعاونين .

المادة ٤٨ - يجوز وقف الاعانات بجملة او وقف جزء منها عن رئيس عشيرة لا يقوم بمساعدة كافية في تحقيق ضريبة الاغنام وجبايتها عن قطعان عشيرته . يتخذ هذا القرار مجلس الوزراء بعد الاتفاق مع مندوب المفوض السامي لدى الحكومة السورية ويذكر فيه صريحاً المبلغ الواجب دفعه . تلغى الاعانة عن كل رئيس عشيرة يجعل محل اقامته في اراض اجنبية مع جملة عشيرته او مع قسم منها في اثناء التعداد وجباية ضريبة الاغنام ، في هذه الحالة تلغى الاعانات ابتداء من يوم رحيله بمرسوم يتخذ في مجلس الوزراء وبعد الانساق مع مندوب المفوض السامي وعند رجوعه يتخذ مرسوم جديد ضمن الشكل نفسه يقر فيه اما اعادة الاعانة بكاملها او اعادة جزء منها وامتناعها نهائياً .

القسم السابع

في الاراضي المنقوحة للرحل من املاك الدولة
المادة ٤٩ تعين في نظام خاص المناطق التي يجوز ان يتمتع فيها اراض من املاك الدولة خارج المعمورة وكذلك زيادة الاراضي المنقوحة الموجودة الآن خارج المعمورة . لا تمنح اية ارض من املاك الدولة للرحل بدون ان يستشار في الامر مسبقاً ضباط مراتبة الرحل

وهؤلاء الضباط يعطون رأيهم عن ملاءمة منح الاراضي واذا كان رأيهم بالايحاب اعطوا رأيهم ايضاً بشأن عدد الاشخاص الذين يستفيدون من الاراضي الممنوحة وعن مواردهم وعن المساحة التي يمكنهم احيائها. يجب في تقدير موارد الاشخاص الذين يستمذحون الاراضي ان تحسب المبالغ النقدية التي يتناولون وجودها لديهم والادوات الزراعية والبذار وكذلك الضمانات التي يمكنهم تقديمها للحصول على قرض من المصرف الزراعي .

المادة ٥٠ - اذا منحت الارض قامت دائرة املاك الدولة بتحديدها تحديداً موقتاً . وبعد انقضاء مدة سنتين من هذا التحديد الاولي تحدد ثانية تحديداً نهائياً يقتصر على الاراضي التي احيائها بالفعل الاشخاص الممنوحة لهم .

المادة ٥١ - لا يمكن منح ارض بصورة نهائية الا ضمن الشروط التالية :

- ١ - لا تمنح الارض الا في منطقة جولان العسيرة التي يكون الطالبون منتمين اليها ٢ - لا يمكن ان تشمل الاراضي الممنوحة على قطع جرى من قبل استعمالها بصورة قانونية ٣ - يجب ان يجري احياء الارض الممنوحة بواسطة عمالة اكثرهم من البدو .
- ٤ - نقط المياه سواء اكانت آباراً او د خبات ، او اقنية قديمة او غير ذلك لا يجوز منحها مهما كانت الحاجة المتذرع بها بل يجب ان ان تبقى لاستعمال اي كان . اذا كانت الارض الممنوحة قريبة من ماء وجب ان تحفظ بمنطقة قياس نصف قطرها كيلومتراً حول الماء وكذلك يحتفظ بمنفذ الى الماء بعرض كيلومترين . يحدد موقع هذا الممر بهمة دائرة مراقبة البدو بناء على طلب من دائرة املاك الدولة اما الآبار التي يفتحها ذوو الشأن أنفسهم فيمكن ادخلها رغم الاحكام

السابقة في الارض الممنوحة بدون اي قيد يتعلق بمنطقة المياه المذكورة اعلاه والمنفذ اليها .

المادة ٥٢ - تبت لجنة مؤلفة كما يلي في كل نزاع يتولد من اضرار سببها القطعان في غير المعمورة في مزارع الاراضي الممنوحة: ضابط مراقبة البدو رئيساً ، رئيسان من رؤساء عشائر او افخاذ عشائر غير العشائر او الافخاذ السقي يكون المدعون والمدعى عليهم منتمين اليها .

المادة ٥٣ - يوضع هذا القرار موضع التنفيذ بتاريخ ٤ حزيران سنة ١٩٤٠

المادة ٥٤ - تلغى جميع الاحكام السابقة المخالفة لهذا القرار .
المادة ٥٥ - امين السر العام في المفوضية العليا مكلف بتنفيذ هذا القرار .

بيروت في ٤ حزيران سنة ١٩٤٠

المفوض السامي

الامضاء : بيو

« ملحق رقم ١ »

— قائمة العشائر الرحل —

الروالة وتوابعها ، الاشاجعة ، السوالمية ، العبد الله ، الولد علي ،
اليدبور ، الاحسنة ، السبعة البطيئات ، الاسبعة الاعبدة ، الفدعان
الولد ، الفدعان الخرصه وولد سليمان ، شمر الزور ، شمر خرصه ، بني
خالد ، الفواعرة ، الحديدون (الكومة ، الغناطسة ، الجملان ،
البوحسن) الموالي (الشماليين والقبليين) العمور ، البوخيس ،
اللوب ، الكييار ، الوهب ما عدا فخذ الشياذ ، الغياث ، النعير ،
النجاد ، الصليب ، الحسن ، المساعيد ، الشرقات ، العضيمات ، الشنبله ، السردية

• • •

« ملحق رقم ٢ »

الخط الفاصل بين المنطقة المعمورة والمنطقة الرحل

- ١ - من الحدود التركية الى مسكنة القديمة
- نقطة الابداء : كولتبه (٦٠ كيلو متراً شرقي خراباس
على الحدود)
- خط الآبار المشتمل على : بير حيش ، مرتي كوي ، يدي كوي
- نهر الكيبو ، بير كوله ، كيتي وادي تل تورلا ، قنطرة
- طريق كيرد الى حباله ، سرج - ماراً بالنقطة ٨٨٢)
- طريق سرج الى عبدا ، حفيان ، بوجاك ، الفرات
- مجرى الفرات (الضفة اليسرى حتى مسكنة القديمة)
٢ - مسكنة القديمة ، خناصر ، اندرين ، سعن وسعين
- مسكنة القديمة ، الطابق الشرقية الغربية التي يمر على مسافة

كيلو مترين جنوبي تل فضة حتى التقائها بالوادي الذي يصب في جبل الغول على بعد ٤ كيلو مترات شرقي الحمرا .

- من هذه النقطة : الوادي الشمالي القبلي حتى التقائه مع الوادي الآتي من عين زبيد

- طريق عين زبيد الى خناصر مارا بتل الزبيد وعازو كارومينوتش

- طريق خناصر الى رحله وعيطه

- عيطه الى ابو خرايج

- طريق ابو خرايج الى الافدين (على مسافة ١٠ كيلومترات)

الى قصر ابن وردان

- قصر ابن وردان الى سروجه عند افتراقه من الشمال الغربي

الى الجنوب الشرقي حتى سعن وسعين

٣ - من سعن وسعين الى عقيربات

- طريق المركبات التي تمر بقرى العمياء وماش العلباوي وجنا

العلباوي وتل علباوي وفايا وعقيربات .

٤ - من عقيربات الى جب الجراح

- طريق المركبات من عقيربات الى سوحة ، طريق الابل التي

تربى من سوحة الى جب الجراح مارة في زغيلة توينة ومسعدة وجب الجراح ،

٥ - من جب الجراح الى فرقلس

- طريق المركبات التي تتخلها قرى جب الجراح ومكسر الحصان

وام الصهريج وهبرة الشرقية وهبرة الغربية .

- طريق الابل حتى مرتفعات جبل الشومرية الجنوبية مارة بعلامة

جبل الشومرية والمهائم وام التيمور والصوانية والحرات ومرقعات جبل

الشومرية الجنوبية وفرقلس .

٦ - من فرقلس الى الغنث وحوارين ومهين

- طريق المركبات التي تمر في هذه النقاط ،

٧ - من مهبين الى عدرا بملاحات جيروود عدرا
- طريق الابل من مهبين مارة شرقي مهبين الى علامة خان الابيض
- خان الجلال -
- الحدود الشرقية لملاحات جيروود . الرأس الجنوبي لملاحات جيروود
- وادي ضمير حد التقائه بطريق عدرا ، ضمير على بعد ٥ كيلومترات
غربي ضمير ، طريق عدرا .

٨ - من عدرا الى حدود جبل الدروز عن طريق المسمية
- طريق عدرا ، ميدعة حتى قبالة الضفة الشمالية لبحيرة العتيبة
- ضفتا بحيرة العتيبة الشرقية والجنوبية الى الكفرين
- طريق الكفرين ، جديدة الخصاص ، بيطارية .
- طريق الابل من البيطارية الى بلاى - بويضان - المسمية
والحدود السورية الدرزية .

٩ - حدود سورية - شرقي الاردن
الحد الفاصل بين منطقة الرحل والمعمورة هو خط الحدود .

.....
.....
.....

« ملحق رقم ٣ »
قائمة العشائر نصف الخضر

منطقة دمشق : حرب ، الصياد ، الجلالان ، النعيم ، الفضل ،
السلوط .

منطقة حلب : نعيم ، حصن ، وحماء ، البشامك ، الخراشين ، التركي
العتيبيات (ابو سيف ، ابو هرموش ، ابو صلف ، الدهشامشة ،
بو سرايا ، بو سلامة) طوقان ، رعية ، مشاوفة ، رعية ، ابني عز رعية

منطقة حلب : النعيم ، البويل ، السهاطية ، فرقة السيد من
 عشيرة الوهب ، العقيدات البوشيخ ، المشاهدة ، الولدة ، بقارة
 منطقة دير الزور : العقيدات والبوسرايا ، بقارة الزور ، البوشعبان
 العفادلة ، السيخة ، اليوعساف ، البوسبيح ، الولدة .
 منطقة الحسجة : بقارة بومعش ، ملي ، محمود بك ، طي ، الجبور ، الشرايين .

« ملحق رقم (٤) »

— قائمة ضباط مراقبة البدو مع ذكر العشائر الموضوعة تحت اشراف
 كل منهم —

منطقة دمشق : ضابط مقيم في تدمر
 عشيرة الرولة وتوابعها : الاشاجعة ، السوالة ، العبد الله ، ولد علي
 البدور ، السبعة بطينات ، الحسنة ، العمور ، (الجرباء ، الملحم ،
 الخرسان ، ابو حربة ، سعد الديرة ، الغيات ، النعير ، النجاد) الصليب
 منطقة الدير : ضابط مقيم في الدير
 الفسدان ولد ، الفسدان الخرصه وولد سليمان ، عمور الجراح -
 السبعة عيدة ،

منطقة الحسجة : ضابط مقيم في الحسجة

شمر الزور ، شمر الخرصه
 منطقة حلب : ضابط مقيم في معرة النعمان
 الحديدين (الكومة ، الفناطسة ، الجملان ، البوحسن) الموالي
 (الشاليين ، القليلين) ابو خميس ، الالهيب ، الغيسار ، الوهب ما
 عدا فخذ السيد ، العمور المهارشة

منطقة سامية : ضابط من الدوائر الخاصة مقيم في سلمية

الفواعرة ، بني خالد

وتعود اليه مراقبة العشائر النصف حضر التالية :

المقيادات (الدغامشة ، البوسف ، البوسلامية ، البوهرموش ،
البوعصاف ، البوسرايا ، البوشعبان ، البوبكير) التركي ، الخراشين ،
بني عز الرعية ، البشاكم ، المشارفة الرعية ، نعيم حمص وحماة ،
السماطية ، طوقان الرعية

منطقة جبل الدروز : ضابط مراقبة البدو مقيم في السويداء
الحسن ، الشرافات ، العضيئات ، المساعيد ، الشنابلة ، السردية

* * *

الفهرست

رقم الصفحة	
٣	التمهيد
١١	مكتبة البدو : ما أُلّف عن البدو
١٦	جغرافية ديار البدو : الشامية ٢٢ الزور ٢٣ المناظر ٢٤ الشنبغل
	٢٥ الدو ٢٦ الوديان ٢٦ القعرة ٢٦ الحماد ٢٧ حرة الراجل ٢٧ وادي
	السرхан ٢٨ الاقليم ٣٠ النجمة ٣٣ قصيدة الامير عبد القادر الجزائري
	٣٥ الحيوان والنبات ٣٨ التضاريس والجبال ٣٩ المياه في البادية ٤٨ منطقة
	الآبار ٤٨ اسماء الآبار ٤٩ منطقة الحماد والخبرات ٥١ منطقة الوديان ٥٦
	الارصفة والقصور والحصون والسدود ٥٩ الطرق المعبدة وانايب النفط ٦٦
٦٩	تاريخ البدو : اقسام القبائل القحطانية والعدنانية ٧٢ هجرات العرب ٧٨
	بدو الجزيرة الاولون ٨١ بدو الشامية الاولون ٨٣
	القبائل في صدر الاسلام ٨٥ احداث البدو في العهد الاموي ٨٦
	احداث البدو في العهد العباسي ٨٨ في عهد سيف الدولة بن حمدان
	٩٠ في عهد المماليك ٩٢ اهل امراء الموالي ٩٢ تاريخ الامير عيسى
	بن مهنا ١٠٠ تاريخ الامير مهنا الثاني بن عيسى ١٠٢ الحياريون ١٠٤
	تاريخ امراء الموالي الاخير ١٠٨ قصة الامير عساف مع والي حلب
	١١٢ قصة الامير ملحم ١١٤ حفلة الطرق من الاسر الاقطاعية ١١٦
	محمي عزرة ١١٧ اسكان العشائر ١٢٠ اعلان باشا ١٢١ عهد الملك
	فيصل ١٢٢ عهد الفرنسيين ١٢٣
١٢٥	اوصاف البدو . — اوصافهم البدنية والروحية ١٢٥ النجمة وانواعها
	١٢٧ اقسام البدو ، اهل الابل ١٢٨ اهل الغنم ١٣٢ اهل الفلاحة ١٣٥

١٣٦ الحالات الاجتماعية عند البدو . - وفود العرب على كسرى ١٣٦ الرجل
في أهله ١٣٨ اسباب التنافر بين البدو ١٤١ تأثير المناخ في البدو ١٤٥
العصبية العربية قبل الاسلام ١٤٩ مناقب العرب في الجاهلية ١٥٤
التأثر عند العرب وصفته الدينية ١٥٦ قول ابن خلدون في حق البدو
١٦٢ قول كلوت بك ١٦٤ قول عباس الغزاوي ١٦٨ قول انستاس الكرملي
١٧٠ قول أديب وهبة ١٧٣ قول حافظ وهبة ١٧٤ قول
خير الدين الزركلي ١٧٦.

١٩٣ رأي الفرنسيين في البدو : قول المقدم مولر ١٧٨ قول كاتب افرنسي
آخر ١٧٩ قول الرئيس رينو والطبيب مارتين ١٨٠.
التقاليد والعادات عند البدو : التكوين الاجتماعي عند البدو ١٩٣
النسب عند العرب ١٩٥ العشيرة وتأليفها ٢٠٠ العصبية العشائرية ٢٠٢
الطبقات في العشيرة ٢٤٠ المشيخة وشروطها ٢٠٥ الانفصال أو تبديل
التابعة ٢١٣ الصداقة بين العشائر ٢١٤ الحرب بين العشائر ٢١٥
بيوت البدو ٢١٧ داخل البيت ٢٢٣ حلال البدو أو منازلهم ٢٢٤
لباس رجال البدو ٢٢٦ لباس النساء ٢٢٩ حالة المرأة في البادية ٢٣٠
صحة البدو ٢٣٥ الزواج ٢٣٨ الطلاق ٢٤٠ الخطف ٢٤٢ الخطف
الجبري ٢٤٣ الخطف بالرضا ٢٤٣ العرس ٢٤٧.

٢٤٨ قضاء الوقت واللهو عند البدو ٢٤٨ شرب القهوة عند البدو ٢٥٠
طعام البدو ٢٥٢ قري الضيف ٢٥٩ اسلحة البدو ١٦١ الرحيل ٢٦١
٢٦٥ اعمال البدو : الصناعة ، الزراعة ٢٦٥ الرعي ٢٦٦ الغنم ٢٦٦ الخيل
٢٦٧ الابل ٢٧٠ الصيد ٢٧٥ التجارة ٢٧٧ الغزو ٢٧٧ حقوق البزاة
٢٨٦ التضامن البدوي ٢٨٧.

٢٨٩ القضاء عند البدو ، التشريع البدوي ٢٨٩ المحاكمات الحقوقية لدى
البدو ٢٩٣ انتخاب القاضي ٢٩٥ القضية ٢٩٦ الرزقة ٢٩٦ اسماء

العوارف المشهورين ٢٩٧ الكفلاء ٢٩٨ الشهود في الدعوى ٢٩٩
الحكم ٢٩٩ الخلف والقسم ٣٠٠ البيع ٣٠٢ الشفعة ٣٠٣ الميراث
٣٠٤ الوثاقة ٣٠٥ الحشم ٣٠٦ البشعة ٣٠٦ .

٣٠٧ الحقوق الجزائية لدى البدو : الانتقام في البادية ٣٠٧ الرزقة ٣٠٨
انواع الجنائيات؛ القتل ٣٠٩ الصلح بين الافراد ٣١٢ تقسيم دفع الدية
واستيفائها ٣١٦ جريمة المرأة ٣١٦ الجرح وتعطيل العضو ٣١٧ الدخالة
٣١٨ الصلح بين العشائر ٣١٨ التمويض والحفر والدفن ٣٢١ السرقة
٣٢٢ التجاوز على رفيق الطريق ٣٢٣ التجاوز على الضيف ٣٢٤
حقوق الطنيب ٣٢٥ التجاوز على الناصي ٣٢٦ احكام الزنا الحبري
٣٢٦ الزنا بالرضا ٣٢٧ خطف النساء والبنات ٣٢٨ قطع الجيرة ٣٣٣

٣٢٨ جرثم الجنح عند البدو

٣٣٤ الخوة

٣٣٧ المعارف عند البدو

٣٤١ الدين عند البدو

٣٤٤ الشعر عند البدو

٣٦٠ تحضير البدو

٣٦٩ اصلاح حال العشائر القوار رقم ١٣٢

المصادر التي روجعت بالاضافة الى المذكور منها في بحث
« مكتبة البدو » المندرج في الصحيفة ١١ من هذا الجزء

تاريخ الادب العربي لحسن الزيات
تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان
كتاب لمحة عامة الى مصر لكوت بك
تعريب محمد مسعود

رحلة في البادية لاسكندريوسف الحايك
البناني

قصص العرب لمحمد ابي الفضل ابراهيم
ايام العرب في الجاهلية لمحمد جاد المولى
ورفيقيه

العرب وأطوارهم لمحمد عبد الجواد
الاصمعي

الحياة الادبية في جزيرة العرب لطله
حسين

(كتب تركية)

قاموس الاعلام لشمس الدين سامي
جهان نما لسكاتب چلبلي

(كتب افرنسية)

مجلة الدراسات الشرقية الفرنسية
وصف بلاد العرب لنيبوهز الدانماركي

معجم البلدان لياقوت الحموي
كتاب المحاسن والمساوي لليبرقي
المخلص لابن سيده
مجلة لغة العرب للاب انستاس الكرملي

مجلة المقتطف

المجلة القضائية الاردنية

مجلة المشرق

المعامة (دائرة المعارف) الاسلامية

جولة أثرية في بعض البلاد الشامية

المنهل الصافي لابن تغري بردي

البداية والنهاية لاسماعيل بن

كثير الدمشقي

خطط المقرئ

تاريخ حيدر الشهابي

خلاصة الاثر في اعيان القرن

الحادي عشر للمجدي

تاريخ حلب لسكامل الغزي

سالنامه ولاية حلب لعام ١٢٨٧

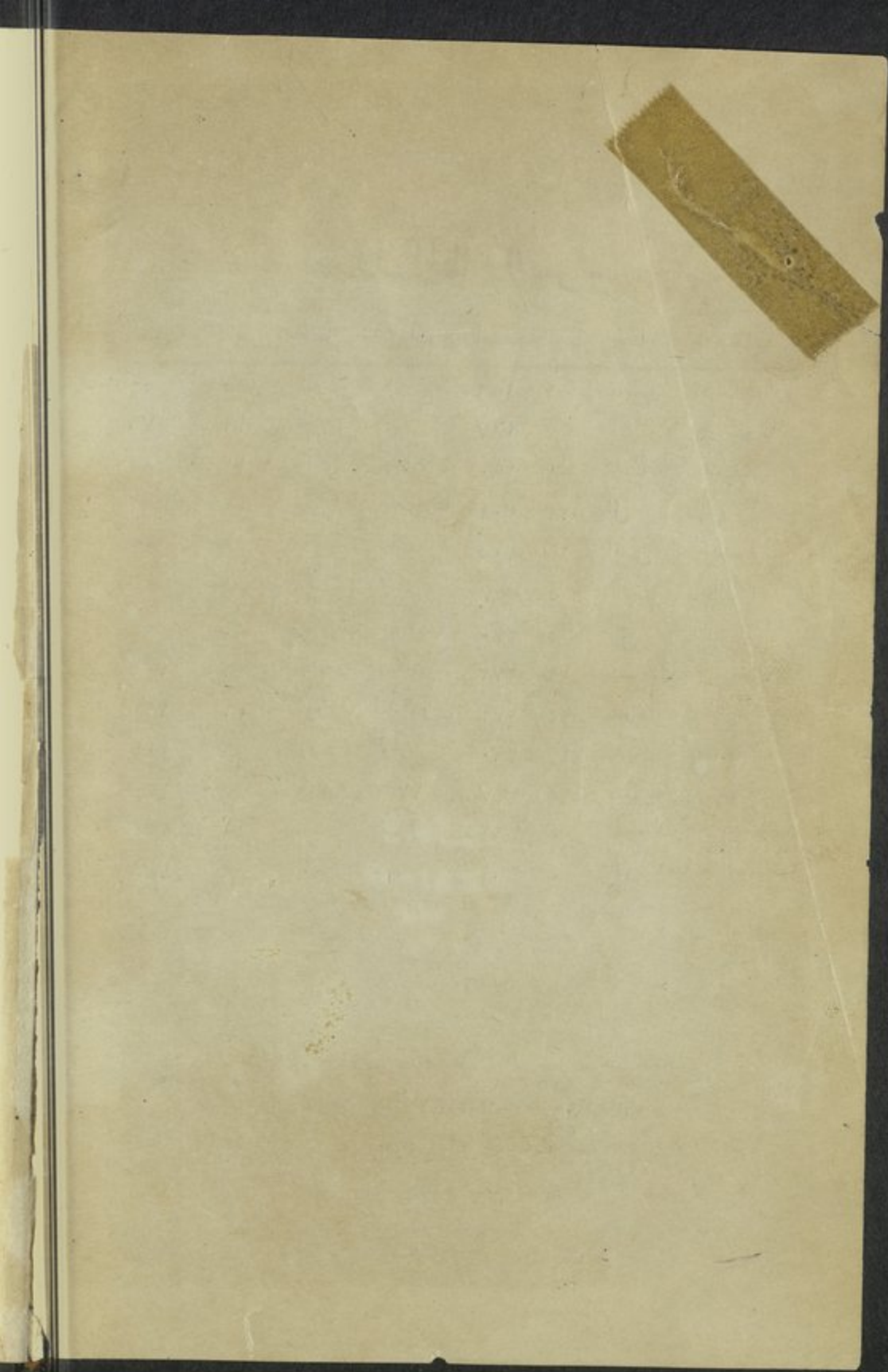
سالنامه ولاية دمشق لعام ١٢٩٨

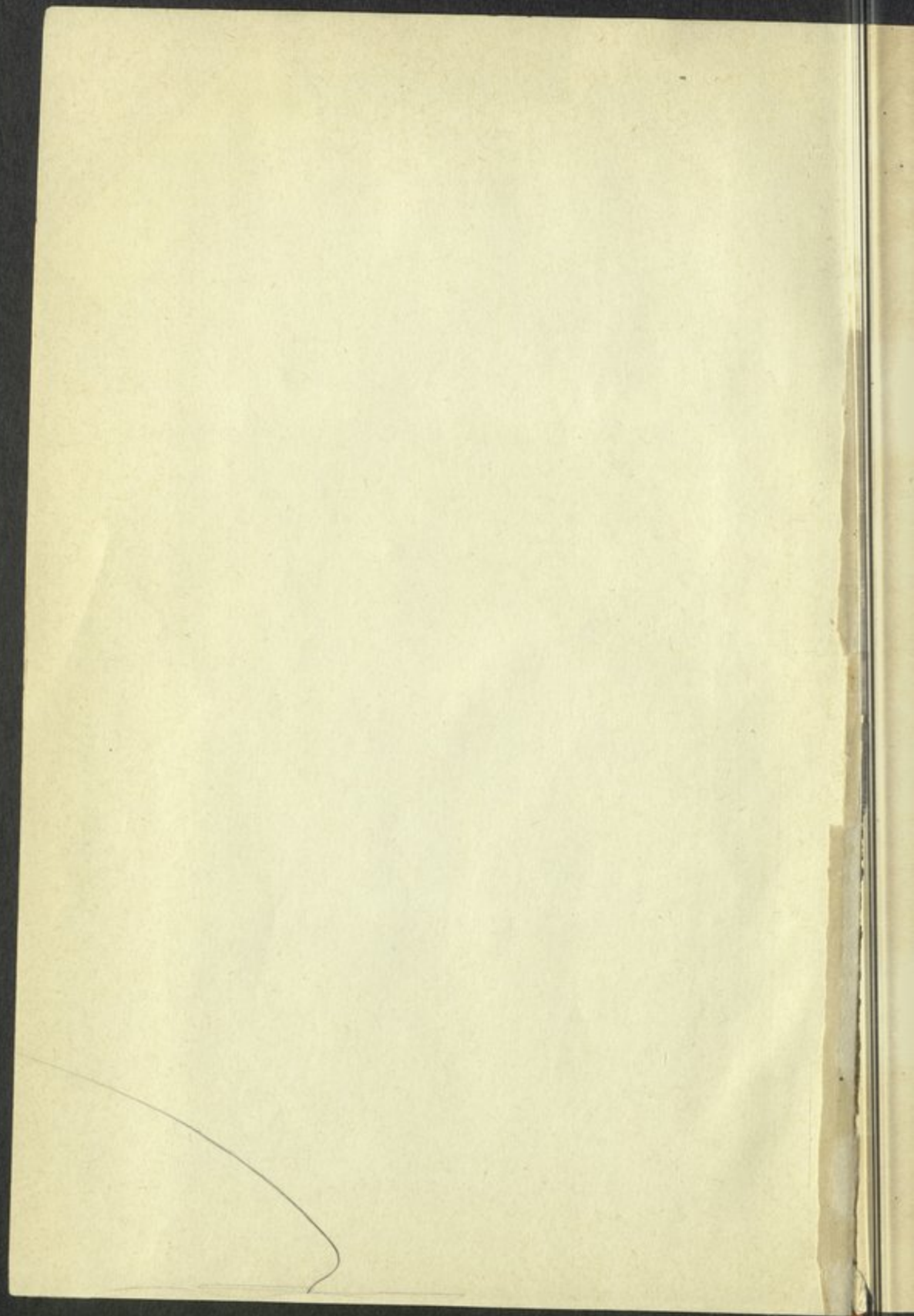
تاريخ الامم الاسلامية لمحمد الخصري

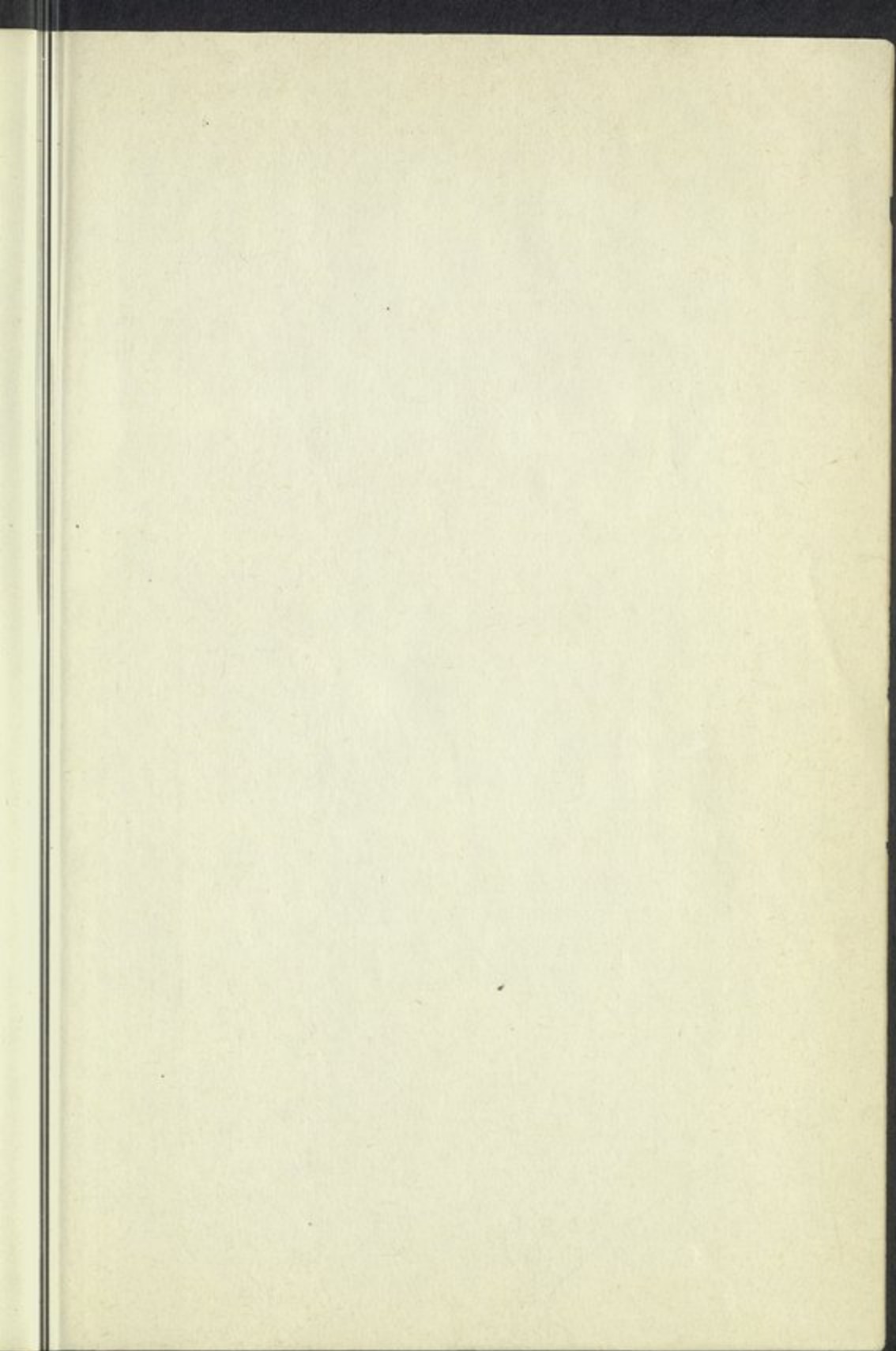
جدول الخطأ والصواب

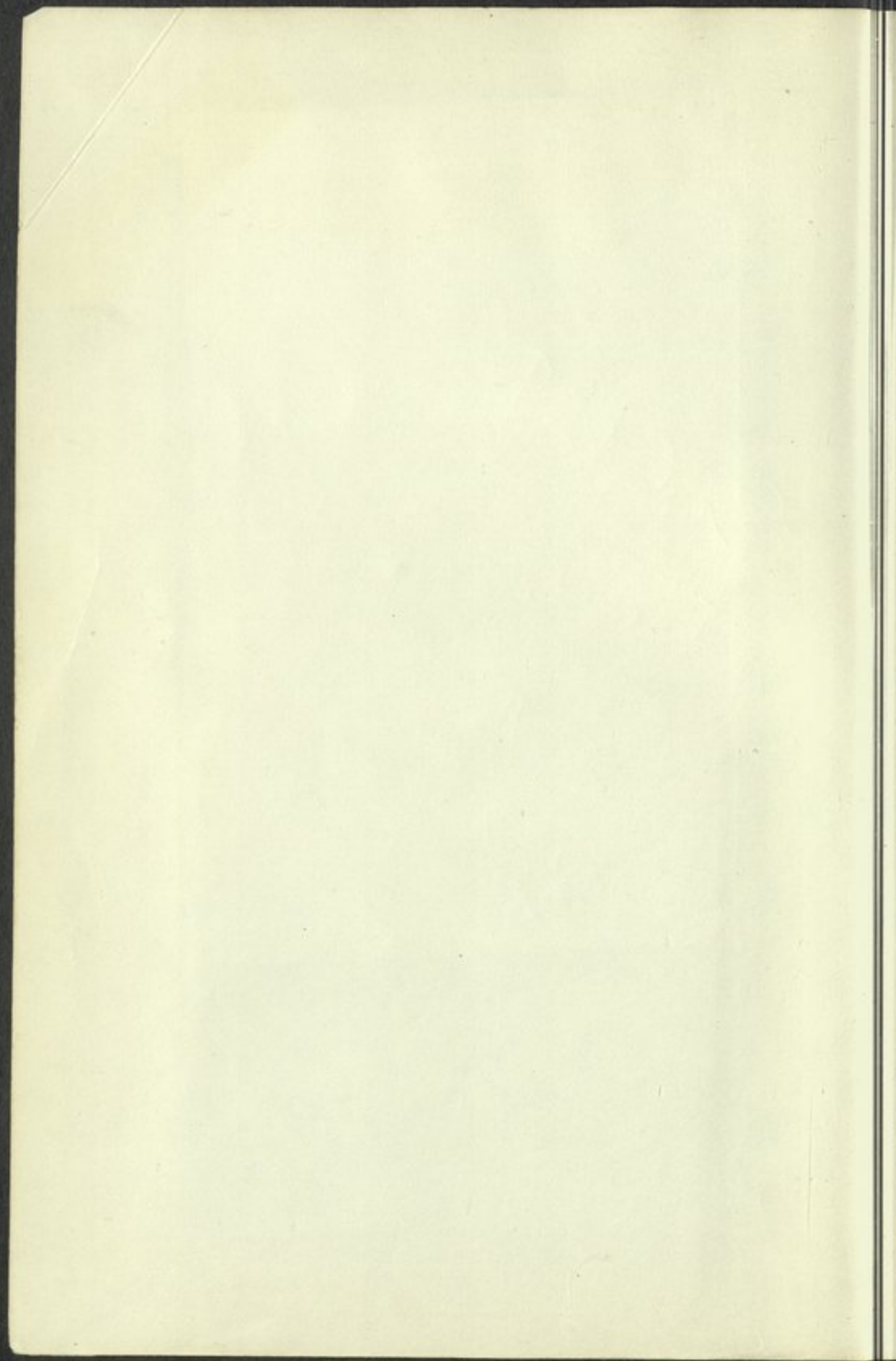
الصفحة	السطر	خطأ	صواب	الصفحة	السطر	خطأ	صواب
٥٤	٨٥٥	البرغو	البرقع	١٥٦	١	تعظيم و	تعظيم الجوارو
٧٦	١٩	تميم	تيم	١٨٧	٧	يركبوها	يركبونها
٨٥	١١	وأبائي	وأبدي	١٩٠	١	تزينياً	تزينياً
٩١	١٦	وأمرأها	وأمرأها	٢٠١	٢٢	الى	في
٩٢	٤	والقيو	والقيود	٢٠٥	١٣	اقعس	اقعس
٩٤	١	النقا	النكا	٢٥٧	٥	فاليقها	فاليقها
٩٤	١٥	يرهقونها	يرهقونها	٢٧٠	•	يقي	يقي
١٠١	٧	اعقابها	اعقابهم	٢٧٢	٢٢	نصنعون	نصنعون
١١٠	١٦	المذكورون	المذكورين	٢٧٢	٢٤	غيرها	غيرها
١١١	٦	الورع	الوازع	٢٩٠	١٤	تحكم	تحكم
١٢٠	٥	١١١٢	١١٢٢	٣٤٧	١٥	مشوة	مشوة
١٢٤	١١	بتاناً	باتاً	٣٩١	٤	البوسف	البوسف
١٤٧	٩	تأيم	تأيم	٣٩١	٤	البوسلامية	البوسلامية

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني الباحث عن انساب
كل من العشائر المتبدية والمتحضرة وأوصافها
وأخبارها في كل محافظة وقضاء
من بلاد الشام الشمالية





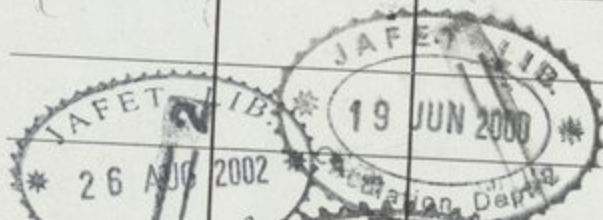




SAFETY

DATE DUE

39

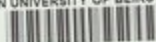


956.9:Z21aA:v.1:c.1

زكريا، احمد وصفي

عشائر الشام

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01055701

956.9
Z21aA
v.1

